إجازة صيفية مع الفنانين جو وإدوارد هوبر

فريق متميزون
E-BOOK

بقايا يوم صيفي

كريستين دوير هيكي

ترجمة: هند عادل

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

بقايا يوم صيفي

(إجازة صيفية مع الفنانين چو وإدوارد هوبر)

كريستين دوير هيكي

ترجمة: هند عادل

عن الرواية..

«إدوارد هوبر»، الرسَّام الأمريكي الشهير الذي هرب من حياة المدينة إلى الشاطئ البعيد في «كيب كود» بولاية «ماساتشوستس» لكي يحاول أن يرسم ويخرج طاقته الفنية من جديد، ومعه «جو»، زوجته، تغار منه وعليه، دائمًا تعيش داخل قوقعتها التي ملأتها باليأس من عدم قدرتها على التأقلم معه.

يقابلا «كاثرين»، عمة «ريتشي»، المرأة الجميلة التي كتب لها القدر حياة أليمة يملؤها المرض، المرأة الحالمة التي تجذب انتباه «إدوارد»، وتلهمه، فينجذب إليها أكثر، وتغار زوجته عليه أكثر وأكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نذير الحرب

1

توقف الولد عند نهاية السلم، فجذبته المرأة بقوةٍ أكبر؛ قاوم الولد وثنى ركبتيه ليزيد من ثقله، انتظرت المرأة لحظةً ثم استدارت له:

- ماذا؟ ما الأمر الآن؟ ما المشكلة؟

وهي تستدير، احتكت سَلَّتها بساق الولد العارية فجرحته، سال خطٌ أحمر على جلده وتحركت ساقه قليلًا، لكن الولد لم يتوجع، نظر إلى ساقه وإلى السلة ثم إلى المرأة، بعدها مال جانبًا وترك حقيبته تسقط من يده، ثم بدأ بالشكوى:

- لن أذهب.

- لن تذهب؟ ماذا تعني بأنك لن تذهب؟

- لا أحب.

- لا تحب ماذا؟ ما الذي لا تحبه الآن؟

إنها ليست أول مرة يقفان في هذا المكان ليتجادلا حول الموضوع نفسه.

المرة السابقة، كانت في الصيف قبل الماضي عام 1948. وقتها أدارت ظهرها له لتشتري التذاكر، فاندفع يركض مبتعدًا تاركًا حقيبته البنية اللامعة واقعة على الأرض في محطة "جراند سنترال"، إنها الحقيبة التي اشتراها له "هاري"، لم يستطع الابتعاد كثيرًا؛ فهو لم يفكر في الخروج من المحطة، وكان يخاف من المصاعد والسلالم المتحركة وكل شيءٍ يتحرك به وينقله إلى وجهة لا يعرفها ولا يراها. فاختلط بحشود الناس وأخذ يسير من جانبٍ إلى آخر. أبلغت الشرطة باختفائه، فأعادوه إليها على الفور حيث كانت تنتظر تحت ساعة المحطة ذات الأربعة أوجه.

سألها الشرطي:

- هل أنتِ والدته؟

أومأت بالإيجاب فقط، لأنها لم تستطع البدء مجددًا بالاعتذارات، خاصةً وهي تبكي.

أخرجت انفعالها كله وقتها؛ ضربت الفتى على خده، كانت المرة الأولى والوحيدة التي تفعل فيها هذا، ثم مزقت التذاكر ورمتها في وجهه وهي تصرخ في الولد أمام رجل الشرطة:

- هل أنت راضٍ الآن؟ هل أنت سعيد؟ هل هذا ما تريده؟ لقد أخذت اليوم إجازة من العمل على وجه الخصوص لأوصلك إلى بوسطن بالقطار وأعود وحدي، استأذنت يومًا كاملًا من العمل.. وهكذا تعاملني! حسنًا، فلتغلي من الحر طوال الصيف في الشقة، دع الحرارة تسويك كقطعة لحم، هل تسمعني؟ اذهب!

لم يتحرك الصبي، لم يرفع يده ليضعها على وجهه مكان الضربة، بدت عليه نظرة عابسة فقط، لا خجل ولا ندم ولا ضيق شديد؛ ظل واقفًا مكانه ينظر إليها بتركيز، وكأنه يريد رؤية ما يدور بعقلها.

ها هما الآن مجددًا في الموقف نفسه بعد عامين، وقد صار الفتى بعمر العشر سنوات، معه الحقيبة نفسها التي اشتراها له "هاري"، لكنها أصبحت باهتة وبالية قليلًا بسبب جرها عدة مرات لإدخالها

تحت السرير وإخراجها، كانت مثل خزانة سرية يضع فيها مجلاته الهزلية وبعض الورق، والرب وحده يعلم الأشياء الغريبة الأخرى التي كان يخفيها فيها.
هذه المرة لن تخاطر، لقد اشترت التذاكر في استراحة الغداء بالأمس. وهناك حارس يعرفه "هاري" في القطار، إنه يعمل في خط "نيو هيفن"، ووعدها بالانتباه له لكيلا يفكر في النزول خلسة في المحطة التالية، قامت بكل الترتيبات؛ ستجعله يركب القطار وتأخذ رقم المقطورة، وعندما يتحرك القطار ستتصل بـ"هاري" الذي سيتصل بالسيدة "كابلان" ليخبرها أن الأمور سارت على ما يرام، عندما يتوقف القطار في بوسطن، ستركب السيدة "كابلان" وستواصل معه الطريق إلى "كيب كود".
بعد رحلة القطار، سيركبان حافلة صغيرة ثم سيارة، بعد ذلك سيجدان حولهما البحر والشاطئ وسيقابلان "ريتشي" حفيد السيدة "كابلان".
لقد تعبَت من إخبار الولد بكل هذا؛ الحافلة.. السيارة.. البحر.. الشاطئ.. الحفيد "ريتشي". وهناك كلبٌ أيضًا، لقد تعِبَت من التحضير لكل هذا ليأتي الولد ويهدم كل خططها.
لكنه وعد "هاري" وأقسم له بأنه لن يسيء التصرف هذه المرة، لقد بدا صادقًا في وعده، مزح "هاري" بخصوص هروبه وإحضاره على يد شرطي، قال إن الأمر أذيع في الراديو وكل أهالي نيويورك سمعوا بالحادثة. ابتسم الولد حين قال "هاري" هذا، يصبح ولدًا وسيمًا عندما يبتسم، العامان الماضيان غيَّراه كثيرًا؛ تحسن مستواه في الدراسة، وصار ينظر للآخرين في أثناء الحديث، وإذا استطعت استدراجه للكلام، سيتحدث مثل أي طفل أمريكي طبيعي، كما زاد اهتمامه بما حوله، ظلت تخبره طويلًا: "حبيبي، يجب أن تهتم بالحياة أكثر".
كانت واثقة من أنه سيحسن التصرف هذه المرة، قالت ذلك منذ بضعة أيام لـ"هاري" الذي غمز لها وهو يحلق ذقنه أمام المرآة.. كانت واثقة تمامًا.
وضعت السلة بجانب الحقيبة وقالت:
- سألتك سؤالًا.
تجاهلها الولد.
- ما مشكلتك؟ أجبني من فضلك.
لم ينطق الولد بكلمة، بدأت تحدثه بهدوءٍ ورويَّة، لكنها سرعان ما صبت غضبها عليه وعنفته بسبب المتاعب التي سببها طوال العامين الماضيين. كانت تضطر لاستئجار جليسة أطفال. نعم، كانت تدفع مالًا لكي تستأجر امرأة تجالسه حتى تستطيع هي الذهاب إلى العمل، بينما يجلس هو في الشقة يلعب ألعابه السخيفة ويقص صورًا من المجلات، عنفته بسبب السيدة "كابلان" التي كانت كريمة بما يكفي لتمنحه فرصةً ثانية بعد المتاعب التي سببها قبل عامين، يعلم الرب ما كان يمكن أن يحدث له الآن لولا هذه السيدة.. ربما كان ميتًا في أحد شوارع أوروبا، قد تكون سيدة "كابلان" هي من وضع في عقل الرئيس "ترومان" فكرة إنقاذ كل هؤلاء الأيتام. عنفته على كل ما تذكرته، على الطعام الذي يسرقه من المطبخ وكأنها لا تطعمه أو لن تقدم له الطعام لو طلب منها، وعلى تجوله في المبنى في منتصف الليل وإخافته الجيران، وعلى كل الأكاذيب التي تنساب من فمه بسلاسة.. كلها أكاذيب غير منطقية! إنه يكذب على مدرسيه وزملائه وبائع البقالة وعلى كل إنسان يسمعه.
أرادت التوقف لالتقاط أنفاسها والتفكير في كلماتها، لكن الكلمات اندفعت من فمها بلا حساب ونزلت على الولد كالرصاص. لا، لن تمزق التذاكر مثل المرة السابقة، إن كان هذا ما يأمل. سوف يركب

القطار وسوف تعود إلى العمل، سيركب ذلك القطار ويطيعها، بينما تقف هي على رصيف المحطة وتراقب القطار وهو يبتعد ويختفي آخر السكة.
تمتم الولد:
- لا أحب ذلك، لا أريده.
- وأنا لا أهتم! هل تسمعني؟ لا يهمني ما تحبه وما تكره، أو ما تريده وما ترفضه.. هل تفهم؟ لقد اكتفيت مما تحبه ولا تحبه ومما تريده ولا تريده. أتعلم شيئًا؟ أنا متعبة، لأنك أبقيتني مستيقظة طوال الليل بسبب ذهابك المستمر إلى الحمام وفتح وإطفاء النور في الممر، لقد تعبت و...
أخفض الولد رأسه ثم ابتلع ريقه وقال أخيرًا:
- أرجوكِ يا خالتي، أرجوكِ.
أدارت ظهرها، راقبت حشود الناس وهم يتداخلون ويندمجون ليصبحوا كتلة بشرية كبيرة متحركة، منهم من يمسك بمظلة أو يرتدي قبعة أو يحمل حقيبة يد أو حقيبة سفر. للمرة الأولى لاحظت عدد الجنود الذين يتحركون بين الناس، وكأن الحرب التي في أوروبا ما زالت دائرة، لكنَّ الموظفين بدوا مختلفين إلى حدٍ ما؛ بدوا أصغر وأكثر يقظة، عندها تذكرت أنهم انتقلوا إلى منطقة حربٍ جديدةٍ، وهي الآن تنظر إلى رجالٍ جدد. وضعت يدها في جيب معطفها وأخرجت منديلًا تنظف به أنفها ثم أعادته إلى جيبها مجددًا، رفعت رأسها ونظرت إلى السقف الدائري والنوافذ المقوسة التي تسرب منها ضوء النهار هاربًا من المطر، فتحول لونها فضيًّا، تذكرت كنيسة من أيام طفولتها، لم تتذكر اسمها لكنها تذكرت قداسًا حضرته فيها، كانت واقفة بين أبيها وأمها، شعرت فجأة بالخجل من نفسها لتوبيخها للولد، ولإرساله بعيدًا رغمًا عن إرادته، ولسخريتها منه ومن ألعابه الخيالية التي يمارسها حين يذهب إلى هناك. إنه ما زال طفلًا قبل كل شيء، وكما يقول "هاري": "يعلم الرب ما الذي شهده هذا الولد في حياته".
عادت للولد وحدثته برفق:
- اسمع، أعرف أنك ولدٌ مطيع.. أنا متأكدة من هذا، لكن الوضع صعب.. ليس فقط عليك، بل عليَّ أيضًا، أحاول حل الأمور، صدقني. أنت تحتاج إلى إجازة، وكذلك أنا.. هل تفهمني؟ سنتأقلم مع بعضنا أفضل حين تعود، سنبدأ من جديد؛ بيت جديد، مدرسة جديدة، و.. حياة جديدة. نعم، يمكنك أن تقول هذا.
- لكنني لن أعرف مكان الشقة أو شكلها، لن أعرف شيئًا.
- بمجرد أن يجد "هاري" واحدة، سأكتب لك عنها.
- وماذا عن المدرسة؟ كيف سأجدها؟ سأبدأ الدراسة متأخرًا عن الجميع، وسينظرون إليَّ بصفتي الطالب الجديد.
- لا أحد يهتم، هناك أولاد آخرون يبدؤون في نهاية أكتوبر، أما أنت ستبدأ في نهاية سبتمبر، وقد لا تضطر حتى لتغيير المدرسة.. هذا إذا وجد "هاري" شقةً قريبة.
ظل الولد يحرك رأسه كعادته، وكأنها منفصلة عن رقبته، تمنت لو يتوقف عن فعل هذه الحركة.
قالت:
- اسمع، إن أردت.. يمكنني فعل ما كان يفترض بي فعله في المرة الماضية، وهو أن أذهب معك إلى بوسطن ثم تركب معك سيدة "كابلان" وأنزل أنا لأعود، سيكلفني هذا مالًا أكثر وسيسبب لي متاعب في العمل، لكنني سأفعله إن كان ما تريده.

قال الولد:
- لا بأس.
قالها بخفوتٍ شديد، لم تعرف أنه قالها إلا لأنها قرأت الكلمات على شفتيه وهما تتحركان، قالت له:
- إنها بضعة أسابيع لا أكثر يا حبيبي، ستمر بسرعة دون أن تلاحظ. سيكون لديك صديقًا تلعب معه، وهناك كلب، لا تنسَ الكلب. لا أعرف فصيلته لكنني متأكدة من أنه جميل، أنت ولدٌ محظوظ، يجب أن تعرف ذلك، سيكون لديك بيت كبير بحديقة، وشاطئ تلعب عليه، وبحر تعوم فيه، وهواء طلق.. تخيل كل هذا الهواء النقي!
- لا أحب الهواء النقي، ولا أحب الفتى الآخر، ولا أحب الشاطئ.
- أنت حتى لا تعرف الفتى! كما أنك لم تذهب إلى الشاطئ أبدًا.
قال الولد بغضب:
- قال "هاري" إنه سيأخذني إلى شاطئ "كوني آيلاند"، لكنه لم يفعل أبدًا.
- سيفعل، سيأخذك ما دام قد وعدك، لكن دعني أخبرك شيئًا.. إنه ليس رائعًا أبدًا.. شاطئ "كوني آيلاند" صاخب وقذر، أما المكان الذي ستذهب إليه فمثل الجنة.
قربت وجهها من وجهه قليلًا وأمسكت ذراعيه وقالت:
- هل أنت خائف؟ هل هذه هي الحقيقة؟ أخبرني ما السبب؟ هل تخاف من كل هؤلاء الجنود؟ إنهم ذاهبون إلى الجانب الآخر من العالم، إلى بلد يُدعى كوريا.. الوضع ليس كالسابق، حسنًا؟
بدأ الولد يهز رأسه مجددًا، فسأله:
- هل تخاف من النفق إذًا؟ هل يذكرك بالغارات الجوية حين كنا نختبئ في الأنفاق؟ أعدك أنه لا يوجد شيء في هذه الأنفاق إلا السكك الحديدية والقطارات، لقد انتهت الحرب، صارت ذكرى من الماضي، نحن في أمريكا الآن، ستكون بأمان هنا يا حبيبي.. صدقني.
انتظرت الولد ليرد، لكنه لم ينظر إليها حتى.
- كيف سأعرف شعورك أن كنت لا تتكلم؟ كيف؟
صمت قليلًا ثم اندفع يصرخ في وجهها:
- قلت حسنًا! قلت إنني سأذهب! كم مرة تريدينني أن أقولها؟ سأذهب، سأذهب!
انفجر في وجهها بحدة.
- إياك أن تصرخ في وجهي، لا تظن أنه يمكنك أن...
لم يستمع إليها الولد، لقد شغل نفسه بِعَد أزرار معطفها مرارًا وتكرارًا.
- هلا توقفت عن هذا؟ هلا توقفت عن العد لأن هذا يصيبني بالجنون؟
تركت ذراعيه وحملت السلة ثم حملت حقيبته ودفعتها إليه، شعرت بغصةٍ في حلقها وخرج الكلام منها بصعوبة:
- هناك شيءٌ آخر، لا تنادني بالألمانية، لقد تعبت من إخبارك أننا لا نتحدث الألمانية في هذا البلد.. فهمت؟
جذبته من كم سترته ونزلت به السلم واتجهت إلى رصيف المحطة، عندما وصلا حاجز العبور، وقفا في الطابور وبدأت تبحث في حقيبتها بينما تحاول التماسك.
قالت:
- اسمع، ليس علينا الافتراق بمشاجرة، لا أحد منا يريد ذلك.

أخرجت تذكِرته من محفظتها وقالت:
- هل كتبت رسالة إلى ذلك الفتى "ريتشي" كما أخبرتك؟
أدار وجهه بعيدًا عنها وكأنها ليست موجودة.
- لقد سألتك سؤالًا، أجبني، من فضلك.
تمتم:
- كتبت رسالة.
مشطت شعره بأصابعها فأبعد رأسه.
قالت:
- جيد، لأنه سيكون من غير المهذب إن لم تفعل، يعني سيكون تصرفًا سيئًا.
ركبا القطار ووضعت حقيبته في الرف العلوي المخصص للحقائب، ثم قالت:
- السيدة "كابلان" ستنزلها لك حين تصل.
انتظرت أن يعترض ويقول إنه طويل كفاية ليحضرها بنفسه، لكنه لم يتكلم، وضعت السلة على المقعد وقالت:
- تذكر ألا تبعد نظرك عن هذه السلة. إن احتاج شخصٌ ما المكان، ضعها على حجرك أو على الأرض عند قدميك، فهمت؟ عندما تصلان، أعطها السلة وقل: "هذه لكِ يا سيدة كابلان لأشكركِ على استضافتي". فهمت؟ تأكد من إخبارها أنني أعددت فطيرة التفاح بنفسي لكنني اشتريت فطيرة الفراولة من المخبز الفرنسي في الحي الخامس، أظنها سترى اسمه على ورق التغليف عندما تفتح العلبة، الجميع يعرف هذا المخبز.
وقف الفتى متجمدًا بجانب المقعد، بدت ساقاه مثل عودين بيضاوين ينبتان من حذائه القماشي حتى تصلان إلى الشورت الذي يرتديه. عندما يخرج من الشقة، يبدو لها طويلًا جدًّا، حتى وهي ترتدي حذاءها ذا الكعب العالي.. إنه في طولها تقريبًا، وسرعان ما سيتجاوزها، ثم سيتجاوز "هاري". عندما جاء للعيش معهما في البداية، ظنت أنه لن يكبر أبدًا وسيظل يرتدي ملابس الأطفال للأبد، لقد كان صغيرًا للغاية بالنسبة لسنه، لكن انظروا إليه الآن.. لقد كبر بسرعة واضطرت للتبرع بملابسه، ازداد طوله لكنه ما زال نحيلًا، وكأنها لا تطعمه أبدًا.
أعطته كتابًا هزليًّا وحلوى وعلبة صودا، ثم ناولته ظرفًا فيه عملات معدنية وخمسة دولارات، أخبرته أن عليه التصرف بها لمدة ستة أسابيع، لكن أيضًا عليه أن يشتري أيس كريم لصديقه الجديد "ريتشي"، أو ربما يدعوه إلى السينما وما شابه.
- كن مهذبًا طوال الوقت، قل "شكرًا" و"من فضلك" وكل الكلمات اللطيفة، نادها بـ"سيدتي"، إلا إذا أخبرتك باسم آخر.. وهي ستفعل بالتأكيد، فهي لطيفة جدًّا ومتواضعة بالنسبة لسيدة في مكانتها، لكن افعل ما أقولهُ لك لتظهر لها أنك مؤدب. تذكر أن والدة "ريتشي" لقبها أيضًا سيدة "كابلان"، لأنها كانت متزوجة بابن السيدة "كابلان". اتْلُ صلاة شكر قبل الأكل، ولا تجذب الأشياء من على مائدة الطعام، وكُل بأسلوبٍ لائق، وأرجوك لا تكذب، لا بأس إن كنت لا تعرف إجابة شيءٍ ما، لا داعي لاختراع إجابات.. هلْ تفهم؟ جيد، تعرف إنه لا أحد يحب الكذاب، ولا حتى كاذب مثله.
جلس الولد على طرف المقعد ووضع الكتاب الهزلي على حجره وفوقه الحلوى والصودا.
قالت له:

- تبدو متعبًا، هل نمت ولو للحظة طوال الليل؟ يمكنك أن تنام في أثناء الرحلة، لديك بضع ساعات، لكن لا تنسَ السلة.. حسنًا؟
أومأ الولد.
- حسنًا، هذا كل شيء على ما أظن، لا تنسَ أن ترسل لي بطاقةً بريدية أو رسالة، أحب النظر إلى خط يدك كما تعلم، فهو منمق كخط الكبار. ستبتعد عني بضعة أسابيع فقط، لكن أحب معرفة أخبارك أولًا بأول.
لم ينظر الولد إليها، طوى ظرف النقود ووضعه في جيبه، وأخذ السلة ووضعها عند قدميه، ثم شغل نفسه بالكتاب الهزلي.
انحنت وقبلت رأسه وقالت بصوتٍ منخفض:
- لا تتحدث الألمانية، هذا أفضل كما أخبرتك، لا أقول إن الألمانية سيئة، لكنها لغة مختلفة عن لغة البلد الذي نقيم به الآن.. من مصلحتك ألا تتحدث بها مطلقًا.
رأت وجهه يحمر وشفتيه تتشددان وكأنه على وشك البكاء.. أرادته أن يبكي، أن يلف ذراعيه حولها ويرجوها ألا تبعِده، قالت لنفسها: "لو فعل هذا، سأبقيه بجانبي، سأعانقه بقوة تخنق أنفاسه. لو فعل هذا، سأعرف على الأقل أنه يشعر بأي حب نحوي، سأعانقه وأقول: "لا بأس يا حبيبي، يمكنك البقاء معي للأبد و...".
قاطع الولد أفكارها وهو يرمي كتابه الهزلي في وجهها ويقول بغضب:
- لقد قرأت هذا بالفعل.
تراجعت خطوة وقالت:
- حقًّا؟ حسنًا، أعطه لـ"ريتشي" إذًا أو ارمه، لا أهتم أبدًا.
وقفت على رصيف المحطة بجانب نافذة مقعده، مالت على أطراف أصابعها لتحاول رؤيته، لكنها لم ترَ سوى شعره، آلمتها قدماها وشعرت بالغثيان. مر الوقت ببطء، وكأن الصفارة لن تدوي أبدًا لتأذن للقطار بالانطلاق، رأت الرصيف ممتلئًا بالناس الذين جاؤوا لتوديع أحبائهم، رؤوسهم مرفوعة نحو النوافذ التي يطل منها المسافرون، يتحدثون ويضحكون ويتصافحون وأيضًا يبكون. هناك بحار وابنته يودعان بعضهما وداعًا طويلًا، كانت وحيدة ولا ينتظرها أحد على الطرف الآخر.
الفتى عنيد.. وهي تعلم ذلك، لكنها ظلت تتمنى أن ينظر إليها ويودعها قبل أن ينطلق القطار، سترضى بإشارةٍ من يده أو نظرة سريعة من عينيه، لكنه عنيد لأقصى حد. في طريقهما إلى المحطة، اقترحت عليه أن يمرا بمبنى الأمم المتحدة، عندها نظر إليها باحتقار. وعلى كل حال، لقد هطل المطر ولم يمنحهما الفرصة. إنه المكان نفسه الذي تبعده عنه دائمًا على الرغم من حبه له، لقد تعلم عنه كل شيء في المدرسة؛ ذات مرة أخبرهما عنه على العشاء بحماسٍ أدهشها لدرجة أنها لم تطرف بعينيها حتى لا تفسد اللحظة، قال إنهم سيطلقون على المبنى اسم "الأمم المتحدة"، والعاملون به سيكونون مسؤولين عن العالم حتى لا تدمر الدول بعضها كما تشاء بلا حساب، لن يسمح المسؤولون عنه بذلك، سيتم تعليق أعلام كل دول العالم خارجه، حتى ألمانيا. فمدرسته قالت إن هذا المبنى سيقوم على مبادئ التسامح، وربما أيضًا النسيان.
شاهدوا أساساته ترتفع لأسابيع، أحَب رؤية العمال يتحركون بين الهيكل الخرساني، وإحصاء الفتحات التي ستصبح نوافذ، وكتابة ملاحظات عن الإضافات التي تمَّ بناؤها منذ رآه آخر مرة. أصبحت عادة تجمعهما أن يذهبا إلى النهر الشرقي عندما يكون لديها نصف يوم عمل، يتفقدان

الإنشاءات في مبنى الأمم المتحدة، يتحدث عن يومه بينما يسبقها في السير طوال الطريق حتى الشارع السادس والأربعين، أما هي فتحاول الإمساك بيده عدة مرات حتى تنجح.
دخل رجلٌ إلى المقطورة وجلس أمام الولد، رأت الرجل يضع حقيبة غريبة الشكل على رف الحقائب، ثم يطوي معطف مطر ويضعه فوقها، جلس وخلع قبعته ثم مشط شعره بيده، أسند ظهره إلى المقعد ثم أخذ ينقر بأصابعه على النافذة وهو يهز رأسه وكأنه يجاري إيقاع موسيقى يسمعها في رأسه.
لمحها الرجل ثم أشاح بنظره عنها، بينما واصل الولد تجاهلها، أشعل الرجل سيجارة ونظر إليها مجددًا، شعرت بسخونة في وجهها وبدأت تدلك بطنها. لن يربط الرجل بينها وبين الولد، بل سيظن أنها تنظر إليه، سيظن أنها امرأة مجنونة تنظر إلى نوافذ القطارات، سيظن أنها من النساء اللاتي يقفن في محطات القطار ليعرضن أنفسهن على الرجال مقابل المال.
شاهد الفتى خالته تفرك معدتها، انزلق في مقعده أكثر حتى لم يعد يرى إلا قمة رأسها، وبين حين وآخر ترفع يدها وتنزلها وكأنها تسبَح.
ينتظر النفق الأسود من خلفه، قريبًا ستبتعد خالته "ماريا" بمعطفها الأزرق عن نظره حتى تبدو كبقعة زرقاء، ثم نقطة زرقاء، ثم تختفي تمامًا. لن يراها مجددًا قبل ستة أسابيع، وقد لا يراها ثانيةً إذا كانت قد خدعته لكي تتخلص منه. ولو، لن يلوح لها مودعًا.
فكر في الخطاب الذي أرسله له "ريتشي" مع صورة، وضعه "هاري" على الطاولة ليراه ثلاثتهم ويقرأوه معًا. كان الخط لطفل في الخامسة، لكن الكلمات كانت ناضجة جدًّا، "أتمنى أن تستمتع معنا.. أنا أتطلع بشدةٍ للقائك...". من الواضح أن سيدة "كابلان" أخبرت حفيدها بما يكتبه، على الرغم من إصرار خالته بأنها كلمات "ريتشي"، وأنه فقط متفوق بالنسبة لعمره لأنه يرتاد مدرسة خاصة، عندها قال هاري: "حقًّا؟ لماذا لم يعلموهم الكتابة بخطٍ جميل أيضًا؟"، سعد الولد كثيرًا بتعليق "هاري".
كانت الصورة لـ"ريتشي" وهو يقف على شاطئ بحر ومعه كرة، وفي ركن الصورة يوجد طرف سجادة وقوائم كلبٍ أمامية، ويبدو أنه مستلقٍ عليها.
لم يحب المكان، وما اسم "كيب كود" هذا؟! ما معناه أصلًا؟ كانت السماء تحتل الصورة خلف "ريتشي"، وبدا البحر وكأنه سيعلو لينقض عليه ويبتلعه، تمنى لو ابتلعه فعلًا لأنه لم يحب "ريتشي"؛ شعر أن نظرته خبيثة وابتسامته زائفة، لقد نظر للصورة طويلًا أكثر من مرة، ومع ذلك لم يجد ما يعجبه في "ريتشي"؛ لا شعره المنكوش، ولا قميصه المخطط ولا وجهه الخبيث البدين ولا قدمه التي تضغط على الكرة، النظرة التي في عينيه بدت وكأنه يضغط على رأس بشرية وليس كرة قديمة منفوخة بالهواء.
"ريتشي" ليس السبب الوحيد لغضبه من خالته، لقد منعته من التحدث بالألمانية، هذا هو السبب الآخر.. ليس عدلًا أو صوابًا أن تأمره بذلك، فهو لا يتحدث الألمانية أبدًا. بمجرد أن ذهب للعيش معهما، عمل جاهدًا على نسيان اللغة.. وهي تعرف ذلك، لأنها من كانت "تمسحها" من عقله. أخرجت كل الكلمات الألمانية ووضعت بدلًا عنها كلمات أمريكية، كانا يجلسان في المطبخ لساعات لكي يتعلم لغة وينسى أخرى، إلى أن يحل الظلام.. حتى نسي كيف يتحدث الألمانية، حتى لو تذكر محادثةً ما، فهو يتذكر مضمونها فقط وليس كلماتها الفعلية، كان يعرف مئات الكلمات حين وصل أول

مرة إلى أمريكا، كان يعرف قراءة بعضها وحتى كتابتها أيضًا. ربما آلاف الكلمات وليس فقط مئات، لكنه لم يتمسك إلا ببضعة كلمات للذكرى فقط.
ركل الولد السلة برفق، يعرف أنه يوجد طردٌ خاص في قاعها، حاولت خالته أن تريه ماذا وضعت في الطرد، لكنه قال بأنه لا يريد أن يعرف وأغمض عينيه رافضًا النظر، لكنها أخبرته على كل حال.. إنه كتاب تلوين وعلبة ألوان ونموذج تركيب قارب، أو ربما طائرة.
رفع السلة من على الأرض، وانفتح الغطاء مثل الفم وهو يضعها على حجره، شم رائحة التفاح والقرفة ورائحة أخرى لاذعة.. ربما ثوم، آخر ما وضعته خالته في السلة كانت فطيرة الفراولة التي اشترتها من المخبز الفرنسي، الرجل الفرنسي الذي باعها لها لفها بعناية شديدة في ورق زبدة ثم وضعها في العلبة برفق وكأنها طفل حديث الولادة، ابتسمت الخالة له وظلت تقول: "ورق تغليف جميل.. فطيرة لذيذة.. علبة رائعة.. شريط تغليف لطيف". وبمجرد أن خرجت من المحل ظلت تشتكي من السعر وتنعت البائع الفرنسي بأنه لص، وواصلت ذلك حتى قررت إلقاء نظرة أخيرة على مبنى الأمم المتحدة، بالنسبة إليه كان ذلك مثل فرك الملح على الجرح.
استعد القطار للانطلاق، بدأ يزمجر ويهتز ويزفر، شعر بالقطار المهتز يعج بحركات المسافرين، حركات عنيفة لكن خرقاء؛ مثل ثور أو حصان يحاول الهروب من حظيرته الخشبية، قلَّب الرجل الجالس قبالته جريدته وهزها قليلًا لتنفرد صفحاتها ثم سحب نفسًا من سيجارته، وضع ساقًا فوق الأخرى، فارتفع طرف بنطاله وظهر شعره الأسود القصير الذي يغطي جلده الأبيض، ترقد قبعته على المقعد بجانبه، إنها قبعة بنية غائرة من الوسط.
يعرف الولد هذا النوع من القبعات، لذلك يعرف أنك إن قلبتها ستجد في البطانة شعارًا مطبوعًا، كما ستجد بقعة بسبب الطباعة. لا يعلم كيف يعرف بشأن هذه القبعة، فـ"هاري" لا يرتدي إلا القبعات المسطحة، وفقط في الشتاء، لكن المعلومة موجودة في عقله على كل حال، إنها ملتصقة بذاكرته مثل كل المعلومات التافهة التي تهيم في ذهنه بلا هدف أحيانًا.
"فراو"، إنها إحدى الكلمات التي احتفظ بها على الرغم من أنه لا يعرف السبب، كلمة "فراو" بالإضافة إلى الأرقام.. لم يستطع أيضًا نسيان العد بالألمانية.
اهتز القطار وزأر بقوةٍ أكبر هذه المرة، شعر الولد برجليه تتحركان، فثبت كعبيه بقوة في أرضية القطار، انحنى الرجل الجالس قبالته للأمام، فطار دخان سيجارته في وجه الولد، عندما انقشعت سحابة الدخان، لاحظ الولد أن الرجل لديه أظافر طويلة لكن في يد واحدة فقط، كما لمح المزيد من شعره الأسود يخرج من تحت كمه ويحيط بساعته، تخيل الولد تلك الشعيرات كائنات حية، مثل حشرات صغيرة تخرج من جلد الرجل، تمنى أن يظل الرجل مختفيًا خلف جريدة (New York Times) طوال الرحلة، أو الأفضل أن ينزل في المحطة القادمة ويأخذ معه "مستعمرة حشراته".
دوت صفارات القطار في الخارج بصوتٍ عالٍ وتتابع مثل سيوفٍ تتصادم، وانغلقت أبواب العربات، لكن الفتى سمع دقات قلبه أعلى من كل هذا.
غاص في مقعده أكثر، ووضع يديه على علبة الفطيرة وأخذ يزيح شريط الزينة الذي يربطها حتى سقط عنها.
بدأ القطار يتحرك، فتجمد المشهد في الخارج للحظة وبدا كل شيء كأنه يتحرك ببطءٍ إلى الخلف، أغمض الولد عينيه وشعر بومضات الضوء تمر بسرعة من بين جفونه، أحس بيديه تهتزان، ثم شم

رائحة الفراولة التي تملأ المكان، يكاد يتذوق حلاوتها وهي تنزل في جوفه وتملأ تفكيره، غرز أصابعه لا شعوريًّا في الفطيرة الطرية المليئة بالفواكه والعصارة الشهية.
سرعان ما سيبتلع النفق القطار في عنقه الطويل المظلم، أخذ يتخيل أشياءً غريبة بينما هو مغمض العينين؛ رجال أموات يطفون على الماء، وأسِرة قديمة، وفئران غارقة تسعى للنجاة، وامرأة تدفن وجهها في الماء، ورجل بدين يرتدي معطفًا أسود ويسبح مثل الخنزير.. لو أغلق عينيه فترة أطول سينام ولن يرى كل هذا. لو ملأ فمه بفطيرة الفراولة.. ستلهيه حلاوتها عن كل هذا إلى أن يطلق النفق سراح القطار مجددًا. عندها سيصبح كل المسافرين خارج مجرى الحياة مؤقتًا؛ هو والرجل ذو الأظافر الطويلة وكل الركاب الجالسين أو المتنقلين بتخبط بين عربةٍ وأخرى، سيظلون سجناء في القطار إلى أن يبصقهم كالبذر واحدًا تلو الآخر في كل محطة، عندها يعودون لمجرى الحياة مجددًا، لكن في مكان آخر قد لا يعرفونه بعد.
ظن أنه على قطارٍ آخر حين استيقظ، قطار في ألمانيا بعد الحرب، شعر بهواءٍ بارد يلفح وجهه، ظن أنه يدخل من فتحاتٍ سببتها رصاصات طائرة حربية، أو ربما من شقوق النوافذ التي لم تُصلح بعد.
ذكر نفسه بأن يظل مغمضًا عينيه، هذا ما يجب أن تفعله إذا استيقظت وسط غرباء في ألمانيا، ابق عينيك مغلقتين وتظاهر بأنك لم تستيقظ بعد أو أنك ميت، افعل ذلك إلى أن تعرف أين أنت ومن معك.
إنه يتذكر هذه القطارات جيدًا، يتذكر الصعود والنزول والسير طويلًا، حتى آخر قطارٍ أخذه إلى المزرعة الكبيرة حيث يعتنون بالأولاد.
تخيل أنه على هذا القطار الأخير الآن، جالسًا في صفٍ من أربعة أو خمسة أولاد، وعلى الجانب المقابل من الطاولة هناك الأولاد الأكبر سنًّا وحجمًا، أما هو فيكون أصغر الأولاد سنًّا وحجمًا على القطار.. لهذا ينادونه بالـ"قزم"، وأحيانًا "قزم" فقط.
يجلس في نهاية صف من ناحية الممر لكي تستطيع "الفراو" المشرفة رؤيته حين يرفع يده. كلما فعل هذا، تغامز الأولاد الكبار وسخروا منه قائلين لبعضهم: "انظر، لقد رفع القزم يده مجددًا. إنه يريد أن تساعده الممرضة في إخراج قضيبه الصغير لكي يتبول، ترى هل ينتصب حين تفعل ذلك؟".
يلعب ثلاثة من الأولاد الكبار الورق، أما الرابع فمحشور بجوار النافذة، لكنه لا ينظر منها أبدًا، ولا ينظر إلى الورق أو الأولاد الآخرين.. حتى عندما يدخل رجلٌ سكران العربة وهو يترنح لا ينظر إليه.
لا يعرف اسم الفتى الرابع الكبير. في الواقع، لا يعرف أسماء معظم الأولاد، ولا حتى الأولاد الصغار في الصف نفسه الذي يجلس فيه، لا يعرف إلا اسم "أوتو" الذي يبعد عنه ببضعة صفوف. بخلافه، لا يعرف اسم أي طفل من الجالسين وسط الركاب، لكنه يعرف اسم اثنين من الذين يلعبون الورق؛ "برونو" و"إريك"، هذا هو شيءٌ آخر تفعله حين تجد نفسك وسط غرباء في ألمانيا؛ تعرف أسماء المتنمرين.
لا يسمح الأولاد الكبار للصغار بلعب الورق؛ فهم أغبى من أن يفهموها، يقولون إن الصغار يفسدون اللعبة، لكنه يفهم اللعبة جيدًا، يفهمها أفضل من "إريك" الذي يرتكب أخطاءً غبية ولا يعرف الفرق بين قيمة كل ورقة.
لقد تعلم من مشاهدة الرجال وهم يلعبون على الإضاءة الزرقاء في المخبأ الكبير تحت محطة القطار. يا له من مكان قذر! لكن كان هناك مخبأ أشد قذارةً منه في "تييرجارتن" بجانب حديقة الحيوان، وكانت إضاءته زرقاء.

لا يسمح الأولاد الكبار للصغار بلمس الطاولة، وهذا ليس عدلًا، لأنها ليست ملكهم. فالطاولة مثبتة في الأرض في المنتصف تمامًا، ومن المفترض أن يتشاركها الجالسون على الجانبين، لكن "إريك" حذرهم قائلًا: "من يضع إصبعه على الطاولة، سأقطعه! سنفصله عن يده تمامًا".

عندما يستدير الولد ويجلس بركبتيه على الكرسي ليرفع نفسه، عندها يمكنه رؤية العربة بأكملها بما فيها من أولاد آخرين محبوسين يشعرون بالخجل وبعض الملل أيضًا. يرى "أوتو" محشورًا بجانب امرأة ضخمة ترتدي معطف فرو بني، تشبه دبًّا بنيًّا عملاقًا وترتدي شعرًا مستعارًا أشقر وتضع طلاء شفاهٍ أحمر. كم أراد إخبار "أوتو" بهذا لكي يضحكا معًا ملء قلبيهما! فـ"أوتو" صديقه، تعرفا على بعضهما في معسكر اللاجئين الأمريكي، لقد وصلا في اليوم نفسه لكن من وجهتين مختلفتين، ووُضعا في القسم نفسه، فأصبحا أعز صديقين. المرأة الضخمة مشغولة بـ"أوتو" وتحشر فمه بالكيك، أما هو فيدير وجهه للجانب الآخر محاولًا إخفاء سعادته بالحلوى. في أبعد ركن عن "أوتو" جلست "الفراو" المشرفة تقرأ كتابها المكتوب بالإنجليزية، ومن حين لآخر ترفع نظرها عن الكتاب لتتفقد الوضع وتتأكد من أن "أولادها" يحسنون التصرف. إنها تناديهم بـ(Meine Jungs)؛ أي "أولادي" بالألمانية. سرعان ما ستلمحه وهو يجلس بركبتيه على الكرسي وستحرك يدها للأعلى والأسفل ثلاث مرات وكأنها تنطط كرة، لكنها في الواقع إشارة له بالجلوس معتدلًا.

عندما يجلس معتدلًا ويميل للأمام قليلًا، يرى عبر نافذة القطار الريف وكأنه يركض للجانب المعاكس، بالإضافة إلى الغابة المظلمة، ومحطات القطار الخشبية، لكنها مهجورة الآن بعد انتهاء الحرب، ثم تظهر الغابة المظلمة مجددًا، يتهادى القطار بجوار الغابة ببساطة ولا مبالاة، يرى السماء تظلم، ويرى عن بعد جسرًا محطمًا يشبه ذراعًا طويلة مقطوعة من عند المعصم، يرى جسورًا أخرى أيضًا؛ بعضها محطمٌ تمامًا، وبعضها أعيد إصلاحه ببعض الخشب الجديد أو الخرسانة الجديدة.. هذا يجعلها تشبه الملابس المرقعة.

هو نفسه يرتدي ملابس مرقعة.. إنها مزيج من الملابس الجديدة والقديمة في الوقت ذاته، كل الأولاد يرتدون النوع نفسه من الملابس؛ مزيج من الجديد والقديم، لكنها ليست هلاهيل، لا أحد يمكنه وصفها بذلك. أخبر الأولاد الكبار "أوتو" أن هذه الملابس يُعاد تصنيعها من ملابس الجنود الموتى، وأن السترات أعيد صنعها من الجوارب الصوف التي تيبَّست من الدماء المتجمدة عليها، وأن الأوشحة أخذوها من أعناق الجنود الموتى. قال "أوتو" له: "ربما أرتدي شيئًا من ملابس والدك، وأنت ترتدي جزءًا من ملابس والدي". تمنى لو لم يخبره "أوتو" بذلك، حتى ذلك الوقت كان يحب ملابسه؛ فهي جميلة ونظيفة ودافئة، أما الآن فهو خائفٌ منها.. تخيل لو كان هناك شبح يتلبس سترتك.

نظر عبر النافذة مجددًا ولمح بين الغابة بقايا من الثلج العالق بين الفروع، وأحيانًا تظهر مسافات كبيرة خالية بين الأشجار، ويمكنك رؤية الحطابين وهم ينحنون لالتقاط الحطب فيبدون أشبه بخطافاتٍ سوداء، أو بسيارات جيب قديمة يخرج من نوافذها فروع. بعد ذلك رأى شيئًا بدا للوهلة الأولى مثل مجموعة شجيرات، لكن اتضح أنها مئات الصلبان الخشبية المغروسة في الأرض، مرصوصة في صفوفٍ خلف بعضها ومربوط حول كلٍ منها قطعة قماشٍ حمراء.

نهض "برونو" من كرسيه باندفاع ووجهه أحمر من الحماس وعيناه تلمعان من الإثارة. قال:

- انظروا هناك.. بسرعة! إنها مقابر الروس! آلاف الروس، لنأمل أن يتعفنوا في الجحيم.

قال "إريك":

- الجيش الأحمر، إنهم ليسوا جنودًا شرفاء مثلما كان آباؤنا، بل هم جبناء، يكفي ما فعلوه لأمي وأختي.
سأله "برونو":
- وماذا فعلوا لأمك وأختك؟
- ماذا فعلوا؟ ماذا فعلوا في رأيك؟ لقد اغتصبوهما بالطبع! مرارًا وتكرارًا.
سأل الولد دون أن يشعر بنفسه:
- ما معنى "اغتصبوهما مرارًا وتكرارًا"؟
حل صمتٌ قصير تبادل فيه الفتيان الكبار النظر، أصدر "برونو" صوت استهزاء ثم ضحك الفتى الثالث ثم استهزأ "إريك" بكلامه، ثم بدأ كل الأولاد بالضحك، ما عدا الفتى الجالس بجوار النافذة، ضحكوا وسخروا واستهزأوا، حتى الأولاد الصغار تظاهروا بأنهم فهموا ما المضحك. صاح "إريك":
- إنه لا يفهم معنى الكلام! لا يفهم معناه! قزم مسكين، لا يعرف شيئًا عن الجنس، لا شيء على الإطلاق.. أليس كذلك أيها القزم؟
سمع قدميه تدبان في الأرض وهو ينهض ليدافع عن نفسه قائلًا:
- أنت لم تقل إن هذا يعني الجنس، أنا أعرف معناه.. أعرف معناه، أعرفه حقًّا!
هتفت "الفراو" المشرفة من مؤخرة العربة:
- اهدأوا، من فضلكم.. اهدأوا وإلا سأحرمكم من العشاء.
دخل الرجل السكران العربة في تلك اللحظة، أدرك الولد أنه سكران قبل أن يخطو خطوةً واحدة للداخل، لأنه قد لاحظ بالفعل جسده الضخم وهو يتحرك بحماقة ويتخبط بين جدران القطار ويفتح الأبواب ويغلقها ويقف بجانب المقاعد ليخيف الركاب.
دخل الرجل السكران العربة عندما بدأت "الفراو" المشرفة تهتف "اهدأوا، من فضلكم.. قلت اهدأوا وإلا سأحرمكم من العشاء". الرجل السكران كان جنديًّا عجوزًا فقد ذراعًا، وقد حشر الكم الفارغ لسترته البالية في جيبه، وقف مترنحًا عند الباب وصاح:
- اتركي الأولاد وشأنهم، لقد صمتوا بما فيه الكفاية، عودي من حيث أتيتِ أيتها الأمريكية القذرة، واتركي أولادنا المساكين وشأنهم.
كاد قلب الولد أن يتوقف عندما سمع الرجل السكران وهو يتحدث بفظاظة مع "الفراو" المشرفة، أراد أن ينقض عليه ويلكمه. إنه واثقٌ بأن هذا ما أراده كل الأولاد؛ أرادوا عضه، وخربشته، ولكمه، وركله. وكذلك الرجال الذين يقرأون الجريدة ويدخنون الغليون، والنساء اللاتي يمضين الوقت في الحياكة.. الجميع أراد ضرب الرجل السكران، لكن لم يفعلوا.. لم يتحرك أحد أو حتى يرفع إصبعًا أو ينطق بكلمة.
سار الرجل السكران في الممر وهو يترنح ويغني عن العظام المتعفنة في الأرض، اضطرت "الفراو" المشرفة لإفساح الطريق له بينما يعبر العربة تاركًا خلفه رائحته الكريهة. انزلق كمه الفارغ من جيبه، فأخذ يحتك برؤوس المقاعد مثلما يفعل شال "الفراو" المشرفة عندما تسير في الممر. توقف عند طاولتهم وأخذ ينظر لوجوه الأولاد بتمعن بينما يتنفس بصوتٍ عالٍ، ثم قال:
- انظري إليهم، فقط انظري! إنهم كالخنازير الصغيرة الذاهبة إلى المزرعة. نعم، صحيح، تأخذونهم إلى المزرعة لتسمينهم من أجل السوق الأمريكي، هيا أيتها الخنازير الصغيرة.

ثم استدار إلى باقي الركاب ولوح بذراعه الواحدة في الهواء وهو يقول:
- هذا.. هذا ما ضحى آباؤهم بحياتهم لأجله.. هذا هو الغرض، أن نسمن خنازيرنا الصغيرة ونرسلهم للسوق الأمريكي، هل أنا على حق أم على خطأ؟ فليخبرني أحدكم.
ثم استدار إلى الطاولة ومد عنقه وأخذ يقلد أصوات الخنازير:
- "كرو.. كرو.. إيك.. إيك.. أوينك.. أوينك". هيا أيتها الخنازير الصغيرة.
عندما انتهى من تقليد الخنازير، خرج من العربة وهو يترنح.
عندما خرج، لم يتبادل أحد الكلام أو النظرات؛ ساد الصمت فترةً طويلة، وسكنت الأصوات عدا صوت القطار وصوت بكاء "برونو" المكتوم.
واصل القطار رحلته، قبل حلول الظلام، أضاءت أشعة الغروب العربة بنورٍ أرجواني، وانعكس على النوافذ وعلى شال "الفراو" المشرفة وثوبها الأبيض ووجهها الجميل، انعكست صورة "الفراو" المشرفة على النافذة الأرجوانية وهي تتكلم بلكنتها المضحكة وتطلب من "إريك" و"برونو" أن يساعداها في تقديم العشاء، ثم انعكس شكلهما على النافذة وهما يخرجان من خلف الطاولة بينما يخفضان رأسيهما.
ذهبا لكل ولد وقدما له تفاحة، ثم قدما خبزًا جافًّا ومحروقًا عليه بعض الزبدة، وأخيرًا علبة لبن صغيرة. بعدها عاد "إريك" و"برونو" للجلوس.
خارج القطار حل الليل على ألمانيا وساد الظلام، لم يعد ينير الطريق إلا أضواء بسيطة من القرى الجبلية أو المصابيح العامة. أما داخل القطار فساد نورٌ أصفر، من الغريب رؤية نقاط النور الصغيرة متجمعة ليخرج ضوء من المصابيح. في الواقع، من الغريب رؤية نور على الإطلاق، والأغرب هو الجلوس بجانب النوافذ دون تغطيتها والقطار ينطلق بسرعة نافثًا دخانه الأسود، وأيضًا من الغريب أن يتمكن الناس خارج القطار من رؤية صفوف الأولاد الجالسين تحت النور الأصفر القوي أو المتفرقين هنا وهناك بين الركاب العاديين. يرتدون ملابس نظيفة لكن ليست جديدة، يشعرون بالعار ويأكلون الخبز الجاف المحروق بصمت بينما يبذلون جهدهم لكيلا يبدون كخنازير صغيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

فتح الولد عينيه ليجد نفسه وحيدًا في مقعده المجاور للنافذة، كان يستند بمرفقه على السلة التي على حجره ليضع رأسه على يده، لم يجد الرجلَ ذا الأظافر الطويلة، لكن وجد بدلًا عنه سيدة ضخمة تُشَخِّر، ظلت رأسها تترنح مع حركة القطار وكأن رقبتها مقطوعة.. فجأة لاحظ علبة فطيرة الفراولة على الأرض، وفيها فتافيت حمراء، رفع الغطاء بطرف إصبعه الصغير ليختلس النظر، لم يتبقَ سوى فتافيت من الفطيرة والجيلي.
لقد التهم الفطيرة قبل أن ينام بعمق، لكنها ساعدته على التحمل حتى خروج القطار من أول نفق، وبما أنه لا يخاف إلا من هذا النفق، فيمكن القول إن الفطيرة أدت واجبها.
لكنها لم تكن شهية لدرجةٍ كبيرة، لا تستحق ثمنها.. خالته محقة، ذلك الخباز ليس سوى لص مبتسم.
يداه لزجتان وطعم السكر ملتصق بفمه بسبب الفاكهة الحلوة، آلمته معدته بسبب الجشع والخجل، والخوف من فعلته أيضًا عندما فكر في سهولة كشف أمره. طوى العلبة الفارغة وأخفاها تحت مقعده.
لن يذكر الفطيرة، وكأنها لم توجد قط، لكن ماذا لو كتبت سيدة "كابلان" إلى خالته لتشكرها على

الهدايا التي في السلة؟ ستكتب: "لقد استمتعت كثيرًا بفطيرة التفاح، والمخبوزات الفرنسية أيضًا كانت شهية جدًّا". لن تسعد خالته إذا لم تجد ذكرًا لفطيرة الفراولة، سترسل إليها خطابًا رغبةً في سماع بعض المديح، ستقول شيئًا مثل: "أتمنى أن تكوني قد استمتعتِ أيضًا بفطيرة الفراولة"، أو "أتمنى أن تخبريني لو أعجبتكِ فطيرة الفراولة"، أو "شكرًا لأنكِ تناولتِ فطيرة الفراولة التي أحضرتها من ذلك المخبز الفرنسي الغالي الموجود في الحي الخامس". ربما من الأفضل لو تخلص من السلة كلها، يمكنه أن يدعي أن الرجل ذا الأظافر الطويلة قد سرقها، ربما يرميها من النافذة أو يتركها في حمام القطار، لكن إن فتح النافذة ستستيقظ السيدة النائمة مقابله، وإن ترك السلة في الحمام سوف يجدها الحارس الذي يعرفه "هاري" وسيخمن من صاحبها، وعندما تركب سيدة "كابلان" في "محطة بوسطن" سيقابلها الحارس عند الباب وسيعطيها السلة، وقف الولد ووضع السلة على رف الحقائب أبعد ما يكون عن حقيبته، سيترك الحقيبة ويتظاهر بأنه نسيها تمامًا، ثم سيتظاهر بأنه تذكرها عندما يصل إلى بيت السيدة "كابلان"، عندها سيكون الأوان قد فات.

عندما جلس مجددًا لاحظ بقعة على بنطاله، بلل إصبعه بريقه وحاول تنظيفها، فركها بضع مرات لكنها تلطخت أكثر، أخرج منديله من جيبه وفركها مجددًا لكن البقعة انتشرت على بنطاله أكثر، أصبح منظره وكأنه بلل نفسه، أخذ يفرك البقعة بقوةٍ أكبر إلى أن شعر بالصداع والضيق؛ لقد تعب من محاولة تنظيف البقعة، ومن محاولة البقاء مستيقظًا، ومن القلق بشأن فطيرة فرنسية سخيفة؛ فانزوى في ركن المقعد وأسند رأسه على زجاج النافذة، من المريح أن يسند رأسه على الزجاج البارد ويشعر بحركة القطار وهي تتغلغل عبر جمجمته حتى تصل إلى مخه وتزيح مخاوفه.

تذكر "الفراو" المشرفة مجددًا، كانا في حمام القطار، قدماه مرفوعتان في الهواء بعيدًا عن الأرض، وبنطاله معلقٌ حول كاحليه، بينما قضيبه متدلٍ في الهواء مثل يرقة صغيرة بدينة لا تفعل شيئًا، كان محتارًا بين خجله من هذا الوضع وبين راحته وهي تحمله بيديها الطويلتين بأمان، رائحتها جميلة.

تقول له:

- عيناي مغلقتان ولا أرى شيئًا.. هيا، اقض حاجتك.

سقف القطار مليء بثقوب الرصاصات التي يعبر منها الضوء، أخذ يلقي بأسئلة كثيرة على أمل أن يغطي صوته وصوت القطار على صوت تبوله.

- لماذا يدخل نورٌ قوي من الثقوب؟ هل انقضى الليل بالفعل؟
- لقد دخلنا محطة، لم تعد الأنوار تنطفئ بسبب الغارات، أتذكر؟
- لسنا في "محطة برلين"، صحيح؟
- أخبرتك مليون مرة أننا لن نقترب حتى من برلين.
- إذًا، لن نمر من أنفاق طويلة، صحيح يا سيدتي المشرفة؟
- أخبرتك أيضًا أننا لن نمر من أنفاق طويلة.
- لكن يا سيدتي المشرفة، لماذا قال الجندي السكران إنكِ أمريكية إذا كنتِ إنجليزية؟
- أنا إنجليزية بالفعل.
- لكن لماذا تعملين في المعسكر الأمريكي؟
- لأننا حلفاء.
- لكن أليس "الحلفاء" هم من يريدون قتلنا؟
-لا، بل أعني أننا في الجانب نفسه، مثلي أنا وأنت، نحن في جانبٍ واحد.

- ماذا لو قامت حربٌ أخرى؟ هل سنظل في الجانب نفسه؟
- لن تقوم حربٌ أخرى، أعدك بذلك. والآن كن ولدًا مطيعًا وركز لتنتهي مما تفعل، لن نقضي الليلة هنا. يا إلهي، تعبت ذراعاي من حملك!
- خمني ماذا يا سيدتي المشرفة؟ قال ولد في معسكري الماضي أن هناك أشخاصًا مدفونون تحت حدائق ومتنزهات ألمانيا، حتى في البحر يوجد جنود موتى تصعد جثثهم فجأة وتطفو على السطح أحيانًا، هذا ما قال.
- حقًّا؟
- نعم، وذات مرة بعد انتهاء إحدى الغارات، رأيت حصانًا ميتًا، قال رجلٌ إن الأمريكيين قتلوه بمدفعٍ رشاش يطل من طائرةٍ حربية لأنهم يكرهون الخيول.
- وماذا عن رعاة البقر؟ إنهم أمريكيون لكنهم يحبون خيولهم.
- نعم، رعاة البقر.. هل اشترك رعاة البقر في الحرب؟ مهلًا يا سيدتي المشرفة، أظنني سأفعلها الآن. نعم، ها هي.. أخيرًا.
فتح عينيه قليلًا، ونظر للأسفل إلى ساقيه وقدميه المدفونتين في حذائه الأمريكي، سمع أصواتًا أمريكية منخفضة، ورأى ساقي امرأة ترتدي جوارب فاتحة اللون وتشبك قدميها، رأى حذاءها اللامع ذا الإبزيم الذهبي، ولمح طرف فستانها المشجر. أمال رأسه قليلًا ليرى المزيد عبر الشق الصغير الذي فتحه في عينيه، رأى المزيد من الفستان المشجر، ورأى يدي المرأة موضوعتين على حجرها في قفاز أبيض من الدانتيل، ثم رأى ساقي ولد تتأرجحان، وفي قدميه صندل.
حاول أن يبقي تفكيره منشغلًا بـ"الفراو" المشرفة وبرائحتها التي تشبه الليمون. أراد أن يخبرها بكل ما رآه وما يعرفه، أراد أن يسألها الكثير من الأسئلة فقط ليسمع صوتها وهي تجيب.
ساعدته على رفع بنطاله، ثم مدت يديه إلى المياه وقالت:
- اسمها (water). قلها.
فرددها، وصححت له:
- ليست بالـ"v"، بل الـ"w". قلها مجددًا. (water)، أحسنت، قلها مجددًا.
- لماذا عليّ أن أرددها كثيرًا؟
- لأنه يجب عليك أن تتعلم الإنجليزية.
- (w..w.. water)، لكن لماذا عليَّ أن أتعلم الإنجليزية؟
- لأن هذه هي لغة البلد التي ستذهب إليها.. وهناك شيءٌ آخر، عليك أن تتوقف عن طرح الكثير من الأسئلة.
- أي أسئلة؟
- كل هذه الأسئلة عن الحرب مثلًا، يجب أن تتوقف عن ذكر الجنود والأحصنة الميتة والأسلحة وكل هذا الكلام البشع، لا توجد حرب حيث ستذهب، وبالتأكيد لا تريد أخذها معك.
- أخذها معي؟
- أعني الحرب.
- هذا مضحك! كيف سآخذ حربًا معي؟
نقرت "الفراو" المشرفة بإصبعها الطويل على رأسه وبطنه وقلبه وهي تقول:
- يمكنك أن تأخذها هنا وهنا وهنا.

فتح عينيه أكثر فسمع صوت ولدٍ في آخر المقعد يقول:
- انظري يا جدتي، لقد استيقظ، سيفتح عينيه.
تحركت المرأة ذات الفستان المشجر، فرأى رأسها وسمعها تقول:
- مرحبًا أيها النعسان، كنا على وشك أن نوقظك! لقد استيقظت في الوقت المناسب تمامًا لترى شروقنا الجميل. أنا السيدة "كابلان"، وهذا الفتى الصغير هو حفيدي "ريتشي". مرحبًا بك في "الأرض الضيقة"، هذا هو الاسم الذي نطلقه على هذه المنطقة من "كيب كود".
قال الفتى بصوته الرفيع:
- اسأليه يا جدتي، اسأليه إن كانت السلة التي على الرف تخصه!
فتح الولد عينيه فورًا واستدار إلى النافذة، لم يعد في ألمانيا، بدلًا من الأنهار المجمدة والغابات الداكنة، وجد تلالًا منخفضة وسهولًا واسعة.
عاد بنظره للداخل ثم عاد ينظر من النافذة، الشروق يصبغ كل شيءٍ بالأحمر؛ الفتى والسيدة ومقاعد القطار والتلال في الخارج والمحطة الصغيرة.. كل شيء.
سيدة "إيتش"
سار في غرفة الرسم بخطواته الصغيرة بينما تشاهده من المطبخ، سمعت ضربات فرشاة على صندوقٍ خشبي، وصوت أنابيب ألوان يتم عصرها، ثم صوت برطمانات وعلب طلاء تحركها يديه على الرف. إنه يسيطر على فترة الظهيرة تمامًا بحركاته المتواصلة وقراراته التي يتخذها.
ارتفع صوت خطواته مجددًا ثم حلت فترة صمت، علمت أنه وقف بجانب النافذة الشمالية ووضع ذراعيه الطويلتين خلف ظهره شابكًا يديه، تخيلته مستندًا على النافذة محنيًّا كتفيه قليلًا كما صارت عادته مؤخرًا، يمط شفتيه بتركيز، ووجهه العريض اللطيف ينظر عبر النافذة بصبر الصيادين.. إنه ينظر لسمائه.
سيمر من أمامه بعض المصيفين وهم يتسللون للذهاب إلى الشاطئ للسباحة في الظهيرة كعادتهم. ربما يرونه، لكنه لن يضيع وقته في التفكير في كيف أنهم غيروا اتجاه سيرهم المعتاد منذ ظهيرة السبت الماضي. أصبحوا يتجهون يمينًا نحو "باميت" بدلًا من الاتجاه يسارًا كالمعتاد، لأنه نسى كل هذا وكيفية حدوثه. إنها تذكر كيف احتقروها، وكيف سخروا منها في وجهها بينما تحاول أن تشرح لهم بكلمات تقطر احتقارًا: "زوجي لا يحب أن يتشتت انتباهه، لا يحب أن يتسكع الناس في شاطئه، ويتطفلون على حياته الخاصة، ويحجبون عنه الضوء لو قرر أن يرسم أو حتى أن يقف لساعات ينظر كالأحمق إلى السماء.. إنه رجلٌ مهم كما ترون، إنه زوجي.. زوجي.. زو...".
أحكمت ربط ضفيرتها الصغيرة وفتحت دولاب المطبخ، هناك علب جميلة مصفوفة بترتيب؛ شوربة بازلاء كندية، شوربة سمك بالخضار، أنواع مختلفة من الفاصوليا والذرة الحلوة والخوخ المعلب، ستكفيه بضعة أيام بوجه عام. أخذت فتاحة علب من كومة الأطباق المتسخة في الحوض ووضعتها في مكان واضح لكي يجدها بسهولة، فهي لن تحتاجها على كل حال؛ لن تأكل ولن تفعل أي شيء كالطبخ، أو التنظيف، أو الغسيل، أو التفكير فيما يجب طبخه، ستدعه يتولى أمر نفسه قليلًا وترى إن كان سيستمتع بذلك.
ذهبت إلى طاولة المطبخ وحركت كرسيها بحيث ترى غرفة الرسم عبر شق الباب إن أرادت، وقد لا تريد أصلًا، ثم أخذت حقيبة أدواتها القماشية من على الأرض ووضعتها على حجرها بقوة وكأنها تضع طفلًا بدينًا.

بالتأكيد ظن المصيفون أنها مجنونة، وجعلوها محور حديثهم على العشاء، أو بينما يستمعون للموسيقى أو يشربون الكوكتيل في شرفات المصيفين الآخرين الذين صادقوهم، يتبادلون خبراتهم البسيطة ونصائحهم لكيفية قضاء الصيف؛ مثل أفضل مكان لتأجير القوارب، وتناول سمك القاروس المشوي، وإيجاد جليسة أطفال جيدة. سيتبادلون الأخبار الخاصة بتلك المنطقة؛ مثل الفتاة النحيلة التي تتمشى وحدها ليلًا، والزوجين في منتصف العمر اللذين يجتمعان خلف مخزن المنتجات الغذائية.
بعدها سيقول أحدهم: "لقد وجدنا هذه الكابوريا على الشاطئ.. إنها أكبر واحدة رأيتها في حياتي".
سيقول آخر: "بمناسبة الكلام عن الغرائب، لقد قابلنا تلك العجوز المجنونة التي تعيش بالقرب منا".
سيرد عليه آخر: "لا تقل كلمة أخرى، نحن نعرفها بالفعل.. إنها مضحكة!".
سرعان ما سيعرف سكان المنطقة بما جرى، سيعرف الجميع، ستنتشر الأخبار حتى تصل إلى سيدة "سالتز" في المصحة.
عجوز، مجنونة، هذه هي الكلمات التي سيستخدمونها لوصفها.
فتحت الحقيبة ومدت يدها داخلها وهي تتمتم:
- قد أكون مجنونة لكنني لست عجوزًا، السابعة والستون ليس عمرًا كبيرًا!
نزلت التل بسرعةٍ شديدة حتى تقطعت أنفاسها وأخذت تلهث وتطرف بعينيها التي تجمعت حولها قطرات العرق، لم تمشط شعرها قبل أن تخرج من الباب مندفعة ككلبٍ مجنون يجري إلى البحر وهو ينبح، كانت غاضبة جدًّا، مثل كلب "بولدوج" يدافع عن صاحبه بشراسة، لكن لماذا؟ لماذا عليها أن تغضب إلى هذه الدرجة؟ هل حقًّا تهتم بمن يستلقي أو لا يستلقي على رمالهما؟ إنها تعيش معزولة هنا على التل، ولا يوجد منزل آخر عن بعد أميال، ألا يجب أن ترحب بأي زائرٍ يأتي من آنٍ لآخر؟ ألم تستمتع وهي تجلس في المساء تقوم بالحياكة وتستمع إلى أصوات ضحكات المصيفين على الشاطئ، كان عليها أن تصادقهم بدلًا من أن تزمجر في وجوههم.
كم مرة نصحتها السيدة "سالتز"! "ليس من واجبكِ حماية زوجكِ من العالم الخارجي، وعليك أن تجدي لنفسكِ أصدقاءً يا عزيزتي، لا يمكن أن تعيشي لأجله فقط".
كان عليها أن تهندم نفسها أولًا قبل أن تنزل بهدوء إلى الشاطئ وتقدم نفسها دون توتر، كان عليها أيضًا أن تأخذ لهم شيئًا مثل البسكويت أو التفاح.. صحيح أن البيت ليس فيه بسكويت أو تفاح، لكن ولو. ربما من الأفضل لو كانت انتظرت يومًا آخر وذهبت إلى بلدة "ويلفليت" واشترت بعض البسكويت، أو حتى خبزت كيكًا، كيك الشوكولاتة التي خبزتها لزوجها في عيد ميلاده الخمسين لم تكن سيئة.. كان ذلك منذ سنين، لكنها ستتذكر طريقة تحضيرها بالتأكيد.
يمكنها أن تلقي عليهم التحية بابتسامةٍ ودية، لكن ليس بمبالغة، ستقول: "مرحبًا، أنا أعيش في البيت الموجود أعلى التل. تفضلوا، ربما تودون بعض التفاح أو البسكويت.. أو أي شيء".
كان يمكنها أن تلعب مع الكلب أولًا ثم تتحدث مع الأطفال حتى تصل للكبار بالتدريج، وتبقى بضع دقائق نظرًا لأنها المرة الأولى ثم تعود إلى بيتها أعلى التل بهدوء وببساطة بينما ينظر إليها من النافذة ويعبس كما يحلو له.
كان يمكنها أن تكون جالسة على الشاطئ الآن تشرب الشاي من التُرمس وتمرر الطعام وهي مندمجة في محادثة.. محادثة! التحدث عن كل شيء وأي شيء تحت الشمس بأسلوبٍ لا تجيده إلا النساء، ما كانت لتتحدث فقط، بل ستستمع أيضًا، كانت ستجبر نفسها على الاستماع بدلًا من إمطارهم بحديثها

فقط. هذا سهل، لن تقع في فخ الثرثرة، ما الوصف القاسي الذي استخدمه؟ "ثرثرة سيدة عجوز".. (horror vacui)، إنه الخوف من الصمت، ما زالت تذكر كيف قال الكلمة بفخامة.
لا، ما كانت ستنزل إليهم كل يوم، بل كانت ستكتفي بزيارتين أو ثلاثة لكسر روتين الأسبوع. إنهم أصغر منها بالطبع لكن ليس كلهم شبابًا. أكبرهم امرأة تدعى "أنيتا شتاينز" وتبدو في الخمسينيات، بالإضافة إلى أن النساء الشابات يحببن أخذ النصيحة من سيدة أكبر سنًّا لديها خبرة أكثر في الحياة، كما كانت هي مع السيدة "سالتز" قبل أن تنقطع علاقتهما.
بعد بضعة لقاءات كانوا سيدعونها لبيوتهم، وتدريجيًّا كانت ستصبح عضوة في مجموعتهم الصغيرة وتجلس معهم في الشرفات. صوتها وحيد مقارنةً بمجموعة الأصوات القادمة من منزل "كابلان" كل مساء؛ ضحك ودردشة وموسيقى، يمكنها أن تستمع إلى الموسيقى بوضوح عن قرب بدلًا من إرهاق أذنيها في محاولة التقاط أشباح النغمات التي تسمعها عن بعد لتخمن الأغنيةً. أغاني "سيناترا" و"دوق إلينجتون"، وكل أغاني الجاز الشهيرة. لاحقًا ستتكون بينها وبينهم صداقة لطيفة بالتدريج، لنقل بعد أسبوعين أو أكثر. عندها يمكنها أن تدعوهم لشرب الشاي، ستفعل ذلك في أحد الأيام التي يذهب فيها إلى "أورلينز" أو "إيستهام" أو أي مكان يبحث فيه عن مواضيع جديدة لأعماله. يمكنها أن تقول بتلقائية وكأن الفكرة خطرت لها فجأة: "لم لا نذهب جميعًا إلى بيتي؟ لنشرب بعض الشاي أو الليمونادة؟ لديَّ بعض الخوخ الشهي أيضًا".
ربما أيضًا تأخذهم في جولة في البيت وتريهم لوحاتها.. لوحاتها هي.
سيقولون لها مازحين: "يا لكِ من غامضة! لم تخبرينا أنكِ رسامة".
ستهز كتفيها ببساطة وتقول بينما توزع عليهم أكواب الشاي أو ما شابه: "لا أحب مدح نفسي".
بدأت تبحث في حقيبتها بين قطع القماش مختلفة الألوان؛ بترولي، وسماوي، وأزرق كوبالت، وكحلي زاهي. هناك القليل من الأحمر، ونصف دستة من الأخضر بدرجات مختلفة، والكثير من درجات الأسود، لكن لا يوجد ما يكفي من الأبيض، ولديها نقص في الأحمر والأصفر.
إنها تخدع نفسها، حتى لو استطاعت أن تعقد صداقة مع هؤلاء السيدات على الشاطئ، سينتهي الأمر مثل كل محاولات الصداقة التي فشلت على مر السنين، بمجرد أن يكتشفن من هو زوجها، يفقدن الاهتمام بها، ولماذا قد يهتم بها أحد في وجوده المسيطر كناطحة سحاب تخيم عليها؟ إن كن خجلات من التحدث إليه مباشرةً، عندها يتحدثن معها عنه، وهكذا تنتهي علاقتها بهن.. إنها الحجر الذي يقفزن عليه للعبور إليه، الحمقاء التي تقتحم البستان لتسرق لهن التفاح.
كان هناك سيدتان؛ واحدة ترتدي ثوب سباحةٍ أسود والأخرى ترتدي واحدًا أحمر، بالإضافة إلى ولدٍ وكلبه. إنهم يأتون كل يوم في الظهيرة منذ أسبوعين، ينصبون معسكرًا صغيرًا على الشاطئ، يتكون من مناشف للجلوس علىً الرمل ومظلات وسلة طعام وكرة ملونة كبيرة، ترك الكلب فضلاته بين الرمال ولم يزعج نفسه بدفنها حتى.
بعد ذلك أصبحوا ثلاث سيدات وولد يأتون، المرأة الثالثة أصغر سنًّا لكنها ممتلئة أكثر من الأخريين، وهي من تحمل السلة، من الواضح أنها الخادمة. بحلول الخميس أصبح يأتي أربعة نساء مع الولد، لم يأتوا يوم الجمعة فظنت أنهم رحلوا، لكن اتضح أنهم كانوا يرتاحون فقط، فيوم السبت جاء سبع سيدات وولدان ورجل، الرجل وإحدى النساء كانا الوحيدين اللذين يرتديان ملابس عادية؛ الرجل ارتدى بذلة فاتحة اللون، والمرأة ارتدت بنطالًا طويلًا وقبعة صفراء كبيرة.

قال زوجها ذات مرة عندما اضطر إلى التعليق على عدد زوار الشاطئ: "إنهم يتكاثرون مع الوقت، كلما نظرت أجد عددهم قد ازداد".
عندما وصلت إلى الشاطئ، كان الرجل والمرأة ذات القبعة الصفراء قد ذهبا في اتجاه "باميت". وكان هناك امرأة ترتدي ثوب سباحة منقط وقبعة عليها أزهار وتقف في الماء، أما الولد المعتاد فيقفز مع كلبه بين الأمواج بالفعل، بينما ظل الولد الجديد ساكنًا غير مُلاحَظ.
ارتدت المرأة الأكبر سنًّا ثوب سباحةٍ أسود، وقفت تبتسم وهي تميل برأسها لتدفع خصلات شعرها داخل "بونيه" السباحة، قالت لي: "أنا السيدة شتاينز، لكن نادني بـ أنيتا، من فضلكِ". لكن تعابير وجهها كانت تعكس عدم رغبتها في التعامل معي أصلًا. كان هناك سيدتان تضحكان؛ إحداهما ترتدي فستانًا صيفيًّا خفيفًا، والأخرى تدهن ذراعيها بزيتٍ ما، أما الخادمة اللاتينية فكانت تفرش مناشف على الرمال ولم ترفع رأسها، لكن المرأة ذات ثوب السباحة الأحمر هي من سببت مشكلة. إنها في منتصف الأربعينيات على الأرجح، لكنها لا تبدو في منتصف العمر على الإطلاق.
قالت:
- نحن معتادون على استخدام شاطئ "فيشر" منذ بداية الصيف، لقد أصبح مكاننا المفضل كما ترين.
- أظنكِ ستجدين...
قطعت جملتها عندما لم تجد كلمات مناسبة للتعبير عما تريد قوله، تقطعت أنفاسها وتشتت تركيزها، بينما واصلت ذات الثوب الأحمر تدخين سيجارتها والنظر إليها بوقاحة وقد فلتت خصلة من شعرها من "البونيه" والتصقت بفمها.
لا تتذكر حتى ماذا ردت عليها، لكن كل ما تذكره هو أنها أخذت تتمتم بكلمة "زوجي" عدة مرات، لا بد أنها قالت شيئًا ما لأن السيدة ذات الثوب الأحمر ردت فورًا:
- لم أسمع بمثل بهذه السخافة من قبل.
- آسفة لذلك، لكن يظل الحال...
- جاءت صديقتاي بالسيارة من بوسطن، ويردن السباحة قبل أن تعودا، لكنكِ تقولين إن...
في هذه اللحظة عادت ذات الثوب المنقط من الماء وسألت:
- ما الأمر؟
- تقول إنه لا يمكننا استخدام هذا الجزء من الشاطئ؟
- ماذا؟
- تقول إن ذلك يزعج زوجها.
- إنه هذا النوع من الرجال إذًا.
- أنا فقط أحاول توضيح الموقف، أحاول أن أشرح ببساطة.
فجأة حاصرتها كل النساء بسيقانهن العارية وملابس السباحة ورؤوسهن المغطاة بـ"البونيه"، عيونهن مليئة بالسخرية والاحتقار، يشبهن حشرات عملاقة على وشك الهجوم. بدأت يديها بالارتجاف، شعرت ببعض اللعاب على طرف فمها، لكنها لم تمسحه بيدها خوفًا من أن يلاحظن ارتجافها.
- زوجي.. في الواقع.. زوجي.. ما أعنيه هو سواء كان موجودًا أم لا يجب أن تظل هذه البقعة فارغة، يحتاج زوجي إلى الهدوء لكي.. هذا هو شاطئنا، وهو...
ضحكت ذات الثوب الأحمر في وجهها ضحكة حادة قاسية مثل لسعة سوط، ثم قالت بسخرية:

- حسنًا، يمكننا أن نأخذ طريقًا مختصرًا إلى الشاطئ التالي، لكن سيعني هذا أن نمر من أمامه لمدة ثلاثين ثانية في طريق الذهاب وثلاثين أخرى في طريق العودة.. هل يمكننا إقناعه بتحمل هذا يا ترى؟ أتحدث عن زوجكِ المهم جدًّا.
استجمعت قوتها ونظرت إلى ذات الثوب الأحمر بازدراءٍ وقالت:
- أنتم زوار جدد، لذلك لا تعرفون...
- مهلًا، نحن نأتي إلى "كيب" منذ خمس سنوات.
- لكن ليس إلى هذه البقعة، لقد بنينا بيتنا هنا من أجل الخصوصية التي يوفرها المكان، لو أردنا الاجتماع بالناس لكنا ذهبنا إلى...
ما زالت "أنيتا" المرأة الأكبر سنًّا تبتسم ابتسامةً واسعة، وضعت يدها على ذراع المرأة ذات الثوب الأحمر وتقدمت خطوةً للأمام وقالت:
- أنا واثقة بأنكِ تعرفين السيدة "كابلان"، هذه السيدة قريبتها من طرف...
- بالتأكيد أعرف سيدة "كابلان"، أقترح عليكِ أن تسأليها وأنا واثقة بأنها ستدلكِ على أماكن رائعة.
بدأت تتراجع وهي ما زالت ترتجف وقالت:
- هناك الكثير من الشواطئ هنا، فقط اخرجي من بيتكِ واتجهي يمينًا بدلًا من يسارًا ستجدين شواطئ على طول الطريق وصولًا للمدينة. ستحتارين في الاختيار، لا يمكنكِ استخدام هذا الشاطئ فقط.
ظلت ذات الثوب الأحمر جالسة تغرس عقب سيجارتها في الرمل، ثم نهضت وصفرت للكلب ونادت الولدين.
- هيا يا أولاد، من الأفضل أن نرحل عن هنا بسرعة قبل أن تطلب هذه السيدة الشرطة.
بمجرد أن عادت إلى البيت متقطعة الأنفاس، ذهب لرؤيتها في المطبخ وسألها:
- ماذا قلتِ لهم؟
لم تجبه على الفور، فأنفاسها لم تكن تكفي لتكوين كلمات، جلست على حافة النافذة واضعةً يديها على صدرها وكأنها تثبت قلبها في مكانه.
كرر سؤاله:
- ماذا قلتِ لهم؟
ردت وهي تلهث:
- قلت.. قلت لهم.. إن.. مهلًا، مهلًا، هل تعلم.. ماذا.. تفعل.. سيدة "كابلان".. لكي تسمح.. لهؤلاء الناس.. بالقدوم! غير معقول! تلك المرأة.. التي.. ترتدي الأحمر...
- سألتكِ ماذا قلتِ لهم!
- قلت إنه.. شاطئنا.. وليس.. من حقهم.. المجيء، ثم حاولت إخبارهم.. من أنت، لكنهم بالطبع.. رفضوا.. الاستماع. حاولت إخبارهم.. أنت بحاجةٍ للخصوصية، في حال أردت.. العمل أو السباحة أو فقط التمشية، وإن أرادوا.. يمكنهم الذهاب يمينًا إلى...
- هل طردتهم من الشاطئ؟
- بالطبع.
- لماذا فعلتِ هذا؟
- لأن هذا ما أردته أنت.
- هل أخبرتكِ أن هذا ما أريد؟ هل طلبت منكِ أن تفعلي هذا؟

- لا، لكنك لست مضطرًا لإخباري لأنني أعرف.
- ماذا تعرفين بالضبط؟
- أنهم كانوا يزعجونك.
- في الواقع لم يسببوا لي أي إزعاج، أنا فقط لا أشعر الآن برغبةٍ في الرسم أو التمشية. وإن أردت السباحة، فلن يزعجني بضعة أفراد. انظري، لدينا الخليج بأكمله للسباحة، هل تعلمين ما الذي لا أريده الآن؟ لا أريد أن تعترض زوجتي على أي شيءٍ بالنيابة عني، هذا ما لا أريده حقًّا الآن. لا أريد تدخلك المستمر في شؤوني.
لا تريد التفكير فيما حدث بعد ذلك، ومع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فيه مرارًا وتكرارًا بمجرد أن هدأت أنفاسها واستطاعت النهوض.
هجرها النوم بعد الشجار، وأمضت ليلتها تبكي على الأرض. أما هو فنام في الغرفة حتى الصباح وهو يشخر، لقد حطمت وعاءين مفضلين لديها في الجدار، وضربته بكل ما وصلت إليه يداها؛ مثل الأواني (لماذا لم تحطم أوانيه بدلًا من أوانيها)، بعض الكتب، يد المكنسة التي جذبها من يديها وحطمها نصفين على ركبته. كان شجارًا عنيفًا وقذرًا ومهينًا، لكنها على الأقل آذته مثلما آذاها وأكثر، لقد أرته ما يمكنها أن تفعل.
لكن ما كان عليها أن تعض يده، وهو ما كان عليه أن يجرها على الأرض، حتى لو كان يبعدها عن النافذة التي هددته بأنها ستحطمها بيد المكنسة. يعلم الله وحده لماذا هددته بذلك، وكأن النافذة هي الملامة على ذلك لأنها تطل على الشاطئ وزواره. فرضًا أنها حطمت جزءًا منها، أو حتى حطمتها كلها بألواحها الستة والثلاثين، ما الفارق الذي سيحدث؟ سيتم تصليحها وإعادتها لطبيعتها وينتهي الأمر، لكن الكلمات الجارحة لا يمكن سحبها، الكلمات هي أسوأ سلاح؛ فهي قاسية وشريرة ومريرة.. إنها كالجرح الذي ينزف صديدًا.
أخذت قطعة قماش من حقيبتها، وبدأت تقصها ببطء لشرائط متساوية.
هذه المرة لم تجعله ينزف على الأقل، هذه المرة عضته فقط، لقد أخبرته وحذرته: "اتركني وإلا سأعضك، اتركني وإلا سأعضك.. اتركني!". لا يمكن أن يتهمها أحد بأنها لم تحذره.
لكنه لم يتركها وهي آذت يده.
منذ تلك المرة خيَّم الصمت بينهما، أصبح يأتي ويذهب ويختفي لساعات بالسيارة، وأحيانًا يمشي. كل هذا دون أن يلقي كلمةً عليها، ولا حتى "مع السلامة".
شعرت بمغصٍ في معدتها وبغصةٍ في حلقها، لم تأكل شيئًا منذ الشجار، عندما استيقظت في الصباح التالي قررت أنها لن تأكل.. لن تأكل حتى يعتذر لها أو تموت، لكن بما أنه لن يعتذر أبدًا، فستموت على الأرجح. تعلم أن تصرفها طفولي، لكنه يمنحها شيئًا تتشبث به، خطة لتحقيق هدفٍ ما، بغض النظر عن كونها بلا فائدة.
من سيهتم أصلًا بحياتها أو موتها؟ لو عاد إلى البيت في أي وقت ووجدها عظمًا يرتدي فستانًا، هل سيلاحظ أصلًا؟
الرجال مخلوقات جاحدة، لكنهم يمتلكون قدرة هائلة على التحكم بالنفس.
في طفولتها ومراهقتها كانت تستخدم الإضراب عن الطعام كسلاح لإغضاب أو استرضاء والدتها، والدتها المسكينة.. وكأنها كان ينقصها متاعب أخرى بخلاف زوجها وابنها المدمنَين، لكن يبدو أن أمها لم تكن منزعجة تمامًا من طبعها الصعب، كانت تحب الكلام عن ابنتها الصغيرة بطبعها العصبي

وصديقتها التي حذرتها من هذا الطبع وقالت: "من الأفضل أن تكسري طبعها الصلب"، عندها ردت والدتها: "لن أفعل، فقد تحتاجه يومًا ما".
كانت في الثالثة من العمر وقتها وتربط شعرها على شكل ذيل حصان قصير، يبدو أن أمها كانت تعلم أن حياتها ستكون سلسلة من المعارك الكبيرة والصغيرة في حربٍ لا تنتهي.
لكنها تشعر الآن أن أمها كانت مخطئة في تشجيع طبعها الحاد، كان عليها أن تعلمها التحكم بنفسها، التحكم بالنفس هو السبب الذي يجعل الرجال يفوزون على النساء دائمًا، يفوز الرجل على المرأة ليس لأنه الأذكى أو الأصح رأيًا، بل لأنه لا يسمح للمشاعر بالتغلب على إرادته أو تشويش تفكيره، يفوز لأن سيطرته على نفسه تسمح له بالحفاظ على هدوء أعصابه، وبالتالي معرفة التصرف السليم. لا عجب في أنها تخدشه وتعضه! لن تسمح لنفسها بفعل ذلك مجددًا، ستريه أنها تستطيع التحكم بنفسها.
بدأت ترتب شرائط القماش الملونة في أكوام صغيرة على الطاولة وهي تتساءل من يطعمه الآن، في اليومين الماضيين لم يدخل إلى المطبخ إلا وهي ليست فيه. ولا تعرف أنه قد فعل إلا عندما تشم رائحة القهوة وهي في البلكون أو القبو أو غرفة النوم. لا توجد أماكن كثيرة للاختباء في هذا البيت، ربما يتناول قهوة وساندويتشات. مع ذلك تعلم أنه ليس جائعًا، بل على الأرجح يأكل أفضل مما كان وهما على وفاق. لقد وجد مائدة أخرى، يكفي أن يذهب سيرًا أو بالسيارة إلى أي مطعم في بلدة "ترورو".. لا، بل هو مضطر للذهاب أبعد من "ترورو" وإلا سيخاطر بأن يسأله أهل المنطقة عن زوجته، أو الأسوأ وهو ألا يسألوه مطلقًا، مما يعني أنهم خمنوا السبب وراء تناوله الطعام بمفرده. إذًا يذهب إلى "بروفينستاون" أو "إيستهام" أو "أورلينز" أو أيًّا كان، ثم يجلس على طاولةٍ هادئة مغطاة بمفرش كاروهات أحمر أو أزرق، ويميل للأمام بأسلوبه البطيء المعتاد وهو يرفع الشوكة إلى فمه، فيها قطع لحم مع صوص التفاح على الأرجح، ومعها قطع بطاطا، وربما بعض الذرة بالزبدة، ولا مانع من بعض السبانخ بالكريمة المطبوخة. وتقف خلفه امرأة تمسح يديها في مريلة المطبخ وتسأله إن كان يحتاج شيئًا وهي تبتسم لأن طعامها أعجبه، هل يقول لنفسه عندها: "لقد اخترت المرأة الخطأ؟ كان عليَّ اختيار امرأة تصلح أن تكون زوجة، امرأة تحب وجودها في المطبخ، ولا تمانع أن تعلق رائحة الطبخ بشعرها، أو أن تمسك منشفة الأطباق المبتلة، امرأة تدخل إلى غرفة الرسم من تلقاء نفسها وتضع بجانبي طبقًا فيه وجبة خفيفة بصمت دون أن تشتت انتباهي". هل يتمنى امرأة تخيط ملابسه بينما يقرأ الجريدة؟ امرأة لا تجرؤ على مقاطعته وهو يتحدث مع رجال آخرين؟ وتخنق أفكارها قبل أن تجرؤ على معارضته في الرأي؟ تبتسم بدلًا من أن تكشر، لا تقول إلا "نعم يا عزيزي" و"لا يا عزيزي" و"هل تريد المزيد من التفاح يا عزيزي؟".
أخذت الشرائط القماشية ووضعتها على الطاولة، وظلت تلعب بها وتشكل منها حروفًا، صنعت حرف (H) أبيض، وحرف ((T أزرق، وحرف (M) أخضر لكن معوج قليلًا.
سيكون اسمها "نانسي"، بل "بيتي".. اسم لطيف وسهل وجذاب؟ وكذلك ستكون المرأة فاتنة القوام لتجذبه إليها. حسنًا، هنيئًا لـ"بيتي" وله، ستعيش أيامها في انتظار الفتات الذي سيرميه لها بينما يحيط نفسه بنجاحاته الخاصة، وكأنها بطانية مصنوعة خصيصًا له وحده.
صنعت آخر حرف ثم قرأت الجملة التي كتبتها بشرائط القماش: "أنا أكرهه".. هذا ما كتبته!
قبل انقطاع الصلة بينهما، قالت سيدة "سالتز" لها:
- يجب ألا تشتكي من زوجكِ؛ أي امرأة مكانكِ ستطير فرحًا به، فهو ليس سكيرًا أو زير نساء، ويجيد إصلاح الأعطال في المنزل.. يا إلهي! ماذا تريدين أكثر من هذا؟ هذا في نظري بكل بساطة يُسمى

عدم إخلاص.
- عدم إخلاص؟ لا أعرف كيف تقولين هذا، أنا أكثر زوجة مخلصة سترينها في حياتكِ، أنا أقوم بكل شيء، لقد ضحيت كثيرًا من أجله، ضحيت بمهنتي وبـ...
- فليكن، لكنني أحيانًا أسمعكِ تقولين هذا الكلام أمام أي شخص، لا أصدق! يجب ألا تفعلي هذا.
- لكنه يغضبني؟ لا تعرفين شعوري. إنه.. إنه.. صامت جدًّا! أشعر بالوحدة، خاصةً مع وجود عدد قليل جدًّا من الجيران. إنه لا يهتم إن لم يتبادل كلمة واحدة مع أي كائن حي، لكنني أحتاج إلى التعبير عن نفسي، أحتاج للتحدث، كلما فتحت فمي تخرج الكلمات مني.
- فلتكتبيها إذًا، اكتبيها واحتفظي بها لنفسكِ.
رفعت رأسها من على الطاولة واختلست النظر إلى غرفة الرسم عبر فتحة الباب، لم تجد سترة الصيد وقبعة الصيد القديمة معلقتين على مسند الرسم كالمعتاد، ثم رأته يرتديهما ويمد يده نحو الحامل الذي اهتز فجأة ووقع بين ذراعيه وكأنه شريكته في الرقص التي تشعر بالتوتر وهو يقودها ليرقصا. اجتاحها شوقٌ مفاجئ رغمًا عنها، اشتاقت ليديه الكبيرتين القويتين، ولجسده، وحتى لرائحة الطلاء العالقة بجسده العاري. للحظةٍ تخيلت نفسها بين ذراعيه ترجو عفوه وتمسك بيديه وتدفن فيهما وجهها. نعم، تخيلت نفسها تمسح وجهها في يديه الجميلتين.
عضت على شفتها ورفعت المقص مجددًا ثم وجهته إلى جملة "أنا أكرهه"، وقصت الأطراف الزائدة، ثم خطرت لها خاطرة.
لو وقف ينظر إلى نور الشمس طويلًا ثم أخذ الفرشاة ومسند الرسم وخرج، فهناك سببٌ واحد.. هل يمكن أن يكون...؟ بعد أسابيع طويلة من الخمول والكآبة والحيرة والصمت، هل يمكن أنه سيبدأ لوحة جديدة؟ أخيرًا؟ ولو سيأخذ أدواته للخارج - وهذا واضح - فهل سيعود إلى رسم الطبيعة؟ هل سيرسم في الهواء الطلق؟ "الرسم من الطبيعة" كما يحب أن يسميه، شعرت بدمها يغلي حتى أدركت أنه ما دام سيبدأ لوحةً جديدة بعيدًا، فهذا يعني أنه سيتجاهلها ويتركها خارج الصورة.. هذا سيكون عقابها، أن ينبذها من حياته، لن يكون هناك نقاش، لن يطرح أسئلة أو اقتراحات، وأي تعليق سيقوله سيظل معلقًا في الهواء بلا إجابة، سيبتعد عنها، سيخرج على راحته كما فعل في الأيام الماضية.. سيبدأ لوحته، وحين يعود سيأخذ أغراضه وينعزل في غرفة الرسم الخاصة به ويتجاهلها بإصرار.
لكن أولًا سيدخل المطبخ بسترة وقبعة الصيد، ويأخذ مفتاح السيارة من على حافة النافذة ثم سيخرج من الباب دون أي كلمة، مرت ثلاثة أيام من هذا العذاب، يدخل المطبخ ويمر بها بتجاهل، وكأنها ليست موجودة.. إنها شبح من دونه، أو أسوأ.. كأنها لم تولد أصلًا، سيتركها واقفة عند النافذة تشاهده ينزل السلالم الخشبية ببطء حاملًا حقيبته على كتفه ومسند الرسم تحت ذراعه.
خرج من غرفة الرسم واستدار إلى المطبخ، بعثرت بسرعة الحروف التي شكلتها بالقماش وجمعتها في كومة صغيرة، ثم عبست بوجهها وهي تحرك قطع القماش وتعبث بها وكأنما تقول إنها أيضًا لديها شيءٌ مهم تفعله في الظهيرة، لديها قرار لتتخذه.
دخل وخرج من المطبخ بينما أبقت رأسها محنية؛ لن تنظر إليه، لن تمنحه الشعور بالرضا، يمكنها سماعه في غرفة الرسم وهو يصعد السلم، ثم صوت ارتطام وكركبة. إنه يسحب شيئًا بصعوبة، ماذا يكون يا ترى؟ ماذا يفعل؟ اختلست النظر إليه وهو ينزل من على السلم حاملًا قطعة من قماش الرسم مشدودة على خشبة بالفعل.

نعم، سيخرج للرسم. ونعم، سيرسم من الطبيعة، متى كانت آخر مرة فعل فيها هذا؟ وهو يعلم كم تحبه أن يرسم من الطبيعة، يختار منظرًا ويجهز أدواته أمامه، ثم يستوعبه وبكل إعجاز ينقله إلى القماش بضربات فرشاته، مع أنه ينقل المنظر نفسه، لكنه يكون فريدًا ومختلفًا تمامًا.. سيفعل كل هذا، لكن بدونها.

عاد إلى المطبخ ومر من خلفها ليأخذ مفاتيح السيارة من على حافة النافذة، استدارت ونظرت إليه، عينان فاتحتان في وجهٍ أسمر غامض تنعكس عليه شمس الظهيرة.

اندفعت قائلة:

- سآتي معك.

ثم جمعت أغراضها في حقيبة العمل، لم يرد عليها وخرج من المطبخ ليواصل جمع كل ما قد يحتاجه قبل أن يخرج من البيت.

خرجت خلفه وهي تقول وتحاول أن تبدو نبرتها خفيفة وخالية من الخوف:

- إذا كان يناسبك بالطبع، أعني إن لم يكن لديك اعتراض.

توقف واستدار ثم تحدث إليها لأول مرة منذ أيام:

- ماذا تريدين مني؟

- ماذا أريد؟ لا أريد شيئًا.. لا أريد.. لا أريد البقاء وحدي هنا، يا له من سؤال!

فتح الباب وسنده بيده ثم أشار لها بيده الأخرى لتخرج أولًا.

اتجها بالسيارة إلى "أورلينز" بصمت، عندما وصلا إلى البلدة توقف في شارع جانبي واسع، خرج من السيارة بينما تشاهد انعكاسه في المرآة الجانبية وهو يفتح حقيبة السيارة ويأخذ شيئًا ثم يسير في الشارع، سار بخطواتٍ واسعة وهو يميل برأسه، ولمحت في جيبه الأوراق التي يجرب فيها الرسوم الأولية للوحاته، تذكرت ذلك الموقف في "جلوستر".. كانت المرة الأولى التي يتحدثان فيها لبعضهما مباشرةً دون وجود أحد. إنه اليوم الذي ضاع فيه "آرثر". ولاحقًا رأياه يسير صاعدًا على الطريق المنحدر تحت ضوء الشمس وبجوار المباني المطلة على البحر.

اجتاحتها ذكريات كثيرة بقوة، ذكريات من تعارفهما في "جلوستر" وشهر العسل والسفر في الإجازات ومشاهدته وهو يعمل. كانت تقف تشاهده طويلًا لدرجة أن ساقيها تعجزان عن حملها، كانت سعيدة بحصولها على هذه المشاعر أخيرًا عندما أصبحت عروسًا في الأربعين من العمر، لكن ما فائدة الذكريات الآن وهي جائعة وعطشانة وتريد دخول الحمام لكنها مجبرة على الاحتمال مثل كلب صغير ينتظر في سيارة مركونة في طريق جانبي على أطراف "أورلينز"، حتى أنه ترك فتحة صغيرة في النافذة لكيلا تختنق "الكلبة الصغيرة"، وركن تحت الشجر لكيلا تموت "الكلبة الصغيرة" من الحر.. يا له من مُراعٍ! على الرغم من أنها تعرف أنه ركن السيارة تحت الشجر حفاظًا على سيارته الـ"بويك" العزيزة وليس زوجته التي تركها فيها.

فتحت "التابلوه" ووجدت كومة صغيرة من الأقمشة الزرقاء، استدارت في مقعدها ووضعت حقيبتها بين ظهرها وبين باب الراكب كالوسادة، ثم فردت رجليها على كرسي السائق وفردت إحدى الأقمشة الزرقاء وبدأت تكلم نفسها في السيارة.

- يبدو أنه عليَّ الانتظار هنا إلى أن يقرر العودة، لا بأس.. لا بأس تمامًا، لا توجد مشكلة على الإطلاق.

على الأقل يمكنها التحدث بحريةٍ مع نفسها هنا دون أن يقول لها: "هل تتحدثين مع صديقكِ الخيالي مجددًا؟"، ودون أن تضطر للرد عليه قائلة: "يجب أن أجد أي شخص لأتحدث معه، أليس كذلك؟".
فَرَدَت على حجرها بطانة السجادة التي تحيكها، وبدأت تعمل عليه في الجانب الأعلى الأيسر. قالت:
- لقد أخذ المفاتيح أيضًا، بالطبع لا يريد أن تفكر المرأة الحمقاء في قيادة السيارة وحدها، بالتأكيد لا يريد ذلك.
أخذت تعقد شرائط القماش لتصبح على شكل شبكة مكونة من شرائط قماش متداخلة.
أمسكت شريطًا آخر وكررت العملية بضع مرات قبل أن تدرك شيئًا. لقد سار في الشارع دون أن يأخذ معه شيئًا، كانت يداه فارغتين، لم يحمل شيئًا، لم يحمل حتى حقيبته.. هل يمكن أن يكون قد ذهب ليتفقد شيئًا ثم يعود خلال دقائق ويجلس في المقعد الخلفي كما اعتاد ليرسم شيئًا، لكن ماذا؟ نظرت إلى الشارع أمامها ثم استدارت ونظرت خلفها، لم ترَ سوى البيوت والأشجار والطريق. قالت:
- لا يوجد ما يمكن رسمه هنا، لكن لا يمكن التأكد أبدًا مع شخصٍ مثله.
واصلت العمل..
دون حقيبة أو قماش للرسم، بل فقط أوراق "الإسكتش"، لماذا أحضر الأدوات معه ما دام سيتركها في السيارة؟ إلا إذا...؟
إلا إذا لم يكن يفكر في الرسم من البداية أصلًا.. بالطبع! عقله خالٍ من الأفكار تمامًا.
إنها خدعة، لقد خدعها، كان يعرف أن ذلك سيدفعها لتقوم بالخطوة الأولى، يعرف أنها تحب أن تحضر مراحل تكوين اللوحة من بدايتها.. كيف كانت بهذه السذاجة؟!
- طلب المجيء معه كان مثل طلب السماح منه، كان يجب أن أبقى وأتركه يذهب ثم آخذ حقيبتي وأذهب إلى "تورورو" لأركب الحافلة، كان عليَّ أن أتركه وأحزم أمتعتي القليلة من بيتنا في نيويورك قبل أن أتركه نهائيًّا.
نعم، كان عليها أن تتركه لأصحاب المعارض الجشعين، وللمحاورين الذين يريدون استخلاص روحه وتحليلها، كان يجب أن تتركه للوعود الكاذبة والأجور البخسة، وإلى الإطارات الرخيصة التي تخفي جمال لوحاته وهي معلقة بإهمال على الجدران، إلى سيدات "بارك أفينيو" اللاتي يردن استخدام لوحاته كورق حائط.
واصلت العمل..
مدت يدها لشريطة قماش أخرى لكنها لمحت شيئًا عبر الشارع؛ ولد يجلس وحيدًا على عتبة بيت، كان منحنيًا ويسند رأسه على ركبتيه، مالت أكثر لتراه جيدًا فوجدت أنه يضع وجهه بين يديه المستندتين على ركبتيه، رفعت نفسها قليلًا من على الكرسي ورأت أن الفتى يهز رأسه يمينًا ويسارًا وكأنه يبكي. ولد مسكين! لكن البيت يبدو جميلًا، جميلًا جدًّا. مصنوع من ألواح بيضاء ناصعة، وتتدلى منه أُصُص أزهار. من المحتمل أن الولد قد ترك لَطْخة بيديه على مرآة الحمام، أو ترك بقعًا بقدميه على أرضية المطبخ، لهذا هو معاقب. من المفترض أن يسمحوا للأطفال بالاتساخ قليلًا في أثناء اللعب، أن ينطلق للعب في الخارج ثم يعود إلى المنزل متسخًا.. لو كان لديها ابن، لقامت بـ... بصراحة، من يعلم أي نوع من الأطفال كانا سينجبان إن اندمجت طباعهما العجيبة.
نظرت إلى النسيج في يديها، لقد انتهت من الجزء الأزرق، القسم العلوي أصبح متدرجًا بدرجات الأزرق.
- يبدو جميلًا.

خرج الولد من المنزل ولاحظ سيارة "بويك" مركونة عبر الشارع، جلس على السلم حيث لا يمكن رؤيته من غرفة المعيشة، وغطى وجهه بيديه ثم انحنى على ركبتيه وضغط على عينيه براحة يده.
واصل الضغط حتى شعر بألم في أعصاب عينيه، ثم رفع وجهه وفتح عينيه على وسعهما، فصعقته ومضات من الضوء الملون؛ برتقالي، فضي، بنفسجي، أزرق، واصل النظر حتى بدأت الألوان في الاختفاء وعاد ضوء النهار طبيعيًّا في عينيه. عادت الرؤية إليه، فرأى الطريق وركبتيه والممر الممهد القصير الذي يشق الحديقة بعشبها المشذب وبوابتها الخشبية البيضاء وسورها المماثل، كما رأى السيارة الـ"بويك" ما زالت مركونة عبر الشارع.
ارتفعت خلفه أصوات نساء، وتخيل في عقله الغرفة التي تركها للتو. أتى صوت سيدة "كابلان" من ناحية الأريكة الصفراء، ويصاحبه صوت سيدة "جرانت" مالكة البيت الإنجليزية، أما من ناحية الكرسي الأخضر الكبير فيأتي صوت والدة "ريتشي"، ينادونها بـ"أوليفيا" أو "سيدتي". كانت تجلس على ذراع الكرسي بينما تجلس صديقتها "أنيتا" على الكرسي نفسه، التي لا تحب أن يناديها أحد بـ"آنسة شتاينز"، هذان الصوتان يندمجان مع الأصوات الأخرى أحيانًا، وينفردان وحدهما أحيانًا أخرى. في الركن الأبعد من الغرفة توجد كنبة خضراء كبيرة تجلس عليها "كاثرين" عمة "ريتشي"، وهي تقريبًا لا تتحدث، في البداية ظن الولد أنها مريضة وصوتها ضعيف لذلك لا تتحدث كثيرًا كباقي النساء، ثم تذكر أنه سمعها تغني بضع مرات منذ أن جاء، وأحيانًا تغني أغاني كاملة في المرة الواحدة.. مما يعني أنها ليست مريضة. أتى الصوت الأخير من عند الكرسي الأحمر الناعم المجاور لباب غرفة المعيشة مباشرةً، لا يعرف عن صاحبة الصوت شيئًا غير أنها تضع الكثير من العطر ولديها عينان خبيثتان ووجه كبير مليء بالبثور وتسأل أسئلة كثيرة.
السيارة الـ"بويك" مركونة تحت الشجر، وقد يكون بداخلها شخصُ ما، لكن من الصعب التحديد بسبب ظلال الفروع المتدلية فوقها، أحيانًا يلمح حركة ثم لا يرى شيئًا. لقد عرف أنها سيارة "بويك"، لأن "فينس" صديق "هاري" يملك واحدة مثلها.
رفعت والدة "ريتشي" صوتها وابتعدت، فظن أنها ستجلس بجانب "كاثرين"، لكن صوتها ابتعد إلى الصالة ثم تشوش قليلًا قبل أن يعود إلى الغرفة.. كل هذا وهي تقول الجملة نفسها. تمنى لو أنها لا تتحرك دائمًا، فهو يحب أن يعرف مكان الجميع في الغرفة دون أن يكون معهم فيها، والطريقة الوحيدة لفعل هذا هي أن يتابع أصواتهم.
لا يهمه ماذا يقولون، فكل الكلام ينتهي بفوضى لا يفهمها؛ الحرب في كوريا، وحذاء "كاثرين" الجديد، والسيدة العجوز التي طردتهم من الشاطئ في أول مرة له يرى البحر فيها، الآن تحول الحديث إلى مناقشة عن إجازة عيد العمال حين يعود الرجال وماذا يجب أن يفعلن لهم من لحظة وصولهم حتى رحيلهم.
إنه لا يعرف من قد يكون هؤلاء الرجال، فوالد "ريتشي" في الحرب، و"كاثرين" ليست متزوجة، قال "ريتشي" إنها مريضة ولا يمكنها أن تتزوج، حتى لو استطاعت جذب مائة رجلٍ بجمالها، قال "ريتشي" إن الأطباء اضطروا لإخراج كبدها، قال إنهم كسروا ضلوعها ليخرجوه، حطموها بمطرقة ثم مد الطبيب يده وانتزع الكبد.
وسيدة "كابلان" ليس لديها زوج أيضًا، لأنه توفي منذ وقتٍ طويل عندما كانت "كاثرين" في المدرسة الثانوية، ولا يمكن أن يكون زوج "أنيتا" لأنها أحيانًا تُنادى بـ"آنسة شتاينز"، ربما كان زوج

السيدة "جرانت"، أو السيدة ذات الوجه المليء بالبثور، هذا إن كان لديها زوج، شعر الولد بالأسف عليه لو أنه موجود أصلًا.
لفت انتباهه مجددًا حركة في السيارة الـ"بويك" المركونة عبر الشارع.. ليس داخلها فقط، بل أيضًا خارجها وفوقها وجانبها بسبب فروع الأشجار التي ترمي بظلالها عليها، ظلال راقصة وكأنها قطع "بازل" سوداء.
كان "فينس" يقود سيارة "بويك" ويمر بهم أيام الأحد ويأخذهم في نزهة، كان يحب هذا كثيرًا، اعتاد "هاري" أن يشرح له قبل أن يركب أين سيذهبون وماذا سيرون في الطريق وماذا ينتظرهم حين يصلون.
كان شعورًا جميلًا أن ينظر من النافذة إلى المباني ثم النهر بينما يشير "هاري" إلى الجسر بمجرد أن يظهر، وأحيانًا يخبرهم "فينس" معلومة عن الجسر، مثل اسمه ومن بناه وكم عدد العمال الذين توفوا قبل إتمام العمل عليه.. وفجأة يجد الجسر قد أصبح خلفهم، بعد ذلك يرى الأشجار والعشب ويتناول أيس كريم وأحيانًا ساندويتشات سجق.
ذهبوا بضع مراتٍ إلى حديقة "سنترال بارك"، لم يحب ذلك لأن الطريق كان يضطرهم للقيادة بطول الحي الخالي من الناس بسبب الإجازة، فلا يستطيع عندها إلا ملاحظة الأشياء القبيحة مثل القمامة الملقاة على الرصيف وأوراق الجرائد المبعثرة وسيدة عجوز تنام على عتبة أحد الأبواب. ذات مرة أخذهم "فينس" لزيارة شخصٍ يعيش بعد "سنترال بارك" بمسافةٍ بعيدة، وعندما فتح الرجل الباب، كان هناك عائلة كاملة من الزنوج بداخل المنزل، تحدث "هاري" و"فينس" مع الرجل في غرفةٍ أخرى عن شؤون النقابة بينما أعدت زوجة الرجل القهوة لخالتي، أما طفلها فجلس في سريره المعدني الذي صنعه له والده الزنجي بيديه وظل يلقي لعبته على الأرض، لكن الولدين اللذين في مثل عمره رفضا اللعب معه، على الرغم من أن والدتهما أمرتهما بذلك، لم يتحدثا معه حتى عندما بادر بالحديث وحاول أن يكون ودودًا، ثم تسللا من الغرفة واحدًا تلو الآخر، وبعد ذلك لمحهما عبر النافذة يلعبان تنس الريشة مع مجموعة من الأولاد الزنوج، وتركوه لا يفعل شيئًا غير التقاط اللعبة من على الأرض وإعادتها للطفل.
أتى صوت كركرة وتكتكة من بيت السيدة "جرانت"، تعرف على الصوت فورًا لأنه سمعه في بيت سيدة "كابلان" في "تورورو".. إنه صوت عربة الطعام التي تدفعها خادمتها "روزيتا" من المطبخ وحتى البلكون الخلفي. يعرف أن اسمها "عربة طعام" لأنه ذات مرة كان مع خالته في مركز تسوق "مايسي"، وكان هناك عرض بعنوان "مميزات عربة الطعام". دخلت سيدة بابتسامةٍ مبالغ فيها وهي تدفع عربة طعام بين الجمهور، امتلأت العربة بأطباق البسكويت وكرات الجبن، حملت السيدة كل طبقين وظلت توزع على الناس وهي تقول: "تفضلوا، تفضلوا.. سيدتي، سيدتي". في حين وقف رجل خلف "الكاونتر" وتحدث في الميكروفون عن فوائد عربة الطعام، قال الرجل لخالتي إن هذا سيجعل مهمة الضيافة أسهل عليها، فقالت خالتي: "لا أحتاج لجعلها أسهل لأنني لا أقوم بها أصلًا"، ظنت النساء أنها تمزح فضحكن، بينما احمرت كل ذرة في وجه خالتي.
خادمة السيدة "جرانت" تشبه "روزيتا" خادمة السيدة "كابلان"، وكلاهما نسخة طبق الأصل من السيدة "ميندیز" التي تنظف المدرسة، أو إحدى الفتيات اللاتي يعملن في مشغل الخياطة بالقرب من مسكنه، تبدو خادمة السيدة "جرانت" أكثر كآبة من "روزيتا" التي تعدُّ كئيبة قليلًا لكنها تستطيع المزاح أحيانًا؛ بعد وصوله ببضعة أيام، لعبت معه حرب الوسائد، وكان أمتع شيءٍ فعله في حياته،

ضحكت "روزيتا" بأسنانها ناصعة البياض، إلى أن سئم "ريتشي" وبدأ بالبكاء، ثم أوقع نفسه عمدًا من على السرير ليجد لنفسه عذرًا أقوى للنحيب، عندها استعادت "روزيتا" فورًا وجهها الكئيب وأخبرتهما أن يغتسلا قبل العشاء ويتركاها لتقوم بعملها.
نظر إلى الـ"بويك" مجددًا، هذه المرة أصبح متأكدًا من وجود حركة بداخلها.. ربما كلب، أو طفل، شيء صغير الحجم. فكر في الاقتراب قليلًا ليتأكد لكنه لاحظ أن محور الحديث الذي يدور في الغرفة قد تغير ودخل فيه اسمه.
قالت والدة "ريتشي":
- آل "نوفاك"، اسمهم آل "نوفاك" على ما أظن.
ثم قالت السيدة ذات الوجه الكبير:
- وتقولين إنهم يعيشون في نيويورك؟ لكن من أين جاؤوا؟
- وُلد السيد "نوفاك" هناك على ما أظن، أما سيدة "نوفاك" فقد يكون أصلها من أوروبا الشرقية، يجب أن أسأل حماتي. أمي، من أين سيدة "نوفاك"؟ هل تعرفين؟
- لست متأكدة يا "أوليفيا".
سألت السيدة ذات الوجه الكبير:
- ومنذ متى وذلك الولد في رعاية آل "نوفاك"؟
- أمي، منذ متى والولد مع آل "نوفاك"؟
- منذ متى ماذا يا عزيزتي؟
- منذ متى وهو مع آل "نوفاك"؟
- دعيني أتذكر.. أربع أو خمس سنوات على ما أظن، كان من أوائل اللاجئين الذي وصلوا لكنه آخر من تم أخذه، كان في المعسكر الأمريكي لعامين، لكن لا أعرف أين كان قبله، السيد "نوفاك" وصديقه السيد "رونكاتي" ساعدانا كثيرًا، علقا الأرفف وأصلحا الأشياء.. إنهما رائعان!
- قالت أمي إنه ولدٌ محظوظ، فلولا آل "نوفاك" لظل وحيدًا في المعسكر.
- "أوليفيا"! أنا لم أقل ذلك أبدًا، بل قلت ببساطة إن الرضع والأطفال الاجتماعيين يؤخذون أولًا قبل الأطفال الأكبر سنًّا والأهدأ طبعًا، لقد كان منطويًا جدًّا ولم يندمج مع الآخرين جيدًا.
قالت والدة "ريتشي":
- لم يتغير كثيرًا.
قالت سيدة "كابلان":
- أنا أحبه كثيرًا.
شعر بسعادةٍ كبيرة حين سمع ذلك حتى كاد يبكي، لكن عندها قالت والدة "ريتشي":
- الكل يعرف أن حماتي تحب الجميع.
قالت السيدة "كابلان":
- كلامٌ سخيف يا "أوليفيا"، لم لا تساعدين السيدة "جرانت"؟ مرري الأطباق، دعيني أساعد أيضًا يا سيدة "جرانت". من فضلكِ، أنا أصر. من يحب الكريمة ومن يحب السكر؟ أو الليمون؟ هل يود أحدكم إضافة الليمون؟ ماذا عنكِ يا "كاثرين"؟ هل تعرفين يا آنسة "شتاينز" أن سيدة "جرانت" تعرفت على زوجها في الحرب عندما كان متمركزًا في لندن؟ أليس هذا رومانسيًّا؟

عندما كان "فينس" يأخذهم أيام الأحد كان أحيانًا يحضر معه فتاته، لكنه كان يجعلها تجلس في الخلف دائمًا لكي يجلس "هاري" بجانبه ويتحدثان عن البيسبول أو العمل. اسمها "شيرلي"، ولم تكن تحب المقعد الخلفي، كانت تشبك ذراعيها وتنظر من النافذة وبالكاد تجيب بالقليل حين تكلمها خالتي عن الجو أو عن جمال ثوبها أو تسريحة شعرها، وحين يقول "فينس": "سيداتي.. سادتي، لقد وصلنا وجهتنا"، لم تكن تبتسم حتى، وبمجرد أن نخرج من السيارة كانت تتشبث بـ"فينس" وكأنها تخشى أن يطير في الهواء مثل البالون - كما قال "هاري" ذات مرة - ولا تتركه مطلقًا.. ولا حتى لتأكل المثلجات.

قالت خالتي إن "شيرلي" نحيلة جدًّا، وسأله "هاري" إن كانت هذه هي أرفع فتاة رآها في حياته؟

- عندها ظهرت في عقله صورٌ كثيرة لأشخاص أرفع من "شيرلي" بكثير، بعضهم كان مستلقيًا، وبعضهم كان يسير في طريقٍ خالٍ، لكنه لم يكن متأكدًا إن كانوا أشخاصًا حقيقيين أو مجرد أشخاص ظهروا في كوابيسه من قبل وعلقوا في ذهنه، لذلك رد ببساطة:

- نعم، "شيرلي" هي أرفع فتاة في العالم.

ذات مرة قالت "شيرلي":

- لماذا لا نذهب إلى "كوني آيلاند"؟

رد "هاري":

- لأنها ساطعة وصاخبة، وهذا سيعيد له الذكريات.

سألته "شيرلي":

- ذكريات ماذا؟

- قيل لنا ألا نفعل وانتهى الأمر.. ربما ننتظر حين يكبر الولد قليلًا.

- ماذا؟ كم يجب أن يكون عمرك حتى تستمتع في "كوني آيلاند"؟!

قال "فينس":

- كفى يا "شيرلي"، انسي الموضوع!

في يوم زيارتنا لعائلة الزنوج، لم يحضر "فينس" "شيرلي" معه؛ قال إنها ستزعجه وحسب، قال إنها ما كانت لتدخل المنزل أبدًا، ثم قلد أسلوبها وهو يقول: "لن أدخل إلى هناك أبدًا ولو بعد مليون سنة". حتى لو تركها في السيارة كانت ستزعجه أيضًا، ستقول: "تتركني وحدي هنا وقد يهاجمني أي شخص ويذبحني!".

ضحكوا جميعًا حين قلد "فينس" صوت "شيرلي".

قال "هاري":

- عليك أن تعمل ممثلًا يا "فينس".

فرد "فينس":

- فات الأوان للأسف.

سمع صوت سيدة "كابلان" مجددًا، لكن هذه المرة كانت نبراته باردة قليلًا. قالت:

- في الواقع، لا نعرف قصته أو عائلته، لا نعرف ولا نريد أن نعرف.

قالت السيدة ذات الوجه الكبير:

- حقًّا يا سيدة "كابلان"؟ تقصدين أنكِ لا تعرفين إن كان.. إحم.. تعرفين قصدي؟

قالت سيدة "كابلان":

- هذا هو المقصود بالضبط، أن نمنح الأطفال بداية جديدة دون أن نربط الماضي في أعناقهم.. إنه هنا منذ خمس سنوات، وأظن أن...
قاطعتها السيدة ذات الوجه الكبير:
- لا أعرف...
قالت السيدة "جرانت" بلهجتها الإنجليزية:
- هل تخشين أن يكون يهوديًّا؟
- بالعكس، أتمنى أن يكون كذلك.. وإلا فالاحتمال الآخر... حسنًا، يجب أن نسأل أنفسنا من هو؟ أو ما هو؟
- كل ما أعرفه هو أنه طفل، ولا يهمني أي شيءٍ آخر.
- عذرًا يا سيدة "كابلان" لكن أنا يهمني، ماذا عن عائلة "نوفاك"؟ أليس لديهم الحق في أن يعرفوا؟ لا أعرف كيف يطيقون الجهل بأصله، لو كنت مكانهم لرغبت في المعرفة.. خاصةً بعدما حدث وما فعله هؤلاء الناس. إنها أعمال وحشية! هذه الطباع قد تسري في الدم، يجب أن نخبر عائلة "نوفاك" بشكلٍ أو بآخر، أخبرتني "أوليفيا" أن سيدة "نوفاك"...
- لا يمكننا أن نخبر عائلة "نوفاك" شيئًا، لأننا لا نعرف أصلًا، بالإضافة إلى أن الطفل يبقى...
قاطعتها سيدة "جرانت":
- الطفل يبقى طفلًا، أتفق معكِ يا سيدة "كابلان". خلال الحرب، جاء الكثير منهم إلى إنجلترا، كانوا ضعافًا بائسين تم ترحيلهم لأنحاء أوروبا وتُركوا ليرعوا أنفسهم.
- أشكركِ يا سيدة "جرانت". بالمناسبة، أين هو؟ "ريتشي"، أين الولد؟ ظننتك تقوم برعاية ضيفك.
جاء صوت "ريتشي" خمولًا وكسولًا من طول استلقائه على الأرض وهو يقرأ مجلاته الهزلية.
- لقد أخذ "باستر" ليمشيه.
قالت والدة "ريتشي":
- لا أعرف لماذا أحضرنا ذلك الكلب معنا، رفض "ريتشي" أن يتركه. اضطررنا للتوقف مرتين بالسيارة لكي يقضي حاجته، أخبرته أن الكلب سيكون في أمانٍ تام في "تورورو"، لكن...
قالت سيدة "كابلان":
- لكن هل سيكون الولد بخير وحده؟ إنه لا يعرف "أورلينز"، لم يجلس معنا غير خمس دقائق وتركناه يتجول وحده! حقًّا يا "أوليفيا"؟ ماذا لو تاه؟
- أمي، لو وضعتِ هذا الطفل وسط الصحراء لعرف طريق الخروج.
نزل الولد عن السلالم وسار إلى جانب المنزل حيث يقف الكلب بصبر وهو يدلدل لسانه الطويل الرطب، فك حزام الكلب المربوط في السور وخرج به إلى الشارع وهو يتسلل من خلف سيارة سيدة "كابلان".
نظر إلى الـ"بويك" فبدت له فارغة مجددًا، عبَر الشارع ليختلس النظر داخلها، لكن عندما اقترب لاحظ وجود شخصٍ في الداخل، فتاة.. تبدو كأنها تقرأ مجلة مفرودة على حجرها، لذلك استدار مبتعدًا بسرعة وسار نحو محطة البنزين في آخر الشارع.
جذبه الكلب ليسير أسرع، بدأت السماء تصبح غائمة بعض الشيء، وأصبح الجو ثقيلًا بسبب الحر، هناك فتاتان تركبان دراجتين في آخر الشارع وهما تضحكان بشدة، وهناك رجلٌ في محطة البنزين

يدفع إطارًا وهو يصفر.. بعد ذلك هدأ كل شيء. ظل الكلب يجذبه بقوة بينما يسير بأقدامه القوية وفروه المنفوش وأنفه البارز الذي يتشمم الهواء.
في نهاية الشارع قرر الكلب أن ينعطف يسارًا، لكن الولد لم يحب شكل الشارع الجديد، لا يوجد فيه سوى بضع سيارات تدخل وتخرج من الشوارع الجانبية، ولا يوجد بشر إلا رجل طويل يقف تحت الشجر. يرتدي ملابس فاتحة اللون وقبعة بيج، ويقف مكانه ثابتًا ينظر للأفق، أدار الولد رأسه إلى اليمين ليرى ما الذي ينظر إليه الرجل. هناك صف من البيوت ثم بعض المحلات ثم القليل من البيوت. خرجت امرأة بفستان أخضر من أحد المحلات ووقفت تحت مظلة المحل، ثم مدت قدمها ومالت قليلًا للخارج حتى ترى الشارع بطوله، شعر بالخوف عليها فجأة، ربما السبب هو الرجل الواقف تحت الأشجار، لقد ذكره بشخصٍ ما.. لا يعرف من، لكنه شخصٌ خطير. تساءل إن كان الرجل يراقب السيدة ذات الفستان الأخضر.. ربما يحاول قتلها؟ أو أنه يعطي إشارة لرجل مختبئ في السيارة المركونة بعد مكان المرأة بقليل؟ وفي أي لحظة سينفتح الباب وسيخرج منه شخصٌ ما يجذب المرأة إلى المقعد الخلفي، لكن ربما ارتابت المرأة في أن شيئًا فظيعًا سيقع، لهذا مالت لتنظر إلى الشارع بحذر.
مرت شاحنة جمع القمامة بصمت أمام المرأة واختفت آخر الشارع بصمتٍ أيضًا، عادت المرأة داخل المحل.
تشبث بحزام الكلب وجذبه ليعبر الشارع نحو صف المحلات، عندما عبرا إلى الجانب الآخر، استرخى الكلب، أصدرت مخالبه صوتًا وهي تحتك بالرصيف، ومن مكانٍ ما سمع صوت تلك الكائنات الصغيرة التي تسميها "روزيتا" "زيز الحصاد".
بدأ يشعر بالانزعاج مجددًا، الانزعاج والمغص.. إنه يكره الصمت المطبق والشارع الخالي من خلفه والرجل الواقف تحت الشجر وصوت الحشرات التي لا يراها، يكره الملابس المثبتة على الأرض في واجهة المحلات، ويكره انعكاسه الضبابي على الزجاج لأنه يجعل ملامح وجهه غير واضحة.
نظر إلى الطريق، ما زال الرجل واقفًا هناك وبدا وكأنه يكتب شيئًا في مفكرة صفراء، تساءل الولد كم رجلًا مثله قد يكونون مختبئين تحت الأشجار. حاول أن يكون شجاعًا كما كان يخبره "هاري" دائمًا: "خذ أربعة أنفاس عميقة، أغلق عينيك، انتظر حتى يبتعد مصدر الخوف"، لكن ماذا لو أغمض عينيه فتسلل الرجل من خلفه؟ وبما أنه مغمض العينين فلن يستطيع الركض إلا بعد فوات الأوان.. وبالنسبة للأنفاس العميقة، فلن يستطيع سحب واحدٍ منها، فما بالك بأربعة! كل ما يمكنه فعله هو الوقوف والنظر إلى الفساتين "الخالية من الأجساد".
سمع صوت جرس فجأة فانتفض، خرجت المرأة ذات الفستان الأخضر من المحل وقالت له:
- ستفقد كلبك إن لم تحترس.
فرأى أنه أفلت حزام الكلب دون وعي، وتمشى الكلب إلى ناصية الشارع، ركض خلفه وأمسك الحزام ليستعيد الكلب، كانت المرأة تمسك قضيبًا معدنيًّا وتقول:
- كنت على وشك إغلاق المحل.
ثم انتظرته يفسح لها الطريق.
نظرت إليه ثم وضعت القضيب المعدني بين قوسين معدنيين في نهاية الواجهة الزجاجية وبدأت تحركه.
سألته وانتظرت إجابته:

- ما اسمك؟
كذب قائلًا:
- "ريتشي".
- هل أنت هنا في إجازة يا "ريتشي"؟
- لا، أنا أعيش هنا.
- حقًّا؟
- أعيش هنا، وأبي يقود سيارة "بويك".
- كنت أظن أنني أعرف كل أولاد الحي.. غريب، لم أرَك هنا من قبل، لماذا يا ترى؟
- لا أعرف، ربما لأنني كنت في المستشفى لوقتٍ طويل.
- يؤسفني سماع هذا، منذ متى؟
- لا أعرف.. ربما عامين؟
- يا إلهي! هذا وقتٌ طويل، ما السبب؟
- لا أعرف، لقد أخرجوا كبدي.
- يا إلهي! يا لك من مسكين!
- اضطروا لكسر ضلوعي ليخرجوه.. بمطرقة.
- يا إلهي، مطرقة!
انتهت المرأة من غلق مظلة المحل وابتسمت له.
- هل تريد بعض البسكويت يا "ريتشي"؟ لديَّ بسكويت أقدمه للسيدات. عندي بسكويت وليمونادة، لكن بما أنه لم تأتِ أي سيدة اليوم، شربت الليمونادة كلها وحدي، لكن تبقى البسكويت إن كنت تريد.
أومأ الفتى واختفت المرأة داخل المحل.
خرجت بعد قليل ومعها كيس ورقي بني وقالت:
- استمتع به يا صغيري، أتمنى أن تتحسن صحتك.
سألها:
- لماذا هذه الفساتين فارغة؟
ضحكت المرأة وقالت:
- يا له من سؤالٍ مضحك! حسنًا يا "ريتشي"، هذه واجهة محل، لديَّ فقط تمثالين للعرض كما ترى، والواجهة ليست كبيرة، لكن أتمنى أن تُباع هذه الفساتين وترتديهم سيدة جميلة، عندها لن تكون فساتين فارغة. حسنًا، إلى اللقاء، استمتع بالبسكويت.
دخلت المحل ثم خرجت مجددًا وقالت:
- لا تنس إخبار والدتك عني إذا كانت تريد فستانًا جديدًا.
- بالطبع سأفعل، سأخبرها بمجرد أن أعود إلى المنزل.
عندما عاد إلى الناصية، لاحظ أن الرجل لم يعد تحت الشجر، نظر إلى الطريق من الناحيتين، وضع يديه على عينيه كالمنظار ودقق النظر نحو بيت سيدة "جرانت"، الرجل ليس ظاهرًا في أي مكان.. لقد اختفى. سار الولد بخطواتٍ واسعة وركل حصاة في الأرض ثم ابتعد.
توقف الكلب ليشم شجرة ثم لوى ساقه ليقضي حاجته، فقرر الولد الجلوس على الرصيف ليتذوق واحدة من البسكويت، فتح الكيس وأدخل أنفه ليشم. جاءت كلمة (die mandel) فورًا على لسانه،

وتعني "اللوز" بالألمانية، لكنه ظل يكررها بالإنجليزية: "لوز، لوز، لوز، لوز".
شم الرائحة بنهم حتى كاد يبتلعها، ثم عد البسكويت.. ست قطع، لو أكل واحدة الآن وأعطى للكلب واحدة، سيتبقى أربعة، يمكنه أن يأكل واحدة في الليل، وهكذا سيكفيه البسكويت حتى السبت، لكن لو أكل نصف واحدة الآن ونصف غدًا وهكذا، سيكفيه البسكويت طوال الأسبوع، لكنه سيشعر بالضيق حين ينتهي الأسبوع ومعه البسكويت، استنشق رائحة اللوز مجددًا.. لكن لم القلق الآن؟ بالتأكيد يمكن العثور على طعام بسهولة في بيت مثل بيت السيدة "كابلان". والآن، أين يمكنه إخفاء هذا البسكويت؟
تحت السرير، يمكن أن تجده "روزيتا" أو "ريتشي". في قاع حقيبته، ستذيبه الحرارة، يحتاج علبة مثل التي يضعها "ريتشي" في درج الخزانة المجاور لسريره. في الليل يخرج العلبة ويضع فيها أشياء، لم يره "ريتشي" ما بداخل العلبة أبدًا، لكنه دائمًا يتظاهر بالنوم لكي يرى سرًّا ما الذي يخرجه "ريتشي" من جيبه ويضعه في العلبة ليلًا والعكس بالعكس نهارًا؛ سكينَ جيب، كرةً مطاطية صغيرة، جهازَ استنشاق، حلوى، لبانًا، وأحيانًا بعض القروش أو حتى دولارًا كاملًا.
ليس لديه أي مكان يخصه في الغرفة لكي يخفي فيه علبة بأمان، هناك فقط مرآة كبيرة تقف على حامل، ورف ضيق فوق السرير، وحتى لو كان لديه، كيف يثق بأن "ريتشي" لن يمسه؟
يمكنه أن يخفي البسكويت في إحدى العوارض الخشبية في البلكون حيث سيبقيه هواء البحر باردًا ولذيذًا، لكن لو وجدت الطيور الكيس، ستنقره وتحوله إلى فتافيت، يحتاج مكانًا يصلح لإخفاء البسكويت، ويحتاج علبة يضع فيها أشياءه مثل "ريتشي"، مكانًا بعيد عن البيت، لكن ليس كثيرًا، مكانًا لا يخطر على بال أحد.
مرر أصابعه على الرصيف الخشن المغبر وهو يفكر في كل الأماكن التي كان يخفي فيها أغراضه في نيويورك. على السطح، تحت لوح الأرضية المخلوع، تحت سجادة غرفته.
اليوم هو الثلاثاء، اليوم الذي تحضِر فيه الخالة سهرات غنائية، سيأتي "هاري" في أي لحظةٍ الآن، وسيمد يديه في الحوض ويغسلهما حتى مرفقيه. في الوقت نفسه، تضع الخالة طلاء الشفاه وتعطيه التعليمات، تساءل إن كان "هاري" يحضر أصدقاءه للعب الورق الآن بما أنه لم يعد مضطرًا لمجالسته، على الأقل حتى يصل الطفل الجديد الذي ظنا أنه لا يعرف بشأنه، ترى هل نسيا أمره بالفعل؟
أخذ قطعة بسكويت ورفعها أمام الكلب الذي نظر إليه منتظرًا بلهفة، نظر الولد إلى عيني الكلب السوداوين مباشرةً، وقال:
- هل تعلم من أنا يا "باستر"؟ هل تعلم من أنا يا "باستر"؟
حرك البسكويت أمام الكلب ليغيظه، أخذ يقربه من أنفه ثم يبعدها.
- أنا "الولد المنشود"، أنا "الولد المنشود".
وضع البسكويت في فم الكلب الذي التقطه وابتلعه مرةٍ واحدة.
- لا يا "باستر"، لا تأكله بسرعة هكذا، استمتع بطعمه لأطول مدة.
تراجع وبدأ يتناول قطعة بسكويت قضمة قضمة، ببطء وهو يفكر في "هاري" و"فينس".
يضع "هاري" وأصدقاؤه زجاجات البيرة على حافة النافذة في الشتاء لتظل باردة، بينما في الصيف يضعونها في حوض مملوء بالثلج، لكنهم يحضرون له زجاجة صودا وقطعة حلوى، تمتلئ الطفاية بأعقاب السجائر طوال جلستهم.

يأتي "فينس" واثنان من أصحاب "هاري" ليجلسوا معه، أحيانًا يلعبون الورق، لكن معظم الوقت ينسون ويجلسون في المطبخ يتحدثون. عندما كان معهم، كان من المفترض أن يجعلوه ينام في وقتٍ محدد، لكنهم دائمًا ما كانوا يتركوه مستيقظًا حتى يغلبه النوم.
كان مسؤولًا عن فتح زجاجات البيرة، وإشعال السجائر، وعندما تدق الساعة العاشرة، يُحضر ساندويتشات اللحم التي تركتها لهم خالته، أما الرجال فيظلون جالسين في المطبخ يروون القصص.
أحيانًا يروي "هاري" قصة ويضيف إليها "فينس" أو يعلق عليها، وأحيانًا يروي "فينس" قصة ويتدخل "هاري"، أما الرجلان الآخران فلا يتحدثان كثيرًا، "فران" يتحدث القليل، لكن "جو" لا يتحدث أبدًا. يكتفي بالسمع والابتسام بينما يحمر وجهه من الشرب، لكن حين يتعلق الأمر بقصة ملجأ الأيتام، عندها يتولى "فينس" زمام الأمور؛ فهي المفضلة لديه، ينتظر طوال الليل أن يذكروها، وإن لم يفعلوا، يرجوهم بشدة أن يحكوها، على الرغم من أنه سمعها مائة مرة.
يبدأ "فينس" دائمًا بأن يقول:
- اعتدنا السير بهذا المبنى كل يوم في طريقنا للعمل.. كل يوم. كان هذا قبل أن نعرفك يا "جيم"، نسير بجواره كل يوم ولا نسمع منه صوتًا، لدرجة أننا نسمع أصوات خطواتنا.. هل أنا محق يا "هاري"؟ وذات يوم لم نستطع حتى التفكير من شدة الضوضاء، يا للصخب! لم نعرف ماذا يحدث، صحيح يا "هاري"؟ وكأن كل نوارس المدينة تجمعت هناك، نقيق متواصل، لم يكن الوضع طبيعيًّا يا "فرانك"، صدقني.. استمر الحال بضعة أيام إلى أن سمعنا ضوضاء مختلفة ذات مساء في طريق عودتنا إلى قطار، كيف كانت يا "هاري"؟
- مثل الساعة.
- صحيح يا "هاري"، مثل الساعة. كانت مثل مائة ساعة تدق، "تيك.. توك.. تيك.. توك". وليس في الوقت نفسه أيضًا. لمحت امرأة تطل برأسها من نافذة على الجانب الآخر من الشارع، سألتها "ماذا يحدث؟"، أجابت: "إنهم أيتام ملجأ ترومان". فقلت: "إنهم يعرفون كيف يثيرون ضجة". قالت: "هذا صحيح، فهؤلاء الأطفال من جميع أنحاء أوروبا، لا يتحدثون اللغة نفسها لكنهم يحبون سماع أصواتهم"، "وكيف يشبه ذلك دقات الساعة"؟ "هل تقصد هذا الصوت؟ إنهم يلعبون كرة الطاولة"، "كرة الطاولة؟ كيف ذلك"؟ "صدقني، الوقت الوحيد الذين يصمتون فيه منذ أن جاؤوا هو في المساء حين يلعبون كرة الطاولة".
عندها يتوقف "فينس" عن الحديث ويقبل طرف إبهامه قبل أن يرسم صليبًا سريعًا على صدره. أما "هاري" فينظر إلى الطاولة، هذا يعني أن الجزء الحزين سيبدأ، عنوانه "جاك المسكين". يقول "فينس":
- مسكين، مسكين يا "جاك"! لا نحب التحدث عن هذا الآن، لكن ربما بعد عام من رحيله مثلًا. أنت تذكره يا "فرانك"، لكن أتمنى لو كان "جيم" يعرفه. كان فتىً رائعًا، يا لهًا من مأساة! مسكين "جاك".. لقد مات! قال لي "هاري": "لن تتوقف والدته عن البكاء عليه يا فينس، لن تتخطى خسارته أبدًا، ولن تجرؤ على تجربة حظها مع غيره". لهذا جاءتني فكرة، صحيح يا "هاري"؟
- كلامك صحيح، فيما عدا أنه مضى أكثر من سنة على وفاته، ربما سنة ونصف.
- صحيح، أعتذر. قلت لك وقتها: "لا ضرر من المحاولة يا هاري، إنها بحاجةٍ إلى طفلٍ يشغلها بالعناية به ويشتت تفكيرها عن المسكين جاك". وهكذا طرقنا الباب ودخلنا، فوجدنا الكثير من الأطفال يركضون كالمجانين، وكأنك جمعت عشرة ملاعب مدرسية في مكانٍ واحد، دعوني أخبركم أن

"هاري" كان محددًا جدًّا في مواصفات الطفل، العمر، لون الشعر، الطول، الشخصية... وما إلى ذلك. لقد بالغت كثيرًا يا "هاري"، كان يجب أن تكتفي بأي طفل، فهم لا يصنعونهم حسب الطلب، لكن تلك السيدة.. السيدة "كابلان"، بارك الله فيها. هل تعرفون ماذا قالت؟ قالت: "حسنًا يا سيد نوفاك، لديَّ ما تبحث عنه، لديَّ الطفل المنشود". إنه هذا الطفل، انظروا كيف يضحك بوجهٍ ملطخ بالشوكولاتة.. إنه عجيب!

بعدها يخبط الطاولة بيديه ويضحكون بينما يقولون بصوتٍ عالٍ:

- "الولد المنشود"!

سمع من يصفر، صفارة ضعيفة تتردد في الشارع، سمعها الكلب أيضًا، لكن الولد استطاع أن يقف على قدميه ويدوس على الحزام قبل أن ينطلق "باستر"، رأى "ريتشي" يقف مستندًا على بوابة بيت السيدة "جرانت"، لمحه "ريتشي" فركض نحوه.

أغلق كيس البسكويت بسرعة وحشره في جيب بنطاله الخلفي وأنزل قميصه عليه ليخفيه.

تحمس الكلب بمجرد أن رأى "ريتشي"، فأخذ يشد الحزام وهو يصدر صوتًا رفيعًا.

قال "ريتشي" للكلب:

- أين كنت؟

نبح له الكلب بحب فجلس "ريتشي" على ركبةٍ واحدة ليعانق الكلب وهو يداعب أنفه وأذنيه بينما يلعق الكلب وجهه مثل الآيس كريم.

واصل كلامه مع الكلب:

- هل أنت بخيرٍ يا فتى؟ هل أنت بخير؟ هل اشتقت إليَّ؟ أنا اشتقت إليك بالتأكيد.

ثم رفع عينيه ونظر إلى الولد وقال:

- كان من المفترض أن تمشيه لخمس دقائق فقط، لماذا تبتعد وتغيب هكذا دائمًا؟

لم يجب، بل تجاوزه وسار أمامه تاركًا إياه مع الكلب في المؤخرة.

بينما يقترب من الـ"بويك"، لاحظ الولد أن الفتاة ما زالت فيها، لم يستطع رؤية وجهها، بل لاحظ فقط رأسها المنخفض وشعرها الذي تربطه كذيل الحصان. رفع الكلب ساقه مجددًا ليقضي حاجته، فانتظر الولدان حتى ينتهي.

قال "ريتشي":

- أكره هذه الزيارات، أكره حفلات الشاي المزدحمة، أكره السيدة "جرانت" وساندويتشاتها الإنجليزية الصغيرة السخيفة.

حاول الولد أن يخمن ماذا تفعل الفتاة في السيارة، كانت تخفض رأسها وتحرك مرفقها للأعلى والأسفل، وفجأة لمح شيئًا يلمع تحت السيارة بين الإطارين الخلفيين.

قال "ريتشي":

- أتمنى ألا يأتي السيد "تومسون" في إجازة عيد العمال، لقد خدم مع.. مع.. أبي. عندما كانا خارج البلاد، دائمًا يسألني إن كنت أريد التحدث عن الأمر، عندها أقول: "لا، بالتأكيد ليس معك". وهناك السيد "ماكريدي" الذي يظن نفسه خبيرًا بكل شيء، ويقضي وقته بالنظر إلى العمة "كاثرين". على الأقل لن يبقى معنا على ما أظن.. إنه متزوج من السيدة البدينة، لا يفترض بنا أن نصفها بهذا، لكن لا أظن أن جدتي تحبها كثيرًا. إنها مغنية أوبرا مهمة، لهذا ستكون أكبر حفلة تقام هنا منذ سنين. تقول

أمي إن هؤلاء الرجال الذين خدموا في الجيش بالإضافة إلى الكابتن "هارتمان" سيأتون، من المفترض إنه بطل، لكنني لا أهتم به أبدًا. بصراحة، ليتني ما كنت مضطرًا للحضور.
اعتدل الكلب وبدأ يشم السور، مر الولد بمحاذاة الـ"بويك" بالضبط، عندها لاحظ أن من بالداخل ليست فتاة صغيرة بل امرأة ضئيلة الحجم تفرد نفسها على الكرسيين الأماميين، بدت وكأنها تتحدث مع شخصٍ ما، لكنه لم يرَ أحدًا معها. ما زال هناك بريق تحت السيارة، انحنى وتظاهر بعقد رباط حذائه لينظر عن قرب.
قال "ريتشي":
- ما هذا الشيء البارز في جيب بنطالك؟
- ماذا؟
- هناك، انظر. يوجد كيس بلاستيك في جيبك الخلفي.
- إنه بعض البسكويت.
- بسكويت؟ لماذا تضعه في جيبك الخلفي؟ هذا مقزز، ألا تظن؟ من أين حصلت عليه؟
- أعطتني إياه امرأة.
- من؟
- لا أعرفها، لقد توقفت وأعطتني إياه من نافذة سيارتها.
- ما نوع السيارة؟
- حمراء.
- لا يمكنك أن تأخذ البسكويت من الغرباء بكل بساطة.
- لم لا؟
- لا يمكنك وحسب، لديَّ فكرة! ما رأيك أن نأكله الليلة عندما ننام في السرير؟ أو نتسلل للبلكون الخلفي وكأننا نقوم بنزهة صغيرة؟ ألن يكون هذا ممتعًا؟ ذات مرة وأنا صغير ذهبت مع العمة "كاثرين" و.. أبي.. وآخرين في نزهةٍ ليلية، ذهبنا إلى "هاي لاند لايت"، إنها منارة إن كنت لا تعرف.
نزل الولد إلى الطريق لينظر عن قرب إلى الشيء اللامع، إنه شيء مستطيل.. ربما علبة، بدأ يعبر الشارع.
قال "ريتشي":
- إلى أين ستذهب؟ تعالَ، تعالَ فورًا!
ثم واصل بصوتٍ منخفض:
- ألا تعرف من هذه؟ ألم تتعرف عليها؟ لا يجب أن تذهب إليها. صدقني، لا يجب أن تفعل ذلك.
أصدرت العلبة صوتًا والولد يأخذها، رفعها ثوانٍ ثم مسح بإصبعه الغبار الذي يلطخ الشعار المرسوم على العلبة، مكتوب (Conte Crayon). ذهب إلى مقعد السائق وطرق على النافذة، رفعت المرأة رأسها ووضعت يدها على صدرها واتسعت عيناها بفزع ثم ضاقت؟ استقامت على ركبتيها حتى باب السائق ثم فتحت النافذة.
نظر إلى المرأة بتمعن وكذلك نظرت إليه بضع ثوانٍ قبل أن ترفع حاجبها بتساؤل، أطل برأسه من النافذة وناولها العلبة. سألته:
- أين وجدتها؟

- تحت السيارة.
قالت لنفسها بصوتٍ مسموع:
- أتمنى أن يكون معه قلم رصاص وإلا فسيهدر وقته الغالي.
ثم قالت للولد:
- حسنًا، شكرًا.
وبدأت تغلق النافذة.
سمع خطوات "ريتشي" وهو يصعد سلالم البيت الخشبية ثم يدفع الباب بقوة وينادي على جدته وأمه.
لم يتحرك، بل ظل واقفًا ينظر إلى المرأة، فقالت له:
- الجو جميل، صحيح؟
أومأ.
سألته:
- إذًا.. كيف حالك؟
- أنا بخير، كيف حالكِ؟
- أنا بخير على ما أظن. ربما جائعة وعطشانة قليلًا، لكن لا بأس. إنه كلبٌ لطيف ذلك الذي رأيته معك، لقد رسم زوجي كلبًا مثله ذات مرة. لوهلةٍ ظننته هو، لكن مستحيل، إلا إذا كان حفيده.. أعني حفيده الجرو، إن جاز التعبير. في تلك الأيام كان صعبًا أن تجد كلبًا من نوع "كولي"، رأى زوجي واحدًا بالصدفة خارج مكتب البريد، فجلس يرسمه بينما ظللت ألاعبه حتى يظل سعيدًا، كانت رسمة جميلة، وكأنهما يعرفان بعضهما منذ سنين! أما الآن فكلاب الـ"كولي" موجودة في كل مكان. حتى في ذلك الفيلم (Lassie Go Home).
ضحك الولد وصححص لها:
- اسمه (Lassie Come Home).. (Come Home).
ابتسمت المرأة إليه وقالت:
- هذا صحيح، ذلك الفيلم الذي مثلت فيه "إليزابيث تايلور" وهي صغيرة.
- نعم.
- لكنها لم تعد صغيرة الآن، صحيح؟
- بالطبع، أظن ذلك. ماذا حدث للكلب الذي رسمه زوجكِ؟
- لقد مات ودفن على ما أظن، كان ذلك في العام الذي اندلعت فيه الحرب في أوروبا، لكن كلبك ما زال صغيرًا، ليس عليك أن تقلق بشأنه الآن.. ما زال أمامه وقت.
- لست قلقًا، فهو ليس كلبي.
- حقًّا؟
- كنت أمشيه فقط، أنا لا أحب الكلاب كثيرًا.
- حقًّا؟
- أنا أفضل القطط.
- حقًّا؟ وأنا أيضًا! كان لديَّ قط جميل ذات مرة، اسمه "آرثر"، أظن عندي رسمة جميلة له، أتمنى لو كان يمكنك رؤيتها.
- أسميته "آرثر"؟

- كان يناسبه، ما اسم ذلك الكلب الذي ليس كلبك؟
- اسمه "باستر".
- يا له من اسم فظيع! لا يناسبه أبدًا، إنه أرقى كثيرًا من هذا الاسم.
- نعم، أعرف. أحيانًا ينادونه "باز".
قالت وهي تهز رأسها:
- هذا سخيف!
- يقولون: "تعال يا "باز باز باز"، وكأنه نحلة!
ضحكت المرأة.
- ماذا عنك؟ ما اسمك؟
- أنا؟ تريدين معرفة اسمي؟
- نعم، اسمك.
- حسنًا، إنه "فينس".
- ما جنسيتك؟ هل أنت إيطالي أم أيرلندي؟
- الاثنان على ما أظن.
فتحت المرأة فمها لتواصل الكلام لكنها نظرت خلفه فجأة إلى بيت السيدة "جرانت" وتمتمت:
- أوه.. لا.
استدار فرأى سيدة "كابلان" تنزل السلم وخلفها والدة "ريتشي"، ثم "ريتشي" نفسه والكلب، أدخل رأسه من النافذة مجددًا وناولها كيس البسكويت.
سألته:
- ما هذا؟
- بسكويت، ألم تقولي إنك جائعة؟
اندهشت قليلًا ثم أخذت منه الكيس.
وصلت السيدة "كابلان" ووضعت يديها على كتفيه لتزيحه وهي تقول:
- سيدة "إيتش"! تسعدني رؤيتكِ، هل تصدقين أنني كنت أفكر للتو في الاتصال بكِ غدًا؟ لقد سمعت عن سوء الفهم الذي وقع بينكِ وبين زوجة ابني "أوليفيا".. إنها تريد الاعتذار إليكِ، فهي تشعر بالذنب للطريقة التي تحدثت بها معكِ.
- لا أحب الاعتذارات، حتى لو كنت من يتلقاها، دعينا ننسى الأمر.
- هذا لطفٌ منكِ، على الأقل تعالي وانضمي إلينا على الشاي، هل تعرفين سيدة "جرانت"؟ إنها من لندن، وجاءت لتعيش هنا مؤخرًا مع زوجها، "أليك جرانت"، كان في الخدمة هناك وقت الحرب. كنت على وشك أن أقول لها بأن الشخص الوحيد غيرها هنا الذي سمعت إنه يجيد إقامة حفلات الشاي في الظهيرة هي... لكن "ريتشي" قاطعني عندما اندفع ليخبرنا بأنكِ هنا على الناحية الأخرى من الشارع، أليس هذا مضحكًا؟ كنا نقضي وقتًا ممتعًا، انضمي إلينا من فضلكِ.
- كنت أود ذلك، لكن زوجي...
- أين هو؟
- ذهب يبحث عن إلهامه.
هزت سيدة "كابلان" رأسها برفقٍ وقالت بصوتٍ حالم:

- ذهب يبحث عن إلهامه؟ حسنًا، أنا واثقة أن الولدين لن يمانعا الانتظار هنا حتى يأتي ليخبراه عن مكانكِ.
- لا أعرف، سيكون متعجلًا للعودة إلى المنزل والبدء في لوحته الجديدة، وإلا قد ينساها ويذهب الإلهام، لكن بعد إذن سيدة "جرانت"، أود استخدام الحمام.
قالت السيدة "كابلان" وهي تتنحى جانبًا:
- بالطبع، بالطبع.. تفضلي.
استند الولد على الـ"بويك" وشاهدها وهي تلف قطعة النسيج وتضعها في حقيبة طرية تركتها على مقعدها مع حقيبتها وكيس البسكويت، ثم شاهدها وهي تعبر الشارع بين سيدة "كابلان" ووالدة "ريتشي"، قال لنفسه إنها أقرب لفتاة منها لامرأة، خاصةً بالطريقة التي خرجت بها من السيارة والطريقة التي تتحرك بها ذيل الحصان الصغير من جنبٍ لآخر عندما تحرك رأسها بينما تكلمها المرأتان على جانبيها في محاولة للفت انتباهها.
قالت والدة "ريتشي":
- كنت متعبة جدًّا ذلك اليوم بسبب الحرارة الشديدة، وأنا...
قالت سيدة "كابلان":
- ما دمتِ لن تبقي لتناول الشاي، فعلى الأقل عديني أن تأتي للعشاء ذات مساء.
قالت والدة "ريتشي":
- لم يكن لديَّ فكرة، أعني أن سيدة "كابلان".. حماتي، نسيت إخباري أننا على شاطئ بيتكِ، إنها أول مرة آتي فيها إلى شواطئ في "تورورو". شقيقة زوجي "كاثرين"، كانت تقضي الصيف دائمًا في "إيستهام"، وكنت أذهب معها دائمًا كلما أردت السباحة...
قالت سيدة "كابلان":
- لديَّ فكرة أفضل، ما رأيكِ في القدوم في إجازة عيد العمال، سنقيم حفلة نهاية الصيف، سيكون هذا رائعًا! نتوقع أن يأتي نصف زملاء ابني في الكتيبة. ويوم السبت، سيذهب بعض الرجال للإبحار، هل ما زال زوجكِ يبحر؟
قالت والدة "ريتشي" مجددًا:
- "كاثرين" تقيم معنا الآن، لا يمكنني أن أصف لكِ مدى إحراجي حين أخبرتني "كاثرين" من يكون زوجكِ...
قالت سيدة "كابلان" مجددًا:
- يمكنه أن ينضم إليهم إن أراد، أعلم أنهم سيتحمسون إذا انضم إليهم.. وكذلك أنتِ!
- قولي إنكِ ستأتين!
- بالطبع ستأتي!
تمنى الولد أن تستدير إليه ليرى كيف يبدو وجهها عن بعد، لكن خلال ثوانٍ انفتح الباب الخارجي ثم الباب الداخلي وابتلع المنزل المرأة.
عندما استدار وجد "ريتشي" ينظر عبر نافذة مقعد الراكب بينما يضم يديه حول عينيه ليرى جيدًا، ثم قال:
- أعطيتها كيس البسكويت! لم فعلت هذا؟
- كانت جائعة.

- ماذا؟
- سيدة "إيتش" كانت جائعة.
قال له بغيظ:
- سيدة ماذا؟ هذا ليس اسمها. إنه يبدأ فقط بحرف الـ(H)، لذلك نناديها باسم الحرف اختصارًا. أنت تعرف الحرف، صحيح؟
- أي حرف؟
- حرف الأبجدية أيها الأحمق!
بدأ يعد الحروف على أصابعه.
- (A, B, C, D, E, F, G, H...).
ثم رسم الحرف على الهواء وهو يكرر اسم الحرف.
بعد ساعةٍ عادت إلى السيارة بمعدةٍ مليئة بالطعام؛ كيك فواكه، بسكويت إنجليزي محشو، وكمية لا تحصى من ساندويتشات الخيار.. المغص لا يُحتمل، كل هذا بدأ بموافقتها على تناول كوب واحد من الشاي، ثم قطعة صغيرة من كيك الفواكه بعد إصرار السيدات.
لكن بمجرد أن رضخت لهن، لم تستطع منع نفسها بسبب الجوع الذي عانته في الأيام الماضية، فالتهمت كل ما طالته يدها، بالإضافة إلى أنها استمتعت كما لم تستمتع من قبل؛ ضحكت وتحدثت ووافقت على حضور حفلة صغيرة ليلة السبت، وحفلة في الحديقة يوم السبت الخاص بعيد العمال.
قالت السيدات إن زوجها سيتحمس كثيرًا لحضورها، "عليهم أن يسحبوه بأحصنة برية عنوة ليحضروه".
اقترب المغرب فضعف نور النهار ولم يعد بإمكانها العمل على نسيجها، لذلك أغمضت عينيها وحاولت أن تأخذ قيلولة، لكنها لم تستطع بسبب التفكير الذي يعصف بذهنها. هل قالت الكثير؟ هل استمعت إليهن جيدًا؟ ما الذي قيل؟ لقد تحدثن عن الجو، وعن أحوال بلدة "بروفينستاون"، وعن الفيلم الجديد الذي يتم عرضه في بلدة "هاينيس".. لقد أحبه البعض وكرهه البعض، بالإضافة إلى الكثير من الأحاديث المتنوعة التي لا تذكرها، كم يا ترى؟ قالت لنفسها بصوتٍ مسموع:
- أنا متأكدة بأنهن يعتقدن أنني حمقاء بالفعل.
ثم فتحت عينيها وقالت:
- ها أنا أجلس حتى حلول الظلام في انتظار عودة سيدي.
الجميع انتظر عودته؛ الولدان وقفا عند بوابة المنزل، النساء في الداخل أطلن الحديث، حتى الكلب في البلكون بدا وكأنه ينتظره، مثل الكلب الذي رسمه. في نيويورك، كان وكيل أعماله ينتظره لينهي لوحة أمامها الكثير، وأخته كانت تنتظر مصروفها الشهري منه مع كلمة لطيفة مكتوبة في رسالة لا يكتبها بنفسه حتى.. الجميع ينتظره دائمًا. كاد الظلام يحل تمامًا، يئس الآخرون في المنزل المقابل من الانتظار. رأت الولدين والكلب وسيدة "كابلان" و"أوليفيا" زوجة ابنها و"كاثرين" ابنتها وسيدة "أنيتا" يركبون سيارة سيدة "كابلان"، ثم رأت سيدة "جرانت" ومطربة الأوبرا يقفان على البلكون لتوديعهم، تحركت السيارة ولمحت فيها الولد الذي أعطاها البسكويت، كان يلصق وجهه في النافذة ليحاول رؤيتها، اختفت السيارة وعاد الشارع خاليًا صامتًا لا يطاق.
إلى أن رأته آتيًا بملابسه الملونة التي تخترق الظلام، عاد قلبها ينبض، كان يحمل كيسًا ورقيًّا بنيًّا وضعه في صندوق السيارة ثم فتح الباب وركب السيارة.

اهتزت يدها باضطراب، ماذا لو كلمها؟ ماذا لو قال "هيا، دعينا نتوقف، لننسى ما حدث ليلة السبت ونبدأ من جديد". لكن لن يقول هذا أبدًا أو حتى ما يشابهه، فهو لم يفعل من قبل؛ دائمًا يترك هذه المواقف لها، لو انتظرته ليبادر بالصلح، لكانا ما زالا متخاصمين على أول شجار لهما في شهر العسل، سألته ذات مرة: "لماذا أنا دائمًا من يأخذ الخطوة الأولى عندما نتشاجر؟"، أجابها: "لا أعرف، ربما لأنكِ من يبدأ الشجار دائمًا". جاهدت بشدة لكيلا تبدأ واحدًا جديدًا الآن، منعت نفسها من أن توبخه على ترك زوجته في السيارة ساعتين حتى حل الظلام وهاجمها الجوع والعطش والرغبة في قضاء حاجتها، هذا ما يظنه على الأقل، أي نوعٍ من الرجال يفعل هذا؟!

لكنها شعرت بإرهاقه وهو يجلس بجانبها، كان متعبًا بشدة، نظرت إلى وجهه فوجدته مستنزفًا وشاحبًا، خاصةً على نور مصباح الشارع. تساءلت: "هل أنا السبب في تعبه؟ هل الضغط شديد عليه؟ ألا يستطيع التركيز على العمل مع انعدام السلام في البيت بسبب المشاجرات والمشادات؟ في شبابنا كنا نتعارك كثيرًا لكن نتصالح بكل شغفٍ بعدها، ثم نحيا في هدوء وسلام لمدةٍ طويلة، لكننا لم نعد شبابًا يا زوجي، ولن نعود أبدًا!".

"لقد رأيت قطكِ". هذا هو أول ما قاله لها ذلك اليوم في "جلوستر" عندما تاه "آرثر"، ثم رسم لها خريطة للبلدة وتظاهرت هي بالامتنان، على الرغم من أنها تستطيع التنقل في طرقاتها معصوبة العينين ثم العودة، لعبت دور المرأة المسكينة، كانت مستعدة لفعل أي شيء لتبقى الكرة في ملعبها، لقد استغرق وقتًا طويلًا ليكلمها، أما هي فلم تستغرق أي وقت لتقول له الكثير والكثير. من الصعب أن تصف موعدهما بالغرامي، فعلى الأكثر كانا يتفقان على الرسم معًا في صباح اليوم التالي. وفي النهاية، تشاهده وهو يغادر، كانت تراقب قامته الطويلة وحركته السلسلة ورأسه المائل قليلًا، وقلبها الذي يأخذه معه. ستضحي بأي شيءٍ الآن لتسمع صوته مجددًا.

مرا بمحطة البنزين ثم انعطفا إلى الطريق السريع.

قالت له:

- لقد نسيت ألوانك الرصاص.

- نعم، أعرف.

رفعت العلبة لتريه إياها وهي تقول:

- وجدها ولدٌ صغير على العشب تحت السيارة. أظنك أوقعتها.

- نعم، أظنني فعلت.

كانت نبرته معتدلة، لذلك قررت أن تواصل:

- ماذا يوجد في الحقيبة؟ تلك التي وضعتها في صندوق السيارة؟

- العشاء.

- العشاء؟

- أظنكِ تحتاجين وجبة مشبعة.

- حقًّا؟

- سأعد العشاء بنفسي.

- أوه.

- تبدين محبطة قليلًا.

- لا، أبدًا.. لا، شكرًا لك. العشاء فكرة لطيفة.. لطيفة جدًّا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الزَهرة

1

يزداد الوضع صعوبة كل عام وتقل قيمته، وكأنه يحمل حقيبة مليئة بالصخور ويصعد بها تلًّا، وفي كل مرة يزداد عددها.
يقود في طرقٍ مألوفة ويمر بكل القرى الصغيرة بسيطة التصميم، ويتبع الطرقات الصغيرة التي تربطها ببعضها.
يرى التلال المقفرة والمزروعة تظهر وتختفي في مرآة الرؤية الخلفية، تلوح له الأعشاب الصفراء الطويلة مودعة، يلمح ذيل قطة سوداء يتراقص حول بحيرة صغيرة، يقود في تلالٍ ووديان، وعلى ساحل المحيط والخليج. يقف خلف السياح ويحاول رؤية هذه الأماكن بعيونهم، يقف وحده ويراقب حلول المساء على ميناء "باميت".
لم يعد يرى شيئًا جديدًا، ولم يعد يشعر باختلافٍ أيضًا.. ما عدا شعورٍ بالضياع.
لقد مر بمناظر رآها كثيرًا من قبل حتى استوعبها وهضمها، مناظر كانت في السابق تجعل قلبه ينبض ويديه تتعرقان حتى تنزلق الفرشاة من يده، أصبح يقود في أماكن لم تعد تعني له شيئًا، أصبح مثل المدير الصارم الذي يمر حول موظفيه دون أن يبالي بالنظر إليهم.
أحيانًا يتردد بالطبع، تأتيه لحظات من الأمل وهو يدخل إلى بلدة أو يسير في شارعٍ جانبي أو ينظر مرةً أخرى إلى محل بقالة في حال فاته شيء في المرة السابقة أو التي قبلها، لا بد من وجود شيءٍ ما يثير إلهامه. يتوقف ويخرج من السيارة ويسير قليلًا، وأحيانًا كثيرًا، يتأمل واجهة محل أو كشك أو بلكون بيت، ويتخيل رسمها بالظل والنور، يعبر الشارع وهو يراقب موضع كل ظلٍ عليه.
عند الغروب، يُصاب بالملل فيختار أي مشهد، يلمح قمة حظيرة أو سطح بيت بين الأشجار، فيدخل في طرقٍ طينية قديمة ليصل إليها، تكافح إطارات سيارته للسير في الطرق غير الممهدة، وأفرع الشجيرات تخدش جانبي السيارة بجانب السيارة. يواسي نفسه بالظن أنه وجد إلهامه على الأقل.. ها هو بالتأكيد، ثم فجأة.. لا يجد شيئًا!
يحل الليل فيقود في الطريق الرملي الوعر الذي يؤدي إلى بيته. على ضوء السيارة، يرى حشرات الليل وهي ترقص باحتقار، ثم يلمح البيت وهو ينظر إليه شذرًا من فوق التل، ويظهر من النافذة على نور المصباح رأس زوجته الصغير بوجهها القلق.
يركن السيارة بكل روية وبطء ويغلق باب الجراج ثم يصعد السلم الصغير ليصل إلى بيته، عندها يعود الصياد بيدين خاليتين وعقلٍ فارغ.
عندما تكون زوجته معه، تشير إلى أشياء وتسأله:
- ألا يجعل ذلك قلبك ينبض؟
- ليس حقًّا.
- سَتُعَلق اللوحة على جدار وستحمل توقيعك، ستكون شيئًا صنعته بنفسك ولا أحد غيرك يمكنه تكراره، كيف لا يجعل ذلك قلبك ينبض؟
- أظنني أرى الأمور بمنظورٍ مختلف عنكِ.

- ألا تحب ما تصنعه؟ ربما من الأفضل أننا لم ننجب أولادًا.. أعني، ما دمت لا تحب ما تصنع، فقد لا تحب ذلك أيضًا.
- "ذلك"؟ ماذا تقصدين بـ"ذلك" بالضبط؟
- أعني هذه الحظيرة وهذه المزرعة وهذا البيت، كلها أشياء أصبحت خالدة في رسوماتك.
- في هذه الحالة، إجابتي هي لا، لا أحبها.
لم يخبرها أنه يحب المنظر حين يراه لأول مرة، وحين يحمل الفكرة في عقله وينتظر بصمت حتى تتكون على القماش، وحين ينظر إلى الرسومات الأولية ويشعر بالرغبة في إتمام اللوحة، وحين تكون اللوحة حبيسة خياله وتخرج تدريجيًّا.. يحب كل هذا، يحبه أكثر من أي حب شعر به نحوها أو نحو أي امرأة.
تحب أن تأتي معه حين يخرج بحثًا عن إلهام، ما دام لن يغيب، تسمي ذلك "مرحلة الإدراك". إنها تحب أيضًا التحدث وهي معه في السيارة، تسأله أسئلة وتحبه أن يجيب، تنظر إليه بنفاد صبر حتى يرد بأي إجابة، معظم الوقت يجبر نفسه على مجاراتها.
- أظنني أحب الفكرة نفسها، حين تبرز في عقلي وتتكون، لكن عندها...
- لكن ماذا؟ ماذا يحدث عندها؟ أخبرني.. ماذا؟
- بمجرد أن.. اممم.. أن تظهر تدريجيًّا على القماش.. تصبح أقل من توقعاتي، وكلما تقدمت في رسمها، شعرت بأنني أدمرها، وبمجرد انتهائي منها لا يبقى في قلبي إلا خراب.
- خراب!
- خراب الفكرة.
عندها تتململ في الكرسي وتتحرك ضفيرتها وهي تقول:
- هذا سخيف! لم أسمع بشيءٍ مماثل من قبل، لن أسمح لك بقول هذا الكلام، لن أسمح به.
لكن حين تفعل ذلك، يتذكر كم يحبها!
في الصباح أخذته للخارج وجعلته يتمشى حول البيت.
- انظر حولك إلى كل هذا الجمال.
- نعم، لكنه يختلف عن ذوقي.
كررت الأمر في المساء، لكن هذه المرة نبهته إلى لمعان أشعة الشمس على الأراضي المحيطة، وإلى نور الغروب الذي يذوب في البحر فينير صفحته كمصباحٍ ملون، فيبدو مثل سطح معدني لامع.
هز رأسه وقال:
- لا شيء يلهمني، لا شيء من هذا.
عادا إلى البيت وحضرا العشاء، ثم جلسا في صمتٍ يتوق إليه دائمًا. شغلا الراديو بصوتٍ منخفض بينما يتصفح هو كتابًا وتعمل هي على نسيجها. إنهما لا يتجاهلان بعضهما ولا يتعاركان أيضًا، لكنهما يحرصان على عدم خرق حالة السلام والهدوء لكي تدوم أطول فترة ممكنة.
عندما عادا من "أورلينز" ليلة الثلاثاء، قال لها:
- لا يمكنني العمل في هذا الجو المضطرب.
- حقًّا؟ أنت؟ وهل أنت الوحيد هنا؟ ماذا عني؟ ماذا عني أنا؟ أنا فنانة أيضًا، إن كنت قد نسيت.. لم أستطع أن أرفع فرشاة طوال الصيف بسبب كل هذا الشجار و...
- لقد سئمت من كل هذا الصراخ والاتهامات والاستفزاز، لم أعد أحتمل.

- أنا أيضًا أتألم.
- نعم، بالتأكيد.
- بل أكثر.. أنا أتألم أكثر!
ثم انفجرت بالبكاء وأسندت ظهرها إلى الجدار ثم انزلقت إلى الأرض وجلست وهي تضع يديها على جانبي رأسها وتقول:
- هذا مقزز! بعد كل هذه السنوات من التجاهل والوحدة وتحطيم قلبي، بسببك أنت لوحاتي ميتة بلا روح، بسببك أنت لا أستطيع الرسم مجددًا.
عندما تتحدث هكذا، ينسى كيف ولماذا أحبها أصلًا.
مع ذلك، إنه يفهم تمامًا مدى صعوبة الوضع بالنسبة إليها، يعرف صمته الكئيب وشوقها الشديد للشعور بالتقدير الذي تستحقه، لكنه يظن أنها الآن ستقبل بأي مديح أيًّا كان.
عاجلًا أو آجلًا، سيغلي بداخلها مجددًا الإحباط والاتهامات واللوم، ثم سيفور كل هذا، وكأنها تحمل صندوقًا به ثعابين تتوق للخروج، ولا يحتاج الأمر إلا لشخصٍ يفتح الصندوق.
أما الآن فلا يوجد سوى أمسية هادئة ونسيم البحر ورائحة الطلاء المهدئة وضوء المصباح.
انتظر لحظاتٍ يراقب رأسها المطأطئ ويديها اللتين تتحركان بلا توقف، ثم قال:
- هل تودين أن أقرأ لكِ قليلًا؟
رفعت رأسها أخيرًا وتلألأت دمعة في عينيها وهي تقول:
- أريد.. أريد..
قاطعها وهو يومئ ويقول:
- أعلم، أعلم.
أيقظته بسرعة من كابوس وهي تربت على ظهره ليهدأ. سألها:
- كيف عرفتِ أنني أحلم بكابوس؟ وحتى لو كان كابوسًا، كيف عرفتِ أنني لم أكن مستمتعًا به؟
- كنت تئن، والآن عد إلى النوم.
- لو تكرر الأمر، هل ستوقظينني؟
- لن أدعه يتكرر، سأحرسك، سأحارب شياطينك، تعرفني عندما أكون شرسة.
استيقظت في الصباح بعينين ناعستين ووجهٍ شاحب، وسألته:
- متى ستبدأ الرسم؟
- لم أرَ شيئًا يلهمني.
- هذا يعني أنك لا تبحث جيدًا، تكتفي بالجلوس وقراءة الصحف.. متى ستبدأ إذًا؟
- ربما أخرج في جولة بالسيارة لاحقًا.
- أصبحت خمولًا ومنطويًا، يجب أن تبدأ برسم شيءٍ ما.. أي شيء، اليوم.
- وأنتِ يجب أن تتركيني وشأني.
- ماذا عن "أورلينز"؟ ظننتك وجدت ما يعجبك عندما تركتني منتظرة في السيارة لعدة ساعات، لقد رسمت بعض الرسومات الأولية؛ ناصية الشارع، محطة البنزين، مظلات المحلات، سيارة.. لقد رأيت الصور.
- لقد بدأت لكن.. لم أشعر برغبةٍ في المواصلة، لا أعرف!
- الانتحار أسهل عندك من تغيير طباعك، هل تناولت الأقراص؟

- ليس بعد، سآخذها بعدما أنتهي من قراءة المقال.
- هل تفيدك؟
- ماذا؟
- الفيتامينات، الـ"بينزيدرين" على الأقل، ما رأيك؟
- أظن أن ألوانها جميلة جدًّا.
صب لنفسه كوبًا من الماء وذهب إلى غرفة الرسم حيث وقف عند النافذة الشمالية. إنه يكره الأيام الجافة، مجرد فكرة استمرارها تزعجه. إنه يَعُد هذا الوقت من العام فترة جفافه الفكري، وقت تكسير الأرض البور قبل البدء بزراعة تربة جديدة، لكن خلال السنوات الأخيرة، أصبح وقت الجفاف أطول وأطول، والآن امتد آخر الصيف حتى التهم أول الخريف، قريبًا سيمتد الصيف أكثر حتى يصل لمنتصف الخريف ثم آخره، بعد ذلك سيحل الشتاء.. لو حل يناير ورحل دون أن ينجز شيئًا، سيعني هذا أنه قضى عامًا كاملًا دون فائدة.
هز الأقراص في يده ومرر يده عليها؛ أحمر قرمزي وأصفر كهرمان، مثل ألوان المجوهرات. لفترةٍ كان يظن أنها تفيده، ثم اكتشف أن هذا ما كان يتمناه وحسب. إنه يستيقظ هذه الأيام متعبًا، ويذهب إلى السرير متعبًا، ويشعر بالإرهاق في الوقت الفاصل بينهما. الأقراص مجرد حبوب ملونة بلا فائدة، لكنه ابتلعها بأي حال، نزلت إلى حلقه بعد أربع محاولات من البلع.
نظر إلى الجزء الخالي من الشاطئ الذي أخلته له زوجته من المتطفلين، وفكر في المرأة ذات القبعة الصفراء. في يوم كانت موجودة، وفجأة لم تعد موجودة، كانت طويلة ونحيلة قليلًا، أو على الأقل أصبحت أنحف مَّن العام الماضي على ما يتذكر، خلعت قبعتها مرة واحدة فقط، وكانت ثاني مرة يراها وهي على الشاطئ، لمح شعرها الطويل وهو يطير أمام وجهها ويغطيه كالحجاب، ثم ارتدت القبعة مجددًا، فكر أن لونه مختلف عما يتذكر، لكنه ليس واثقًا إن كان قد رأى لونه الصحيح ولم يتشتت بسبب القبعة الصفراء، والشاطئ في الخلفية، ونور الشمس الذي يعكسه البحر على وجهها. ليتها خلعت القبعة لوقتٍ أطول، وجلست على الرمال وهي تتكئ بيديها للوراء، ورفعت وجهها نحو الشمس لكي ينسدل شعرها على كتفيها.. عندها سيتأكد إن كانت المرأة ممتلئة الصدر نفسها التي رآها سابقًا أم لا. كان سيتمكن من رؤية وجهها أيضًا، حتى ولو عن بعد، كان واثقًا من أنه سيتمكن من التعرف عليها، لكنه لا يجيد سوى وضع المسافات، ما كان ليقترب منها أبدًا إلا وهي رسمة على القماش.
ظهرت امرأة أخرى في ذهنه فجأة.. امرأة مختلفة، لها الجسد الطويل النحيل نفسه، لكنه ممشوق وغير هزيل. كان هذا منذ زمنٍ طويل، عندما كان شابًّا في باريس. ظن أنه لن ينسى وجهها وخصلةٍ في شعرها، لأنه رسمها كثيرًا، لقد مارس الحب معها، لأول مرة في حياته، شعر بالصدمة، كيف سيسير في شوارع باريس مع كل هذه الطاقة العنيفة المكبوتة بداخله، لم يفارقه شعوره وهو مستلقٍ على سريرها المبعثر بعد ما فعلاه، بل كان مبعثرًا عندما قادته إليه تلك الظهيرة. تمنى بعدها أن تنام لكي يتأمل ملامحها بهدوء، ويشعر بمنحنيات أردافها، وصدرها المثير، وانحناءة ظهرها الطويل، أراد أن يلمس وجهها وشعرها دون أن يبدو فتىً ولهانًا، على الرغم من أنه كان كذلك بالفعل. سألته إن كانت مرَّته الأولى. وعندما احمر وجهه وقال: "نوعًا ما"، ابتسمت وقالت إنها تحسده.
بعدها سألته لماذا نام معها، قال:
- وجهكِ مختلف، وجهكِ يبدو مختلفًا بشكلٍ ما.

- هل أبدو أكبر سنّا؟
- لا، أنا فقط شعرت بذلك عندما رسمتكِ.
- لقد رسمت الوجه الذي تريده، أما هذا فهو وجهي أنا.
لكْنتها مميزة، الكلمات تطير على لسانها.
دار بعينيه على الخليج، النور يتلألأ على البحر، والطحالب البحرية ملقاة على الشاطئ الخالي، ظل واقفًا عند النافذة حتى بدأ ذهنه يصفو، ثم أخذ قبعته المعلقة على حامل اللوحات.
سألته:
- أين تذهب؟ "أورلينز"؟
- لا.
- "إيستهام"؟
- ربما.
- لمَ لا تعود إلى "أورلينز" وتحاول العمل على تلك اللوحة؟
- لأنني لا أشعر برغبةٍ في ذلك.
- حسنًا، لو ستذهب إلى "إيستهام" مجددًا، فلن آتي معك. إنها أشد البلدات مللًا في منطقة "كيب"، وأنت تواصل الذهاب إلى هناك، لقد ذهبت إلى "إيستهام" يوميًّا لأكثر من أسبوع بلا أي نتيجة، ما الذي تأمل في إيجاده هناك أصلًا؟!
يأمل في إيجاد حياة أخرى، مثل تلك التي وجدها في مثل هذا الوقت من العام الماضي عندما كاد يفقد الأمل، كان عامًا صعبًا غير مثمرٍ ومليئًا بالتعب والقلق من تعب المستقبل.. رآها في بداية سبتمبر الماضي، وانتهى من رسم لوحتها في آخر أكتوبر، لقد استغرق وقتًا أطول من المتوقع، أراد أن يبقيها داخل عقله لأطول فترة ممكنة.
في اليوم الذي وجدها فيه كان يقود سيارته في "إيستهام" وانعطف في شارعٍ جانبي ورآها في آخره، كانت واقفة أمام بيت يقف على عتبته رجل، ربما كانت مغادرة أو تنتظر الدخول.
تجاوزها وأوقف السيارة أبعد قليلًا، ثم نزل وعاد إلى المنزل سيرًا. هناك شجيرات بجانب البوابة لكنها جفت بسبب الحرارة، أما عشب الحديقة فاصفر لونه بسبب الإهمال والصيف الطويل الذي لا يرحم.
سمعهما وهو يقترب من البيت، كان الرجل يتكلم بصوتٍ منخفض، أما المرآة فصوتها كان أعلى قليلًا. لاحظ الغضب في نبراتها، لكن لم يبدُ أن الرجل هو السبب، بل الحرارة. بدا أنها تأخذ الأمر بصورةٍ شخصية! كانت ترتدي بنطالًا فاتحًا وبلوزة لونها أزرق سماوي لها أساور عند الأكمام.
عندما مر أمام البوابة رآها تشد أكمامها وتقول: "ارتداء ملابس كثيرة في هذا الحر الخانق يثير جنوني.. إنه يثير جنوني!".
سار لمدة دقيقتين قبل أن يعبر الشارع ويعود من الجهة الأخرى. أمال رأسه ليبحث عن رقم المنزل، عندما اقترب منه، رآها ترفع يديها وتضعهما تحت شعرها الأشقر الباهت، رفعته على رأسها لبضع ثوانٍ، فرأى العرق الذي تكون تحت ذراعيها، وعنقها الطويل، والمنحنى الناعم لكتفيها. تركت شعرها ورفعت وجهها، التقاء الضوء مع بلوزتها الفاتحة جعله لا يعرف إن كان الضوء يسقط عليها أم يشع منها، بدت له مقدسة، ثم بدت العكس، الضوء مع الحرارة تركا عليها أثرًا لم يفهمه.

لم يستطع سماع صوت الرجل هذه المرة، لكنه بالتأكيد قال ما أزعجها، لأنها صاحت وقالت: "ربما لأنني لا أستطيع النوم، ربما هذا هو السبب! يطلع الفجر قبل أن يغمض لي جفن، وتحل الظهيرة قبل أن أستطيع النهوض من السرير".

كل ما يتذكره عن رحلة العودة إلى المنزل هو أنه قاد بسرعةٍ شديدة، التهمت السيارة الخمسة عشر ميلًا دون أن يتذكر ما حدث فيها. لم يهتم حتى بركن السيارة، بل تركها خارج الجراج وأسرع إلى البيت ومر بزوجته وهو يقول "لست جائعًا" دون أن تسأله إن كان يرغب في الطعام، دخل غرفة الرسم وجر حامل اللوحات إلى وسط الغرفة.

سمعها تقول من خلفه:

- رائع! أخيرًا عادت الحياة إلى المنزل!

وهكذا بدأ يضع المشهد على القماش؛ الشارع، البيت، الفتاة أمام الباب، الرجل على العتبة، العشب، البوابة، الشجيرات. بعد بضعة أيام، كان قد رسم اللوحة بالأزرق، ثم أعاد تلوينها في خياله أكثر من مرة.

يعرف أنه يحتاج إلى رؤية المنزل مجددًا، لكنه لم يرغب في المخاطرة برؤية الفتاة، فهي بالفعل أصبحت حية في خياله واستقرت في عقله، وهو أراد أن يبقيها هكذا، بدلًا من ذلك فعل شيئًا لم يفعله منذ كان صغيرًا.. صنع مجسمًا من الكرتون للبيت. سألته زوجته:

- لماذا تتعب نفسك بصنع هذا؟ لم لا تعود إلى البيت وتراه مجددًا؟

- ظننت الأمر سيكون أكثر مرحًا هكذا.

- أصبحت تحب المرح إذًا؟

وضع البيت على الطاولة ليختبر الظل والنور عليه. أخلى الطاولة تمامًا له، فالبيت يستحق احتلال المساحة وحده. فكر هكذا لوقتٍ طويل ثم أدرك أنه يفكر أساسًا في الفتاة.

جعل زوجته تقف أمام الباب وقاس فوق طولها ببضعة بوصات.

قالت له:

- لم لا تجعلها في طولي؟

- لا أراها هكذا.

- هل هي فتاة أم امرأة؟

- كلاهما.

عندما انتهى من العمل مجددًا كان قد أزال الرجل ثم أزال الشارع. فأصبح البيت يقف وحيدًا وسط المجهول وحوله عشب محترق، أما المرأة فكانت تقف أمام الباب تحت شمس الظهيرة الحارقة، وجسدها العاري مغطى بروب بيت أزرق اللون ومفتوح من الأمام وبلا أكمام. هذا سيبعد عنها الحرارة، هذا أقل ما يمكنه فعله لها ليظهر امتنانه. ثم دعا زوجته إلى غرفة الرسم.

أخذت تتراجع وتتقدم أمام اللوحة وتحرك ملامح وجهها، أدرك أنها أحبت اللوحة كثيرًا.

- لكن ملابسها غير مناسبة، أليس كذلك؟

- نعم، لكنه يوم حار.

بل كان عامًا كاملًا.

تمنى لو يجدها مجددًا هذا الصيف.

ذات مرة ظن أنه رآها على رصيفٍ مزدحم، كان هذا في "بروفينستاون" منذ أسبوعين في أحد الأيام التي خرج فيها وحده، لكن بمجرد أن اقترب، ندم وأراد أن يخرج من هذه البلدة المزدحمة فورًا ليبتعد عن هذا الصخب والارتباك، لكنه علق في المرور، خرجت امرأة من مطعم "لوبستر بوت"، وبدأت تسير على الرصيف، بينما هو عالقٌ وسط المرور، لمح الزحام وهو يبتلعها ثم يطلقها إلى أن تحررت منه أخيرًا. تحرر هو أيضًا من المرور لكنه ظل يتابعها، قاد ببطء ليعطيها فرصة للتقدم في السير، تبعها حين انعطفت في شارع "سنايل رود". هذه المرأة لا ترتدي قبعة أبدًا، فشعرها أشعث عند مؤخرة عنقها، ولونه يميل للأبيض منه إلى الأشقر، مثل البلاتين. إنه لون شعر المرأة التي يبحث عنها، لكن حين توقفت لتعبر الشارع، رأى وجهها ولم تكن هي.

والآن هناك تلك المرأة على الشاطئ، ظل يبدل رأيه بشأنها.. إنها تختلف عن الآخرين، مترفعة قليلًا، لكن ربما يبدو هذا لأنها الوحيدة التي ترتدي ثيابًا كاملة على الشاطئ، رآها وسط مجموعة ثلاث أو أربع مرات، ورآها مرتين تقف على السلم المؤدي إلى الشاطئ، دائمًا ترتدي بناطيل طويلة وواسعة وبلوزات بأكمام طويلة، وقبعة صفراء عريضة. ربما تشابه الملابس هو ما جعله يظن أنها المرأة نفسها، أو هو الحنين إلى الماضي الذي جعله يتوق لحبٍ قديم لامرأة لها القوام نفسه.

لا تبقى المرأة على الشاطئ طويلًا، كانت موجودة في اليوم الذي أبعدت فيه زوجته المجموعة، لكنها رحلت قبل "عملية الإخلاء". سارت إلى "كورن هيل" مع رجل، لا يظنه أنه الرجل نفسه من العام الماضي، ذلك الذي كان يقف على الباب، على الرغم من أنه لا يتذكر شيئًا عنه.

لم يؤمن أبدًا بفكرة أن تكون المرأة مصدر إلهام. كان يظن أنها وسيلة من الرجل لملاحقة المرأة أو السيطرة عليها. إنه لا يريد واحدة بأي حال، لا يمكن أن يريد ذلك النوع من المسؤولية. ومع ذلك يشعر بشوقٍ عجيب إليها، تلك المرأة التي تشعر بالحر وتقف على عتبة باب في شارعٍ جانبي في "إيستهام". يعلم أنه يائس لدرجةٍ سخيفة، لكن ما بيده حيلة. آهٍ فقط لو يجدها! لأصبح الأمر مثل العام الماضي عندما كاد ييأس من إيجاد شيءٍ يرسمه، ليته ينعطف فجأة فيجدها تفعل أي شيء. تجلس، تتكئ، تتأرجح، تتدلى بالمعكوس من على شجرة! عندها سينتشل نفسه من حالة الخمول.

قاد خارج جنوب "ويلفليت" وذهب إلى شمال "إيستهام"، توقف عند منارة "نوزيت" ليشاهد رجلًا يحمل كاميرا باهظة الثمن ويلتقط صورًا للمنظر، أراد أن يسمع صوت الكاميرا وهي تلتقط صورة أخرى للمنارة والمحيط والسماء. فتح النافذة لكنه لم يسمع سوى صوت المحيط الأطلنطي، تراجع المصور وتقدم ثم ركع على ركبةٍ واحدة ثم الاثنتين. وأخيرًا استلقى على معدته ومد ذراعيه والتقط المزيد من الصور.

حسد الرجل على حماسه ونهمه للعمل والتهام المناظر بالكاميرا بكثرة وسرعة، نهض الرجل وذهب نحو الشاطئ بينما يستدير عدة مرات فجأة ليلتقط المزيد من الصور، وكأنه يلاحظ شيئًا ما أو شخصًا ما فجأة ويريد تصويره بالجرم المشهود.

عندما رحل الرجل، مد يده إلى حزمة الأوراق على الكرسي المجاور له ثم إلى جيب سترته ليأخذ قلمًا، لكن عليه أن يسأل نفسه لماذا يريد قلمًا وورقة؟ ماذا ينوي أن يفعل بهما؟ أعاد الورقة إلى حزمة الأوراق، وأبعد يده عن جيبه ووضعها على المقود وشغل المحرك.

ذهب إلى الشارع نفسه في "إيستهام"، وتوقف بمحاذاة الرصيف المقابل للمنزل، ما زالت الشبابيك مغلقة. هناك لافتة معلقة على إحدى النوافذ، مكتوب عليها "للإيجار صيفًا"، ما زالت الشجيرات المتشابكة موجودة، والعشب الأصفر قد ازداد طولًا، دوارة الرياح على سطح الجيران تدور.

نظر عبر الزجاج الأمامي إلى الأسفلت الرمادي الممل، ربما عليه العودة إلى نيويورك، هذا ما دار في باله طوال الأسبوعين الماضيين، لكن لم يجد في نفسه الطاقة أو الشجاعة ليخوض النقاش الحتمي والجدال الذي سينتج عن هذا الاقتراح. بأي حال، لا يمكنه التأكد من أنه سيبلي حسنًا في نيويورك، لكنه يفتقدها.. يفتقد إحساس التواضع وعدم الأهمية الذي تعطيه له. هذا ما تفعله له دائمًا. تحوله إلى شخصٍ غير مهم. في صغره وشبابه، كان وجوده بارزًا جدًّا ويحتل مساحة كبيرة، سواء في المطبخ أو الفصل أو حتى الحديقة، كان ضخمًا وغريبًا إلى أن ركب معدية ونزل ليتمشى بين الأرصفة والمستودعات في جنوب "مانهاتن". بدأت المباني تزداد طولًا كلما تقدم في السير، تحرر من عقدته بشكلٍ ما.. تقلص، يريد أن يفعل هذا الآن، يريد أن يسير في الشوارع ليلًا بمفرده في حي كئيب. من الغريب أن هذه الأجواء الخطرة تشعره بالسلام النفسي، يريد أن يشعر بعدم أهميته، في الوقت نفسه يشتاق لجزيرة "مونهيجن"، و"جلوستر"، و"أوجونكويت". بصراحة، إنه يشتاق إلى كل مكان عمل به من قبل، عدا هذا المكان الذي حفظ كل شبرٍ فيه ورسم كل ما يستحق الرسم به.
في "جلوستر" كان يشعر بالإلهام؛ فهي مدينة ساحلية جميلة ونظيفة وتقدم له الكثير، وفي جزيرة "مونهيجن"، يوجد حواف جبلية جرانيتية، أحب تسلق الجبل للوصول إلى الجرف الصخري الخطر الممتد في الماء، أحب أن يكون شابًّا ويستطيع الوقوف لساعات دون أن يثقله شيء إلا حامل الرسم وحقيبة الطلاء. الرسامون الآخرون من حوله يتبادلون المزاح ثم ينشغل كلٌ منهم بعمله، اشتاق لكل هذا؛ الجرف الحاد، الأمواج المتلاطمة، أضواء السفن البعيدة، المتعة في أن يكون محاطًا بالناس لكن في الوقت نفسه وحيدًا.
لكنه يعرف أنه أكبر سنًّا من أن يذهب إلى "مونهيجن" ويتسلق الصخور ليحصل على منظرٍ يرسمه، كما أن علاقته بـ"جلوستر" انقطعت تمامًا. وحتى لو ذهب إلى "نيويورك"، فبمجرد أن يصل سيقول لنفسه ليتني بقيت في "كيب"، لو بقيت كفاية لظهر شيءٌ ما وأنقذني من الحيرة، وفي الليل سيغلق عينيه ويشتاق لصوت البحر الذي كان ينام عليه، سيغلق عينيه ولن يرى شيئًا غير العشب الطويل يتمايل تحت النور الساطع مثل مئات الرؤوس الشقراء.
ظل جالسًا في السيارة في ذلك الشارع الجانبي في "إيستهام" في الجهة المقابلة للمنزل، على الرغم من علمه بأنه لا يجب عليه الجلوس لفترةٍ طويلة لأنه يسبب له التهابًا في الأمعاء الغليظة.
عندما سمع اسم هذه الحالة من الطبيب لأول مرة، قال له: "هذا مضحك!".
لم يسعد الطبيب برده ونظر إليه بوجهٍ خالٍ من التعابير، الطبيب يعرف الحقيقة، يعرف أنه يشعر بالألم الآن لدرجة أنه لا يستطيع النهوض من على الكرسي ليحضر لنفسه شيئًا، يعرف أن لا شيء بيده غير الجلوس بسُباتٍ يائس. لا، ليس بيأس؛ فالشعور باليأس يحتاج لبعض الطاقة.
استند بذراعيه على المقود وأراح رأسه المتعب، قال لنفسه: "لقد انتهى أمري، أصبحت فارغًا.. لقد انتهيت".
عندما عاد إلى البيت نزل إلى القبو توجد به نافذة تمنحه منظورًا سفليًّا للخارج. أشعة الشمس تغرق الأرض وتفيض إلى القبو وكأنها دماء تسيل، أخرج صندوقًا من تحت كومة صناديق، ثم بدأ يخرج منه كتبًا، سقطت ورقة مطوية من أحد الكتب.. فتحها فوجد خطابًا بخط زوجته، قرأ السطور بعينه قبل أن يفكر في الكلام.
"أعرف أنني محظوظة لوجوده معي، أعرف أنه مرح ومتسامح ويحتملني بنوبات غضبي ويساعدني في المطبخ، لكن هذا يجعلني أبدو شريرة عندما لا أريد الطبخ على الإطلاق. في الماضي

كنت فنانة، أما الآن فأصبحت عبدة في المطبخ دون سبيل للتحرر، لا يمكنني الحياة بهذا التعب والغضب، بينما هو...".
توقفت الجملة، ولا توجد تكملة في ظهر الورقة، ربما دخل عليها وهي تكتب فأخفت الورقة بين صفحات كتاب ونستها، وجد أن المرسل إليه صديقة مشتركة بينهما لكنها متوفاة الآن. لو أن هذا هو ما تكتبه لأصدقائها، فما مدى الكلام المسموم الذي تكتبه في مذكراتها التي تسميها "كتاب الحقائق".
عندما وجد الكتاب الذي يبحث عنه، تفحصه بشك، شعر به صغيرًا وخفيفًا في يده، لكنه في الوقت نفسه ينبض بالحياة، فتحه للحظةٍ وشعر أن الكلمات الفرنسية تشبه حشرات صغيرة مجمدة على الصفحة، تصفحه قليلًا حتى بدأت الكلمات تدخل عقله وتكوِّن معاني. فتح الصفحة الأولى التي تحمل عنوان الكتاب واسم المؤلف، ورأى الكتابة المألوفة بالخط الثابت المائل، لم يختفِ الحبر بعد، بالتأكيد أصبحت صاحبته كبيرة السن الآن، وربما لم تعد يدها ثابتة كالماضي، لمس كلمات الإهداء "تذكار صداقة"، ثم العام 1922، ثم اسمها "جين شيروي". شعر بالألم حين رأى الإهداء أول مرة. أرادها أن تبدل كلمة "صداقة" بكلمة "حب"، لكنه خجل من أن يطلب منها ذلك، أما الآن أصبح يدرك أن الكلمتين قد تعنيان الشيء نفسه، ولو أن الصداقة تدوم أكثر.
لم يسمع زوجته إلا عندما نزلت إلى القبو ولمح ظلها بطرف عينه، أعاد الكتاب بسرعة إلى الصندوق وأخذ آخر.
سألته وأشعة الشمس المتوهجة تنعكس على وجهها:
- ماذا تفعل هنا؟
رفع كتابًا ضخمًا وقال:
- كنت أبحث عن هذا.
ثم سار نحوها وقال:
- وماذا عنكِ؟ ماذا تفعلين هنا؟
- سمعت ضوضاء.
استدارت وبدأت تصعد السلم، فصعد خلفها مطأطئ الرأس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

يتوقع الولد الأسوأ دائمًا، لذلك ظل قلبه ينبض بقلق بينما ينزل السلم الخشبي ويركض على الشاطئ بمحاذاة العشب، من المؤكد أن أحدهم اكتشف مخبأه، التمويه الذي قضى وقتًا طويلًا في صنعه على المخبأ قد وقع وانكشف بالتأكيد، سيجد شخصًا ما هناك، أو ربما ذهب ورحل بالفعل بعدما أخذ كل ما تعب لجمعه وقلق عليه لأيام طويلة، بما فيها علبته المعدنية المربعة الجميلة.
عندما وصل إلى المخبأ، هَدأ قلبه قليلًا، ما زال غطاء الأشجار مكانه، ولا يوجد دليل على وجود مقتحم، ولا حتى آثار أقدام طائر، أزاح فروع الأشجار التي يستخدمها كغطاء للمخبأ ودخل ثم أعادها مكانه، أخذ يحفر في الرمل بيديه، عاد قلبه يضطرب عندما لمح العلبة المعدنية التي بدأت في الظهور، ماذا لو أن الطعام داخلها قد تعفن وستفوح رائحته بمجرد أن يفتحها، ولن يجد فيها إلا مجموعة عناكب تتجول أو يرقات تزحف على بقايا الطعام؟

رفع العلبة وأغمض عينيه وهو يفتح الغطاء ويقرب أنفه ليشمه بحذر.. هناك رائحة تفاحة وقلم رصاص ورائحة أخرى تشبه مقاعد الدراسة، فتح عينيه فوجد كل شيءٍ كما تركه، أخيرًا ارتاح وشعر بالسعادة.
تفقد كل غرض؛ هناك ست كرات، ونصف قالب حلوة، وبعض البسكويت المالح ملفوف في كيس، وتفاحة خضراء صغيرة. هناك أيضًا ورقة طويلة مطوية أربع طبقات، ويبرز منها سكين سويسري ذو يد بنية، بالإضافة إلى أربع أقلام رصاص ومسطرة خشبية ستة بوصة مربوطة معًا برباطٍ مطاطي.
أفرغ جيوب بنطاله، معه علبة "تشيستر فيلد" فيها ثلاث سجائر، وقطعة من الجبن السويسري ملفوفة بورقة جرائد، وضع هذه الأغراض في العلبة ثم جلس القرفصاء ونظر إلى غنيمته، يجب أن يتناول الجبن قريبًا وإلا سيكون طبقة بيضاء ثم سيتصلب كالحجر، أو سيتعفن مباشرةً.
بدأ يقلق من أن العلبة لن تكفي أغراضه، لو استمر الحال هكذا.. سيضطر أن يجد علبة ثانية أو علبة أكبر، ستتساءل "روزيتا" عما يحدث؛ لقد أعطته هذه العلبة لأنه سألها إن كان يمكنه أخذها أم لا، قال: "هل يمكنني أن آخذ هذه العلبة عندما تفرغ يا روزيتا، من فضلك؟".
وقفت "روزيتا" على كرسي ومدت ذراعها لتأخذ العلبة من الرف العلوي، سندت العلبة على بطنها وفتحت الغطاء، ثم وضعتها على الطاولة وعدت قطع البسكويت المستطيلة بداخله فوجدتها ستة، أعطته ثلاثة وأخذت ثلاثة وهي تعد بالإسبانية (uno, dos, tres). قالت:
- ها قد فرغت.
ثم ربتت على كتفه بيدها السمراء.
أخبرته أن البسكويت جاءها من اسكتلندا، لكن "روزيتا" هي الوحيدة التي تنطقها "سجولاند".
أرسلتها امرأة مع زجاجة "سكوتش ويسكي" وشال كاروهات هدية لسيدة "كابلان"، لأنها وجدت لها حفيدتها في أثناء الحرب. قالت إن الصورة التي على الغطاء هي صورة امرأة، لكنه عرف أنها كانت تمزح، ليس بسبب البريق الذي لمع في عينيها، بل لأن "ماك إيوان" زميله في المدرسة أراه صورة لأعمامه في "يوم التراث"، كانوا جميعًا يرتدون جيبات اسمها "كيلت" ((kilt أو "إزار اسكتلندي".
كان أحدهم ينفخ في مزمار القربة، لكنه لم يقل شيئًا من هذا لـ"روزيتا"، كان مستمتعًا بالاستماع إلى لكنتها الغريبة والطريقة التي تستخدم بها الكلمات ومزاحها، لذلك جاراها.
- لا أعرف يا "روزيتا". إنه يبدو رجلًا لي.
- لا، في "سجولاند" النساء "قبيهات" جدًّا، ويرفعن شعورهن فوق رؤوسهن.
أشار إلى القربة وسألها:
- ما هذا الشيء الذي تحمله بين ذراعيها إذًا؟
- هذا؟ إنه طفلها، في "سجولاند" الأطفال أكثر قبحًا من النساء.
بعدها انفجر الاثنان بالضحك حتى تناثر فتات البسكويت على أرضية مطبخ "روزيتا" النظيف.
أخذ أحد الأقلام ثم أخذ الورقة المطوية والسكين السويسري ذا اليد البنية والبسكويت المالح، ثم وضع العلبة على حجره وأعاد الغطاء ثم استخدمها كطاولة صغيرة، فتح الورقة التي كانت مغطاة باثنين وأربعين مربعًا صغيرًا متساويًا، بعدد الأيام التي مرت منذ وصوله إلى هنا والأيام المتبقية حتى عودته إلى نيويورك، لعق القلم ثم رسم علامة "إكس" في المربع الخاص بالأمس، ثم عد الأيام الباقية.. ثلاثون يومًا، لقد مضى أسبوعان تقريبًا.

لا يذكر بعض هذه الأيام مطلقًا، وكأنها تسربت من ذاكرته، لكنها تمر معظم الوقت ببطءٍ شديد حتى يظن أنها لن تنتهي أبدًا.
طوى الورقة ووضعها جانبًا، ثم أخذ قطعة بسكويت ووضعها على غطاء العلبة ورفع السكين وشعر بوزنها في يده ثم فتحها بطرف إصبعه، قسَّم قطعة البسكويت لأربع قطع متساوية، لكن الجزء الرابع تفتت وهو يقطع، نظر إلى الثلاثة أرباع السليمة والربع المحطم، تنهد وقال متظاهرًا بأنه يتحدث مع أصدقاء خياليين:
- آسف يا رفاق، لا يوجد ما يكفي إلا ثلاثة منا اليوم.
تمتم بنبرةٍ مختلفة وهو يضغط ذقنه على صدره:
- هذا ليس عدلًا!
- اصمت! هل تريد أن يلاحظنا أحد؟ أخفض صوتك وإلا لن أعطيك شيئًا من هذه.
وأخرج برتقالة من جيب بنطاله ورفعها.
أخفض رأسه وهو يضع البرتقالة على العلبة، ثم استخدم السكين ليشقها أربعة أجزاء، فتح البرتقالة ببطء ووضع أجزاءها بجانب قطع البسكويت، لقد صنع مأدبة! أخذ يتمتم بأصوات مختلفة ليشكر نفسه على هذا الكرم ثم تناول الطعام بالنيابة عن الجميع، حتى قال بالألمانية:
- "شكرًا".
توقف فورًا ونظر حوله بقلق ثم وضع يده على فمه وهمس بالألمانية:
- "العفو".
مد يده لقطعةٍ أخرى، لكنه قال:
- لا، يكفي هذا لليوم! آسف لكن علينا أن نحافظ على هذا الطعام لأطول فترة ممكنة، تعرفون القواعد.
نظر إلى السكين السويسري وبدأ يخرج كل أنصاله المختلفة حتى فتحها كلها ووضعها على يده، فأصبحت تشبه خنفساء بنية كبيرة، أعاد كل الأنصال لمكانها عدا السكين الرئيس، قربه من وجهه ليقرأ المنقوش عليه.. "سكين كشافة رسمي".
لو كان معه عدسة مكبرة لكانت القراءة أسهل، أو ربما كشاف أو ولاعة، لو كان عنده كشاف لجاء هنا في الظلام حين يكون "ريتشي" نائمًا، لو كان عنده ولاعة لعلَّم نفسه التدخين، ولجلس مع "كاثرين" في البلكون ليلًا ودخنا سجائر، ولظل معها حتى تنتهي الأسطوانة وتدور بصمت، يمكنه أن يحمل لها مطفأة السجائر لكيلا يسقط منها أي رماد، ولكي يرى يدها وهي تمتد وتتراجع، يمكنه أن ينظف المِطْفَأة حين تذهب إلى النوم لكيلا تضطر إلى سماع سيدة "كابلان" في الصباح وهي تقول: "كاثرين، أرجوكِ لا تقولي إنكِ دخنتِ كل هذه السجائر طوال الليل!".
خلع حذاءه وصنع فتحة صغيرة بين أوراق الشجر التي يستخدمها للتمويه، ثم جلس القرفصاء واختلس النظر للخارج، وضع قطعة مفتتة من البسكويت المالح على لسانه وأخذ يلوكها في فمه ببطء، ثم بدأ يمص قطعة برتقال، هذا هو أفضل ما فعله منذ مجيئه إلى هنا.. أن يأتي إلى هذا المخبأ ليبتعد عن البيت بقوانينه التي لا يستطيع مواكبتها، وعن "ريتشي" كثير البكاء.. "ريتشي" وكلبه الجبان وأمه وصديقتها الحمقاء "أنيتا"، أن يجلس ويتناول ما معه من طعام باستمتاع لأطول مدة ممكنة بينما ينظر إلى البحر ويستمع إليه.
أصبح يحب البحر، أول مرة يراه كانت ليلة وصوله، لم يحب منظره في الظلام عن بعد، كان خطيرًا وأسود مثل حيوانٍ مفترس وضخم، بصوته الفظيع المرعب وهو يزأر ويتنفس، لهذا ظل مستيقظًا

حتى الصباح خوفًا من أن ينقض عليه.
وصلوا إلى البيت بحلول الظلام في أول ليلة، قادوا في طريقٍ ضيق ورؤية شبه منعدمة، بلا مصابيح شارع أو سيارات أخرى، بل فقط ضوء سيارة السيدة "كابلان"، كل ما خطر بباله هو أنهم وسط المجهول، وعندما خرجوا من السيارة أحاط بهم نوعٌ مختلف من الظلام لا يشبه ظلام المدينة، ترددت أصوات كائنات لا يراها؛ طيور، ضفادع، جراد.. وربما كانت نمور.
صعدوا طريقًا منحدرًا وغير ممهد للوصول إلى البيت، ظلت السيدة "كابلان" تقول: "احذروا يا أولاد، احذروا!". إما هذا أو تتحدث عن روعة الشاطئ وعن قربه الشديد من البيت، فجأة وجد المنزل أمامه وكأنه نهض من الظلال. بينما يقتربون، أضيء مصباح في البلكون الخارجي المفروش مثل غرفة جلوس خارجية بمقاعد وطاولة و"جرامافون"، ثم خرجت "روزيتا" للقائهم.
حل الظلام مجددًا حين أطفأت سيدة "كابلان" الأنوار وقالت:
- تصبحون على خير يا أولاد، فلتحرسكم الملائكة.
أغلقت الباب وغرقت الغرفة في ظلام دامس، ثم سمع صوت "ريتشي" يقول:
- إنها دائمًا تقول هذا، وكأننا في الرابعة مثلًا، أو كأن هناك من لا يزال يؤمن بالملائكة.
ثم نهض "ريتشي" وفتح الباب قليلًا ليتسرب نور الممر إلى الغرفة وقال:
- أرجو ألا تمانع، أنا لا أخاف من الظلام وما شابه، لكنني أحب معرفة ما يحدث حولي.
اندهش عندما تحدث "ريتشي" في تلك الليلة، فهو لم ينطق بكلمة طوال الرحلة على الرغم من أنهما كانا يجلسان معًا في المقعد الخلفي، وعلى العشاء ظل صامتًا ينظر إليه بمكر عبر المائدة، لم يتكلم إلا عندما وضعوا طبقه أمامه، قال: "تعرفين أنني لا أحب اللحم المشوي يا جدتي!".
الآن أصبح يعرف أن "ريتشي" يحب التحدث في الظلام ليسلي نفسه حتى ينام.
في الليلة الأولى قال:
- لا أحب هذا البيت كثيرًا بصراحة.. لا أطيقه، كان لا بأس به في أول عام، أما الآن فأراه مقرفًا، لكنهم سيحتفظون بالمنزل حتى نهاية أكتوبر القادم.. تصور؟! سنعلق هنا لثمانية أسابيع أخرى، دون تليفزيون. على الأرجح ليس لديك واحدًا.. لا أعرف، ربما لديك. لا أقصد أنك فقير، أقول فقط أننا اشترينا واحدًا منذ شهرين، لقد استطعنا ذلك فقط لأن والدتي حصلت على شيك من الجيش الأمريكي مقابل جهودها كما تعلم. عادةً نعود بعد عيد العمال، لكن الآن سنبقى حتى أكتوبر! لماذا أهتم أصلًا؟! سأبدأ الدراسة قريبًا في مدرستي الجديدة في "نيو هامبشير" إن كنت لا تعرف، لا أظنني سأجد تليفزيونًا هناك أيضًا.
استطاع أن يسمع "ريتشي" وهو يفرك في سريره ويضرب الوسادة وهو يقول:
- عمتي "كاثرين" هي السبب في بقائنا هنا، ستقابلها في الصباح، لكن ليس على الإفطار؛ فجدتي تقدمه لها في السرير، وهي لن تذهب إلى الشاطئ إلا قليلًا، كانت تؤجر منزلًا صيفيًّا في بلدةٍ أخرى عن بعد عشرة أميال من هنا، وكانت تشاركه مع ممرضتين كانت تعمل معهما في المستشفى، بعد ذلك ذهبت إحداهما للمكسيك والأخرى تزوجت، لذلك ترعاها جدتي بنفسها، يبدو أن الشمس تؤثر على جلدها، أظن أن للأمر علاقة بالحقن التي يعطيها لها الطبيب "توم". لكم الوسادة مجددًا وقال:
- مدرستي الجديدة هي واحدة من أقدم المدارس الداخلية في "نيو إنجلاند"، يعني أن الطلاب يعيشون وينامون فيها.. هل تعلم ما أسوأ شيءٍ هنا؟ دعوة أمي لصديقاتها الحمقاوات باستمرار، لماذا لا يؤجرن منزلًا صيفيًّا لأنفسهن! هذا ما أريد معرفته، يتجولن في البيت ويستولين على الجرامافون

ويتصرفن مع "باستر" وكأنه كلبهن وليس لي، ثم يذهبن للعشاء في "بروفينستاون" كلما جاء عيد ميلاد إحداهن.. مثل الليلة مع آنسة "شتاينز" العجوز، أظنها تجاوزت المائة وخمسة مثلًا، وتبتسم على كل شيء بينما تدفع إحداهن الفاتورة، أما عمتي "كاثرين" فلا يفترض بها الخروج كثيرًا لأنها مريضة جدًّا؛ لقد أخذوا إحدى كليتيها، انتزعوها من جسدها، اضطروا لتحطيم ضلوعها ليأخذوها، لا أعرف كيف فعلوها.. ربما استخدموا مطرقة، لقد أصيبت بمرض خبيث، وفي أي لحظة قد... أعني أنها على الأرجح سوف... لن أندهش لو أنها... الجميع يتوقع لها أن.. إحم... في أي وقت. أرجو أن تفهم قصدي.

نام "ريتشي" قبل أن يوضح له ما الذي يتوقع الجميع حدوثه لـ"كاثرين".

عندما نام "ريتشي"، نظر الولد حوله إلى الغرفة الغريبة ومحتوياتها التي لم يرَ مثلها من قبل، وأيضًا فكر في الأشياء التي تنقصها؛ مثل مخرج طوارئ الحريق الملون بالأسود، ويجب أن يكون ملاصقًا للنافذة من الخارج، وأنوار المرور التي تنعكس على السقف، أو صخب المدينة بالخارج، لكن النوافذ هنا طويلة مثل الأبواب وعليها شيش أغلقته سيدة "كابلان" لحجب النوافذ بدلًا من الستائر. هناك بلكون ملحق بالغرفة يسميها "ريتشي" "□ارندا"، لكنها أصغر من البلكون الخارجي الذي رآه في طريقه إلى المنزل، خمن أنها المكان الذي يجب التوجه إليه في حال حدوث حريق، وإلا كيف يمكن الهروب من النيران إذا اندلعت في هذا البيت الخشبي! كل شيء مصنوع من الخشب؛ الجدران، الأرضية، السقف، السلالم، رائحته تحيط به. تحتوي الغرفة على سريرين عاليين وضخمين؛ سرير "ريتشي" مجاور للباب، وسريره مجاور للنافذة، وبينهما مساحة كبيرة من الأرضية، بعكس سريره المنخفض الصغير الملتصق بركن غرفته القديمة، الأرضية هنا عارية، يمكنه رؤية كل الألواح بوضوح، بعكس السجادة المغطاة بورود حمراء وذهبية في بيته، أعطتها سيدة "مورجان" لخالته عندما انتقلت لـ"بروكلين". هناك أيضًا مرآة طويلة مثبتة على حامل، ظل يتجنب النظر إليها منذ دخل الغرفة. هناك دستة من الصور المعلقة على الجدار، كلها عن القوارب والبحر والشاطئ، لم يفهم الهدف منها؛ فالبحر والشاطئ الذي يتحدث عنه الجميع موجودان خارج البيت مباشرةً.

هناك راديو يعمل بصوتٍ عالٍ في الصالة، ظل يستمع إليه لبعض الوقت بعدما نام "ريتشي"، ثم سمع صوت أبواب سيارة تنغلق وأصوات أشخاص قادمة من تحت نافذته بالضبط، استمع إليها لفترةٍ طويلة قبل أن يبدأ أصحاب الأصوات بمناداة وتوديع بعضهم.. "تصبحين على خير.. نعم، تصبحين على خير يا عزيزتي "أنيتا"، أراكِ في الصباح يا "أوليفيا". نعم، نعم، أراكِ لاحقًا يا عزيزتي، تصبحين على خير، تصبحين على خير يا آنسة "شتاينز"، ليلة سعيدة يا سيدة "كابلان"، تصبحين على خير يا سيدة "كابلان"، ألن تصعدي الآن؟ لا يا أمي، سأبقى قليلًا، حاولي أن تنامي قليلًا، نعم يا أمي".

ثم توقف الراديو في الصالة والموسيقى في البلكون الخارجي، وبدأ صوتٌ آخر يتسلل إلى الغرفة، يشبه الشهيق والزفير، ويعلو تدريجيًّا وكأنه يقترب، ضغط وسادته على أذنيه وأدار وجهه بعيدًا عن النوافذ، لمح على الجدار فوق سرير "ريتشي" ثلاثة خطوط من الضوء اثنان أفقيان طويلان، وواحد صغير أسفلهما مباشرةً، يشكلون وجه قطة بعينين طويلتين، تراقب وتنتظر تحركاته التالية. كان عالقًا بين خوفه من القطة وخوفه من الكائن الضخم الذي يتنفس في الخارج، لكنه كان يعرف أن القطة ليست حقيقية، وإنما مجرد شكل صنعه الضوء المتسرب عبر الشيش من الخارج، كل ما عليه فعله هو أن يعرف كيف يفتح الشيش وسيختفي شكل القطة بعينيها الماكرتين.

نهض من السرير وأمسك المرآة الطويلة ثم أدارها لتواجه الطرف الآخر من الغرفة لكي تنظر إلى "ريتشي" بدلًا منه، ثم أمسك الشيش وحركه بالطريقة نفسها التي رأى السيدة "كابلان" تفعلها لكن بالعكس لكي يفتحه، اضطر أن يأخذ خطوة للخارج لكن بحذر، فهناك من يدخن في البلكون الواقع أسفله مباشرةً، لمح قدمي سيدة حافيتين مفرودتين على كرسي صغير ومتشابكتين عند الكاحل. شم رائحة تبغ، ثم رأى يد المرأة وهي تتجه لمِطْفَأة سجائر على طاولة مجاورة لتنفض فيها رماد سيجارتها، لكنها أخطأت الهدف. كانت وحيدة على ما يبدو، خمن أنها لم تقرأ.. بل فقط تدخن وتتأمل الأفق، ما زال يسمع الوحش يشهق ويزفر، بدا قريبًا وفي الوقت نفسه بعيدًا.. لم يفهم كيف استطاعت تلك المرأة الجلوس في البلكون والاستماع لهذا الصوت الرهيب. حاول أن يعرف مصدره، لكنه يتجاوز مدى نظره، يرقد بين تل وبعض الأشجار العالية، أسود وضخم، يتلألأ ويسيل لعابه، يبعد عن المنزل مسافةً قصيرة. تراجع للوراء وقفز إلى السرير.

أعطاه الشيش المفتوح منظرًا جديدًا لانعكاس الضوء، تسلل الضوء بين شفرات الشيش ورسم سلمًا يزحف على الأرض ثم يتسلق الجدار قبل أن يلتصق بالسقف، ظل مستيقظًا فترةً طويلة ينظر إلى هذا السلم ويعد درجاته مرارًا وتكرارًا.

في الصباح شعر بمن يراقبه، فتح عينيه على أشعة الشمس القوية المنعكسة على "ريتشي" بشعره المنكوش فجعلته مضيئًا، كان يحمل منشفة تحت ذراعه وسأله إن كان يجيد السباحة. أغمض عينيه قليلًا ونظر إلى "ريتشي" وقال:

- بالتأكيد، أعني ربما.

قال "ريتشي" بملل:

- لا أعرف كيف يمكن هذا أصلًا، ماذا تعني بأنك "ربما" تسبح؟ إما أن تجيد العوم أو تغرق.. لا يوجد ربما في هذا الأمر.

لهذا تظاهر بالتعب لكيلا يضطر للاقتراب من البحر لكي يكتشف إن كان يجيد السباحة أم لا، نجحت الحيلة لبعض الوقت، أحضرت له "روزيتا" الإفطار والغداء على صينية، وقالت له إنها ستبلغ إحدى سيدات البيت لتلقي عليه نظرة بمجرد عودتهن من تناول الغداء في الخارج. إلى أن جاءت إليه "كاثرين" عمة "ريتشي" في الظهيرة، وجلست على طرف سريره ووضعت يدها الباردة على جبينه. قالت:

- سأعود خلال عشر دقائق.. إن لم تنهض وتلبس، سأجعل الطبيب "توم" يفحصك.

عندما عادت إلى الغرفة، كان يرتدي حذاءه بالفعل.

أمسكت بيده وهي تقوده خارج الغرفة وتنزل معه السلم، ولم تتركه إلا لتأخذ قبعتها من على الطاولة المجاورة للباب وترتديها وتفتح الباب وتمسكه له.

جاء صوت من البلكون يقول:

- إلى أين تتسللان؟

أجابت بمزاح:

- الأمور المعتادة، سنشرب كوكتيل وربما نرقص بعد ذلك، لا تنتظرونا.

- خذي حذركِ، فهو يبدو شابًّا خطيرًا في نظري.

- أعرف ذلك!

ثم أمسكت يده مجددًا.

صعدت معه تلًا أخضر صغيرًا مغطى بالشجيرات القصيرة المتشابكة. تركت يده حين وصلا طريقًا ضيقًا وسارت أمامه، بدأت طبيعة الأرض تتغير؛ اختفت الشجيرات تدريجيًّا وحل محلها بقع من الرمال بين العشب الطويل، سمع حفيف العشب الطويل ثم عاد يسمع صوت الوحش وهو يتنفس بشكلٍ أهدأ من ليلة أمس، وكأنه نائم الآن.
لم يستطع رؤية شيء غيرها وهي تسير أمامه والسماء الزرقاء الصافية من حولها، وطرف قبعتها، وشعرها البني المُسدل على ظهرها، وساقيها الطويلتين بخطواتهما المتأنية. فكر فيما قاله "ريتشي" عن عمته ومرضها في الليلة الماضية، وقرر إنه إما أخطأ السمع أو أن "ريتشي" يكذب.
اضطربت خطواته وشعر بالتوتر حين وصلا لقمة السلم المؤدي إلى الشاطئ، فصدى أنفاس البحر يخترق أذنيه، استدارت إليه ووضعت يدها على كتفه وأدارته لتريه شيئًا ما، لكنه لم يستطع النظر من شدة خوفه من البحر.
قالت له:
- ها هم هناك، هل ترى الكلب؟
أومأ بنعم على الرغم من أنه لم يرَ شيئًا، لأنه لم يكن ينظر أصلًا، كان ينظر لعنقها فقط.
- ها هو "ريتشي" في الماء، ووالدته هناك ترتدي الأحمر وتتحدث مع ذلك الرجل.. أترى؟
- كانت قريبة جدًّا لدرجة أنه يشم رائحتها، هناك بقعة حمراء على عنقها تشبه دبوس الزينة.
- ها هي "روزيتا"، تجلس بركبتيها على المنشفة الزرقاء، جاءت بعض الصديقات، لكنهن سيرحلن اليوم، لذلك لا تزعج نفسك بهن. ما عدا "أنيتا شتاينز"، إنها تبقى معنا.. هل تراها هناك؟ إنها ترتدي ملابس سباحة سوداء.
أومأ مجددًا وقال:
- نعم.
- من هذا الرجل الذي يتحدث مع زوجة أخي في رأيك؟
- زوجة أخيكِ؟
- والدة "ريتشي" هي زوجة شقيقي، والد "ريتشي" هو أخي، من هذا الرجل في رأيك؟ إنه الطبيب "توم"، لكننا لن نحتاجه أن يفحصك، صحيح؟
- لا، أشعر بتحسنٍ الآن.
- عم يتحدثان إذًا؟ أعني الطبيب "توم" و"أوليفيا" والدة "ريتشي".. هل يمكنك التخمين؟ لا؟ حسنًا، أنا أستطيع، إنهما يتحدثان عني، هل تعرف كيف أعرف ذلك؟
هز رأسه نفيًا.
- لأنهما يتحدثان عني دائمًا.
استقامت واستدارت بعيدًا عنه وقالت:
- هيا بنا.
لكنه كان خائفًا من أن يتبعها، بل كان خائفًا من التحرك أصلًا، أغمض عينيه بقوة وثبت قدميه وتشبث بالحاجز الخشبي.
سألته:
- ما المشكلة؟ أنت لست خائفًا، صحيح؟
- لا أعرف، ربما.

- إنه البحر فقط.. هيا، افتح عينيك وانظر إلى مدى روعته، افتحهما.. أعدك أنك ستحبه.
فتح عينيه قليلًا فتسرب الضوء الأبيض الصافي، ثم فتحهما على وسعهما، فرأى آلاف الماسات المتلألئة تتقافز أمامه.. إنه البحر المهيب. قالت:
- إنه جميل، صحيح؟
ابتسم إليها فضحكت ثم استدارت لتنزل السلم برشاقة وكأنها "جنجر روجرز"، كانت تثبت قبعتها الصفراء الكبيرة بيد وتمرر يدها الأخرى على الحاجز الخشبي، وكان الهواء يحرك ملابسها وكأنه يحاول أن يجعلها تطير.
إنه يجلس الآن في مخبأه مغمضًا عينيه تحت شمس الظهيرة، تفوح من أنفاسه رائحة البرتقال، فتح عينيه ونظر إلى العلبة المربعة التي لم يبقَ عليها من البرتقالة غير قشرتها المليئة بآثار القضم والمص والعض، البسكويت أيضًا اختفى كله. لم يبقَ من الوليمة غير شعور باللزوجة على يديه وطعم لاذع على شفتيه، لاحظ أن عازف مزمار القربة على الغطاء قد تلطخ بعصير البرتقال، وفتات البسكويت لطخت التلال والشلال من خلفه. شعر بغصةٍ في صدره، إنه الخجل من نفسه. قال لنفسه:
- لقد خاب أملي فيك وفي عدم سيطرتك على نفسك، أنت جشع، وأنت أسوأ أنواع اللصوص، لأنك تسرق لنفسك فقط.
جلس لوهلةٍ ينظر إلى العلبة ويقرص ذراعه، ثم أخذ السكين ووضع طرفها على راحة يده وضغط، اندفعت قطرات من الدماء وتسلل مكانها قطرات من العصير الذي كان على يده، فبدأ يحرقه بجنون؛ عد حتى عشرين ثم وضع فمه على يده وبدأ يمص الدم ويبصقه، خرج من المخبأ بعدما شعر بتحسن، وبدأ يسير بعلبته نحو البحر، هناك نسور واقفة على الرمال ورؤوسها متوجهة نحو الشمس. نظر إلى الخليج فرأى شواطئ أخرى بعيدة عليها أشخاص يبدون مثل قصاصات ورق ملونة صغيرة، يلعبون ويسبحون ويركضون، كما رأى قاربًا ضخمًا في الماء مثل جزيرة معدنية، بالإضافة إلى قوارب أصغر حجمًا تحوم حوله. في نهاية الخليج، هناك بلدة صغيرة على لسان الأرض الممتد في الماء، فكر في الناس الساكنين فيها، يتحركون في بيوتهم أو يتسوقون في المحلات أو يتناولون العشاء أو يتمشون في الشوارع، لكن هنا على الشاطئ هو وحيد.. لا يوجد معه غير أربعة نوارس ينظرون إلى الشمس، ولا يهتمون أصلًا كم سيبقى هنا، يمكنه أن يبقى وقتًا طويلًا إن أراد، يمكنه أن يبقى، وقد تراه السيدة التي كانت في السيارة الـ"بويك"، فتأتي مسرعة لتطرده من شاطئها الخاص. عندها سيتمكن من رؤيتها مجددًا، لكنه كان واثقًا من أنها لن تطرده؛ ليس بعدما أعطاها كل بسكويته، كان واثقًا من أنها ستبتسم بمجرد أن تميزه، وستقول "إنه أنت!".
البحر ممتد باتساع الخليج.. إنه يبدو أهدأ في آخره، الأمواج بالكاد تتحرك، بل تهتز قليلًا وحسب. بدأ يلاحظ شيئًا وسط الأمواج، ربما قارب أو جزء من قارب، دقق النظر قليلًا فأدرك أنه سبَّاح.. سبَّاح هنا بمفرده! دون شخصٍ يساعده أو يسمعه إن غرق، تساءل من قد يكون شجاعًا وغبيًا في الوقت نفسه لدرجة أن يسلم نفسه لكائنٍ عجيب كالبحر.
سار بضع خطوات إلى بركة ماء وانحنى ليغسل يديه اللزجتين من العصير والدماء، ثم غسل وجهه ومسح صورة عازف القربة والجبال والشلال على الغطاء، ثم جذب طرف قميصه وجفف وجهه ثم جفف العلبة بحذر. عندما وقف ونظر إلى البحر مجددًا وجد السبَّاح يقترب، بدا وكأنه يسبح في خطٍ مستقيم نحوه، نظر حوله لكنه لم يجد ملابس أو منشفة يكون السبَّاح قد تركها على الشاطئ، استطاع أن يرى حركة رأسه وذراعيه يرتفعان وينخفضان، ثم ارتفعت رأس السبَّاح ووقف في الماء الذي

وصل لصدره ثم لبطنه، إنه يسير في الماء.. نحوه! حدق الولد به للحظةٍ ثم تشبث بعلبته وبدأ يجري بأسرع ما يمكنه، كل بضع ثوانٍ ينظر خلفه فيجد السبَّاح يواصل السير نحوه، رأى ساقيه تتحركان لكن ما زالت قدماه تحت الماء.
جرى على الرمال الرطبة الخشنة ثم الرمال الجافة الناعمة حتى وصل إلى العشب وعاد إلى المخبأ وسحب الغطاء التمويه، فتح غطاء العلبة بيدٍ مرتجفة، ووضع فيها السكين والأقلام والورقة المكتوب عليها الأيام، ثم أعاد الغطاء وأخفى العلبة في الحفرة ودفنها بالرمال، ثم ارتدى حذاءه واتخذ الوضعية المناسبة استعدادًا للجري وانتظر.
عندما خرج السبَّاح من البحر لاحظ ولدًا يقف على الشاطئ ويراقبه، واصل سيره في الماء الذي ظل مستواه ينخفض من فخذيه حتى ركبتيه حتى كاحليه. يحمل الولد شيئًا بين يديه باهتمام وكأنه قربان، لم يعرف ما هو لكنه لمع قليلًا حين استدار وبدأ يجري، ساقاه شاحبتان على غير العادة بالنسبة لصبي في أواخر الصيف، شاحبتان ونحيلتان وطويلتان وكأنهما تتشابكان وهو يركض نحو الشجيرات، ذكره منظره وهو يقفز بالجراد.
استدار نحو الأفق فشعر بدفء الشمس على وجهه وببرودة البحر حول قدميه، فكر في العودة إلى الرمال الناعمة والاستلقاء عليها ليستحم بنور الشمس، لكن إن استلقى، سيضطر للنهوض لاحقًا.. وعندما ينهض، سيضطر لصعود التل المرهق حتى البيت، من الأفضل أن يظل واقفًا وينتهي من الأمر، سيكون هناك وقت للراحة لاحقًا.
وضع يديه على فخذيه وبدأ يقوم بالتمرينات التي نصحه بها الطبيب، خمس مرات ثم استراحة، وخمس مرات ثم استراحة، لكنه لم يشعر بعموده الفقري يعتدل، بل شعر وكأنه ملتوٍ أو على الأقل غير متزن، أو لم يعد يريد حمل جسده، شعر بألم عام في جسده، لكنه ليس الألم الناتج عن الوقوف فترة طويلة أمام حامل الرسم، ما كان يمانع لو كان هذا، لكنَّه نوعٌ من الألم يجعله يريد الاستلقاء وعدم الحركة.
بدأ يشعر أن زوجته تراقبه، فتساءل كيف يعقل هذا وقد تركها للتو لتتسوق في "بروفينستاون"، ولن يعود لاصطحابها إلا بعد ساعةٍ أخرى. نظر إلى البيت فوجده ليس واضحًا جدًّا بسبب شمس الصيف، فقط قمة السقف والنصف العلوي من النافذة الشمالية، حتى لو كانت عند النافذة الشمالية - وهذا مستحيل - فلن تستطيع رؤيته من هذه الزاوية، خاصةً مع قصرها، لكنها تستطيع أن تجر كرسيًّا عبر الغرفة أو أن تقف على حافة النافذة.
وقف فترة أطول من المفروض، لا ينصحه الطبيب بالوقوف في الماء البارد والسباحة في البحر، قال إن هذا يضر بالجهاز البولي، ثم يصر على إضافة: "أنا لا أعترض على وجودك في الماء، بل في البحر فقط لأنه يضر رجلًا في سنك وحالتك، لا بأس بحمام دافئ". مع ذلك لم يستطع منع نفسه لفترةٍ طويلة، يقف في البحر حتى يشعر بجلده يبرد حتى ليكاد يَتلاشى عن جسده، يقوم بتمرينات ويسبح طويلًا، ثم يقوم بتمرينات ويقف في البحر قليلًا.. وأخيرًا يستلقي على الرمال الناعمة الدافئة.
لكن تسلق التل إلى البيت أصبح يرهقه ويؤثر على متعته، أوامر الطبيب واضحة ومحذرة، لكنه ليس مستعدًا للتضحية بشيءٍ أحبه طوال حياته.
في صغره، كان يرى البحر من نافذة غرفة نومه، ويمد يده ظنًّا منه أنه سيلمسه. لقد بدا قريبًا جدًّا، لكنه تساءل لماذا لا يشعر؟ لماذا لا يسمح له بالشعور به؟ ظن أنه لو استطاع أن يطول النافذة ويفتحها ليقفز منها، فسيجد نفسه وسط البحر مباشرةً يلعب ويسبح ويستحم بنور الشمس.

كانت لديهم خادمة أيرلندية، كانت أصغر من أن تكون بعيدة عن موطنها، لكنه لم يفكر بعمق في هذا الوقت، بل كان يميل للسخرية، مما أزعج والدته لكن أسعد والده. "ماري" هو اسمها.. تقريبًا، علمته "ماري" كيف يرمي الحجارة على الماء، كانت توبخه بطريقة مضحكة: "أنت، يا لجرأتك! سأقطع أذنيك وأطعمهما للبط!". كانت عادةً تبكي خلف باب المطبخ، فيعانقها ويخبرها أنه يحبها، مسكينة "ماري"! لو كان هذا اسمها أصلًا.

لم يخف أبدًا من الماء، كانت والدته تخاف عليه وتناديه ليعود، لكن تذهب كلماتها أدراج الرياح.. "تعال الآن، الآن!".

لا يوجد بداخله إحساس بالخطر، هذه هي مشكلته.. هذا ما كانت تخبره به وهي تجفف شعره بعنفٍ مؤلم، لكنه أحبه أيضًا، أحب يدها وهي تحرك المنشفة بقوة على شعره حتى يشعر بمخه يتحرك داخل رأسه، وأحب أن يسند رأسه على صدرها، وحتى رائحتها؛ مزيجٌ من العرق ورائحة أخرى حلوة، عندما أصبح شابًّا كان يمازحها قائلًا بأن صلعه المبكر بسبب أسلوبها في تجفيف شعره وهو طفل.

وهناك النهر.. كان في الثامنة تقريبًا، يركض هابطًا التل نحو النهر ويندمج تمامًا مع الأصوات والروائح في مرسى "نياك"، ووالده من خلفه يناديه لكي يبطئ قليلًا، لكنه لا يستطيع إلا أن ينطلق ثم يتوقف لالتقاط أنفاسه وبعدها يقفز ويرد ببضعة كلمات قبل أن يواصل الجري مجددًا. لاحقًا تعلم التدخين تحت الجسر مع زملائه في المدرسة، في ذلك الوقت اكتسب لقب "الجرادة" عندما كان في الثانية عشرة وطوله ستة أقدام.

نظر إلى الماء وإلى قدميه المغروستين في الرمال الرخوة، وبقايا الموجة المحيطة بساقيه، والضوء الذي يغمرهما. سيتغير المد قريبًا، وسيشتد الموج، لو ظل واقفًا سيغطي الماء رأسه، لو هناك احتمال ضئيل بأن البحر سيسمح له بأن يظل واقفًا على قدميه، فسيقبل أن يموت هنا بكل سرور وهو مغطى بالماء، لكن بالطبع لن يسمح له، بل سيوقعه ويطوحه هنا وهناك. وحين يمل من العبث به، سيلقيه على الرمال مع باقي الفضلات التي يبصقها على الشاطئ.

استدار وترك البحر خلفه وبدأ يسير نحو البيت، في أثناء ذلك لاحظ شخصًا ما آتيًا من اتجاه ميناء "باميت". إنه ولدٌ آخر مختلف تمامًا عن الذي رآه منذ قليل، هذا الصبي يسير بإرهاقٍ في الرمال وهو يؤرجح ذراعيه بينما يحمل وجهه ملامح بائسة، وكأنه يسير في الصحراء الكبرى وليس على شاطئ في "كيب كود"، أشار له الصبي وكأنه يريد قول شيءٍ له، فتوقف وانتظر.

توقف الصبي أمامه مباشرةً، ليس واثقًا إن كان قد رآه من قبل، فكل الأولاد متشابهون في نظره. يبدو في صحةٍ جيدة، وبنيانه قوي، وجسده مسمر من الشمس، زفر بقوةٍ وقال باضطراب:

- آسف يا سيدي، أعرف أنه لا يجيب علينا إزعاجك وما إلى ذلك...

انتظر الصبي وهو يلهث بعنف وينظر إليه بارتباك؟ بعد بضع ثوانٍ ملَّ من الانتظار واندفع قائلًا:

- إنه ضيفنا، لقد بحثت عنه في كل مكان ولم أجده، نحن نسكن في ذلك البيت إن كنت لا تعرف، جدتي استأجرته لفترة الصيف، وأمي هي المرأة ذات ثوب السباحة الأحمر.

أضاف هذا الوصف وكأنه يجعل والدته مشهورة.. ربما يفعل.

- إنه دائمًا يتجول بعيدًا بمفرده، هل تعرف أن جدتي هي سيدة "كابلان"؟

كان على وشك أن يجيب بنعم، لأنها جاءت إلى بيته وتناولت الشاي منذ بضعة سنوات، لكن الولد لم يمنحه الفرصة.

- من المفترض أنه جاء معنا بصفته صديقي، لكنه يواصل التجوال بمفرده ولا يمكنني إيجاده أبدًا، وهو لا يريد الذهاب إلى مكان أو فعل أي شيء مع أي شخص عدا عمتي "كاثرين"، يبدو إنه يحبها.
- ربما يحب البقاء وحده.
- نعم، لا بأس بهذا. لولا أن جدتي تواصل سؤالي "هل تستمتعان يا أولاد؟ ماذا فعلتما اليوم أيها الشقيان؟"، الإجابة هي أننا لا نستمتع بوقتنا ولا نفعل أي شيء لأنني لا أجده أصلًا، لكنني لا أخبرها بذلك بالطبع.
- لم لا؟
- لكيلا أجرح مشاعرها بالطبع، وأيضًا ستحاول أن.. أن...
- أن تجعلكما تستمتعان؟
- نعم، شيء من هذا القبيل.
انتظر الولد بعينين متسائلتين وكأنه يقف أمام الناظر، فتساءل إن كان ينتظر أن يأمره بالانصراف، ثم أدرك أن الصبي يريد أن يتحدث فقط.
- إنه من وجد ألوانك وأعطاها لزوجتك.
- لو رأيته سأشكره.
- ولو أمكن أن تخبره أيضًا بأنني بحثت عنه في كل مكان لأن وقت العشاء قد اقترب، ويجب عليه الاغتسال لأنه ينسى عادةً.
- سأفعل ذلك.
- أنا "ريتشي" بالمناسبة يا سيدي، في حال احتجت لإخباره من أبلغك بالرسالة.
- أنت ولدٌ مهذب جدًّا يا "ريتشي".
- شكرًا يا سيدي.
- على الرحب.
تراجع "ريتشي" بضع خطوات ثم استدار وسار قليلًا قبل أن يندفع راكضًا، شاهد الرجل حفيد السيدة "كابلان" وهو يجري بشكلٍ غريب نحو سلم الشاطئ.
في هذه الأثناء ظل الولد مختفيًا في مخبأه خلف غطاء التمويه، رأى "ريتشي" ينزل إلى الشاطئ ويمر بجانب المخبأ ثم يختفي من مجال رؤيته. ظن أنه ذهب لنهاية الشاطئ وسيلتف ويعود من ناحية الطريق. تساءل هل ستكون فكرةً جيدة إن تسلل من المخبأ وعاد إلى البيت قبل "ريتشي"، لكن عندما أدار رأسه ليرى زاوية أكبر، رأى ساقي "ريتشي" بجانب ساقي السباح. عرف أنهما يتحدثان على الرغم من أنه لا يستطيع سماعهما. بعد بضع دقائق، عاد "ريتشي" إلى مجال بصره ومر بالمخبأ وبدأ يركض ثم غادر الشاطئ وعاد للبيت. بدأ يعد حتى ستين. سيعد خمس مجموعات، كل واحدة ستون ثانية، ثم سيتبع "ريتشي" إلى البيت، وصل إلى الرقم ستة في مجموعة العد الثانية، وكان يعد بالألمانية، عندها خيَّم ظل على المخبأ، فتوقف عن العد.
جاءه صوت ذكوري عميق ومتأنٍ:
- يمكنك الخروج الآن، لقد ذهب. وبالمناسبة، شكرًا لأنك وجدت ألواني.
ابتعد الظل وعاد بعد ثوانٍ، لكن هذه المرة كان أقصر وأعرض. تحرك بضع مرات وهو يتسلق التل المطل على المخبأ، ثم اختفى نهائيًّا. ظل الولد متكورًا على نفسه ويغطي أذنيه بيديه وهو يغمض عينيه بقوةٍ آلمته، ظل هكذا حتى تأكد من رحيل الظل تمامًا.

ابتعد عن الولد المختبئ وبدأ يصعد التل ليعود إلى بيته، لم يستطع السير طويلًا قبل أن يأخذ استراحة. استدار ونظر إلى بيت آل "كابلان". وصل حفيدها إلى سلم البيت بالفعل، ظهرت امرأة على الباب وحيته، لم يرَ ملامحها بوضوح من هذه المسافة، ما عدا أنها طويلة.. طويلة وترتدي بلوزة سماوية طويلة الأكمام، وتضع قبعة صفراء.

انحنت المرأة على الصبي واصطحبته للداخل، نظر إلى الفراغ الذي تركاه لثوانٍ ثم واصل صعوده. استطاع أن يسمع البحر من خلفه والرياح من حوله والدماء تجري في عروقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عطارد

1

كانت تسير في معرضٍ للفنون، معرض تقليدي ذو قاعات بلا أبواب، وكل واحدة تقود للأخرى؛ كانت قاعات مربعة، جدرانها بيضاء، وسقفها عالٍ. لا يوجد غيرها في المعرض، وهذا غريب؛ فلا يوجد حتى حارس واحد عند أي جدار. هناك شيءٌ آخر غريب، لا توجد أي لوحات، لكن القاعات مجهزة لها، فهناك خطافات على الجدران، وإضاءة خاصة في أماكن اللوحات الفارغة، لاحظت وهي تتجول أن الخطافات شكلها مختلف؛ كانت خطافات مزدوجة، لها لون عاجي قديم، ومثبتة في الجدار مباشرةً.

في البداية كان الضوء شديدًا ويزعجها، ثم بدأ يخف وهي تتعمق داخل المعرض، القاعات أصبحت أصغر أيضًا، لاحظت ذلك فقط بعدما استدارت ونظرت خلفها إلى الطريق الذي جاءت منه. التغيُّر التدريجي في المساحة واضح، وكأن كل قاعة تستقر داخل الأخرى، استطاعت أن ترى كل الطريق بدايةً من أول قاعة دخلتها وقبلها الأرضية البيضاء والسوداء والباب المزدوج الضخم الذي يقسم المعرض نصفين بدايةً من الخارج، لمحت أجزاءً من الشارع خارج الباب الزجاجي؛ جزء من لافتة على جانب شاحنة، مطفأة حريق عمومية، رأس راهبة تسير. إنها تتذكر الشارع بشكلٍ ما؛ الراهبة، مطفأة الحريق، العلامة الحمراء على الشاحنة. ومع ذلك، لا تتذكر وجودها في الشارع ومرورها من باب المعرض وعبورها للأرضية الشبيهة بالشطرنج، لكن ها هي ذي.

كادت تنسى آخر قاعة، كانت أصغر كثيرًا من القاعات الأخرى، حتى المدخل كان ضيقًا ومنخفضًا وكأنه باب دولاب. اضطرت أن تحني رأسها وتسير بالجنب لتعبر. عندما نظرت للداخل، رأت ظلامًا دامسًا، لكن عندما تعمقت في القاعة.. ظهر عامود من النور وشق طريقه نحو الركن البعيد حيث توجد لوحة معلقة، أدركت فورًا أنها لوحتها من البداية للنهاية. إنها من رسمتها وأخرجتها للوجود، غطت فمها بيدها ووضعت يدها الأخرى على قلبها، اغرورقت عيناها بالدموع.. إنها أجمل لوحة رأتها في حياتها، همست لنفسها: "يا لفرحتي، يا لفرحتي، يا للروعة!".

بعد كل هذه السنوات، كانت لوحتها محبوسة هنا في غرفةٍ مظلمة بانتظار أن تأتي وتجدها.

جففت دموعها بيديها ثم جففت يديها في جيبتها قبل أن تضعهما بحرصٍ على جانبي الإطار، حاولت أن تنزلها من على الجدار، لكنها قاومت. جذبتها بقوة أكبر ثم توقفت وحاولت أن تنظر خلف اللوحة، لكنها وجدتها مثبتة تمامًا على الجدار، وهناك صوت زمجرة مكتومة يخرج من خلفها.

انطفأ نور الغرفة فجأة، شمت رائحة غريبة، رائحة حيوانية، أصبحت الزمجرة أكثر عمقًا في الظلام.. إنه صوت حيوان غاضب، وفي الوقت نفسه خائف، سمعت ضربات قلب، ثم شعرت بشيءٍ رطب على عنقها وصدرها، لوهلةٍ مرعبة ظنت الحيوان يلعقها استعدادًا للهجوم. فجأة استيقظت من النوم، واكتشفت أن الرائحة والصوت يخرجان منها، عرقها هو ما بلل جلدها.

استلقت في الظلام تتذكر حلمها بكل تفاصيله الحية في ذاكرتها، ما عدا أهم تفصيل.. اللوحة. إنها تتذكر وزنها عندما حاولت خلعها عن الجدار، وتتذكر ملمس الإطار البارد على يديها، والشعور

بالحب الذي غمرها عندما رأتها، وشعورها بالإنجاز والفخر، أما موضوع اللوحة ولونها واستقبالها للضوء المنعكس عليها، كل هذا اختفى من ذهنها.
تقلبت على جانبها ونظرت إلى ظهر زوجها الطويل العريض، والبيجامة المخططة الشبيهة بالقضبان المكسورة تحت إضاءة الغرفة. قربت يدها من ظهره وسألت نفسها إن كانت ستخبره عن حلمها في الصباح، حامت يدها في الهواء لوهلةٍ، وشعرت بالحرارة الصادرة من صدره وكأنها جمر مشتعل.
تخيلت نفسها وهي تشرح له، "حدث كذا وكذا، وأتعلم ماذا أيضًا؟ انقبض قلبي بشدة عندما...". سيرد بهمهمات بسيطة على الإفطار حتى تسأله في النهاية: "ما معنى كل هذا؟". فيرد بجملةٍ واحدة بينما يُبعد طبقه: "إنه مجرد حلم" أو "لا أرى معنًى خاصًّا خلف كل هذا".
ثم سيعود لقراءة الجريدة أو الكتاب، أو سيقف عند النافذة الشمالية لتأمله الصباحي المعتاد لكل الأصوات في جنوب "تورورو".
جلست على السرير ووضعت الوسادة خلف ظهرها، ثم شربت بعض الماء من كوب على الطاولة المجاورة لسريرها، عندها أدار رأسه وسألها إن كانت بخير.
- نعم، نعم.. لا تقلق، عد إلى النوم.
نظرت إلى الغرفة ومحتوياتها؛ باب الدولاب، الكرسي، المكتب الغارق في الظلام مثل جزيرة، معطفه المعلق على شماعة غير مرئية وكأنه واقفٌ من تلقاء نفسه.
سألته بصوتٍ عالٍ:
- هل تتذكر الدببة في متنزه "يلوستون"؟
لكنه كان قد عاد للنوم بالفعل.
واصلت شرب الماء واتخذت قرارًا؛ غدًا ستزور سيدة "سالتز"، كانت تفكر في الأمر لأسابيع، والآن قررت.. ستزور السيدة "سالتز" غدًا، يوم الأحد. ما ألطف هذا! ستذهب وحدها، حتى لو عرض توصيلها، سيتفاجأ برفضها لكنه سيسرُّ أيضًا، لأنه بذلك سيقضي ظهيرة هادئة بمفرده، هذا هو ما يحتاجه بالضبط الآن، فرصة ليعمل على لوحة "أورلينز"، ستطلب منه أن يوصلها إلى محطة الحافلات فقط، ويمكنها أن تطلب تاكسي ليوصلها باقي الطريق.
أو يمكنها أن تقود بنفسها حتى هناك، ولم لا؟ إنها سيارتها أيضًا. لديها الحق في استخدامها مثله تمامًا، سيعترض بالتأكيد.. عندها لن تتشاجر أو تتفاهم معه، بل ستنتظر أن يخرج ليتمشى أو ينغمس في رسمته، ثم ستأخذ السيارة وتترك ملاحظة على باب الجراج لكيلا يبلغ الشرطة أنها سُرقت.
لوهلةٍ تخيلت نفسها وهي تقود على طريق "أولد كاونتي"، دون سيارات على جانبها أو خلفها ليمطروها بالانتقادات أو التعليمات غير الضرورية؛ مثل "لا تقودي بجانب مصرف المجاري"، "لا تقودي في وسط الطريق"، "احذري، شاحنة قادمة!"، "هناك من يقود دراجة!"، "احذري، هناك جسر عند المنعطف التالي". يعاملونها وكأنها تقود بعينين مغمضتين ولا ترى شيئًا! تريد أن تكون وحدها على الطريق العام، وربما بعض الموسيقى من الراديو لتسليها، كم هذا منعش! حولها الحقول والأشجار والأزهار البرية، ونافذة السيارة مفتوحة، والهواء المالح يعبر منها، ستفخر سيدة "سالتز" بها.
ستقول: "هل قدتِ وحدكِ حتى هنا؟ أنتِ؟ هذا مذهل!". ستتلعثم قليلًا كعادتها عندما تندهش بشدة.
يا له من طريق طويل! كم ميلًا من هنا حتى "هيانيس"؟ ثم كم ميلًا حتى المصحة؟ وكم شارعًا خلفيًّا للوصول إليها؟ ثم طريق العودة إلى البيت. بالتأكيد الطريق السريع سيكون مزدحمًا بالعائدين في

المساء، وسيحل الظلام تدريجيًّا، ماذا لو لم تسرِ الزيارة على ما يرام؟ عندها ستقود إلى البيت وحيدة وغاضبة، كم ميلًا من المصحة إلى "هيانيس"؟ ومن "هيانيس" إلى البيت؟
تخيلت نفسها متشبثة بالمقود وتنتظر عند تقاطع طرق لكي تعبر إلى الطريق السريع، بينما يحل الظلام تدريجيًّا على زحام الأحد في هذا الوقت من العام بالذات، أنوار السيارات تمر أمام عينيها وتشوش رؤيتها مرة بعد مرة حتى تقع الكارثة.
سوف تطلب منه أن يوصلها إلى محطة الحافلات أفضل.
المهم هو أن تصل إلى هناك وتصلح علاقتها بسيدة "سالتز" وتقضي الظهيرة مع صديقتها العزيزة الوحيدة. بالتأكيد ستكون مصحة لطيفة، فسيدة "سالتز" ليست فقيرة، ستجلسان على مقاعد مريحة في حديقة ذات عشبٍ أخضر ناعم، وستشربان قهوة مثلجة تحت الشجرة، ستخبرها عن حلمها، لطالما كانت سيدة "سالتز" مهتمة بهذا النوع من الأمور، تسميها "تشوهات نفسية".
ستخبرها بأمورٍ أخرى أيضًا؛ عن النساء على الشاطئ، والطفل الذي أعطاها البسكويت، ودعوات السيدة "كابلان" إلى حفلاتها. فات موعد واحدة بالفعل لكن ما زال هناك أخرى، كانت تنوي حضور الحفلة السابقة، حتى لو ذهبت بفردها، فهي لم تهتم بإخباره أصلًا لأنها متأكدة من رفضه. اشترت سلة كبيرة من الخوخ لتأخذها معها، ووضعت طلاء الشفاه، وكوَت أجمل فساتينها، ثم كانت على وشك أن تلبس الفستان وتطلب منه أن يوصلها، وكانت مستعدة للسير إن رفض، لكن في اللحظة الأخيرة جلست على السرير ولم تستطع النهوض.
ستسألها السيدة "سالتز": "لكن لماذا؟ لماذا لم تذهبي؟"، ستشرح لها الموقف بطريقةٍ ما وستتفهم السيدة "سالتز".. السبب هو أنها ببساطة لم تستطع المواجهة، كانت متعبة جدًّا لتجادله ليذهب معها، ولم تتحمل الذهاب وحدها.
لطالما كانت صريحة مع سيدة "سالتز"، تقول أشياءً لا تحلم بقولها لأي مخلوق، تحدثها عن الماضي وعن أسرار حياتها، وهي على يقين أنها ستصون كل حرف حتى مماتها.
لكن ماذا لو أصيبت بالنسيان كما حدث مع صديقة والدتها السيدة "نيسون"؟ تجلس مذهولة في سريرها وتهتز مثل شجرة في مستنقع؟ ماذا لو لم تتعرف عليها؟ أو أسوأ.. ماذا لو تعرفت عليها؟ ماذا لو توقفت عن الاهتزاز بمجرد أن تراها وبدأت بالصراخ؟ "أخرجوا هذه المرأة من هنا، إنها كذبة.. لقد كذبت بشأن سنها عندما تزوجت، ثم كذبت على زوجها، أخرجوها من هنا.. إنها لم تكن عذراء عندما تزوجت، لم تكن كذلك!".
ما كان عليها إخبارها، فهذا هو نوع الأسرار التي تفضل السيدات العجائز الكلام عنه. لم تكن سيدة "سالتز" مثل معظم السيدات من طبقتها، لكن ما كان هناك داعٍ لإخبارها بكل هذا وغيره؛ مثل إخبارها بندمها على عدم إنجاب طفل، لكن هذا فقط لأن سيدة "سالتز" سألتها: "هل تندمين؟". كان هذا في أثناء الحرب، استدرجتها سيدة "سالتز" في الكلام، كانتا تضحكان على محاولاتها الأولى السخيفة، ثم سألتها فجأة "هل تندمين على ذلك؟".
قالت وقتها: "ربما لم يسمح سني بذلك، لكن زوجي لا يهتم بالأطفال أبدًا، كلانا يكرس حياته لعمله".
كررت السؤال: "نعم، لكن هل تندمين؟". ما كانت لتعترف بذلك لأي شخص، بالكاد اعترفت لنفسها عندما سألتها سيدة "سالتز".
نظرت حولها في الغرفة، لم تكن مظلمة أو مُضاءة. إنه الوقت الذي يسبق الفجر مباشرةً، رأت طاولة الزينة، وأغراضها الموضوعة عليها وكأنها ألعاب لكن للكبار، علبة مجوهرات والدتها، المزهرية

الصغيرة التي كانت لجدتها، علبة البودرة التي اشترتها من المكسيك، علبة عقد كان قد اشتراه لها من مدة طويلة في الكريسماس.
عندما تموت، لن يوجد من يقول "هذا كان عقد أمي، وهذه مزهرية جدتي الكبرى"، سيختفي لقب عائلتها أيضًا، سواء قبل الزواج أو بعد الزواج، لن يوجد من يحمل اسم أي من العائلتين. أما لوحاته، فستدوم بالطبع وتحمل اسمه، لكن اللوحات ليست من لحم ودم، ليس لها صوت أو عيون معبرة، لن يمر وقتٌ طويل على موته حتى تصبح مجرد بضائع تُباعُ وتُشترى لتزيين جدران الأثرياء.
كيف ستكون حياتهما لو سارت على نحوٍ مختلف؟ لو أن بها طفل؟ طفل وحيد، فالوقت ما كان ليكفي للمزيد، لكنه كان سيصنع فرقًا. كان سيؤثر على مكان سكنهم وأسلوب معيشتهم، أمه كانت ستصبح جدة قبل وفاتها، أخته كانت ستصبح عمة، كان سيصبح طفلًا فنانًا بالتأكيد، فوالداه كذلك، لكن الكثير من الأطفال يصبحون فاشلين. عادة ما تنطبق قوانين الجبر على الحياة الواقعية، لكن أحيانًا موجب وموجب ينتجان سالبًا خلافًا للقاعدة. أوضح مثال على ذلك، السيدة "سالتز" وزوجها، كلاهما طيب وصادق.. أما ابنهما! وقح وجشع ودائمًا يبحث عن...
قطعت أفكارها عندما تذكرت فجأة أنه ميت، "ماثيو سالتز" ميت، لقد مات في الحرب، كان سجين حرب.. كيف نسيت هذا؟ لقد تُوفي شابًا. أخبروا السيدة "سالتز" أنه لم يعاني.. دائمًا يقولون هذا، يعلم الله نوع الميتة التي ماتوها حقًا، ويعلم الله أيضًا أي شر لعب بعقلها لكي تفكر هذا التفكير عن الفتى الميت.. إنه فتى ضحى بحياته لأجل بلده.
شعرت بالذنب يحرق وجهها، وبقلبها يضطرب بقوة.
لن يمكنها النوم الآن.
نهضت من على السرير وذهبت إلى الحمام وغسلت وجهها، وقضت وقتًا طويلًا في تنظيف فمها لتغسل عنه مرارة ما قالته. ستشرق الشمس قريبًا، يمكنها أن تخرج لتتمشى وتشاهد الشروق، تشاهد الشمس وهي تخرج مثل بيضة تتكسر، وتسكب لونها على البحر والرمال ويداها وجسمها حتى تبدو مثل قطعة زينة متلألئة على الشاطئ. ستنتظر حتى يهدأ الضوء وينقى المكان ثم ستبدأ بالمشي على الساحل حتى شاطئ "رايدر بيتش"، ثم ستعود إلى البيت عبر التلال الوعرة. ستغيب ساعتين على الأقل، سيشعر بالقلق عليها وهي ستدعه! ستحاول أن تتوقف عن التفكير وهي تسير، ستسمح لنور اليوم الجديد والبحر أن يغسلا تفكيرها، وستسمح للعشب والأشجار بتنظيف التراب عن كل خلية في عقلها، ربما هكذا ستنسى تفكيرها السيئ عن "ماثيو" المسكين، وستتذكر لوحتها من الحلم.
بدأت تجمع ملابسها، بعدما بدأ النور يضيء الغرفة، لم يعد معطفه المعلق يبدو كالدب، بل عاد معطفًا عاديًّا، حتى أنها ترى خيوطه الصوفية.
رفعت كمه ومررته على وجهها، شعرت بخشونته وسمكه وثقله، كان غاليًا جدًّا عندما اشتراه، لكنه أثبت مع الوقت أنه يستحق ثمنه، تشاجرا بسببه وهما يجمعان أمتعتهما للقدوم إلى هنا، قال إنه لن يحتاجه هنا لأنه سينتهي من لوحته قبل أن يحل البرد.
ظل كلٌ منهما يجذب المعطف نحوه مثل الرضيع في قصة سليمان حين احتكمت إليه المرأتان، جذبته بقوة ووضعته في الحقيبة، فجذبه وأخرجه مجددًا، في النهاية تعب وغضب بشدة.
لكنها عرفت كيف سيكون الوضع، كانت تعلم أنه سيمر بوقتٍ صعب ليتعافى جسديًّا وفنيًّا، وأنه سيكون صيفًا طويلًا، وأنه سيفضل الموت على العودة إلى نيويورك خالي اليدين. والآن كاد الصيف

ينتهي ولم ينتهِ من اللوحة بعد، والمعطف الذي كان يرفض إحضاره معه من نيويورك سيصبح لا غنى عنه.
كان خائفًا من الدببة في متنزه "يلوستون" المفتوح، الدبة الأم كانت تتجول مع صغارها، بينما يطعمهم السياح بعضًا من طعامهم عبر نوافذ سياراتهم، أرادت أن تعانقهم.. يا لها من رغبة عجيبة!
وفي الوقت نفسه توحي بمزيجٍ من الحب والوحدة والإحباط، طلبت منه أن يتوقف لكي تربت على الدببة لكنه رفض بشدة، فتصرفت كالأطفال ووضعت قدميها على "التابلوه" مع علمها أنه سيدفعهما بيده فورًا. خربشت يده عندما وضعها على المقود، خربشته وصرخت فيه بقوة، صُدم حقًا حين فعلت هذا. بعدها فاضت دموعها وأدارت وجهها إلى النافذة بحزن، بعد لحظاتٍ توقف وأطفأ المحرك، ثم عانقها حتى جفت دموعها.
شعرت بالحرج من ثورتها المفاجئة، فقالت:
- أظنني تقمصت شخصية السيدة "تشاترلي" حين بكت على الكتاكيت الصغيرة.
قال:
- لا بأس بالكتاكيت الصغيرة، أما الدببة الكبيرة فهذا موضوع آخر.
جلست على طرف السرير وملابسها في كومةٍ بجانبها، ثم بدأت تخلع ملابس النوم.
همهم يسألها:
- ما الأمر؟ هل تعجزين عن النوم؟
- سأخرج لأتمشى.
رفع رأسه من على الوسادة واستدار إليها وهو يطرف بعينه. سألته:
- هل تذكر الدببة؟
- دببة؟ لا، من هي؟
- الدببة في متنزه "يلوستون"، هل تتذكرها؟
أدار رأسه مجددًا وأعاد رأسه على الوسادة وقال:
- أتذكر، أتذكر. لماذا تتذكرين الماضي دائمًا؟ لم لا تتأملين النجوم أفضل، أو الأفضل.. عودي للنوم.
- لا يوجد نجوم الآن، لقد حل الصباح تقريبًا.
تراجعت عن تغيير ملابسها وعادت إلى السرير حيث وضعت وجهها في ظهر بيجامته الدافئة الرطبة ونامت في ثوانٍ.
عندما استيقظت وجدته مستيقظًا ومرتديًا ملابسه بالفعل؛ بيجامته معلقة على الكرسي، ورائحة القهوة تملأ الغرفة، البيت صامت لكنه ليس خاليًا.. إنه النوع السيئ من الصمت.
رأت ملابسها متدلية على جانب السرير، وسترتها ملقاة على الأرض؛ فتذكرت خطتها لزيارة سيدة "سالتز"، لم تعد واثقة من هذه الزيارة الآن، وبدأت تتراجع عن قرارها حين وصل هو إلى باب الغرفة.
وقف ينظر إليها بضع ثوانٍ وهو ينظف رأس فرشاته بخرقة، قال:
- سأذهب لشراء جريدة، هل تحتاجين شيئًا من الخارج؟
- لا أعرف، هل نحتاج شيئًا؟
- ربما بعض البقالة.
- حسنًا.

- ماذا أحضر؟
- كما تحب، ما رأيك أن تفاجئني؟ هل عليَّ اتخاذ هذه القرارات فقط لأنني امرأة؟
- لا، بل لأنكِ انتقائية جدًّا في الطعام.
- هذا ما تقوله أنت. ومن فضلك، تفقد مواعيد الحافلات وأنت في الخارج.
- ذاهبة لمكانٍ ما؟
- ما دمت سألت، أفكر في الذهاب إلى "هيانيس".
نظر إليها بدهشةٍ واستمتاع. حسنًا، الآن أصبح عليها الذهاب إلى "هيانيس" سواء أرادت أم لا.
- سأذهب لزيارة سيدة "سالتز"، كنت أفكر في الذهاب ظهرًا أو بعد ذلك بقليل.. المهم أن أصل قبل الثالثة، ويمكنك أن تتفقد مواعيد الرجوع أيضًا لتعرف متى تصطحبني من هناك.
أومأ وسألها:
- هل تريدين أن أوصلك؟
- بالتأكيد لا! من الأفضل أن تبقى هنا وتعمل على لوحتك، أليس كذلك؟ لكن شكرًا على العرض. كيف يسير العمل عليها؟
سمعته يتحرك إلى طاولة أدواته ثم المطبخ والآن إلى الباب، نادته:
- ألم أسألك كيف يسير العمل؟
تردد لحظةً ثم قال:
- لست واثقًا من أنه يسير أصلًا.
- ماذا يخبرك حدسك؟
- أنها بشعة!
- هل يمكنني رؤيتها على الأقل؟
- لا.
- لا؟
- ليس بعد، أريد أن أتركها بعض الوقت.
ثم انغلق الباب فعرفت أنه غادر.
انتظرت بضع دقائق قبل أن تنهض وتسير حافية القدمين في البيت. لاحظت أن السماء كئيبة وغائمة، فتذكرت أنهم ذكروا حدوث عاصفة ممطرة في الأخبار، لمحت من النافذة الخلفية مؤخرة السيارة وهي تستدير عند بوابة البيت وتختفي عن الأنظار.
ذهبت إلى حامل الرسم وتوقفت، لقد أداره ليواجه الجهة الغربية نحو الخليج، بحيث لا يمكنها رؤية اللوحة وهي تمر بالمصادفة، بل عليها أن تستدير مخصوص وتقف أمامها.. وهذا ما فعلته، وقفت أمام اللوحة وتراجعت بضع خطوات ثم توقفت.
لقد رسمها كلها بالأزرق، اقتربت ومالت عليها ثم رفعت سبابتها عن بعد بوصة أو اثنتين من القماش، ثم بدأت تتابع تفاصيل اللوحة بإصبعها. هذه لافتة الجراج البيضاوية، وهذا هو العامود الذي يثبتها، وهذا مجسم الإطارات الموضوع أسفله، وخلفه مباشرةً إشارة المرور بألوانها الثلاثة. عبرت الشارع بإصبعها وهي تواصل متابعة الخطوط المستقيمة والمنحنية والمستطيلة والمثلثة، حاولت استيعاب كل شيء؛ خط الأفق الضبابي، والسيارة البعيدة، والطريق الواسع المنحني.

استدارت إلى طاولة أدواته وبدأت تبحث بين الرسومات الأولية. تفردها كلها ثم تلتقط واحدة وتتركها وتأخذ غيرها بحثًا عن منظورٍ أقرب؛ هناك قمم أشجار، ومحلات، وبيوت، ومدخنة، وستائر، ولافتة جراج، وخط أفق.. وحتى نقطةً التلاشي.
أعادت الرسومات الأولية كما كانت وظلت واقفة لوهلةٍ دون أن تنظر إلى اللوحة على الحامل، لم تستطع فعل ذلك الآن، لم تستطع رؤيتها وجهًا لوجه، ليس لأنها منبهرة بها.. وهذا يحدث أحيانًا، وليس لأنها تشعر بالحسد والفخر والإعجاب والغضب في الوقت نفسه.. وهو ما يحدث كثيرًا؛ الحقيقة هي أنها كانت ترتاب في أمر اللوحة منذ البداية، لم ترَ ما يثير خوفها أو تفكيرها في هذا الشارع من "أورلينز"، إنها صورة عادية.. بل أسوأ، إنها ميتة.
عادت إلى غرفة النوم وأخرجت أجمل جيبة عندها من الدولاب وفردتها على السرير، ثم بحثت في علبة مجوهرات والدتها حتى وجدت "بروش" فضيًّا.
غامت السماء بشدة، وبدت مستعدة لتنشق وتخرج ما بجوفها في أي لحظة، اقتربت من النافذة لتلقي نظرة عن قرب، لكن لفت نظرها حركة عند الجراج.. هناك ولدان يقفان أمامه ويبدو أنهما يتجادلان، الولد الطويل يشبك ذراعيه أمام صدره، والولد السمين يدبدب بقدمه ويشير إلى البيت وكأنه يرميه بالسهام، خرجت من المنزل ودارت حوله ووقفت على قمة السلالم.
رآها الولد الطويل فورًا فأسقط ذراعيه، استدار الولد السمين فرآها أيضًا، بدآ يسيران نحوها بتردد، بدأت تتعرف عليهما وهما يصعدان؛ السمين هو حفيد السيدة "كابلان"، والطويل هو الولد الذي أعطاها البسكويت، لم تتذكر اسميهما فنادت عليهما:
- مرحبًا بكما، فيم أتيتما؟
أسرع حفيد السيدة "كابلان" ووصل لاهثًا وهو يقول:
- صباح الخير يا سيدتي، آسفٌ لإزعاجكِ.. أنا "ريتشي" إن كنتِ لا تذكرين اسمي، "ريتشي كابلان"، جئنا لأن جدتي السيدة "كابلان" تقول...
أسرع الولد الآخر ووقف أمامه وقال:
- جئت لأرى "آرثر".
- من؟ هل تعني القط "آرثر"؟
- نعم، القط.
شعرت بقطرة مطرٍ كبيرة تسقط على ظهر يدها. فمسحتها وهي تنظر إلى السماء. ثم قالت:
- لكنه ميت.
- أعلم، لكنكِ قلتِ...
- ماذا قلت؟
- قلتِ أنكِ تريدين أن تريني اللوحة التي رسمتها له.
شعرت بقطرةٍ أخرى على ذراعها، ثم لاحظت بقع المطر على السلم الخشبي.
- نعم، قلت هذا.. أظن، يسعدني قدومك، يسعدني أنكما من أتى، لقد نظرت للأسفل ولمحت شخصين عند الجراج ولم أعرف ماذا أفعل!
احمر وجه حفيد السيدة "كابلان" قليلًا، ولم تعرف إن كان احمرَّ خجلًا أم غضبًا.
- لقد ظن أنكِ تعيشين في الأسفل، لم يستمع إليَّ حين حاولت إخباره، كيف يظن أنكِ تعيشين في الجراج!

سألت الولد:
- لماذا ظننت هذا؟
نظر الولد للأسفل وهو يحك الأرض بقدمه كالحصان، وقال:
- كان يشبه المنزل، أعني أن له سقفًا وما شابه.
قال "ريتشي" باستخفاف:
- لكنه صغير جدًّا بالنسبة لحجم المنازل.
- وهي أيضًا صغيرة.
استدار "ريتشي" ونظر إليه شذرًا.
حاولت أن تكتم ابتسامتها وهي تقول:
- حسنًا، من تظنه يعيش في هذا البيت إذًا؟
أجاب الولد:
- ذلك الرجل.
قالت وهي تضحك:
- ذلك الرجل؟ أنا أيضًا أناديه هكذا أحيانًا في عقلي، ذلك الرجل!
سقطت قطرة كبيرة وباردة على وجهها مباشرةً، فقالت:
- ألا تظنان أنه من الأفضل لكما الدخول قبل هطول المطر؟
عندها اندفعت الأمطار بقوة كالسيول.
استدارت وبدأت تجري، فجرى خلفها حفيد السيدة "كابلان"، عندما وصلت للمنزل نظرت خلفها فوجدت الولد الطويل ما زال واقفًا مكانه على السلم والأمطار تنهال على شعره ووجهه، هتفت به:
- ماذا تنتظر؟ ستغرق بالكامل.
هتف يسألها:
- هل أنتِ وحدكِ بالداخل؟
- نعم، أنا فقط.
- أين الرجل؟
- لقد خرج.. هيا، أعدك أنه لا يوجد غيري.
أومأ الولد وجرى خلفها.
دخلوا البيت وهم يخفضون رؤوسهم ثم أغلقوا الباب في وجه الأمطار التي تندفع بسرعة وكأنها تطاردهم، سمعوها ترتطم بالنوافذ والجدران والسقف.
صاح "ريتشي":
- لا، كل ملابسي ابتلت تمامًا!
ضحك الولد الآخر ونفض الماء عن شعره مثل الكلب.
قالت بصوتٍ عالٍ:
- لا تقلقا، إنها أمطار صيفية، لن تؤذيكما.
توقف المطر فجأة وعاد البيت هادئًا، ذهبت إلى الدولاب وأخرجت ثلاث مناشف، وأعطت واحدة لكل ولد.

ضغط "ريتشي" المنشفة على وجهه برفق عدة مرات، ثم جفف يديه بحرص ثم ساقيه، أما الولد الآخر فمسح وجهه بالمنشفة مرةً واحدة ورماها على الكرسي. أما هي فأخذت منشفتها وفعلت مثل "ريتشي"؛ أغمضت عينيها وضغطت على وجهها برفق حتى جف، عندما فتحت عينيها رأت "ريتشي" يفرغ جيوبه ويضع ما فيها على طاولة المطبخ؛ جهاز استنشاق، علبة لبان، ظرفًا أبيض صغيرًا.

قال:

- على الأقل لم يبتل هذا.

وناولها الظرف.

كانت تجفف شعرها وسألته:

- ما هذا؟

- لا أعرف يا سيدتي، بل أعرف في الواقع.. لم أفتحه أو ما شابه. بأي حال، أمرتني جدتي أن أسلمكِ إياه يدًا بيد.

قال الولد الآخر وهو يتأمل أرجاء المنزل بفم مفتوح:

- يريدونكِ أن تحضري حفلة عيد العمال في الإجازة الأسبوعية.

سألته وهي لم تستطع تذكر اسمه:

- هل يعجبك البيت؟

أومأ الولد ثم أشار إلى الدور العلوي الذي يطل بالكامل على الدور الأول من خلال درابزين عريض وكأنه شرفة داخلية، وسألها:

- ما هذا؟

- إنه دور علوي.

- لا يبدو كذلك.

- ماذا يبدو إذًا؟

- يشبه المنصة التي يقف عليها الواعظ.

- الواعظ! لدينا منهم هنا، والآن انتظر هنا ريثما أبحث عن صورة "آرثر".

سمعت همساتهما العالية وهي تبحث في الدور العلوي.

قال "ريتشي":

- ألم يعلمك أحد الآداب العامة؟ على الإطلاق؟

- وماذا فعلت الآن؟

- أنت تتفحص المنزل بفضول، ويجب أن تناديها بـ"سيدتي" عندما تتحدث معها، وأظن ما كان يجب عليك وصفها بأنها صغيرة.

- لكنها كذلك!

أخرجت اللوحة من كومة لوحات قديمة وهي سعيدة، أخفت نفسها خلف الجدار وأظهرت لوحة القط وهي تقول بمزاح:

- مياااو!

ضحك الولد الطويل بشدةٍ وقال:

- ماذا تفعل يا "آرثر"؟ هل تحاول إخافتنا؟

أبعدت اللوحة وأظهرت وجهها، بدا حفيد السيدة "كابلان" مستاءً قليلًا بينما واصل الولد الآخر الضحك.
بدأت تنزل السلم لتعود إليهما ثم سمعت تكة القفل المزدوج لباب البيت ثم صوت "ريتشي" يقول:
- مرحبًا يا سيدي، أرجو ألا نكون قد أزعجناك، لكن جدتي...
سمعت مباشرةً صوت خطوات ثم الباب ينفتح وينغلق مجددًا.
أسرعت للأسفل فوجدت "ريتشي" يقف مندهشًا وزوجها يحمل أكياس بقالة ضخمة وينظر إلى الباب باستغرابٍ ويسأل:
- ماذا حدث للتو؟
وصل الولد لمنتصف السلم الخشبي عندما وصلت هي لقمة السلم ونادته:
- مهلًا...
ثم تذكرت اسمه فجأة.
- مهلًا يا "فينس"، عد.. إلى أين تذهب؟
استدار الولد للحظةٍ وعلى وجهه خوفٌ شديد.
- لن تدعني أركض خلفك، هذا قاسٍ جدًّا، أكرم سني!
استدار وكأنه سيركض مجددًا، لكن ساقيه تشابكتا فتعثر وتدحرج على السلم.
أسندت صورة "آرثر" على بقعة جافة من جدار المنزل ثم أسرعت إلى الولد، كان يمسك ركبته ويغمض عينيه بقوة، كانت ركبته مجروحة بشدة وتنزف وملوثة بالتراب، هناك أيضًا جروح على ساقه ومرفقه وذراعه، بالإضافة إلى قطرات من الدم.
- يا لك من مسكين! هل أنت بخير؟ هذا فظيع! ماذا فعلت بنفسك يا "فينس"؟ هل يمكنك النهوض؟ هل يمكنك فعل ذلك من أجلي؟
مد يده إلى الدرابزين لكنه لم يطوله، رفعت رأسها لتنادي زوجها، فوجدته قادمًا بالفعل وخلفه "ريتشي".
- لا بأس يا "فينس"، سيحملك زوجي إلى البيت و...
تكور على نفسه وهو يئن ويقول:
- لا!
- لماذا يا "فينس"؟ ما مشكلتك؟
نظرت إلى زوجها وهزت كتفيها، فقال:
- ربما من الأفضل أن أعيد "ريتشي" إلى بيت جدته ونحضرها إلى هنا.
سألته:
- هل أنت موافق يا "ريتشي"؟ أن يأخذك زوجي إلى جدتك بينما أبقى أنا مع "فينس" حتى تعودا؟
- "فينس"؟ بالتأكيد يا سيدتي، لا بأس أبدًا، لكن المشكلة هي أنها ليست هناك.. لا أحد في البيت، ذهبت جدتي وأمي مع عمتي "كاثرين" إلى الطبيب "توم"، بعد ذلك سيتناولن الغداء مع السيدة "جرانت"، تلك السيدة الإنجليزية، حتى "روزيتا" اضطرت للخروج أيضًا وتركتنا نحضر الغداء لأنفسنا، أو بالأصح سنحضره حين نعود بعد توصيل الرسالة.
بلل "ريتشي" شفتيه ومد يده بالرسالة للحظةٍ قبل أن ينزلها.
سألت زوجها:

- ماذا نفعل الآن؟
نزل وجلس على درجة السلم فوق الولد مباشرةً، بدأ الولد يهز رأسه بحركاتٍ صغيرة سريعة، ظل الرجل جالسًا قليلًا دون أن يتحرك أو ينظر إلى الولد، ثم سأله بهدوء:
- هل تعرف من هي هذه السيدة؟
تمتم الولد:
- بالتأكيد، إنها السيدة "إيتش".
- السيدة "إيتش"؟ حسنًا.
قال "ريتشي":
- لقد أخبرته أنه ليس اسمها الحقيقي يا سيدي، لكنه لم يستمع إليَّ.
- حسنًا.. في هذه الحالة، أنا السيد "إيتش"، زوج هذه السيدة. والآن أخبرني، هل تظن أن السيدة "إيتش" تخاف مني؟
هز الولد رأسه نفيًا.
- حسنًا، ربما أنا لست رجلًا شريرًا إذًا، صحيح؟
- لا أعرف، أظن ذلك.
- حسنًا، أرى أنه لا خيار أمامك يا بني، ليس لدينا تليفون.. لذلك لا يمكننا الاتصال بطبيب، ولا يمكننا أيضًا أن نتركك هنا على السلم والأمطار على وشك الهطول مجددًا، ماذا لو قام إعصار؟ ستطير في الهواء، نحتاج حقًّا إلى التأكد من أنك بخير لنعرف ما إذا كان علينا الذهاب إلى المستشفى أم لا. "ريتشي" لا يمكنه حملك، وبالتأكيد زوجتي لا تستطيع أيضًا، لهذا أخشى أنك عالقٌ معي، أعدك أن أكون لطيفًا بقدر المستطاع، وبمجرد أن ندخل المنزل، ستعتني بك زوجتي وستفحصك.. ما رأيك؟
أومأ الولد بتردد دون أن ينظر إليه.
قال الرجل:
- سأتفقد بضعة أمور أولًا.
ثم وضع يده على ساق الولد وقال:
- إن أصبت بكسر فلن يمكننا تحريكك، هل تفهم؟ حسنًا. هل تشعر بشيءٍ هنا؟ وهنا؟ جيد. هل يمكنك أن تثني ركبتك؟ هل يمكنك أن تفعل ذلك؟ جيد جدًّا.. أنت ولد شجاع.
ظل الولد يومئ برأسه عدة مرات.
- حسنًا، أريدك أن تضع يدك حول عنقي، أحسنت.. جيد. والآن سأحملك، حسنًا؟ هيا بنا.. سنذهب إلى الطابق العلوي، لم يكن هذا سيئًا، أليس كذلك؟
بدأ الولد يعد بصوتٍ مكتوم.
- أحسنت، واصل العد، عندما تصل إلى المائة سنكون قد دخلنا البيت وجلسنا بارتياح، أعدك.
شاهدته وهو يحمل الولد ويصعد به السلم، بدا الولد وكأنه حيوان صغير مصاب، إنه شيء عجيب هش؛ ركبتاه العظميتان وساقاه النحيلتان تتدليان على ذراعي زوجها القويتين، الجزء الوحيد الظاهر منه هو إصابته. هناك رقعة من الخدوش والدماء تغطي ركبتيه وكأنها نسيج ملتصق عليهما، يا له من كائنٍ هش، هذا الولد الصغير! لا تلاحظ هذا إلا عندما يكف عن الحركة، أما زوجها فليس هشًّا على الإطلاق، بل بدا شابًّا وقويًّا ويُعتمد عليه وهو يحمل الولد على السلالم ورأسه مستقرة على صدره.

تذكرت أمسية حدثت منذ وقتٍ طويل خلال أول أو ثاني فصل صيف لهما في هذا المنزل، عندما حملها بين ذراعيه وصعد بها السلم وأسندت رأسها على صدره، كان يومًا جميلًا من أيام سبتمبر! رسما في الهواء الطلق خارج المنزل، تركها في البقعة التي اختارتها وذهب ليبحث لنفسه عن واحدة، عندما عاد كان الجو قد ازداد برودة، وهي كانت ترتدي فستانًا قطنيًّا خفيفًا، لم يكن يعرف الطرق جيدًا وقتها، وضل الطريق وهو يقود في الغروب، بينما كانت هي تتجمد من البرد، حتى إنه قال لها عندما لمس شعرها: "حتى شعركِ بارد".
من الطريف أن تشارك التجربة نفسها مع فتى بالكاد تعرفه؛ رأسه مستلقية حيث كانت رأسها، وساقاه متدليتان فوق ذراع زوجها القوية كما كانت هي.
صعدت السلم خلفهما وأخذت لوحة "آرثر" وعانقتها.
حمل الولد إلى غرفة الرسم وأجلسه على الكرسي الطويل، بينما تركت هي لوحة "آرثر" وذهبت إلى المطبخ لتغلي بعض الماء، عندما عادت وجدته يحكي للولد عن تدريب الإسعافات الأولية الذي خضع له في أثناء الحرب، لم يهتم بإخباره أنهما خاضا هذا التدريب معًا، بل أنها الوحيدة التي اجتازته للنهاية، كان يمسك كاحل الولد ويحرك ساقه للخلف والأمام. قال لها أو ربما للولد، لا يمكنها التأكد:
- كنت أفحص المفاصل.
يبدو أنهما نسيا أنها كانت من المفترض أن تعتني به بمجرد دخول البيت، وهكذا وقفت بجوار "ريتشي" وشاهدت بصمت.
أمسك زوجها بمرفق الولد وأخذ يفرد ويثني ذراعه، دقق الولد في وجهه وكأنه يحاول أن يحفظ ملامحه، ثم توقف وبدأ ينظر لما حوله؛ حامل الرسم، طاولة الأدوات، النافذة الكبيرة، ثم تفحص الكرسي الطويل الذي يجلس عليه، ويغرس إصبعه في الوسادة المثبتة عليه.
- لماذا توجد وسادة على الكرسي؟
- إنها فكرة زوجتي.
- لماذا؟
- لتجعل الجلوس أكثر راحة، لا يجب عليَّ الوقوف فترة طويلة في أثناء الرسم، لكنني دائمًا أنسى وأقف بأي حال.
- لماذا؟
- لماذا ماذا؟
- لماذا لا يجب عليك الوقوف طويلًا؟
- لأنني أشعر بالألم حين أفعل.
أومأ الولد ونظر حوله مجددًا، ثم استدار إليه وقال:
- قلت إننا سنستغرق مائة ثانية للوصول من السلم إلى هنا.
- وكم استغرقنا؟
- مائة وتسعة وسبعين.
- يبدو أنني مدين لك بتسعٍ وسبعين ثانية، سأدفع قرشًا مقابل كل ثانية.. هل هذا يرضيك؟
ابتسم الولد قليلًا فخفق قلبها.
سأله زوجها:
- ألم تعد خائفًا مني الآن؟

- لا أعرف.. ربما.
قال لها زوجها أخيرًا:
- لا يوجد كسور، أظنه يحتاج فقط إلى تضميد جراحه وعصير برتقال وبعض البسكويت، هل تحب عصير البرتقال؟ لقد اشتريته للتو.. آسف لأنه ليس لدينا أيس كريم، لكن يمكنني أن أشتري لكما بينما أوصلكما إلى البيت، سنوصل زوجتي إلى موقف الحافلات أولًا.
سأله:
- إلى أين ستذهب؟
- "هيانيس" على ما أظن.
نظر الولد إليها وسألها:
- لماذا ستذهبين إلى "هيانيس"؟
- لأزور صديقة.
- هل عليكِ الذهاب اليوم؟ ألا يمكنكِ تأجيل الزيارة؟
- بالطبع يمكنني.
قال بنبرةٍ مليئة مفعمة بالإشراق والأمل:
- إذًا، ستبقين؟
- نعم، أظن ذلك. يبدو أن المطر سيهطل مجددًا على كل حال، لا أحب ركوب الحافلة في المطر، لا يمكنني الرؤية عبر النوافذ لأنها تتسخ بشدة، كما أن الحافلة تصبح خانقة.. يا إلهي! بالتأكيد لست مضطرة للذهاب اليوم، يمكنني الانتظار للغد، فلدينا ضيوف الآن.. أقل ما يمكنني فعله هو البقاء وتحضير الغداء.
ابتسم لها الولد بسعادةٍ وفرح، ثم سأل زوجها:
- هل هي زوجتك حقًّا؟
- لماذا تسأل؟ هل تفكر في طلب يدها؟
- لا، لكنها تبدو لي صغيرة بالنسبة إليك.
ضحكت وصفقت بيديها وهي تقول:
- أنت ألطف ولدٍ في الدنيا!
استدارت لتعود إلى المطبخ وتحضر المياه الساخنة، لكنها رأت "ريتشي" يقف كئيبًا إلى حدٍ ما وفي يده الخطاب، سألته:
- هل ممكن أن آخذ الرسالة الآن يا "ريتشي"؟
انتبه فورًا ومد يده إليها، أخذت الرسالة ووضعتها على الطاولة بجانب الأشياء التي تركها عليها منذ قليل.
- هل أنت مصابٌ بالربو يا "ريتشي"؟
- نعم، نوعًا ما.
- لا تنس جهاز الاستنشاق إذًا، قد تحتاجه في أي وقت.
تبعها إلى الموقد وهو يتحدث:
- أنا لا أستخدمه تقريبًا، على فترات طويلة جدًّا وليس هنا عادةً، أحيانًا في فصل الخريف، لكنني أستخدمه معظم الوقت في المدينة أو عندما أصاب بنزلة برد، وأيضًا منذ بضعة سنوات بعدما حدث

لوالدي اضطررت للذهاب إلى عيادة في الجبال، لكن بشكل عام.. لا أستخدمه كثيرًا، سأشفى منه قريبًا.. هذا ما قاله الطبيب.
- هذا جيد!
- لكن والدتي تجبرني على حمله طوال الوقت من باب الاحتياط.
قالت:
- فكرة جيدة.
- هذا لأنه عندما كنا في العيادة توفي شخصٌ ما بسبب أنه نسي جهاز الاستنشاق، كما أنها أصبحت تخاف منذ ما حدث لوالدي، المهم أنها أصبحت تخاف كثيرًا وتجعلني أحمله.
- الاحتياط واجب.
ثم أخذت وعاءً من الرف وبدأت تملأه بالماء الساخن بينما واصل "ريتشي":
- وعندما أذهب إلى مدرستي الجديدة في الشهر القادم، ستجعلني آخذ معي جهازين، واحد يبقى مع الممرضة، وواحد معي، في حال فقدت جهازي.
- نعم.
عادت بالوعاء إلى غرفة الرسم مع "ريتشي" خلفها مباشرةً، وقالت:
- نعم، أشكرك على إعطائي الدعوة يا "ريتشي"، لكن عليَّ القول إننا لسنا من محبي الحفلات حقًّا، لا يحب زوجي السهر.
قال "ريتشي":
- لن تضطرا للسهر، فهذه حفلة بالنهار، سيأتي الناس ويذهبون على مدار اليوم، لستِ مضطرة للبقاء حتى العشاء إن كنتِ متعبة.. هذا ما قالته جدتي لعمتي "كاثرين"، يمكنكِ الاستلقاء في أي وقت، العمة "كاثرين" أيضًا مريضة جدًّا.
- نعم، أعرف.. أخبرتني جدتك.
- إن شعرتِ بالتعب يا سيدتي، فيمكنكِ...
قالت وهي تنظر إلى زوجها الذي تجاهل المحادثة:
- حسنًا، سنرى.
وضعت الماء الساخن على طاولة الأدوات وقالت:
- هل يمكنك أن تحضر عدة الإسعافات الأولية يا "ريتشي"؟ ستجدها في الحمام، على اليمين بجوار الباب، بمجرد أن نضمد جروح "فينس" يمكنكما أن تساعداني في تحضير الغداء إن أحببتما.
سألها "ريتشي" بدهشة:
- "فينس"؟ لماذا تناديه بهذا الاسم دائمًا؟
سألته:
- أليس هذا اسمه؟
- لا، هل هذا ما أخبركِ به؟ إنه أحيانًا يكذ...، لا أحب أن أقولها وهو مصاب هكذا.
- لا، إنه لم يخبرني بأي شيء.. إنه خطأي، فهو يذكرني بشخصٍ ما أعرفه اسمه "فينس"، بالتأكيد توهمت.
نظر زوجها إلى الولد وسأله:
- ما اسمك يا بني؟

قال الولد:
- "مايكا".
- "مايكا"؟
- أعني "مايكل".. اسمي "مايكل".
اضطروا للركن في نهاية طريق ثم ساروا حتى بيت السيدة "كابلان"، وجدوا سيارتها مركونة على جانب الطريق، وخلفها سيارة أخرى بسقفٍ متحرك، تقدمت السير مع "ريتشي"، وتبعها زوجها وهو يحمل الولد بين ذراعيه.
بدأ الطريق يضيق ويرتفع وهم يقتربون من البيت، هناك مجموعة من الأشجار الحمراء على أحد الجانبين، الأرض مبللة بالمطر ومبقعة بلونٍ أحمر، فاتسخ حذاء "ريتشي"، اقتربوا أكثر من البيت، فرأت سيدة تجلس في البلكون العلوي وقبعتها ظاهرة من فوق الدرابزين، "ريتشي" رأى المرأة أيضًا، فهتف:
- عمتي "كاثرين"، عمتي "كاثرين"، لقد تأذى.. "مايكل" تأذى، لقد سقط من على السلم وجُرِحَت ساقه و...
وصل إلى البلكون الخارجي وخلع حذاءه واندفع داخل المنزل.
وقفت المرأة التي في البلكون العلوي ومالت على الدرابزين لتنظر إليها:
- أهلًا، إنها أنتِ!
- نعم، أظن هذا..
- لقد تقابلنا في بيت السيدة "جرانت" منذ أسبوعين، صحيح؟
ثم خلعت قبعتها لتظهر وجهها.
- تذكرت، أنتِ ابنة السيدة "كابلان".
- "كاثرين".
- نعم، "كاثرين".
ابتسمت "كاثرين" بضعفٍ إليها، وجهها جميل لكن شاحب، وشعرها بني وطويل، وعيناها متعبتان وكأنها استيقظت للتو أو على وشك النوم.
- أمي في الداخل.
ثم نظرت خلفها وسألتها:
- هل هو بخير؟
استدارت فرأت زوجها واقفًا ينظر إلى الفتاة بجمود وكأنه لا يعرف عما تتحدث، كررت الفتاة:
- أعني "مايكل".. هل هو بخير؟
أجابت بالنيابة عنه:
- نعم، إنه بخير. متشنج قليلًا لكنه لم يتأذَ بشدة، ضمدنا جروحه بالفعل، لقد تعثر لكن لم يحتج لخياطة جروح أو ما شابه، أتوقع أن ينهض على قدميه غدًا.
قالت "كاثرين" وهي تنظر إليه حاملًا الولد:
- وقفتك هذه تبدو مقدسة جدًّا، وكأنك "موسى" وهو على وشك التضحية بابنه.
لم يرد بحرفٍ مجددًا، واضطرت التحدث بالنيابة عنه للمرة الثانية:
- تقصدين "إبراهيم"، هو من ضحى بابنه.

- نعم، هو! دائمًا أخلط بينهما.
ابتسمت ابتسامة خفيفة واختفت من البلكون، عبرت بابًا زجاجيًّا لتعود داخل الغرفة إلى "ريتشي" الذي ينتظرها ليخبرها بالتفاصيل.
عاد زوجها يتحرك عندما انفتح باب المنزل، اندفعت عبره السيدة "كابلان" وأسرعت خلفها امرأة مكسيكية صغيرة وهي تحرك رأسها وتتمتم.
في الصباح استعدت لزيارة سيدة "سالتز"، وقف عند الباب ينتظرها بينما تضع اللمسات النهائية لمظهرها؛ تسريحة شعرها، بروش في بلوزتها، ثم محتويات حقيبتها؛ نقود معدنية وورقية أيضًا لتدفعها لسائق التاكسي حين يوصلها إلى "هيانيس". ناداها زوجها:
- ستفوتين الحافلة.
طوت سترة ووضعتها في حقيبتها الكبيرة، وأخذت معها عدد الأسبوع الماضي من جريدة "نيو يوركر"، ثم علبة بسكويت في حال جاعت في الحافلة، بالإضافة إلى علبة من الشوكولاتة للسيدة "سالتز"، وضعت مفكرتها في مكان سهل أن تصل إليه، وأخيرًا وضعت أربع حبات خوخ برفق فوق السترة. ناداها مجددًا:
- ستفوتك الحافلة.
استدارت وخرجت من المطبخ وهي ترد بنبرة منغمة:
- نعم، نعم. أنا جاهزة، أنا جاهزة.
قال عندما رآها:
- أوه!
- "أوه" لأنني أبدو جميلة أم لأنني مستعدة أخيرًا؟
- الاثنان على ما أظن.
ثم وضع يده على ظهرها وقادها عبر الباب برفق.
خرجا إلى الطريق واقترحت عليه أن يأخذا البريد في طريقهما إلى المحطة، فعرض عليها:
- لو أنكِ مصرة على ركوب الحافلة، فيمكنني أن آخذ البريد في طريق العودة بعدما أوصلك إلى المحطة.
وعندما اقترحت عليه أن يتوقف عندما يصلا إلى طريق "ديوب رود" لتتفقد بائعة البيض اللطيفة وترى إن عادت دجاجاتها تبيض أم لا، قال لها:
- ستشغلكِ بالحديث وستفوتكِ الحافلة.
وصلا إلى منعطف "ميل بوند" ولمحا الولدين يتمشيان؛ "مايكل" يعرج قليلًا بركبته المضمدة، و"ريتشي" يسبقه في السير ويمسك بحزام الكلب الذي يشد نفسه بقوة، قالت في سرها: "مسكين ريتشي! الجميع يحاول الابتعاد عنه، حتى كلبه".
قالت:
- توقف، أريد الاطمئنان على ساقه.
اقتربا بالسيارة من الولدين فاستدارا إليهما، شعر "مايكل" بالفضول ثم السعادة، أما "ريتشي" فبدا مرتبكًا تمامًا، قالت وهي تلوح للولدين:
- توقف هنا.
- سأتوقف لكن ليس في منتصف الطريق. هناك مساحة على جانب الطريق في الأمام، سأتوقف فيها.

أخرجت رأسها من النافذة وهتفت:
- سننتظركم على جانب الطريق في الأمام قليلًا.
توقف وانتظرا الولدين، عندها لاحظت على منعطفٍ أبعد والدة "ريتشي" وامرأة أخرى تجلسان على سورٍ حجري قصير وتدخنان.
- إنهما هناك. لا، لا تنظر. إنها تجلس على السور.
- من؟ من التي يجب ألا أنظر إليها؟
- والدة "ريتشي"، زوجة ابن السيدة "كابلان". ما اسمها؟ أكره نسياني للأسماء دائمًا. "أوليفيا".. إنها "أوليفيا".
- نعم، أراها.
- هل رأتنا؟
- لا أظن.
- من معها؟ تلك السيدة الأخرى.. الابنة المريضة.. "كاثرين". هذا اسمها، صحيح؟
- ليست هي.
- بالتأكيد هي.
- ليست هي، وكيف عرفتِ أنها مريضة؟
- أخبرتني السيدة "كابلان" ذلك اليوم في "أورلينز"، عندما تركتني في السيارة أنتظرك لساعات.
- هل سنعود لهذا الموضوع مجددًا؟
- عليَّ الاعتراف أنني لا أحبها، لا أحبها أبدًا.
- من؟ "كاثرين"؟
- لا، لا بأس بها. ولو أنها بدت ثملة قليلًا بالأمس، ألا تظن؟ كنت أقصد "أوليفيا"، والدة "ريتشي". كما أكره صديقتها! إنها سيئة الأخلاق في رأيي، أعرف أنها اعتذرت لكن...
- من اعتذرت؟ صديقتها؟
- لا، "أوليفيا" بالطبع، لكن الطريقة التي تصرفت بها صديقتها أو السبب وراء تصرفها هو ما ضايقني. بدت من النوع الذي يصطاد الرجال، دعني أحذرك أنها لن تمانع أن تغرس أنيابها فيك، ألا يمكننا العودة إلى الولدين؟
- لا يمكنني القيادة للخلف هنا.
- ولم لا؟
- لأنه خطر جدًّا.
- ألا يمكننا الانعطاف؟
- لو فعلت هذا ستلمحاننا بالتأكيد. اسمعي، ستلاحظاننا في كل الأحوال، لذلك دعينا ننتهي من الأمر.
- أنت غريبٌ حقًّا! يمكننا القيادة للخلف بسهولة.
- ما رأيكِ أن نخرج من السيارة خلسة ونزحف إلى ذلك الحقل هناك ثم نتسلل عبره إلى البحيرة ونسبح للجانب الآخر؟ هكذا لن يرياننا.
- مضحك جدًّا!
استدارت في كرسيها ونظرت إلى الولدين، توقف "ريتشي" وهو يجذب الكلب بكل قوته حتى احمر وجهه، لكن الكلب ظل يجذب نفسه نحو مجموعة شجيرات على جانب الطريق. من الواضح إنه يريد

فعل شيء ما الآن، أما "مايكل" فظل يعرج بإصرار ونشاط حتى تجاوزه.
قالت:
- أتعلم؟ أظنني فهمت لماذا كان الولد خائفًا جدًّا منك.
- حقًّا؟
- إنه يظنك جنديًّا.
- أنا كبيرٌ في السن بالنسبة لجندي.
- لقد ظنك جنديًّا ألمانيًّا. إنها موطنه، ألمانيا.
- فهمت.
- أراهن أنه ظنك ضابطًا، أنا متأكدة.
- لقد ترقيت إذًا.
- ضابط من قوات الأمن الخاصة "شوتزشتافل"، نازي.. لديه الحق في ظنه، لديك نفس طولهم ولون بشرتهم، حتى أنني أتخيلك بالزي الرسمي.
- هذا ليس ظريفًا أبدًا.
- بالتأكيد ليس كذلك، الولد المسكين سافر كل هذه المسافة ليجد أن جاره يشبه الـ...
- يبدو أن صديقتيكِ لمحتانا.
استدارت ونظرت عبر الزجاج الأمامي، فرأت والدة "ريتشي" تقف وتعدل فستانها بيد وتلوح لهما بالأخرى، تعرفت على المرأة الأخرى وهي السيدة "شتاينز". سحبت بضعة أنفاس سريعة من سيجارتها ثم أطفأتها في حجارة السور. قال:
- أظنها كانت تحت تأثير الدواء فقط.
- عمن وماذا تتحدث؟
- الفتاة "كاثرين"، بالأمس. قلتِ إنها مريضة، صحيح؟ أظنها كانت تحت تأثير الدواء وليس الكحول.
أحاط الجميع بالسيارة مثل الحيوانات الفضولية؛ المرأتان من الأمام، والولدان من الخلف. فرحت كثيرًا لأن الولدين جاءا إلى نافذتها مباشرةً. أما المرأتان فذهبتا إلى زوجها. ترددت سيدة "شتاينز" قليلًا لكن والدة "ريتشي" اندفعت مباشرةً، فتح الباب وخرج من السيارة وحياهما: "صباح الخير يا سيدات".
على جانبها أخذ "ريتشي" يردد لها خطاب شكر على مساعدتهما بالأمس وعلى الـ"بان كيك" الذي أعدته لهما وعلى توصيلهما للبيت.
وعلى جانب زوجها قالت والدته:
- لا يسعني أن أصف كم تشرفت بلقائك أخيرًا، أنا متحمسة جدًّا. أليس كذلك يا "أنيتا"؟ عذرًا، هذه صديقتي، آنسة "شتاينز".
قالت وهي تصافح يده وتبتسم بتكلف:
- أرجوك، نادني "أنيتا"، كيف حالك؟
دفع "مايكل" رأسه عبر النافذة وقال:
- إلى أين أنتِ ذاهبة يا سيدة "إيتش"؟ إلى أين ستذهبين؟
- ماذا؟ إلى محطة الحافلة، سأذهب لزيارة صديقة.
- هل يمكننا القدوم أيضًا؟

- بالتأكيد لا، إنها في مصحة لكبار السن. كيف حال ساقك؟
- بأفضل حال، لكنها تؤلم إن ركعت.
- حسنًا، من الأفضل ألا تُصَلي ليومين أو ثلاثة إذًا.
ضحك الولد.
سألته:
- هل هذا مضحك؟
قال وهو يضع يده على ذراعها في بادرةٍ أدهشتها:
- أنتِ ظريفة!
قالت "أنيتا":
- لقد رأينا لوحاتك في نيويورك، سافرنا بالقطار خصيصًا و...
ما زال "ريتشي" يتحدث، لكن هذه المرة عن جدته وشخصًا ما يُدعى الطبيب "توم" الذي جاء بالأمس ليفحص ساق "مايكل".
قالت له:
- حقًّا؟ هذا جيد.
سمعت زوجها يقول:
- شكرًا، هذا لطفٌ منكِ!
قالت والدة "ريتشي":
- وأنا أيضًا أعجبتني...
قاطعتها "أنيتا":
- نعم، لكن أكثر ما أعجبني هو...
واصل "ريتشي":
- قال لجدتي أن ضمادة ساق "مايكل" متقنة جدًّا، حتى أنها أفضل من التي يقوم بها.
- من قال؟ جدتك؟
- لا! الطبيب "توم" طبعًا.
- نعم، الطبيب "توم"، بالطبع.
واصل "ريتشي" الكلام لكنها لم تنتبه إلى ما يقول، يد "مايكل" ما زالت على كم بلوزتها، أمسك جزءًا منه بين إصبعيه وظل يفركه.
ما زالت تسمع صوت زوجها يتحدث بأدبٍ وسعادة، لماذا هو سعيدٌ هكذا؟ سمعت ضحكة والدة "ريتشي" الطويلة العصبية، وضحكة صديقتها المبحوحة، وما زال "ريتشي" يتحدث. قالت:
- أعذرني يا "ريتشي".
ثم مالت نحو كرسي السائق لتنادي زوجها:
- ألا يجب علينا التحرك؟ لا أريد أن تفوتني الحافلة.. أليس كذلك؟
تقدمت "أوليفيا" وأطلت عليها من الباب المفتوح بابتسامتها المعسولة:
- كنت أخبر زوجكِ للتو أننا ممتنات جدًّا لكرمكما بالأمس، لا أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث لولاكما.
- كل هذا حدث بسببنا، لقد جاء الولدان لزيارتنا.. أتذكرين؟ لتوصيل الدعوة.

- نعم، بالطبع. لكن...
ثم ضحكت وغيرت الموضوع لتتحدث عن الجو، يبدو أنها تعده موضوعًا يناسب زوجات الرجال المهمين.
- يا له من يوم جميل بعد كل هذا المطر! على الأقل لم يهب الإعصار. لكن الأمطار كانت شديدة، ظللت أسمعها وأنا مستلقية في السرير البارحة، شعرت أننا سنستيقظ في الصباح لنجد البيت عائمًا في الخليج مثل السفينة.
انتظرتها "أوليفيا" أن تضحك على دعابتها البسيطة، قالت لنفسها "فلأدعها تنتظر" وظلت تنظر إليها بصمت، أخيرًا كسرت الصمت وقالت:
- حسنًا، من الأفضل أن نترككما لتلحقا بالحافلة.
تراجعت عن الباب لتسمح للرجل بالدخول.
لكن "أوليفيا" لم تنتهِ بعد، وضعت يدها على الباب وأظهرت غمازتيها وقالت:
- أنتما بمنزلة بطلين في منزلنا، أرجو أن تعلما ذلك.
نظرا إليها وهي واقفة ومتشبثة بالباب، وبدا أنه ليس لأحد ما يقوله.
إلى أن أدخل "مايكل " رأسه عبر النافذة وقال بصوتٍ عالٍ:
- سيد "إيتش"، هل يمكننا القدوم معك لتوديع سيدة "إيتش"؟
ابتعدت والدة "ريتشي" عن الباب وذهبت إلى "مايكل" وهي تقول بحدةٍ مفاجئة:
- حقًّا يا "مايكل"؟ أنت تبالغ جدًّا، ألا تظن؟
ابتعد "مايكل" عن النافذة وظهر الحرج على وجهه.
- هذان الطيبان استضافاكما معظم الظهيرة بالأمس، لا يمكنك أن تتطفل على الناس هكذا، يجب أن تنتظر حتى يتم دعوتك.
قالت وهي تميل برأسها للخارج:
- حسنًا، إنه مدعو الآن، سأحب أن يودعني الأولاد، إن لم يمانع السائق.
قال زوجها:
- لا مانع أبدًا، بل يسعدني اصطحابهما، سأشتري بعض الأشياء في أثناء العودة ويمكنني أن أعيدهما للبيت بعد ذلك.
حركت ذراعها للوراء وفتحت الباب الخلفي وهي تقول:
- لقد سمعتماه، هيا يا أولاد.
قال "ريتشي":
- ماذا عن الكلب يا أمي؟ هل يمكن أن تأخذيه؟
أخذت "أوليفيا" الكلب من "ريتشي" وقالت:
- بالتأكيد، لا يمكننا أن ندع "باستر" يترك فروه في هذه السيارة الجميلة النظيفة، يكفينا أنه يجعل سيارة جدتك تبدو مثل عش الطيور بصراحة!
ثم ذهبت إلى نافذتها وفاحت منها رائحة عطرها، العطر نفسه الذي تركت أثره على زوجها منذ قليل.
- نتمنى حقًّا أن تأتيا إلى حفل عيد العمال في الإجازة الأسبوعية، قالت حماتي إنه لا يجب عليَّ أن أصر؛ فهي تعرف كم أنتما مشغولان، لكن لا أستطيع منع نفسي. سيكون لطيفًا أن تأتيا، إنها ذكرى

ميلاد زوجي. ستكون المرة الأولى التي نحتفل بها بذكرى ميلاده بدلًا من الحزن على وفاته، أتمنى أن تتفرغا بعض الوقت.
قالت:
- هذا لطفٌ منكِ، لكننا لسنا هنا في إجازة. لقد أتينا للعمل! نحن الاثنان، فأنا أيضًا فنانة، ولدينا الكثير من العمل.
نظرت إليه في انتظار أن يدعمها، لكنها رأت شبح ابتسامة في عينيه وهو ينظر إلى "أوليفيا" التي تميل على مقعد الراكب، قال:
- أنا متأكد أننا يمكننا التفرغ لساعةٍ أو ما شابه.
ابتسمت "أوليفيا"، وابتسمت سيدة "شتاينز" عبر الزجاج الأمامي، حتى الولدان هتفا بفرح.
قالت "أوليفيا":
- هذا رائع! نتطلع لرؤيتكما، لكننا سنتقابل قبل ذلك بالتأكيد؛ فالحفلة ما زالت بعد أسبوعين.
ثم تراجعت بوقار وصفرت للكلب فنهض فورًا.
عندما خرجت من السيارة لمحت الحافلة تتوقف في المحطة. نظرت إلى ساعتها، عشر دقائق للانطلاق، مالت نحوه وقالت:
- يبدو أنني لم أفوت الحافلة في النهاية. حتى أنه لديَّ الوقت لأشتري الجريدة، هكذا لن تظل عالقًا معي طوال الظهيرة. أليس هذا لطيفًا؟
- أبلغي سيدة "سالتز" تحياتي، من فضلكِ.
خرج الولدان من السيارة لكنه ظل مكانه، سار الولدان على جانبيها وذهبا معها إلى كشك الجرائد، أبطأ "ريتشي" قليلًا عندما حياه رجلٌ عجوز وعندما سألته سيدة كانت تنتظر شخصًا ما عن جدته، وهكذا تقدمت في السير مع "مايكل".
سألها "مايكل" وهما يشتريان الجريدة:
- لماذا كانت اللوحة بالأزرق؟
- أي لوحة؟
- اللوحة التي رأيتها بالأمس، لماذا لونها كلها بالأزرق؟
- هل تقصد اللوحة التي على حامل الرسم؟ الألوان الحقيقية يتم إضافتها لاحقًا، على الأرجح سيفعل هذا اليوم.
- وهل سيضيف السيدة أيضًا؟
- أي سيدة؟
- السيدة ذات الفستان الأخضر، لقد رأيتها في الشارع نفسه على الحقيقة.
- حقًّا؟
- كيف كان شكلها؟
- لا أعرف.
- ما عمرها؟
هز كتفيه.
- حسنًا، من تشبه أكثر إذًا؟ جدتك أم والدة "ريتشي" أم أنا؟
- تذكرت! إنها تشبه آنسة "شتاينز".. "أنيتا". إنها تشبهها على ما أظن، لكنها أقصر قليلًا.

- وماذا كانت تفعل؟
- خرجت من محل الفساتين ونظرت إلى الشارع وكأنها تنتظر شخصًا ما ثم عادت للداخل، لقد رأيتها وأنا أقف عند محطة البنزين.
دفعت ثمن الجريدة وعادا إلى "ريتشي" الذي كان واقفًا قرب المحطة يشاهد السائق وهو يُخرج الحقائب والصناديق من الحافلة.
عندما وصلا إليه نظرت إلى "مايكل" وقالت:
- عندما تعود إلى زوجي أخبره عن السيدة ذات الفستان الأخضر. هل تحدثت معها يا "مايكل"؟ هل رأيتها عن قرب؟
- هي من أعطتني البسكويت الذي أعطيته إليكِ.
- بالفعل، كان لذيذًا جدًّا.
وضعت قدمها على أول درجة للحافلة وقالت:
- تأكد أن تخبره أنها بدت كمن ينتظر شخصًا ما، وأخبره أنني.. أنني قلت إنها تنتمي إلى هذه اللوحة.
بدأت تصعد باقي الدرجات وسمعت "ريتشي" يقول له:
- ماذا؟ لقد أخبرتني أنك حصلت على البسكويت من...
اشتغل محرك الحافلة فطغى على صوته ولم تسمع باقي كلامه.
دخلت الحافلة ثم استدارت وقالت بصوتٍ عالٍ:
- ذكره أن يأتي لاصطحابي في السابعة والنصف، ولا تنسيا أن تزورانا مجددًا يا أولاد.
هتف "مايكل":
- متى يا سيدة "إيتش"؟ متى نزوركِ يا سيدة "إيتش"؟
جذبه "ريتشي" من قميصه ليبعده عن السلم.
وهي تسير بين المقاعد لمحت الولدين عبر النوافذ وهما يلوحان كالمجانين. في البداية كان الاثنان يلوحان، ثم واصل "مايكل" بينما توقف "ريتشي" واستدار وركض ليعبر الشارع. بينما تمر من نافذة إلى أخرى، لمحت "مايكل" وهو يواصل التلويح لها، بعدها يستدير ثم يلوح مجددًا. وأخيرًا استدار وركض خلف "ريتشي".
وجدت مقعدها وجلست على طرفه، وشاهدت "مايكل" يصعد الـ"بويك" التي بدأت في التحرك، ظل الولدان يتحركان بانفعال في المقعد الخلفي مثل القوارض وهما يتحدثان مع زوجها.
استقرت على مقعدها ووضعت حقيبتها على الأرض وشاهدت السيارة وهي تبتعد وتختفي بينما تنتظر الحافلة أن تتحرك.
بمجرد أن نزلت من الحافلة في "هيانيس"، أسرع إليها سائق تاكسي ليعرض خدماته، كما عرض عليها أن ينتظرها حتى تنهي زيارتها، لكنها رأت أنه من الحكمة أن تدعه يذهب وعندما تنتهي تسأل الممرضة أو أي موظف أن يطلب لها تاكسي.
قالت موظفة الاستقبال وهما تسيران في أول ممر:
- كان عليكِ أن تدعيه ينتظر، والدته مريضة هنا، كان يمكنه أن يزورها بينما ينتظركِ. ومعظم الناس لا يبقون هنا أكثر من ساعة.
مرت بغرفةٍ وردية فيها امرأة تجلس على كرسي وتهز نفسها للخلف والأمام. قالت في سرها أن عليهم توفير كراسي هزازة لهؤلاء الناس ليمحوا نظرة الجنون هذه عن وجوههم، فكرت بهذا مجددًا

عندما رأت رجلًا في غرفةٍ زرقاء. إلى أن أدركت أنه يهز نفسه لليسار واليمين، ففكرت أن الكرسي الهزاز سيجعله يبدو أكثر جنونًا.
لماذا ينتهي كبار السن هكذا دائمًا؟ هل يجب أن تكون الحياة ظالمة هكذا؟ هل هذا أفضل ما يحمله لها المستقبل؟ غرفة صغيرة في نهاية ممر طويل، ورائحة بودرة تلْك مطهرة تفوح من مشمع مفروش على السرير؟ أدركت أنها متوترة، عقلها يفكر بانفعال كعادته عندما تتوتر، وكأن خلاياه تنفصل عنها وتقفز بين الجدران، في الوقت نفسه هناك صوتٌ يهمس بداخلها: "ماذا لو رفضت السيدة "سالتز" الزيارة؟ ماذا لو تحملتها رغمًا عنها؟ ماذا لو...؟ ماذا لو...؟ ماذا لو...؟".
سلمتها موظفة الاستقبال إلى ممرضة.
شعرت أن الممرضة أحست بخوفها، وكأنهما كلبان يشمان بعضهما عبر الممر.
سألتها الممرضة:
- أتيتِ بـ...؟
- نعم.. نعم، الحافلة.
- هل كانت رحلة مريحة؟
- نعم، مريحة جدًّا.
- لكنكِ لا تبدين من هنا.
- هذا صحيح، أنا من نيويورك، لكن كل صيف نأتي إلى...
- أليس هذا لطيفًا؟
- نعم، إنه كذلك بالتأكيد.
الممر طويل ومضيء، تقع الغرف على أحد جانبيه، وتوجد نوافذ على الجانب الآخر، وكل الغرف أبوابها مفتوحة عن آخرها. ومن خلال الأبواب المفتوحة، لمحت أن لكل نافذة حافة عليها مزهرية فيها أزهار، جديدة على الأرجح، لاحظت أنها موضوعة بطريقة تجعلها واضحة جدًّا للمارين خارج الغرف، أما المرضى أنفسهم فمختفين خلف الأبواب. الغرف الزرقاء للرجال، والوردية للسيدات.
استلمتها ممرضة أخرى، قصيرة وشعرها جميل وشابة جدًّا، وكأنها طفلة ترتدي زي ممرضة لتلعب. قالت الممرضة:
- أظنها في غرفة الترفيه، تفضلي من هذا الاتجاه.
بدأت بالأسئلة نفسها.
- أتيت بـ...
- نعم، نعم، الحافلة.
- وبعده؟
- تاكسي.
- تاكسي بالطبع، هل كان السيد "وولز"؟
- أظن هذا. ونعم، أعرف أنه كان عليَّ أن أدعه ينتظرني.
لا أحد يتسلى في غرفة الترفيه؛ هناك طاولات وكراسي، وتليفزيون موضوع في مكتبة ومعلق فوقه أزهار بلاستيكية، وراديو، ومشغل أسطوانات، ومقاعد مبطنة، وألعاب لوحية، ورفوف كتب نظيفة جدًّا تليق بمكتبة.
قالت الممرضة وكأننا نلعب الغميضة:

- يبدو أنها ليست هنا، أين يمكن أن تكون؟ هممم.. دعيني أفكر. إنها ليست في غرفتها ولا في الحديقة، وبالتأكيد ليست في غرفة الترفيه. مهلًا، أظنني عرفت أين يمكن أن تكون.. تعالَي، اتبعيني.
إنهم ينادون السيدة "سالتز" بـ"إنيد" أو "عسلية" أو "وردة"، أخيرًا وجدوها في غرفة في الحديقة تجلس خلف نافذة زجاجية، ذهبت إليها الممرضة أولًا لتعلن عن وصولها وكأنها ملكة.
- "إنيد"، انظري من جاءت كل هذه المسافة لتراكِ! هل تخيلتِ مفاجأة بهذه الروعة؟
ضحكت السيدة "سالتز" عندما رأتها وأمسكت يدها بيديها، احتفظت بيدها قليلًا ثم وضعتها على وجهها وقبلتها مرتين ثم ربتت عليها مرتين وقالت العجوز:
- يسعدني أن أراكِ مجددًا.
بالكاد منعت دموعها وهي تقول:
- لا تتخيلي كم ارتحت الآن! كنت أخشى من أن ترفضي رؤيتي بعدما غبت عنكِ كل هذا الوقت، كنت فظيعة معكِ يا صديقتي العزيزة.. سامحيني أرجوكِ، تعرفين أنني لا أنتبه إلى كلامي أحيانًا.
أحضرت لها الممرضة كرسيًا لكي تجلس بجوار السيدة "سالتز"، وقالت:
- ما رأيكما أن أترككما لتتبادلا الأحاديث بحرية؟ سأحضر عصير ليمونادة لذيذًا. "إنيد" تعشق عصير الليمون في الظهيرة، صحيح يا "عسلية"؟
ابتسمت السيدة "سالتز" بلطف وأمالت رأسها قليلًا في استعداد لتسمع كل ما لديها، وبالفعل فاضت لها بكل شيء، بدءًا من نزلة البرد التي أصيبت بها منذ أسبوعين.
- أردت أن أكتب لكِ رسالة لأخبركِ بقدومي. لا، بل لأستأذنكِ في القدوم، في الواقع لم تكن مجرد نزلة برد، بل التهاب القولون مجددًا.. الألم لا يُحتمل، وطبعًا لا داعي لإخباركِ أننا تشاجرنا مجددًا.. أنا أحاول بكل جهدي، لكن...
نظرت إليها السيدة "سالتز" بتعاطف وهي تومئ برأسها لها، كم ارتاحت لاستعادة صديقتها مجددًا لكن لن تكون أنانية وتجعل الزيارة كلها عنها! فقالت لها:
- تبدين مرتاحة جدًّا هنا، هذه الغرفة جميلة! النباتات محاطة بنوافذ زجاجية، أشعر أننا محاطين بضوءٍ أخضر. هذا حقًّا...
قطعت كلامها فجأة وعادت تبكي وتتحدث في الموضوع السابق:
- لا أعرف ماذا أفعل، أنا تعيسة جدًّا! عندما أمرض يراعيني بكل رقة، لا يشتكي أبدًا، كما أعرف أنه أيضًا ليس بخير منذ العملية التي أجراها في فبراير الماضي.. لم يتعافَ من وقتها.
ثم أضافت بصوتٍ خافت:
- أعني للدرجة التي تسمح له بعلاقة زوجية.
ردت سيدة "سالتز":
- يا للأسف!
- وهكذا لا توجد بيننا عاطفة، وهكذا ما دام لا يمكنه إقامة علاقة كاملة، فلا يهتم بالعواطف البسيطة، بالكاد يتحدث معي، إلا عندما نتشاجر.. عندها يتحدث بطلاقة.
توقفت قليلًا لتنظف أنفها بينما تنظر سيدة "سالتز" إليها بعطف.
- أنا آسفة جدًّا، لكن يؤلمني التفكير في كل المرات التي تشاجرت معه فيها بسبب تجاهله لي. إنه يتجاهلني لسنوات، لا يقدرني أبدًا، لا هو ولا زملاؤه ولا أي شخصٍ نقابله، أشعر أنني منبوذة

ومرفوضة ومطرودة، لم أعد أجد راحتي في العمل.. لا أستطيع، حتى هو يعجز عن العمل، لم ينجز أي لوحة. وبالإضافة لكل هذا، أظنه يحب امرأة أخرى.
غطت وجهها بيديها وهي مصدومة من سماع نفسها تقولها بصوتٍ عالٍ:
- لا أعرف من هي، هناك الكثير من النساء حوله، أعني أن النساء تحيط دائمًا بالرجال المشاهير، لكنه لا يتصرف بلطفٍ معهن غالبًا. أما هذه المرة، لا أعرف. أشك في امرأة تدعى "أوليفيا"، هل يبدو لكِ اسمًا طبيعيًّا؟ لا، بل كاسم عنصرٍ في لوحته؛ إنها طويلة، وممتلئة الصدر، وحمراء الشعر، وجريئة، تشبه الممثلة "بيتي ديفيس". تعلّمين كم يعشق هذه الممثلة! تذكرت تلك المرأة في باريس، لقد أخبرتكِ عنها، تدعو نفسها مدام "شيروي" أو أيًّا كان.. تخطف الرجال الشباب بهداياها من كتب الشعر وما إلى ذلك و... لا أعرف ما الذي أقوله. أنا آسفة جدًّا! يا لي من أنانية! من المفترض أنني أزوركِ لكنني أواصل الحديث عن نفسي، أحيانًا أشعر أنني.. أنني.. أهدرت معظم حياتي.. أهدرتها تمامًا!
سمعت صوتًا رنانًا خلفها، إنها الممرضة عادت حاملة دورقًا كبيرًا على صينية، وبداخله شرائح ليمون وقطع ثلج، سحبت منديلها من جيبها وحاولت أن تمسح وجهها بعجلة، وضعت الممرضة الصينية على طاولة من الخوص وصبت كأسًا ناولته إياها بينما تسأل السيدة "سالتز":
- ماذا عنكِ يا "وردة"؟ أراهن أنكِ تريدين بعض الليمون، صحيح؟
مدت سيدة "سالتز" يديها وأخذت يد الممرضة إلى وجهها وقبلتها مرتين وقالت:
- جميل، تسعدني رؤيتكِ مجددًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

قطعت له "كاثرين" جزءًا من قرص المسكن الخاص بها، كانت تقف بجانب رف فوق سريره، راقبها وهي ترجع خصلة من شعرها خلف أذنها ثم تغمض عينًا واحدة وتقترب بالسكين من القرص وتقول: "نلت منك".

لعقت طرف إصبعها وضغطته على القرص المكسور لتمسكه، ثم وضعته في فمه وقالت:

- هذا سيجعلك تشعر بتحسن، سيزول الألم.

شعر بالصدمة حين فعلت ذلك، ابتلع شعوره بالصدمة مع القرص قبل أن يطفو مجددًا كشعورٍ بالحرج إلى صدره وحلقه ووجهه وحتى أذنيه.

جلست على طرف السرير ووضعت يدها على جبينه وهي تقول:

- حرارتك مرتفعة قليلًا.

أخرجت منديلًا من جيب الروب ورفعته إلى أنفه وهي تقول:

- نظف أنفك، لا تخجل.. ادفع الهواء منها بقوة.

شعر بأصابعها تضغط على أنفه، وشعر بمخاطه يسيل، ولا يفصل بينه وبين أصابعها غير المنديل.

- هل انتهيت من البكاء؟

أومأ من خلف المنديل، فابتسمت له وقالت:

- أحسنت.

كاد أن يخبر "كاثرين" السبب الحقيقي لبكائه، لكنه خشي أن الكلمات التي سيستخدمها لشرح الموقف ستجعله يبدو مجنونًا. على كل حال، كان يبكي، وهي إما كانت مارة بجوار الغرفة أو أنها جاءت تتفقده مخصوص. والآن ها هي جالسة على طرف سريره وتمرر يدها في شعره بينما تمطره بالأسئلة، "هل تعجز عن النوم يا مايكل؟ هل تخيفك العاصفة يا مايكل؟ هل ظللت مستلقيًا وأنت مستيقظ كل هذا الوقت يا مايكل؟".

ظلت تكرر اسمه بنبرةٍ متأنية ومتعاطفة، أخذ يومئ على كل الأسئلة: "نعم، قدمي تؤلمني. نعم، أنا خائفٌ من العاصفة. نعم، ظللت مستلقيًا وأنا مستيقظ لساعاتٍ طويلة".

لكنه نام لساعات إلى أن أيقظه صوت المطر، حملت الرياح قطرات المطر وضربت بها جدران المنزل، اندفعت الأمطار على أرضية البلكون، وتساقطت من حافة السطح والدرابزين. أصدر البيت صوتًا مفزعًا كلما ضربته، هزته بقوة وكأنها تريد تكسير عظامه. الصخب كان شديدًا لدرجة أنه لم يستطع حتى سماع البحر، لكنه تخيله وهو يثور ويفور ويضرب بأمواجه الرياح ويزأر فيها، لكنه لم يخف أبدًا، بل أحب شعور الاسترخاء في السرير بينما الرياح والبحر يتشاجران فيما بينهما.

لم يبدُ "ريتشي" خائفًا أيضًا، عندما استدار لينظر عبر الغرفة، وجده مستلقيًا فوق الغطاء تحت بقعة الضوء المستطيلة القادمة من الباب المفتوح. كان ذراعاه على جانبيه وفمه مفتوحًا وكأنه جثة ترقد في تابوت من النور، راقبه قليلًا ثم استدار إلى جانبه، لكن بينما يفعل ذلك لمح رجلًا ينظر من النافذة، كاد يصرخ على الجميع قائلًا: "تعالوا بسرعة، هناك رجل ينظر من النافذة!". لكن بمجرد أن نهض لم يجد الرجل ينظر من النافذة، بل من المرآة.. وعرف من هو؛ الوجه الأبيض النحيل، والعينان السوداوان، وفمه عديم الأسنان.

عندها تذكر ركبته، وسقوطه على السلم الخشبي أول أمس، وتذكر أن السيد "إيتش" أحضره إلى البيت وحمله وصعد به السلم، كما تذكر كل ما حدث في اليوم التالي للحادثة، وكيف أنه بدأ بحزن وسعادة في الوقت نفسه. قالت له والدة "ريتشي" أنه عليه أن يتمشى كي لا تؤلمه ركبته، لكنه لم يسعد بهذا على الإطلاق، إلى أن رأى الـ"بويك" الخضراء على الطريق فسعد كثيرًا، ثم ذهب معهما لتوديع السيدة "إيتش" في محطة الحافلة. بعدها استمع إليه السيد "إيتش" عندما عاد إلى الـ"بويك" وهو يوصل له رسالة زوجته عن المرأة ذات الفستان الأخضر، ثم اشترى لهما السيد "إيتش" أيس كريم، وحكى لهما "ريتشي" عن قبائل الهنود الحمر التي تسكن عند نهر "باميت".
عاد إلى البيت عندما بدأ المطر بالهطول مجددًا، رأته السيدة "كابلان" وقالت له إنه يبدو متعبًا وعليه أن يأخذ قيلولة قبل العشاء، لكنه بدلًا من ذلك جلس في غرفة المعيشة رافعًا ساقه على مسند للقدمين بينما تريه "كاثرين" ألبوم صورها، أحب كثيرًا أن يجلس مع "كاثرين" ويشاهد شكلها في مراحل حياتها المختلفة بينما تريه وجهها منذ كانت طفلة وتحكي له قصة كل صورة، كان مستعدًا للبقاء هكذا للأبد لولا أنه فقد وعيه وهي تخبره عن سقوطها من القارب ذات مرة في "إيستهام".
آخر ما تذكره هو أنه كان يتمايل بتثاقل بينما السيدة "كابلان" و"روزيتا" يلبسانه البيجامة، لا بد أنه نام بعمق قبل أن يأتي "ريتشي" إلى الغرفة، لهذا لم يفعل ما يفعله عادةً، وهو أن ينتظر نوم "ريتشي" ثم ينهض ليدير المرآة للجانب الآخر حتى تواجه "ريتشي" بدلًا منه.
لكن فات الأوان على هذا؛ فالرجل ينظر إليه الآن، وهو خائفٌ من أن ينهض من على السرير، وهذا كان أسوأ جزء، أن يطارده ذلك "الرجل الهزيل" من نيويورك إلى هنا. أدرك فجأة أن هذا الرجل سيطارده دائمًا مهما ابتعد ومهما طال به العمر، طالما توجد مرآة قريبة منه، سيجده الرجل دائمًا، هذا هو السبب الحقيقي لبكائه كفتاة صغيرة، ليس بسبب ألم ساقه أو خوفه من عاصفة سخيفة.
نهضت "كاثرين" وأخذت قرصًا آخر من العلبة وتناولته هي، ثم أغلقت العلبة جمعت الجزء الباقي من القرص الذي تناوله هو وابتلعته أيضًا ولعقت أصابعها.
قالت:
- هل كانت قصتي عن القارب مملة لدرجة أنك نمت بينما أحكيها؟
- لا، كنت أستمع لكن فجأة.. لا أعرف ماذا حدث!
ضحكت "كاثرين" وجلست على طرف السرير وقالت:
- كنت متعبًا.
- أحببت مشاهدة الصور معكِ عندما عدت من رحلتي لتوديع السيدة "إيتش" عند المحطة، أحببتُ هذا كثيرًا.
- هذا لطفٌ منك.
سألها:
- هل تشتاقين إلى بيتكِ في "إيستهام"؟
- لم يكن بيتي، ولم يكن بيتًا دائمًا بالمعنى المفهوم، هناك فتاة عملت معها كانت تؤجره كل صيف، وكنا نذهب كمجموعة أصدقاء لقضاء الإجازات الأسبوعية والعطلات، ثم تزوجت وانتقلت للعيش في مكانٍ آخر.
- "لويزا"؟
- نعم، هذا صحيح. اسمها "لويزا" لقد تزوجت...

- "جيم"، الرجل ذو الشعر المجعد، صحيح؟
- لقد كنت متنبهًا لكلامي.
- وكنتِ شقراء في ذلك الوقت.
- صحيح.
- لم توقفتِ عن صبغ شعركِ؟
- لا أعرف، كانت الفكرة تعجبني وقتها. أما الآن فلا أريد أن أزعج نفسي بها، على الأقل هذا ما أقوله للناس حين يسألوني، لكن الحقيقة هي أنني منذ أن مرضت لم أعد أرغب في ذلك.
- قال "ريتشي" إنكِ كنتِ ممرضة، لكنني لم أر أي صورةٍ لكِ في زي ممرضة.
- هذا لأنك نمت قبل أن نصل إلى هذه المجموعة من الصور.
نقرت بإصبعها على أنفه وهي تسأله:
- هل تشعر بتحسنٍ الآن؟
أومأ ووضع رأسه على الوسادة.
بدأ يشعر بالخدر في ذراعيه وساقيه، فتذكر الوقت الذي كان فيه في قارب تجديف مع "هاري" في بحيرة "سنترال بارك"، كان مستلقيًا بينما يجدف "هاري"، وقتها شعر بإحساس خدر مشابه؛ وكأنه يطفو على الماء لكن دون أن يتبلل.
- هل تشتاق إلى نيويورك يا "مايكل"؟
سمع نفسه يجيب:
- أشتاق إلى "هاري".
- حقًّا؟ ألم يكتب لك أي رسالة؟
- إنه لا يحب كتابة الرسائل، حصلت على رسالةٍ واحدة.. لكنها كانت منها، وهو وقع اسمه عليها فقط.
- حسنًا، لم لا تكتب أنت إليه إذًا؟
- لا أعرف ماذا أقول.
- بالتأكيد تعرف، أخبره عن المكان هنا، عن "روزيتا" و"ريتشي" والشاطئ والكلب.. وأي شيء.
أخبره أنك تسمر من الشمس وأن شعرك يتحول للون الأشقر، ويومًا ما ستصبح "ضربة قاضية".
- "ضربة قاضية"؟
- نعم، "ضربة قاضية".
- هل تعنين أنني سأصبح "ملاكمًا"؟ لا أفهم قصدكِ.
- لا تقلق، ستفهم لاحقًا.
- يمكنني أن أخبره عن السيد والسيدة "إيتش".
- بالطبع، ربما سمع عنه بالفعل، فهو مشهور جدًّا.
- كنت أخاف منه من قبل، لكن ليس بعد الآن.
- أنا أخشاه قليلًا؛ إنه رجلٌ باهر جدًّا، ووسيم أيضًا. يمكنك إخباره أنني قلت هذا. لا، لا تفعل، قد تنزعج زوجته.
- ولم؟
مدت يدها في جيبها وأخرجت علبة سجائر وولاعة، ثم قالت:
- أنا أمزح معك يا "مايكل"، ألا تعرف حين يمزح شخصٌ ما؟

- لا أعرف، أحيانًا.
وضعت السيجارة في فمها ورفعت الولاعة إليها، امتد لسان اللهب والتهم طرف السيجارة.
- لا تخبر والدة "ريتشي" أنني كنت أدخن هنا.
- ولم لا، إنها تدخن دائمًا.
- نعم، لكن ليس في غرفة النوم، قال الطبيب "توم" إنه ممنوع التدخين في غرفة "ريتشي" بتاتًا، ويجب أن نفعل ما يأمرنا به الطبيب "توم"؟ أليس كذلك يا "مايكل"؟
- لا أعرف.
- اسمع، في رأيي لا يجب أن توجه الخطاب إلى "هاري" فقط، يجب أن تذكر السيدة "هاري" أيضًا.. لا أعرف اسمها.
- "الفراو" خالتي؟
- هل هذا ما تدعوها به؟ حسنًا، يجب أن تذكرها في الخطاب أيضًا، ستجرح مشاعرها إن لم تفعل، هكذا هم الزوجات لا يحببن الشعور بأنهن منبوذات.
- لا أعرف إن كنت أستطيع، هل عليَّ كتابة خطابٍ كامل؟
- يمكنك ذلك. ابدأ غدًا، ثم اكتب المزيد يوم الثلاثاء، وانتهِ منه يوم الأربعاء أو الخميس، ويوم الجمعة سآخذك إلى مكتب البريد لنرسله.
- حقًّا؟
- بالتأكيد، أعدك أن آخذك إلى مكتب البريد في كل مرة تكتب خطابًا. اتفقنا؟ أمر به ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع حين أذهب لأخذ حقنتي في "إيستهام"، أستطيع أن آخذك معي. والآن هيا، نم قليلًا.
أومأ ودفن رأسه في الوسادة أكثر. يا له من شعورٍ لطيف ودافئ، وكأن أحدهم يدغدغه!
- "كاثرين"؟
- نعم؟
- أنا أحب السيدة "إيتش" كثيرًا.
- ولماذا؟
- إنها مرحة و... لا أعرف، أنا فقط أحبها كثيرًا.
- وكذلك أمي أيضًا تحبها.
- "كاثرين"؟
- نعم يا "مايكل"؟
- "كاثرين"؟
- نعم؟
- لا شيء، أعني.. لا أعرف.
جلست معه بعض الوقت، بدأت العاصفة تهدأ تدريجيًّا حتى لم يبقَ سوى المطر الذي تساقط بانتظام، وصوت البحر الذي عاد مسموعًا، وكأنه يتنفس الصعداء. ابتسمت إليه فابتسم إليها، ثم استدارت وابتسمت نحو "ريتشي"، مالت إلى الخلف ونفخت سحابة كبيرة من الدخان إلى السقف ثم نفضت الرماد في كف يدها ثم تلاشت.

بعد ثلاث ليالٍ ذهب ليبحث عن "كاثرين"، أراد أن يطلب منها مرافقته حتى ينام كما فعلت ليلة العاصفة؛ فهو لم يستطع النوم على الرغم من أنه أدار المرآة ناحية الجدار، لم يستطع أن يتوقف عن التفكير فيما يراه فيها. أراد أن يخبرها أيضًا بأنه انتهى من كتابة الخطاب إلى "هاري"، ويذكرها بوعدها له بأن تأخذه إلى مكتب البريد معها غدًا.
أطل برأسه من باب غرفته ونظر إلى الممر، وجد شعاعًا من الضوء تحت أحد الأبواب.. بابها. ذهب إليه وطرقه برفق وانتظر ثواني قبل أن يطرق مجددًا لكن بقوةٍ أكبر. ضم يده حول فمه وقربه من ثقب المفتاح وناداها. حاول النظر من خلال الثقب، لكن المفتاح كان في الباب، انتظر بضع ثوانٍ وطرق مجددًا.
فكر أن يدخل الغرفة ويصعد على السرير ويهز كتفها بلطف، حاول أن يتخيل المنظر؛ وجهها النائم وهو يستدير نحوه على ضوء المصباح المجاور للسرير، وشعرها مفروش تحتها على الوسادة، ويدها على الملاءة البيضاء، وخاتمها الذهبي في إصبعها الأوسط يستقر فيه فصان من اللؤلؤ وكأنهما بيضتان في عش، أما على الطاولة المجاورة للسرير، فيوجد الكتاب الذي كانت تقرأه في البلكون الخارجي بالأمس، غلافه أخضر وعليه حروف ذهبية، أو ربما إحدى المجلات الصادرة في نيويورك وتشتريهم من مكتب البريد وتكون ملفوفة في حافظة أسطوانية من الكرتون، بالإضافة إلى علبة الأقراص المستديرة وكوب ماء مثل الذي تتركه السيدة "كابلان" على الرف المجاور لسريره كل ليلة، وعليه قماشة بيضاء صغيرة لكيلا تدخل فيه الحشرات.
سيقول: "استيقظي يا كاثرين، كاثرين، كاثرين استيقظي".
لم يدخل غرفتها إلا مرة واحدة، كان هذا عندما كان يسير في الممر ونادته "روزيتا" من الغرفة لتخبره أن ينزل ليطفئ البوتاجاز، عرض مساعدتها في إعداد السرير لكي يبقى أطول قليلًا في غرفة "كاثرين" ويرى أغراضها، لكن "روزيتا" قالت: "لا لا، اذهب أنت وإلا ستفسد كل شيء".
لم تمض ثوان على دخوله وخروجه من الغرفة، لكنه استطاع رؤية بعض الأشياء وأخذ يردد أسماءها وهو ينزل السلم لكيلا ينساها؛ مكتب أبيض، غطاء حريري باللون الوردي الداكن، مصباح على الخزانة المجاورة للسرير، برواز فضي فيه صورة لجندي، كرسي من الخوص عليه وسادة سوداء، شبشب أبيض فرو تحت الكرسي، موكيت أزرق مخطط عند السرير، رائحة أزهار وعسل وتبغ تغمر المكان.
ومرة أخرى كان ذاهبًا إلى سريره، وكان بابها مفتوحًا قليلًا، رأى "كاثرين" على ضوء المصباح وهي تجلس على طرف السرير وتواجه نافذة مفتوحة، كان باستطاعته رؤية الأشجار بالخارج وقد صارت سوداء بفعل الظلام، وسمع حفيف العشب الطويل وهو يتحرك مع النسيم. كانت تفعل شيئًا بأظافرها، كان مرفقها يتحرك مثلما كان السيد "مورجان" يفعل وهو يعزف التشيلو قبل أن ينتقل للعيش في "بروكلين". وقتها رأى ملابس وردية، وقائم سرير أبيض، وراديو على طاولة صغيرة مستديرة، وبجانبه كأس طويلة بداخلها مشروب ذهبي اللون.
أدرك تلك الليلة أن غرفتها لا تواجه البحر؛ فهي تقع في الجانب الآخر من المنزل، فوق البلكون الأمامي إلى اليمين قليلًا.. إنها الوحيدة التي تقع غرفتها في هذا الجانب من المنزل، حتى "روزيتا" تنام في القبو الذي يطل على البحر، تخيل ما الذي قد تراه عندما تخرج إلى شرفة غرفتها؛ الطريق المنحني الذي يقود إلى الجراج، وخلفه المساحة الرملية الصغيرة التي تقود إلى الطريق العام، على يمينها ثلاث شجرات حمراء طويلة، وعلى يسارها شجرتان قصيرتان، وهناك منحدر عشبي طويل

يقود إلى البحر من جانب الخليج، أما من الجانب البعيد عن البحر، يوجد تل بعيد باللون الأخضر والأصفر وعلى قمته شجرة وحيدة.
عندما تأخذ قيلولة الظهيرة أحيانًا، يذهب إلى مقدمة المنزل ويرمي الكرة للكلب وسط العشب الطويل. وإن لم يستطع الهرب من "ريتشي"، يستلقي مختفيًا بين العشب ويراقب، من موقعه هذا يستطيع أن يرى كل من يقترب من البيت والبلكون الأمامي، كما يمكنه أن يرى الممر الذي يلتف حول البيت ليقود إلى البلكون الخلفي التي تطل على الخليج، يقرأ أحد الكتب التي تضعها السيدة "كابلان" في غرفته.. يقرأ عن ولد اسمه "جودي" وحصانه الأحمر الصغير أو عن "توم سوير". وفي كل مرة يصل إلى نهاية صفحة، يرفع نظره ليتأكد أن "كاثرين" نائمة هناك بأمان خلف الشيش المغلق.
اليوم التالي لليلة التي أعطته فيها القرص، وجدها تقرأ الكتاب الأخضر في البلكون مجددًا، أراد أن يسألها عن الكتاب ما اسمه وموضوعه؟ لكنه شعر بالحرج من سؤالها، وقف خلفها لوهلة متمنيًا أن تلاحظه وألا تلاحظه في الوقت نفسه، واصلت القراءة على كل حال، وحجب طرف قبعتها كلمات الكتاب عنه.
وها هو الآن في منتصف الليل يقف خارج غرفتها، وفي جيبه الخطاب الذي كتبه لـ"هاري" وخالته، ظل واقفًا على بابها يستمع إلى أصوات البيت النائم وينظر يمينًا ويسارًا في الممر. لو اختار الدخول، فيجب أن يكون واثقًا من شجاعته، فهذا ليس شيئًا يمكنه أن يغير رأيه فيه فجأة بعدما يدخل، إما أن يفعلها أو لا. آخر ما يريده هو أن تستيقظ وتجده واقفًا في حجرتها؛ إنما يريد أن يوقظها بنفسه، هكذا لن تسيء الفهم بأنه ينوي على تصرفٍ مشاغب، كأن يتجسس عليها أو يسرقها.
لهذا سيفتح الباب ويدخل ويواصل السير حتى يصل إليها، لو كانت ترتدي بيجامة كالذي ترتديها خالته، سيضع يده على كتفه ويهزها. أما لو كانت ذراعها عارية وترتدي قميص نوم كالتي ترتديه والدة "ريتشي"، عندها سيخاف أن يلمسها، سيناديها فقط.. مرارًا وتكرارًا إلى أن تستيقظ. حتى لو وقف هناك إلى أن تصعد السيدة "كابلان" في الصباح حاملة صينية الإفطار فيضطر إلى العودة إلى غرفته في ثوانٍ.
أدار مقبض الباب بيديه، ثم سحب نفسًا وفتح الباب قليلًا ثم كثيرًا حتى رأى الغرفة كلها، كان النور الرئيس مضاءً، لكنه استغرق بعض الوقت ليستوعب ما يراه.. الغرفة في حالة فوضى؛ الملابس ملقاة على الأرض، أما المكتب فيبدو كما لو أن شخصًا ما ضرب كل ما عليه بمضرب بيسبول.. لوهلةٍ ظن أن أحد أكوام الملابس على الأرض بجانب السرير هي "كاثرين"، وأن شخصًا ما اقتحم المكان وضربها على رأسها قبل أن يخرب الغرفة، ثم رأى علبة مجوهراتها مفتوحة وتخرج منها المجوهرات، فخمن أنه لم يكن هناك أي مقتحم.. "كاثرين" ليست هنا، إنها ليست على الأرض وليست على السرير، وسادتها خالية وملساء، إنها الشيء الوحيد المرتب في الغرفة.
وقف ويداه على مقبض الباب المفتوح لكنه لم يجرؤ على الدخول، لم يجرؤ على أن يكون بمفرده في غرفتها محاطًا بأغراضها الشخصية المقلوبة رأسًا على عقب تحت هذا النور الساطع.
أدراج الخزانة مفتوحة ويظهر فيها علب الأقراص وزجاجات الدواء. وعلى الأرض خطابات كثيرة ومطفأة سجائر متسخة، وهناك جيبة باللون الأزرق الداكن مفرودة على الطاولة الصغيرة، توجد فردة صندل فضي على الكرسي الخوص، وزجاجة كحول ظاهرة من تحت الدولاب، وعلبة سجائر، وملابس داخلية على الموكيت المجاور للسرير، ومعها الفستان الأخضر الذي كانت ترتديه على العشاء، أما فردة الصندل الأخرى فكانت متدلية عند عامود السرير. نظر إلى الملابس على الأرض

ولاحظ بقعة دم كبيرة على الملابس الداخلية؛ ففزع، وخاف أن تكون "كاثرين" قد أصيبت بمكروه، ثم تذكر أجزاءً من محادثة قد سمعها من قبل من ثلاثة أولاد في غرفةٍ مظلمة يتحدثون عن "النزيف السري" للسيدات، أغلق الباب وسار في الممر.
تجول في البيت بين صرير السلالم وأنين ألواح الأرضية، أضاء نور المطبخ فبدا واضحًا أمامه وكأنه ظهر من العدم، ثم أطفأ النور فابتلع الظلام المطبخ من جديد. تحسس طريقه في الظلام، ها هو الحوض ثم المكان الخاص بتجفيف الأطباق ثم الثلاجة ثم سلة الخضار، إلى أن وصل إلى فتحة في الجدار وسلالم تؤدي إلى غرفة "روزيتا" في القبو.
ظن أن "كاثرين" قد تكون هناك تتحدث مع "روزيتا"، كما فعلت ذات ليلة في الأسبوع الماضي حين كادت تكتشفه وهو يمد يده إلى الثلاجة، لكنه لم يجد نورًا تحت باب "روزيتا"، وعندما ألصق أذنه بالباب، لم يسمع سوى صوت شخيرها.
عاد للصالة ونظر عبر زجاج الباب الأمامي، ثم ذهب إلى غرفة السفرة واستدار يسارًا ونزل الدرجات الثلاثة التي تؤدي إلى غرفة المعيشة، ذهب إلى الجدار الزجاجي ونظر من خلاله إلى البلكون الخارجي المطل على الخليج، نور البلكون كان مطفأً، لكن القمر كان بدرًا. رأى مطفأة سجائر "كاثرين" ورأى كرسيها خاليًا، وهناك وشاح كاروهات تضعه أحيانًا حول كتفيها، والشبشب الذي لا ترتديه أبدًا تقريبًا موجود على الأرض بنظام.
نظر إلى التل وبين الأشجار والبحر ونور القمر الشاحب المنعكس عليه. الغرفة من خلفه منعكسة على الزجاج؛ أريكتان قصيرتا الظهر، دولاب قصير وعريض عليه أدوات زينة وكتب، ومقابض الدولاب على شكل أحصنة بحر.
استدار إلى الغرفة وأضاء أباجورتين، وبدأ يسير بين الأريكتين والدواليب، رأى انعكاسه يتحرك على الزجاج وكأنه شبح يحوم وسط مدينة.
كرر ذلك مرتين، وعندما مل بدأ يفتح دلف وأدراج الدواليب، أنواع الكؤوس وزجاجات النبيذ ومناديل وأطباق زجاجية، وهناك زجاجة مضلعة كبيرة تشبه زجاجة المياه الفوارة التي تستخدمها والدة "ريتشي" مع الكوكتيل، هناك علبة بلاستيكية مليئة بأشياء صغيرة موضوعة في أكياس صغيرة.. أخرجها ووضعها على الدولاب القصير، ثم أدارها قليلًا فتحركت الأشياء بداخلها وهي تحتك ببعضها، أخذ علبة من عِصِيِّ تقليب المشروبات الكحولية ووضعها في جيب قميص البيجامة، ثم أخذ كيسًا من الفول السوداني ووضعه في جيب بنطال البيجامة مع خطاب "هاري"، أعاد العلبة إلى الدولاب، ولمح كيسًا من المخبوزات في آخره، فأخذها ووضعها في بنطال البيجامة من الأمام، وشد حبل البنطال عليه ليثبته بإحكام.
قبل أن يغادر، بحث عن ألبوم صور "كاثرين"، وجده على الأرض بجانب أحد الكراسي. وضع الألبوم تحت ذراعه وعاد إلى غرفة السفرة ثم إلى الصالة حيث أضاء الأباجورة المجاورة لطاولة التليفون.
فتح الألبوم وبدأ يقلب الصفحات بحثًا عن صور "كاثرين" وهي ممرضة، انفتح الألبوم على صورة رآها من قبل لرجلين يرتديان زي قوات الطيران.
وقتها سألها وهو يشير إلى الأكثر وسامة بينهما:
- من هذا؟
شعر بغيرةٍ مفاجئة وهي تقول:

- إنه خطيبي السابق.
- ماذا حدث له؟ هل مات في الحرب؟
- لا، لا شيء من هذا، لقد قررت فقط ألا أتزوج على الإطلاق.
- لماذا تحتفظين بهذه الصورة إذًا؟
- لأن الرجل الآخر الواقف بجانبه هو أخي "بيل"، والد "ريتشي".
ثم مررت إصبعها على الوجه الذي في الصورة وهي تقول:
- عزيزي المسكين "بيل"!
قلَّب المزيد من الصور فوجد صورة لـ"كاثرين" والممرضات، كن جالسات على سجادة خفيفة مفروشة على عشب، ثم صورة وهن جالسات على سور قصير خارج المستشفى. وصورة هن واقفات بجوار سيارة جيش، ثم صورة وهن واقفات في الثلج ويحملن صناديق، كل صورة فيها على الأقل أربع ممرضات. وفي إحدى الصور المأخوذة عند مبنى رمادي ضخم، يوجد ثلاثة صفوف من الممرضات، ومع ذلك استطاع تمييزها من بينهن، كانت تبتسم إلى الكاميرا وشعرها مربوط تحت قبعة التمريض.
أخذ يفر في الألبوم حتى وجد الصور المأخوذة أمام المنزل الذي في "إيستهام"، هناك "كاثرين" وصديقاها "لويزا" و"جيم"، بدت "كاثرين" جميلة جدًّا في إحدى الصور بالذات؛ لم تكن فقط تبتسم، بل كان كتفاها محنيين وكأنها كانت تضحك بشدة لدرجة أنها لم تستطع الوقوف بثبات، كانت ترتدي فستانًا صيفيًّا يُظهر ساقيها وذراعيها، شعرها أشقر فاتح وناعم وغزير، ويستقر على إحدى كتفيها وكأنه قطة بيضاء. "لويزا" خلفها بالضبط تشبك ذراعها بسعادة مع "جيم" ذي الشعر المجعد.
تساءل من الذي التقط الصورة، هل هو "بيل" أم الرجل الذي قررت ألا تتزوجه، بابتسامته اللامعة وهو يدعوهم للتصوير ويقول شيئًا مرحًا جدًّا حتى كادوا يقعون من الضحك؟
أدخل أصابعه خلف الغطاء الشفاف الذي يحمي الصورة وفك اللاصق الذي يثبتها على صفحات الألبوم السوداء، أخرج الصورة وأدارها ليرى المكتوب على ظهرها.. "إيستهام"، أغسطس 1944؛ أي قبل عامين من وصوله إلى أمريكا، كاد يضع الصورة في كمه لكنه غيَّر رأيه؛ فهو لا يريدها أن تتجعد أو تتكسر، فتح دليل التليفونات ووضع فيه الصورة بحرص عند حرف الميم، وبالأخص اسم "مايكل"، لكي يجدها بسهولة غدًا، ثم أغلق الدليل وأطفأ الأباجورة.
جلس خلف الباب وظهره إلى الحائط، هكذا يمكنه أن يكشف الطريق حتى السلم، لو دخلت من الباب الأمامي سيراها، لو كان معها مفتاح الباب الخلفي ودخلت منه إلى غرفة المعيشة سيراها، لو جاءت من باب القبو سيراها وهي تمر من المطبخ إلى الممر المجاور للسلم. الطريق الوحيد الذي لن يراها منه هي أن تضع سلمًا من الخارج وتتسلق إلى غرفتها من النافذة، لكنه يعلم أنها لن تفعل ذلك أبدًا.
سقط ضوء شاحب من القمر على أرضية الصالة، فظهرت ظلال الأشجار المتراقصة على الحائط، تذكر الخزانة في غرفة "كاثرين" في الطابق العلوي، تذكر أدراجها المفتوحة وعلب الأقراص وزجاجات الأدوية الظاهرة فيه.. قرر أن يعد حتى ستين عشر مرات، لو لم تظهر "كاثرين" سيصعد إلى غرفتها ويأخذ قرصًا مسكنًا، سيقضم جزءًا منه فقط، ثم سيستلقي في سريره وينتظر أن يشعر جسده بالخدر تدريجيًّا حتى يغيب عن الوعي.. عندما يحدث هذا، لن يخاف من شيء لأنه لن يرى شيئًا؛ وبالتالي لن يؤذيه أحد. ستختفي الغرفة والمرآة والرجل الهزيل بداخلها، لن يبق شيئًا في العالم، لن يبق سواه وهو يطفو في عالم الأحلام مثل ورقة تطفو على الماء.

أول مرة يرى الرجل الهزيل في المرآة كانت بعد فترة قصيرة من قدومه للعيش مع الخالة و"هاري"، كان ذاهبًا للحمام ذات ليلة واضطر للمرور أمام المرآة الطويلة في الممر، لم يكن الخالة و"هاري" قد ناما بعد، سمعهما يتحدثان في المطبخ بينما يشغلان مباراة بيسبول على الراديو، صرخ بجنون حين رأى الرجل في المرآة، عندها ركض إلى غرفته واختبأ تحت السرير وهو يبكي ويرتجف إلى أن جذبه "هاري" بذراعيه القويتين.
نقلوا المرآة إلى غرفة الخالة و"هاري"، لكن هذا لا يعني أن الرجل رحل، بل بدأ يظهر في أحلامه بدلًا من ذلك.
يختلف الحلم أحيانًا، لكن شيء واحد يبقى ثابتًا، يأتي الرجل من عند التل ليجلس أمامه ويظل ينظر إليه.
التل في حلمه يشبه كومة خردة مليئة بالأشياء الحادة والمكسورة، كان ينظر إلى التل عبر نافذة سيارة أو منزل، هناك الطريق خالٍ تمامًا؛ مجرد طريق ريفي بين الحقول والأشجار، وهناك سماء رمادية، وبالطبع التل. كان ينظر من النافذة عندما ظهر رجل فجأة يركب دراجة واقترب من التل، دوى صوت في الأرجاء، فتوقف الرجل ونظر حوله ليحاول أن يجد مصدر الصوت، ثم نظر إلى التل.
قال الصوت بالألمانية:
- "ساعدني، ساعدني! أنا حي، أنا حي!".
استمع إلى الصوت بينما ينظر من النافذة، وتساءل لماذا قد يهتف شخصٌ ما بهذه الكلمات: "ساعدني، ساعدني! أنا حي، أنا حي!".
نظر الرجل ذو الدراجة عبر الطريق إلى النافذة التي يجلس خلفها، وهز كتفيه وكأنه يسأله إذا كان قد سمع هذا الصوت أو يعرف ماذا يكون، فهز كتفيه في المقابل وكأنه يقول لا فكرة لديَّ.
ترك الرجل دراجته على الأرض وذهب إلى التل، بعد بضع ثوانٍ بدأ يحفر بيديه، بمجرد أن فعل ذلك.. اتضح أن التل مكون من بشر! وتساقطت الأذرع والأرجل من الكومة، غطى الرجل فمه بوشاحه وواصل الحفر، ثم بدأ يستغيث بصوتٍ عالٍ وأصبح هو من يطلب المساعدة: "يا إلهي، يا إلهي. ساعدني.. ساعدني" وكررها بالألمانية: "يا إلهي، ساعدني.. ساعدني".
بعد وهلةٍ ظهرت فجوة في التل وخرج منها ذراعان يتحركان، توقف الرجل عن الحفر وأمسك بالذراعين وبدأ يشدهما حتى ظهر وجه رجل، ساعد الرجل على أن يزحف خارج التل. وعندما خرج، تحرك التل قليلًا عندما عادت الأذرع والأرجل الميتة إلى مكانها، لكن الرجل الذي خرج لم يكن طبيعيًّا، بل بدا أشبه بهيكلٍ عظمي.. هيكل عظمي مغطى بالجلد، لدرجة أن الرجل الأول بدا عملاقًا بجانبه وهو يساعده على عبور الشارع ليجلس على الرصيف الآخر، عاد الرجل لدراجته وأخذ لفافة وزجاجة من حقيبته وأحضرهما إلى الرجل العظمي، لكنه لم يبد قادرًا على أخذهما، فتح الرجل اللفافة ليُري الرجل العظمي أن فيها ساندويتشات، ثم فتح له الزجاجة. أبعد الوشاح عن وجهه وأراه كيف يأكل ويشرب ليقلده.. "كل هكذا، واشرب هكذا"، وكأنه نسي كيف يفعل هذه الأشياء، بعد وهلةٍ استسلم الرجل ترك الساندويتشات والزجاجة على الأرض بجانب الرجل العظمي، ثم عاد إلى دراجته. ترنحت الدراجة وهو يسير بها وكأنه نسي كيف يقودها، بدأ الرجل العظمي يبكي، سالت دموعه وريقه ومخاطه، وكأنه يبكي بوجهه كله، مسح وجهه بيديه اللتين بدتا كبيرتين جدًّا بالنسبة لجسمه، ثم رفع وجهه ونظر إلى النافذة مباشرةً.

بعد عامين أعادوا المرآة إلى الصالة، لم يخبر "هاري" أبدًا لكنه ظل يرى الرجل في المرآة، ولم يبدُ أكبر أو أسمن أو أنظف مما رآه أول مرة. الوجه القذر نفسه، والملابس الرثة والعينين السوداوين، والفجوة المظلمة نفسها في فمه الغائر، لكنه على الأقل ظل في المرآة ولم يدخل أحلامه.
استيقظ ليجد "كاثرين" تميل عليه في الصالة، رأى قدميها العاريتين أولًا ثم كاحليها ثم طرف المعطف الطويل الذي ترتديه.
قالت:
- ماذا تفعل يا "مايكل"؟ لماذا تنام على الأرض؟
قال وهو يحاول النهوض:
- كنت في انتظاركِ.
رفعت أكمامها ومدت ذراعيها إليه لتساعده على النهوض، عندما أمسك بها ونهض ترنحا هما الاثنان.
أخذت ترقص وتغني وهي تحرك يده وكأنهما يرقصان "روك أند رول":
- "دا، دا.. دا، دا".
قال:
- معطفكِ كبيرٌ جدًّا عليكِ.
توقفت عن الغناء ونظرت لنفسها.
- تعني هذا؟ لا، إنه ليس معطفي.. هذا معطف القوات الجوية القديم الخاص بـ"بيل"، إنه يدفئني عندما أخرج ليلًا.
- إلى أين تذهبين؟
- أتمشى، أنظر للنجوم، أعوي للقمر.
ثم ضحكت وقالت:
- أنا أمزح يا "مايكل"، بالتأكيد لا أعوي للقمر. هيا، من الأفضل أن نأخذك للأعلى. هل كنت تسير في أثناء نوم؟
- لا، أخبرتكِ أنني كنت أنتظركِ. أردت أن أعطيكِ شيئًا ما، وأن أسألكِ إن كان يمكنني أخذ قرصٍ منكِ.
- لماذا؟
- ليساعدني على النوم.
- لم تبدُ لي في حاجةٍ إليه، لقد نمت على الأرض.. هل تدرك منذ متى أحاول إيقاظك؟
- وماذا أفعل عندما أعود للسرير؟ ماذا لو لم أستطع النوم؟
- إذًا لا تنم.
قادته إلى السلالم ثم توقفت وقالت له:
- تلك كانت مرة واحدة فقط لتسكين الألم يا "مايكل"، ولأنك كنت منزعجًا جدًّا، إياك أن تخبر أحدًا بذلك.. أتعدني؟
- أعدكِ.
- ماذا أردت إعطائي؟
- رسالة...

- أكره الرسائل، لا أريدها، أكره الخطابات والبرقيات، أكره كل أنواع الرسائل.
- لا، إنها ليست لكِ.
ترنحت مجددًا وقالت:
- هذا المعطف ثقيلٌ جدًّا، لا أحتمله.
انتظر بينما تخلع المعطف وتضعه على ذراعها ثم تعطيه إياها.
- خذ.
رمته إلى ذراعيه، فاهتزت ساقاه من ثقله المفاجئ، فقالت له:
- ألم أخبرك أنه ثقيل؟ أعطني إياه. هيا، هاته.
وقفت "كاثرين" من دون المعطف وهي ترتدي قميص نوم دون أكمام. لاحظ أن ذراعيها نحيلتان جدًّا، عندما مدت يدها إليه لتأخذ منه المعطف. استطاع أن يرى ملامح ساقيها الظاهرة عبر القميص الخفيف، لكنه لمح ظلًا داكنًا يمتد من صدرها حتى بطنها وفخذيها، أخذت المعطف ثم ركعت على الأرض وقالت:
- هذا معطف أخي "بيل".. كان له.
- نعم، أعرف.
- حقًّا؟
- لقد أخبرتني للتو.
دفعت المعطف عن حجرها فسقط على الأرض، ثم وضعت ذراعيها حوله وعانقته بقوة، شم رائحة كحول في أنفاسها وشعر بماء البحر في شعرها، كان قميص نومها رطبًا، فعرف أنها كانت تسبح، وأن الظل الداكن تحت قميصها هو ثوب السباحة.
- "مايكل"؟
شعرت أن الكلمة خرجت من فمها وزحفت على وجهه.
- هل يمكنني أن أخبرك بسر؟ هل آتمنك عليه؟
ابتلع ريقه وقال:
- أقسم أنني لن أخبر أحدًا.
تراجعت قليلًا وعبست بتساؤل، ثم قالت بنبرةٍ مختلفة:
- ما الذي تخفيه هنا؟
- أين؟
- هنا.
رفعت قميص بيجامته وسحبت كيس المخبوزات الذي ربط عليه حزام البنطال.
- مخبوزات! ماذا تخفي أيضًا في جراب الكانجارو هذا؟
- لا شيء، أقسم لكِ.
- حقًّا؟
بدأت تفتشه، وأخرجت الفول السوداني من جيب قميصه وأخرجت عصا تقليب الكوكتيل من جيب بنطاله، قالت:
- هل كنت تسرق يا "مايكل"؟ تسرق؟
- لا، لا...

انفجرت بالضحك ثم بدأت تدغدغه وتنقره في بطنه وإبطه وتحت ذقنه وهي تقول بمزاح:
- هل كنت تسرق؟ هه؟ هل أطلب الشرطة؟
ثم توقفت وقالت:
- ما الأمر؟ ألا تشعر بالدغدغة في أي مكان؟
وقف محرجًا أمامها والألم يعتصر قلبه، قرص ذراعه ليمنع نفسه من البكاء.
قالت له:
- هيا يا "مايكل"، من يهتم؟ لا تنزعج.. لا يهم، خذها كلها.
- لم أعد أريدها.
- بالتأكيد تريد.. هيا، خذ كل ما تريد، معظمها يتم رميها بأي حال، هيا.. خذها، لا أحد يهتم، البيت مليء بها.
صاح:
- لا أريدها!
ثم دفعها وقال:
- لا أريد شيئًا منكِ، دعيني وشأني!
ترنحت قليلًا وكادت تفقد توازنها قبل أن تثبت نفسها، طرفت بعينيها بضع مرات ثم أخذت معطفها ووقفت بحرص، استدارت وعبرت الصالة تاركةً إياه ليرى ظهرها وهي تبتعد وتصعد السلم ويغلفها الظلام ثم لا يبقى إلا صوت أزرار معطف "بيل" وهي تجره على الأرض في الممر بالأعلى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

نهضت من على المقعد الذي كانت تجلس عليه وتقرأ كتابها وتنظر نحو الشَمال، شعرت بشيءٍ ما بالقرب منها.. لكنه ساكن، استدارت وأمالت أذنها نحو الغرب وهي تغلق الكتاب وتسير على الجرف لتنظر إلى البحر في الأسفل.
لا يوجد أحد على الشاطئ على امتداد نظرها، لم تلمح حتى رأس أحد يتسلق التل، لم ترَ إلا حركة العشب القريب من البحر والطيور البحرية، وقفت قليلًا تشاهد الأمواج البطيئة الطويلة وهي تُخرج طحالب البحر إلى الشاطئ. والآن بدأت تشعر بشيءٍ ساكنٍ آخر، لكن هذه المرة في داخلها.. بدأ هذا الشعور يراودها منذ بضعة أيام، يأتي ويذهب، ولم تعرف له اسمًا. لو حددت مكانه سيكون في الفجوة الصغيرة بين ضلعها الأول وعظمة صدرها، وكأن شيئًا ما دخل أو خرج، لا تشعر بهذا إلا في هذه الأوقات التي تنظر فيها إلى البحر أو قبل النوم مباشرةً، أي عندما يكون عقلها هادئًا.
استدارت إلى البيت وهي تنقر على الكتاب وتدندن لحنًا سمعته أول مرة في بداية الصيف.. إنه واحد من الألحان الكثيرة التي يحملها النسيم من بيت "كابلان". والآن تسمعه في كل مكان، عبر أبواب السيارات المفتوحة، ومن نوافذ مطابخ المنازل، وأجهزة تشغيل الموسيقى التي تعمل بالعملات المعدنية في المطاعم والصيدليات، بعض الفرق الموسيقية المغمورة تعزفه في نوادي وفنادق "بروفينستاون" لكن بأسلوبٍ أرقى لا يناسب ذوقها، ومع ذلك تسعد به. حتى زوجها معجبٌ بهذا اللحن، ربما لأنه لا يحتوي على كلمات، وربما لمحة الإثارة هي ما أعجبته؛ فاللحن مرتبط بفيلم رأيا

إعلانه وتحدث عنه الناس كثيرًا، إنها واثقة من أنه سيذهب لرؤية الفيلم بمجرد عودتهما إلى نيويورك.
سيجلسان في الظلام ويشاهدان الممثلين وهما يتجولان وسط ثلوج "فيينا" بينما تحيط الموسيقى التصويرية بهما، لكنها ستربط هذا اللحن دائمًا بأنوار "كيب كود" في بداية عقد جديد في منتصف القرن، في صيف إتمامها لعامها السابع والستين.
في طريق عودتها إلى المنزل نظرت حولها بحثًا عن ظل شخصٍ يتحرك، لكن لم تجد من يعكر صفو انسجام الظلام والنور، ظل البيت منعكس على العشب، وظِلِ العشب منعكس على ألواح المنزل، وهناك ملاءة منشورة على حبل الغسيل ظلها منعكس على الشجيرات.. كل شيء طبيعي، ربما ما شعرت به في البداية كان مجرد قط.
وضعت قدمًا على السلم لتدخل البيت، ثم غيرت رأيها وتراجعت ودارت حول الركن الشمالي الغربي لتذهب خلف البيت، عندما وصلت لنافذة غرفة الرسم الكبيرة، انحنت ومرت من تحتها بحذر، انتظرت بضع ثوانٍ قبل أن تختلس النظر خلف المنزل، لمحت ظلًّا أعلى السلم الخشبي لكنه اختفى من مجال بصرها بسرعة ودار حول الزاوية الأخرى. تراجعت وانتظرت لحظةً قبل أن تعود أدراجها إلى الركن الشمالي الغربي. ألصقت ظهرها بالحائط، ولمحت ظلًّا رفيعًا يدخل مجال رؤيتها وهو قريبٌ من الأرض، فبدا مثل عقرب ساعة أسود كبير، توقف ثم تحرك مجددًا، ازداد عرض الظل وهو يحوم فوق الجرف، ثم عاد يضيق وهو يقترب من البيت.. بدأت تعد بصمت؛ واحد، اثنان، ثلاثة...
ثم هتفت فجأة "أربعة"، وقفزت من مخبأها ولوحت بالكتاب وكأنه حيوان مفترس ينقض على فريسته.
رفع الشخص القادم يده ليحمي رأسه، فضربته بالكتاب مرارًا وتكرارًا على رأسه ثم على جسده حتى انحنى وزحف إلى جدار المنزل، لمحت ركبته ومرفقه ويديه.
هتفت:
- أمسكت بك ونلت منك، ماذا لديك لتقوله الآن؟ هل تستسلم؟ هل تستسلم؟ هيا، أجبني.. من الأفضل أن تجيب وإلا...
لكن "مايكل" لم يستطع التفوه بحرف من فرط الضحك.
سألته وهي تدغدغ ضلوعه بإصبعها:
- هل استسلمت؟
ضحك بقوةٍ وحاول النهوض لكنها ضغطت عليه بالكتاب ودغدغته لتعيده إلى الأرض.
- استسلم هيا.. أنا أسألك، ومن الأفضل لك أن...
أجاب وهو يضحك:
- أنا أستسلم، أستسلم.
- من المنتصر؟
- أنتِ.
- مرة أخرى، من المنتصر؟
- أنتِ.. أنتِ.
- هل تتوسل طلبًا للرحمة؟

- نعم، نعم. أنا أتوسل، أتوسل!
قالت وهي تجلس على الأرض بجانبه:
- حمدًا لله على ذلك، فلقد نفدت طاقتي.
اعتدل "مايكل" وهو ما زال يضحك، فانتظر حتى يلتقط أنفاسه ويهدأ. بقيا على هذا الحال في ظل المنزل على العشب مستندين على الجدار.
سألها "مايكل":
- كيف عرفتِ؟ كيف تشعرين بي دائمًا؟
- هذا دليل على نباهتي.
- لا أصدق ذلك!
- حقًّا؟ ما رأيك في ضربة أخرى من هذا الكتاب إذًا؟
- لا، أخبريني.
- لو أخبرتك فستفوز وسأخسر أنا وسأضطر لإعداد الشاي كل مرة.
ابتسم لها ونظر إلى الكتاب الذي استقر في حجرها وسألها:
- عمَّا يدور هذا الكتاب؟ هل هو جميل؟
- لا، إنها مجرد أشعار فرنسية قديمة، لن تحبه.
- لقد ثنيتِ الغلاف.
نظرت إلى الكتاب وقالت:
- نعم، بالفعل.
استندت عليه بيدها وبدأت تنهض.
قالت:
- السر في الظلال، لهذا أكسبك دائمًا.. عليك أن تعرف كيف تقرأ الظلال.
- كيف؟
- لو عشت مع زوجي وقتًا طويلًا ستعرف كل شيء عن الظلال، ربما أريك يومًا ما.
فتح "مايكل" فمه ليتكلم لكنها قاطعته:
- قلت يومًا ما، وليس اليوم.
يأتي الولد لرؤيتها كل يوم تقريبًا، بدأ الأمر بعدما وقع من على السلم، ثم تحول إلى روتين، شكت أنه يأتي إلى البيت حتى وهيَ في الخارج. عندما تذهب مع زوجها إلى "أورلينز" بحثًا عن إلهامه، تجد آثارًا لوجوده بعد عودتها؛ مثل بعض الرمال أمام الباب، وعلامة يد على إطار النافذة وكأن شخصًا ما كان ينظر ليتحقق من وجود أشخاص بالمنزل، أحيانًا يأتي أكثر من مرة في اليوم نفسه. تنظر من النافذة في المساء فتجد من يأتي مسرعًا على العشب أو تلمح ظلًا يركض عند الجراج، لكنه لسببٍ ما لا يُظهر نفسه في المرة الثانية؛ يبقى قريبًا لبعض الوقت ثم يختفي، وكأنه في دورية ليتأكد أنَّ كل شيء على ما يرام.
عندما جاء أول مرة كان معه "ريتشي"، وقال:
- أخبرتنا أن نأتي لزيارتكِ عندما نكون في الجوار.
قال "ريتشي":
- أخبرته أنكِ لم تَعْنِ أن نأتي على الفور يا سيدتي، لكنه لم يستمع إليَّ.

ظل "ريتشي" بتهذيبه الزائد يذكره أنه لا يُفترض بهما البقاء طويلًا والتسبب بإزعاجهما.
قالت لزوجها بعد أول زيارة لهما:
- "ريتشي" ولدٌ سخيفٌ جدًّا، أحيانًا يتحدث مثل السيدات العجائز، لا بد أن قضاء الوقت بصحبة الكبار هو السبب.
- إنه يحاول فقط أن يكون مطيعًا.
- هناك فرق بين الطفل المطيع والطفل المزعج.
- خلفيته التربوية هي أنه على الأطفال أن يكونوا مطيعين.
ثم التفت إليها من خلف الجريدة وأضاف:
- وهو ما لم تهتم أمكِ به.
جاء "ريتشي" معه مرتين أو ثلاث بعد هذا، ثم بدأ "مايكل" يأتي بمفرده. في أول مرة له وقف على عتبة الباب في انتظار أن تدعوه للدخول، كان القلق والتوتر باديين على وجهه، فقررت أن تمازحه قليلًا.
قالت:
- ماذا تريد أيها السنجاب الصغير؟ ارحل قبل أن أطلق عليك الكلب.. ارحل.
- لكنكِ لا تملكين كلبًا.
- لديَّ زوجي، صحيح؟ بالتأكيد يعرف كيف ينبح.
عندما أدرك أنها تمزح اتسعت عيناه بابتسامة وضحك.
كان مغطى بالرمال، أمسكت له الباب حتى نفض الرمل عن حذائه وساقيه ويديه.
- لماذا زحفت إلى هنا؟
ضحك من سؤالها ثم دعته للدخول.
يرتاح أكثر حين يقابلها خارج البيت؛ فالأمر يبدو وكأنهما يتقابلان صدفة ثم تدعوه هي إلى البيت، لهذا تحاول مساعدته في ترتيب ذلك. تجلس في الخارج صباحًا، وإن لم يظهر.. تجلس مجددًا في الظهيرة. لو لمحته عبر النافذة، تخرج وتشغل نفسها بأي شيء وتتظاهر بأنها رأته صدفة. وفي المرات القليلة التي لا يكون فيها زوجها في المنزل، يلعبان الغميضة ويفزعان بعضهما، وهو يخسر دائمًا ويضطر لإعداد الشاي.
عندما يدخل البيت، يضم قدميه ويحني كتفيه قليلًا ثم يسترخي تدريجيًّا ويكف عن التلفت، ثم يقول شيئًا مثل:
- أخبروني أنني يجب أن أناديكِ "سيدتي".
- من قال هذا الكلام السخيف؟
- والدة "ريتشي"، قالت إنني يجب أن أخاطبكِ بـ...
- هي قالت هذا؟ ماذا قالت بالضبط؟
- قالت: "اسمع يا مايكل، لقد تحدثنا في هذا بالفعل.. الولد اللطيف المهذب يخاطب أي سيدة بكلمة سيدتي".
ضحكت على تقليده لـ"أوليفيا" في الصوت وتعابير الوجه.
- يمكنك أن تناديني بما يحلو لك.
- أحب مناداتكِ بسيدة "إيتش".

- أؤكد لك أنني حصلت على ألقابٍ أسوأ من هذا.
- مثل ماذا؟
- دعني أفكر، سيدة "موظ".. حصلت على هذا اللقب لفترة.
- لكن لماذا؟
- كتب أحد الصحفيين في مجلة أن زوجي يشبه حيوان الموظ، غضبت بشدة لكن زوجي أغاظني وناداني سيدة "موظ".. ظن أنه يمازحني، حتى أنه رسم صورة لنفسه وهو برأس موظ يرتدي بذلة وأنا معه برأس "موظ" وأرتدي جيبة.
- هل يمكنني رؤيتها؟ أرجوكِ، هل أستطيع؟
- سأحتاج للبحث عنها أولًا. اسمع، عندما يخرج ويغيب لساعات، سنبحث عنها في غرفة الرسم.
عندما يكون زوجها في البيت، يحتاج الولد لوقتٍ أطول حتى يسترخي. يجلس على طرف كرسي المطبخ ويجيب على بعض الأسئلة المهذبة.
- كيف حال ركبتك يا "مايكل"؟ هل تؤلمك؟
- بخير يا سيدي، أشكرك.
- ألم يأت "ريتشي" معك اليوم أيضًا؟
- إنه مشغول جدًّا.
- لكن هل طلبت منه المجيء معك؟
- نعم، لكنه قال ربما في المرة القادمة.
بعد فترةٍ تدور الطاولة ويحين دور "مايكل" ليسأله أسئلة.
- تلك القصة التي أخبرتنا بها عن الهنود الذين دفنوا الذرة في "كورن هيل"، والأوروبيين الذي استخرجوه.. كيف لم يتعفن الذرة كل هذا الوقت؟
أو..
- كم لوحةً رسمت طوال حياتك حتى الآن؟ وكم واحدة رسمت هذا الصيف؟
أو..
- هل تمانع لو سألتك سؤالًا يا سيد "إيتش".. أعني سيدي؟
فيرد عليه:
- تفضل يا "مايكل".
- لو أن الخليج يحتوي على ماء البحر، والمحيط يبدأ عن بعد أربعة أميال من شاطئ "بالستون"، ولو أن منطقة "كيب" هي شبه جزيرة، وشبه الجزيرة عبارة عن جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات، إذًا أين حدود المحيط؟ وكيف تميزون حدوده من حدود البحر؟
بعد بضعة أسئلة من هذا النوع، يختفي زوجها. لو كانا في المطبخ، يذهب إلى غرفة الرسم. وقد يذهب إلى الخارج ويجلس على مقعده الخاص بوجهٍ بائس وهو ينظر نحو التل.
أحيانًا يسألها "مايكل":
- ماذا يفعل في الخارج؟ ماذا ينتظر؟
- ربما يتمنى أن يأتيه أحد الهنود ويعرض عليه توصيلة إلى نيويورك.
فتلمع عينا "مايكل" وهو يقول:
- نعمِ، على ظهر أحصنتهم!

عادةَ يظهر "مايكل" بعد خروج زوجها بقليل، وهي تحبه أن يفعل ذلك، وكأنه يشعر أنها أصبحت وحيدة وتحتاج إلى رفقة، تخيلته مختبئًا عند بوابة منزل "كابلان" في انتظار أن يرى الـ"بويك" وهي تبتعد، أو بين بعض الشجيرات على الشاطئ في انتظاره أن يخرج ليتمشى. لو غادر "مايكل" قبل عودة زوجها، لا تخبره بأنه كان هنا، قد تذكره على نحوٍ عابر لاحقًا أو في اليوم التالي وقد لا تذكره أبدًا. إنها تستمتع بالحفاظ على الأمر سرًّا لنفسها وهي تعلم أن "مايكل" يأتي إليها هي وليس لزوجها على سبيل التغيير.

يقول لها زوجها:

- الأشياء التي تخبرينها للولد...

- ماذا بها؟

- أنتِ تتحدثين معه وكأنه كبير.

- وهل تتوقع أن ألاغيه كالأطفال؟ إنه في العاشرة!

- ولا يجب أن تشجعيه على السخرية من آل "كابلان"، ولا أظنه يحتاج إلى معرفة تفاصيل ماضيكِ البائس.

- أنا فقط أحاول أن أشجعه على الكلام والحديث عن نفسه. أخبره شيئًا.. فيخبرني شيئًا، ولا أرى شيئًا بائسًا في الموضوع، لم أحكِ له إلا عن فيلم (Père et Fils) لكي يعلم أنه من الأفضل أحيانًا أن يكون الشخص يتيمًا.

- ألم يخطر ببالكِ أبدًا أنه طفل وأنتِ بالغة؟

- فهمت الآن.

- فهمتِ ماذا؟

- فهمت كل شيء.

- ما الذي فهمته؟

- أنت تغار.

- ماذا؟

- تغار.

- لو تفوهتِ بهذه التفاهات...

- أنت تغار لأنه للمرة الأولى في حياتي يوجد شخص يحبني أكثر مما يحبك.

- هل يجب أن تجعلي من كل شيء منافسة؟

- تغار.

- قولي ما يحلو لكِ.

- أنت غيران، هذه هي الحقيقة.

- سأخرج لأتمشى.

هتفت به:

- الولد يرى شيئًا بي، أما أنت فمجرد بالغ لا يثق به. أنت غيران، غيران، غيران.

عندما يأتي "مايكل"، يجلس على الأرض مثل الهنود ويرفع وجهه إليها وهي تجلس على "الشيزلونج"، ثم تقرأ له وبعدها تعطيه الكتاب لكي يقرأ هو بصوتٍ عالٍ. تقول:

- أبطأ يا "مايكل" بالله عليك، أنت تقرأ كتابًا لـ"روبرت فروست". أظهر بعض الاحترام، عندما تقرأ قصيدة يجب أن تفهم أن كل كلمة لها أهميتها.
لو أنها مشغولة في المطبخ، يجلس حول الطاولة ويشاهدها بينما تتحرك في الأرجاء، لو أنه يعد الشاي، يخرجان لشربه في الخارج ويجلسان بجوار بعضهما على السلم. تجعله يضحك حتى يطوح رأسه للخلف بشدة. وعندما يفرح حقًا، يركل بساقيه الطويلتين في العشب.
ذات مرة أخذته إلى غرفة الرسم وقلبت صفحات السجل الذي يضم أعمال زوجها، أرته النماذج الأولية لكل رسومات زوجها والملحوظات المصاحبة لها، وقالت:
- هذا سجل بجميع أعماله.. إنه قيم جدًّا، يجب أن نتعامل معه بحرص.
أخبرته بمراحل تطور كل لوحة وكيف خرجت إلى النور، فردت ذراعيها لتوضح له الأحجام، وفتحت أغطية الألوان لتريه ملمسها، رفع نفسه على الكرسي بركبتيه واستند بمرفقيه على الطاولة وهو يحيط وجهه بيديه والانبهار واضح في عينيه.
وفي يوم آخر أخذته للتمشية، وجمعا أزهارًا صفراء كثيرة، وضعت زهريتين على طاولة المطبخ وبدأت ترسم. تحدثت معه مع كل ضربة بالفرشاة لتشرح له تأثير الظل والنور على كل ورقة، ثم أعطته الفرشاة وقالت:
- حان دورك لترسم.
أخذ "مايكل" الفرشاة ونظر إليها بقلق، قالت له:
- ابدأ من أي نقطة تعجبك.. ماذا عن هذه الزهرة؟ هل ترى عودها الطويل ومنحنياته؟
عض على شفته ورسم خطًّا منحنيًا أخضر اللون على ورقته.
صفقت وقالت:
- سوف أجعلك فنانًا يا "مايكل". هيا، ارسم واحدًا آخر.
ناولها "مايكل" الفرشاة وقال:
- لا أريد.
- لكن لم لا؟ لقد بدأت جيدًا.
- هذا فقط لأنكِ علمتني ماذا أفعل.
- جميعنا نحتاج إرشادات من غيرنا.
- السيد "إيتش" لا يحتاج.
أحيانًا يذهبان للتمشية في الطبيعة، بين الكثبان الرملية أو عند المستنقع أو بين أشجار الصنوبر. أحبت أن تُري ابن المدينة هذا الحياة البرية، أرادت أن تعلمه الاستماع إلى الطبيعة وأصواتها المخفية وراء الصمت الظاهري. قالت:
- "مايكل"، هل أخبرك أحد أن لديك ذاكرة بصرية مدهشة؟
- لا، هل هذا شيءٌ جيد أم سيئ؟
- حسنًا، دعني أوضح لك.. لن يستطيع أي شخص أن يخدعك ويجعلك تضل طريقك، لأنك ستتذكر مكان كل ورقة شجر وكل فرع حتى تعود إلى البيت، لن تحتاج إلى فتات الخبز مثل "هانزل" و"جريتل".
قال:
- كنت أعرف فتاة اسمها "جريتل".

- من هي؟
- لا أعرف، لكن تذكرت اسمها هذه اللحظة عندما قلته.
بعد إحدى هذه النزهات، تكور على "الشيزلونج" ونام. أما هي فوقفت عند الباب تراقبه، جاءها ذلك الشعور مجددًا.. شعور بين صدرها وضلوعها، وكأن قلبها يتأرجح بين ثانية فرح وثانيتين حزن، عندها أدركت ماهية هذا الشعور.. إنها الوحدة تخرج منها ويدخل مكانها حب.
أخذت نموذج البيت الذي صنعه زوجها ووضعته على الطاولة.
- لقد صنع هذا النموذج من أجل لوحة العام الماضي، إنه نموذج عن بيتٍ حقيقي، أليس جميلًا؟ إنه بارعٌ في الأشغال اليدوية، هل تعلم لماذا صنعه؟ لكيلا يضطر للعودة إلى المنزل الأصلي. يمكنه استخدام النموذج لدراسة الظل والنور عليه.
قال "مايكل" وهو ينظر داخل النموذج:
- أي نور؟ لا أرى نورًا.
- أقصد نور الشمس وتأثيره على الظلال حين يسقط على المنزل. هل ترى كيف يسقط هنا وهنا وهنا؟
- نعم، نعم بالفعل.
أخرجت بضع حافظات أسطوانية تضم رسومات أولية قديمة وفردتها على الطاولة وقالت:
- هذه رسومات أولية أخذها لأماكن في "كيب"، لنرى إن كنت ستتعرف عليها.
أشار "مايكل" على أول واحدة وقال:
- هذا المكان بجانب "باميت" مباشرةً.
- نعم، صحيح! ماذا عن هذا؟
- إنه الكلب الذي يشبه "باستر"! من يعيش هنا؟
- لا أعرف، لا أحد على الأرجح.
- ماذا عن هذا؟ إلام يقود هذا الطريق؟
- للاشيء.
- لا شيء؟ لكن يجب أن يقود لمكانٍ ما!
- ألا يمكنه الامتداد وحسب؟
- لا، لا! يجب أن يتوقف في النهاية.
- ما الأمر يا "مايكل"؟
- أنا فقط أريد أن أعرف أين يتوقف، أريد فقط أن.. أن...
- لا بأس إذًا.. إنه ينتهي عند مستنقع أو مكب نفايات.
- أيهما؟ مستنقع أم مكب نفايات؟
- مستنقع.. إنه ينتهي عند مستنقع.
قال "مايكل" بارتياحٍ واضح:
- حسنًا، جيد. ماذا عن ذلك البيت هناك؟ انظري إلى هذا الرسم. من ذلك الرجل وتلك المرأة في البلكون؟
- لقد اخترعهما.
- هل تعنين أنهما غير موجودين في الواقع؟

- هذا ما يفعله الفنانون يا "مايكل".. نخترع الأشياء.
- تقصدين أنكم تكذبون؟
- بشكلٍ ما، نعم. هيا الآن.. من الأفضل أن ننظف المكان قبل عودته.
- لكنكِ لم تريني الرسومات الأولية الخاصة بنموذج البيت؟ أريد أن أعرف كيف رسمه، هل يمكن أراها أولًا؟ أرجوكِ؟
وجدت الحافظة الأسطوانية وفردت الرسومات الأولية وشاهدت "مايكل" وهو يفحص الألوان بتمعن ويدقق في صورة المرأة بالذات.
قالت:
- هذه أنا، إنه يستخدمني كعارضة دائمًا.
- إنها لا تشبهكِ.
- لقد جعلني أطول بكثير، إنه يغير بعض التفاصيل كما ترى و...
- إنها تشبه "كاثرين" أكثر.
- "كاثرين"؟ من "كاثرين"؟ هل تعني "كاثرين كابلان"؟ لا أظن.
- بل هي كذلك.
- دعني أرى.
أخذت رسمة للرأس والكتفين وفحصتها ثم قالت:
- لا أرى التشابه، أخشى أنني أخالفك الرأي. لا يوجد شبه.. حتى نظام التلوين لا يناسبها.. أبدًا. كيف يمكن أن تكون هي أصلًا؟ نحن لم نعرفها إلا هذه السنة.
بدأت تتصفح باقي الرسومات وقالت:
- للأسف أنت مخطئ هذه المرة يا "مايكل"، مخطئ تمامًا.
نظر الولد إليها بطرف عينه وقال:
- حسنًا، لا أعرف سبب غضبكِ.
- من قال إنني غاضبة؟
- ألستِ كذلك؟
- بالطبع لا. لماذا سأغضب؟ أنت مخطئ، هذا كل شيء. هيا، يجب أن نعيد كل شيء كما كان قبل أن يعود ويكتشف أننا عبثنا بها.
أخذت نموذج البيت وأعادته إلى الرف العلوي.
قال لها:
- ادفعيه للخلف قليلًا، ادفعيه بوصة أخرى من هذا الجانب. لا.. لا، ليس هكذا، ادفعيه أكثر. وهذا الكتاب بجانبه، أديريه لليمين قليلًا، هكذا.. هكذا كان بالضبط.
ناولها الرسومات الأولية الملفوفة وأرشدها لتعيدها إلى مكانها بالضبط. قال:
- حسنًا، كلامكِ معناه أنها لا يمكن أن تكون "كاثرين" إذًا، ربما كنت أفكر في البيت الذي كانت تعيش فيه من قبل، كان له مثل هذه النوافذ الغريبة في الغرفة العلوية، لهذا فكرت بها عندما رأيت نموذج البيت المشابه له.
- أين كان؟
- نسيت، لقد رأيته في صورة.

اعتدل فجأة ونزل من على الكرسي وهو يقول:
- هل تسمعين هذا؟ بسرعة يا سيدة "إيتش"، أظنني سمعته.. إنه قادم.
ذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الخارج وقالت:
- لا يوجد شيء في الخارج.
ثم فجأة ظهرت الـ"بويك".
بما أنه قارب على الانتهاء من لوحة "أورلينز" ولم يبدأ في لوحةٍ جديدة، عاد زوجها يتجول بالسيارة مجددًا.
ذات ظهيرة رآه "مايكل" يأخذ مفاتيحه وقال:
- إلى أين تذهب؟
- في جولة بالسيارة، هل تريد القدوم؟
- وماذا عن السيدة "إيتش"؟
- وسيدة "إيتش" ستأتي أيضًا.
جلس "مايكل" في الأمام بينهما. وضع يديه تحت ركبتيه، وجلس على طرف الكرسي لتطول قدميه أرضية السيارة وينقر عليها، نظر إلى كلٍ منهما ثم نظر من النافذة، ثم عاد ينظر إليهما بسعادة لا يستطيع إخفاءها.
- لماذا لم أرك تقود الـ"بويك" في نيويورك؟
- لأنني أتركها في "نياك".
- أين هذه؟
- ليست بعيدة جدًّا، عن بعد ثلاثين ميلًا تقريبًا. أتركها هناك في الشتاء.
- ألا تفتقدها؟
أجابت هي:
- بالتأكيد، يفتقدها مثلما يفتقد راعي البقر حصانه.
- أين تتركها؟
- عند البيت الذي نشأت فيه.
- البيت؟
- هذا صحيح، البيت؟
- هل تعني أنك كبرت في بيتٍ كبير؟
- هذا صحيح.
قالت هي:
- بيت جميل جدًّا، لو نظرت من النافذة سترى نهر "هادسون".
- لماذا لم تعد تعيش هنا؟
- أفضل العيش في نيويورك. وعلى كل حال، تعيش أختي في نيويورك.
- لكن ما دمت تعيش في بيتٍ كامل فهذا يعني أنه به غرف للجميع، صحيح؟
- لا تتعلق المسألة دائمًا بعدد الغرف يا "مايكل".
- هل فيه حديقة أمامية؟
أجابته:

- أمامية وخلفية.
قال "مايكل" وهو يبتسم لها:
- ليتني أراه.
لو لم يكن زوجها معهما.. لوعدته بأخذه إلى هناك يومًا ما، لو لم يكن هنا.. لحددت موعدًا لأخذه.
قالت:
- عليك أن تعبر جسرًا كبيرًا للوصول إلى هناك يا "مايكل"، وأنت أخبرتني أنك لا تحب الجسور.
- يمكنني أن أغمض عينيَّ بقوة في أثناء العبور، اعتدت أن أفعل هذا مع "فينس" و"هاري". وعلى كل حال، لا أظنني سأخاف كثيرًا لو كنتما معي، يمكنني أن أجلس بينكما مثل الآن.
سمع صوت أضواء انتظار السيارة، ووجد الـ"بويك" تنعطف عند بيت "كابلان" فنظر إليها بقلق.
قالت لزوجها:
- لا يمكنك أن تفعل هذا.
- لم لا؟
- لقد دعوته للقدوم معنا بالفعل.
- وهو سيأتي معنا.
توقف خلف سيارة السيدة "كابلان" وقال:
- لقد فكرت فقط في أن "ريتشي" قد يحب القدوم معنا أيضًا، أنا واثق أن "مايكل" لن يمانع أن يدخل البيت ليدعوه.
استدار إلى "مايكل" وقال:
- لم لا تذهب وتخبر والدته أو جدته أو...
اقترح "مايكل":
- أو "كاثرين"؟
- نعم، أخبر أحد الكبار أنك وهو مدعوان للقدوم معنا إلى "بروفينستاون".
سألته وهي تشاهد "مايكل" يجري إلى البيت:
- هل نحن ذاهبون إلى هناك؟ هل تخطط لشيءٍ ما؟ ظننتك تريد إنهاء لوحة "أورلينز" أولًا.
- يمكنها أن تنتظر بضعة أيام، لا ينقصها إلى السماء.
- هل راودتك فكرة جديدة؟
- لا أعرف، هناك بيت بالقرب من النصب التذكاري أود إلقاء نظرة عليه.. بالأخص النافذة، يمكننا لاحقًا أن نعزم الولدين على صودا أو أيس كريم أو أيًّا كان ما يحبه الأولاد هذه الأيام.
استرخيا تحت شمس الظهيرة في أثناء الانتظار، أسند زوجها مرفقه على النافذة، ومالت هي خارج النافذة.
أخيرًا قالت:
ما زلت أقول إنه لو أراد "ريتشي" رؤيتنا لجاء مع "مايكل".
- هذا يعتمد على عدة أشياء.
- مثل ماذا؟
- مثل أن يكون "مايكل" أخبره بقدومه أم لا.
- أنا متأكدةٍ أنه لم يتسلل خلسة من تلقاء نفسه.

- فعلًا، فعلًا. لكن على كل حال، لا أريد أن أترك الفتى "كابلان" خارج الحسبان.
عاد "مايكل" ومعه "ريتشي" بوجهٍ مشرق وسعيد، ذهب "مايكل" مباشرةً إلى باب الراكب وجلس بينهما، لكن زوجها مد يده وفتح الباب والخلفي وهو يقول:
- هيا اركبا أيها الولدان.
بدا واضحًا أنه يتوقع من "مايكل" الجلوس في الخلف، فنظرت إليه وهو يتحرك للمقعد الخلفي وأومأت له بطمأنينة.
بعدها ظهرت "أوليفيا"، وقفت عن بعد مسافةٍ منهم وهي تمسك بطوق الكلب، كانت ترتدي شورت بحر وبلوزة بلا أكمام، وشعرها ملفوف فوق شعرها مثل الدودة. وقفت وهي تميل بجسدها.
قال زوجها:
- سنصطحب الولدين لساعتين، هل لديكِ مانع؟
ضحكت "أوليفيا" بابتسامةٍ معسولة وهزت كتفيها وهي تقول:
- خذهما كما يحلو لك.
أدار زوجها السيارة وعاد بها للخلف ليخرج من الممر الخاص بالبيت، نظرت هي إلى ساقيها وأدارتهما قليلًا ثم رفعت حافة جيبتها بخبث. أسعدها أن تلاحظ بأن ساقي "أوليفيا" قد تكونان أكثر شبابًا وطولًا وسمرة من ساقيها، لكنهما بالتأكيد ليسا أجمل من ساقيها بأي حال من الأحوال.
وصلوا "بروفينستاون"، سار "ريتشي" مع زوجها في المقدمة بينما سارت هي مع "مايكل" خلفهما، بدا أن "ريتشي" هو من يتحدث طوال الوقت.. وهذا متوقع، لكنها لا تضمن أن زوجها يستمع له بانتباه. حتى أنه توقف عن السير لبعض ثوان بينما يشرح له "ريتشي" شيئًا بكل حماس، ثم تحركا مجددًا بين سيارات المرور، فتركا مسافة أكبر بينهما وبينها هي و"مايكل".
وقفوا على رصيف شارع "برادفورد"، وانتظروا أن تتوقف الحافلة القادمة ويشير لهما السائق بالعبور، أمسك "مايكل" يدها وهما يعبران الشارع، لم تمسك يد طفل منذ كانت مدرِّسة، وحتى عندها كانوا أطفالًا صغارًا جدًّا وخائفين وهم معها، عدا ذلك لم تمسك يد أي شخص باستثناء يد السيدة "سالتز"، وقريبًا ستنسى ذلك بسبب الشيخوخة.
كانت غريزتها الأولى هي أن تنفض يد "مايكل"، لكنها تمكنت من أن تتمسك بها حتى اعتادت ذلك الشعور وهما يسيران تحت الأشجار وبجوار البيوت البيضاء، بدأ الأمر يصبح طبيعيًّا. قالت:
- مكثت في فندقٍ صغير هنا ذات صيف، مع والدتي و"آرثر"، كانت من أحلى الإجازات في حياتي، كان اسمه "جنجربريد هاوس"، وبالطبع...
سألها "مايكل":
- لماذا لم أركِ في نيويورك من قبل؟
تفاجأت من مقاطعته للحظةٍ ثم قالت:
- لا أعرف، إنها مدينة كبيرة كما تعلم.
- ليس إلى هذه الدرجة، خاصةً ونحن نعيش في الجهة نفسها.
- يبدو الأمر غريبًا حين تقوله هكذا، ربما مررنا ببعضنا دون أن نلاحظ.
جعد أنفه وقال باعتراض:
- أظن أنني كنت سألاحظكِ.
أضاف وهو يشير إلى زوجها الذي أصبح على مسافةٍ بعيدة منهما:

- وبالتأكيد كنت سألاحظه.
قالت وهي تضحك:
- من الصعب ألا تلاحظ شخصًا مثله.
وضع زوجها يده على كتف "ريتشي" وهما يعبران الشارع، وتوقفا عند سور الكنيسة.
سألها "مايكل":
- هل يمكن أن آتي لزيارتكِ بعدما نعود إلى نيويورك؟ يمكنني قضاء الليل عندكما إذا كانت الشقة التي استأجرها "هاري" بعيدة، وهكذا لن أقلق من العودة متأخرًا، لا أمانع النوم على الأرض أيضًا، أستطيع أن أحضر بطانيتي معي، يمكنني مساعدتكِ في إعداد الشاي وإحضار البقالة، وربما نزور أيضًا ذلك البيت في "نياك"...
لمحت رأس "ريتشي" محنية ورأت زوجها يخرج منديله من جيبه ويناوله له.
قالت:
- عذرًا يا "مايكل"، ماذا كنت تقول؟
تمتم:
- لا شيء.
ثم سحب يده من يدها ووضعها في جيبه.
في أثناء عودتهما إلى جراج السيارات، توقفا عند مطعم "مارتيز دينر"، سألت زوجها في أثناء انتظارهم عند "الكاونتر" حتى يقودهم النادل إلى مقاعدهم:
- هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟
لوى شفتيه دون إجابة.
عندما جلسوا لاحظت أن عيني "ريتشي" حمراء، فسألته:
- هل أزعجك شيء يا "ريتشي"؟
أخذ زوجها قائمة الطعام من النادل ومررها إلى الولدين وهو يقول:
- لقد طرفت ذبابة عينه.. هذا كل شيء، صحيح يا "ريتشي"؟
أومأ "ريتشي" وأخفى وجهه خلف القائمة.
بعد بضعة أيام من عودتهم من "بروفينستاون" كان "مايكل" يساعدها في جمع الحشائش الضارة من حديقة البيت.
نظرت إلى الكيس الكبير الذي جمع فيه الحشائش وقالت:
- أحسنت يا صغيري العزيز.
سألها:
- لماذا تقولين هذا؟ لماذا تناديني "صغيري العزيز"؟
- لأنني أحبك.
- لماذا تحبينني؟
- لأنك تزورني، وتضحك على دعاباتي البسيطة، وتساعدني في عمل الأشياء التي لا أحب عملها؛ مثل جمع الحشائش، ولأننا أصدقاء.. صحيح؟
ابتسم وقال:
- نعم.

- لدينا أمور مشتركة كثيرة.
- نحن نحب القطط.
- صحيح.
- ونحب الشاي!
- صحيح أيضًا.
- ومبنى الأمم المتحدة، ربما نذهب ونراه معًا يومًا ما، عندما ينتهون من بنائه وتركيب نوافذه وكل شيء.
- حسنًا، سنرى بهذا الشأن. أخبرني، ما المشترك بيننا أيضًا؟
فكر قليلًا ثم قال:
- كلانا لا يحب "ريتشي".
توقفت عن جمع الحشائش وجلست على كعبيها وقالت:
- ما هذا الكلام الغريب! بالطبع نحب "ريتشي".
- لا، لا نحبه.
- تحدث عن نفسك فقط، لكن لا يحق لك أن تحكم على الناس بما يحبونه ولا يحبونه.
- لم لا إن كانت الحقيقة؟
- ولماذا تظن أنني لا أحبه؟
- لأنه يبكي دائمًا ويجري إلى أمه ليشي بالآخرين.
- لا أعرف بهذا الشأن، ولا أعرف ماذا حدث لك أيضًا لكي تقول ما قلت، لا يمكنك أن تعرف من أحب ومن لا أحب.
احمر وجهه وبدا مجروحًا، ثم تمتم:
- لم تريديه أن يأتي معنا إلى "بروفينستاون" ذلك اليوم.
- هذا ليس صحيحًا يا "مايكل"، أنا فقط لم أرد إجباره على القدوم. في الواقع، كنت سأطلب منك دعوته على الشاي ظهر الغد.
- لماذا؟
- ماذا تعني؟ لماذا قد يدعو أي شخص أحدًا إلى منزله؟ أريده أن يعرف أنه مرحبٌ به، سأكتب رسالة صغيرة ويمكنك أن تعطيها له لاحقًا، أتمنى أن أراكما غدًا في الرابعة ظهرًا.
- أنتِ لا ترسلين رسالةً لي كل يوم لكي آتي، لم لا نعد له الشاي إن جاء من تلقاء نفسه؟
- أعني حفل شاي وليس مجرد كوب شاي، سنجلس جلسة لطيفة ونتناول الكيك ونحن نتحدث، لم نقم حفل شاي منذ فترة طويلة.
- حسنًا، سأسأله وسأعطيه الرسالة أيضًا إن أردتِ، لكنني أعرف أنكِ لا تحبينه.
قالت:
- هذا هراء!
ثم نهضت وحملت أكياس الحشائش ووضعتها جانب البيت، ثم دخلت الحمام وغسلت وجهها ويديها.
عادت بعد بضع دقائق ومعها الرسالة، لكن "مايكل" كان قد غادر بالفعل.
لم يأتِ "مايكل" أو "ريتشي" في اليوم التالي، لم يأتِ "مايكل" في اليوم اللاحق أيضًا، في النهاية أخبرت زوجها عما حدث.

سألته وهما ينهيان فطيرة التفاح التي أعدتها لحفل الشاي:
- هل عليَّ أن أذهب لأرى ما إذا كان بخير؟
- أظنكِ يجب أن تتركي الموضوع وشأنه، سيعود في الوقت الذي يناسبه.
- لا أفهم ما المشكلة، نحن لم نتشاجر مثلًا.. لقد أخبرته فقط أن...
- ماذا أخبرته؟
- أظنني أزعجته عندما وبخته على ما قاله عن "ريتشي"، أعني أنني ما كنت لأسمح له بالتحدث هكذا، ما رأيك؟
- أظنه ولدًا صغيرًا يعاملك وكأنكِ نظير له، أظنه أيضًا مختلفًا عن معظم الأولاد في مثل عمره. لو أردتِ، يمكنني أن أتصل به غدًا وأطمئن عليه.
- حقًّا؟ انتظر حتى ظهيرة الغد، ربما جاء في الصباح، أخبره.. أخبره.. لا أعرف حتى ماذا يمكنك أن تخبره حقًّا.
- لا تقلقي، سأفكر في شيءٍ ما.
في الصباح التالي وجدت "مايكل" على الشاطئ منحنيًا على بركة ضحلة، كان يلعب بالحصى والقواقع، كان الحصى مكومًا إلى جانبه وكأنها سور أيرلندي مصغر، بينما يجهز كومة أخرى يضيفها إليه. اقتربت منه ولاحظت أنه يعد الحصى وهو يشير إلى كل واحدة، ثم يتوقف ويعد مجموعة أخرى. استدار "مايكل" إلى الناحية الأخرى وبدا مستغرقًا تمامًا في مهمته، لم يلحظها عندما جاءت من خلفه، وهذا أدهشها لأنه يقظ دائمًا، لم ترَ وجهه لكنها سمعته يعد بصوتٍ عالٍ، لاحظت أن نبرته تبدو غريبة، ثم أدركت أنه لا يعد بالإنجليزية.
قالت:
- أهلًا يا "مايكل".
رفع رأسه فتفاجأ وشعر بالخجل وكأنها ضبطته يفعل شيئًا محرجًا، قررت ألا تذكر شيئًا عن خلافهما أول أمس أو عدم حضوره على حفل الشاي.
- يا لها من مجموعة حصى جميلة! هل ستبني بها شيئًا؟ ربما بيتًا أو حصنًا؟
هز كتفيه ثم جلس على ركبتيه وأمسك ذراعه اليسرى بيده اليمنى وظل ينظر إلى سور الحصى.
سألته:
- ما اللغة التي كنت تعد بها؟
لم يرد، بل بدأ يفرك ذراعه وينظر إلى مجموعة الحصى.
- أتعلم؟ أحيانًا يعد زوجي بالفرنسية عندما يكون منزعجًا، ذات مرة كنا في جنازة صديقة عزيزة لنا، كان الجميع يبكون حتى الرجال، أما هو فكان يهمس لنفسه الأرقام بالفرنسية (un, deux, trois...).
لا أعرف ماذا كان يعد.. ربما بلاط الأرضية، تمنيت فقط أن يظن الناس أنه يصلي.
- لست منزعجًا، ولم أكن أعد بالفرنسية.
- أظنها كانت الألمانية إذًا؟
انتظرت رده لكنه لم يقل شيئًا.
- لا بأس، هذا ليس من شأني على أي حال.
هز كتفيه مجددًا وقال:
- لا أعرف.

- ماذا؟ ألا تعرف إن كنت تعد بالألمانية؟
- أعني أن هذا يحدث أحيانًا.
- يا لها من هبةٍ رائعة أن تكون قادرًا على تحدث لغة إضافية! هذا يساعد الشخص على رؤية العالم من منظورٍ مختلف.
- من؟
- عذرًا؟
- دائمًا تقولين "يشعر الشخص بكذا" و"يعرف الشخص كذا"، لكن لا أعرف عمن تتحدثين؟
- أنت تفهم قصدي.. إنها كلمة عامة، قد تقصدك أنت أو أي شخص.
- هذا غريب، فخالتي تقول إن الناس لا يحبون سماع الألمانية، لذلك لا أفهم قصدكِ.
بدا غاضبًا، إما منها أو من خالته.. ليست واثقة، قالت:
- قد تكون خالتك محقة، لم يمضِ على الحرب سوى سنوات قليلة، لكن أعترف أنني شخصيًّا لا أمانع سماعها. فعلى كل حال، اليهود الألمان كانوا يتحدثون بها. أليس كذلك؟ وما زالوا على ما أظن.
- كيف لي أن أعرف؟
- ما أقوله هو أنه من الجنون أن نعاقب لغة بأكملها!
- لكن ليس الجميع مثلكِ يا سيدة "إيتش"، صحيح؟
- لا أظنهم كذلك.
بدأ الولد يحك ذراعه بقوةٍ بأظافره، وقال:
- إنها ليست خالتي الحقيقية.. أنا مُتبنى.
- نعم، أعرف هذا.
- ستلدُ، هل تعرفين هذا أيضًا؟
- لا، لم أكن أعرف في الواقع، وكيف سأعلم أصلًا؟
- لم يخبراني بالأمر، كانا مشغولين جدًّا بالتفكير في كيفية التخلص مني.
أبعدت يده عن ذراعه وقالت:
- توقف يا "مايكل" وإلا ستؤذي نفسك، أنا واثقة بأن الأمر ليس كذلك.. على الأرجح يريدان مفاجأتك فقط، عندما تعود سيكون لديك أخ أو أخت صغيرة، ما أجمل هذا!
نظر إليها بغضبٍ وقال:
- هذا ليس منطقيًّا حتى، أخبرتكِ أنني متبنى.
ثم وقف وابتعد عن البركة وذهب إلى الرمال الناعمة، نزل على ركبتيه وبدأ يغرز يديه في الرمل، تبعته وجلست بجانبه.
جلسا بصمتٍ وهما ينظران إلى الخليج والقوارب واليخوت.
قالت:
- وكأنه ميدان "يونيون سكوير" لكن في البحر، هناك الكثير من القوارب. منذ الحرب، أصبح المكان يزدحم في هذا الوقت من السنة حتى يصعب عليك رؤية المياه، من يملك كل هذا في رأيك؟ انظر إلى هذا اليخت الضخم! وكأنه فندق "ريتز"! يقولون إنه ملك وريثة عائلة "وول ورث"، أتمنى أن يجعلها سعيدة.
غرز "مايكل" أصابع قدميه في الرمال ولم يقل شيئًا.

- هل أنت واثق من موضوع الطفل؟
- أنا واثق! اسألي والدة "ريتشي" إن كنتِ لا تصدقينني.. إنها تعرف. سمعتها تحكي الموضوع لصديقتها المطربة ذات الوجه الممتلئ، ذلك اليوم في "أورلينز" عند بيت السيدة الإنجليزية.
- سمعتها تقول هذا؟
- نعم، لكنني كنت أعرف بالفعل، يظنان أنني لا أسمع شيئًا في تلك الشقة، لكنني أفعل. في الليل عندما يظناني نائمًا أسمع كلامًا كثيرًا.
- بعض الناس قد يتصرفون بسخافة في هذه الأمور، يفضلون الانتظار قليلًا قبل إخبار أحد. ما رأيك في القدوم للبيت معي قليلًا يا "مايكل"؟ يمكننا أن نشرب الشاي بينما نتحدث عن الأمر.
- لا أستطيع، عليَّ الذهاب للحلاق من أجل الحفل يوم السبت، وكأن الرئيس سيزورنا مثلًا.
- من معرفتي للسيدة "كابلان"، لن أندهش أبدًا لو كان صحيحًا.
هب بعض النسيم وحرك شعر "مايكل"، فقالت:
- أظنك تحتاج حقًا إلى قص شعرك، لقد ازداد طوله كثيرًا.
مدت يدها لتلمسه لكن "مايكل" ابتعد عن يدها.
- اعتدت على تدريس الأولاد الصغار، لكن كان هذا منذ زمنٍ طويل بالطبع.
- لم أكن أعرف.
- في نيويورك.
- أين بالضبط في نيويورك؟
- في مدارس مختلفة، درست للأولاد المرضى لبعض الوقت.. وأقصد الأولاد المرضى بشدة الذين لن يتعافوا تمامًا أبدًا، كما عملت في دار للأيتام اليهود أيضًا، ما أحاول قوله هو أنه إن كنت بحاجةٍ إلى الكلام...
- هل تظنين أنني يهودي؟
- لا أعرف.
- هناك فتى في مدرستي اسمه "جيري نيوبورت"، أراني صورة لليهود الخارجين من تلك المعسكرات. هل تظنين أن هذا ما حدث لوالديَّ؟
- لا أعرف.. ربما. اسمع، لقد ذكرت فقط موضوع المدرسة اليهودية لأنني عملت فيها بالتدريس، ومعظم الأولاد كانوا أيتامًا، كان هذا قبل الحرب، لذلك لا علاقة له بأي شيء، كنت أحاول فقط أن أقول إنني ربما أستطيع أن أفهم وضعك...
قاطعها "مايكل" قائلًا:
- عذرًا، لكنني لست يهوديًّا، أنا متأكد.. أبي كان جنديًّا ومات في الحرب.
- وما أدراك؟
- لا أعلم، أنا أعرف وحسب.
نهض ونفض الرمال عنه ثم بدأ يسير بعيدًا عنها.
سار بضع أمتار ثم بدأ يركض وهو يقول:
- أراكِ غدًا يا سيدة "إيتش"!
هتفت بصوتٍ عالٍ:
- أراك غدًا يا "مايكل".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

نهض مبكرًا ليقرأ، معظم الأيام يستيقظ قبل زوجته بساعة، لو ظلت نائمة بعد هذه الساعة سيبدأ عمله، ولو صادف أن مزاجه لا يناسب العمل سيترك الكتاب ويخرج ليتمشى ويغلق الباب خلفه.
عندما يقرأ، يفتح النافذة لكي يدخل هواء الصباح، يجلس في كرسيه ويسند ساقيه على "الشيزلونج" بينما يضع إبريق القهوة بالقرب منه، ثم يفتح كتابه.. ما يحبه في القراءة هي أنها تسمح له بدخول حياة أشخاص آخرين، وكأنه حشرة متطفلة تدخل بيوت الناس خلسة، وللسبب نفسه يحب مشاهدة الأفلام.
عادةً تبدأ زوجته الكلام بمجرد أن توشك على الاستيقاظ، تمنى ألا يحدث هذا اليوم.. أحيانًا تبدأ الكلام قبل أن تفتح عينيها حتى.
قد تقول شيئًا مثل:
- ما حال الجو اليوم؟
أو..
- لقد حلمت حلمًا غريبًا جدًّا بالأمس.
على مدى الأيام القليلة الماضية، كانت أول ما تنطقه دائمًا سؤال، السؤال نفسه:
- هل تظن أننا سنتلقى أي أخبار من نيويورك اليوم؟
عادةً يجيبها من المطبخ أو غرفة الرسم أو باب غرفة النوم، يقول:
- يبدو أن اليوم سيكون حاله كالأمس.
أو
- من الطبيعي أن تكون الأحلام غريبة.
لكن في الأيام الماضية، كان يرد بالجواب نفسه:
- من الصعب أن نتواصل مع أي شخص في نيويورك في هذا الوقت من العام، على الأرجح أن صاحب المعرض قد أغلقه مؤقتًا وسافر في إجازة.
عندما يقرأ في ساعة العزلة الخاصة به، يشعر بالهدوء والسلام، وكأن الزمن يتوقف من حوله، حتى ألم أمعائه يختفي ويشعر بالرضا، فقط عندما يغير جلسته أو مد يده ليملأ كوب القهوة يسقط نور الشمس على عينه.. عندها يلاحظ آخر بقعة من الشمس منعكسة على سقف الغرفة، كلما نظر للأعلى لاحظ أن شكل البقعة قد اختلف، تتدرج حدة الضوء من خط أصفر فاقع على الأرض إلى شعاع أبيض شاحب ممتد عبر الباب المفتوح، ويدرك أن الأرض تدور والزمن يمر لينهي اليوم، حتى في الصباح الباكر.
تذكر "هاري ستيرنر". إنه رجلٌ سكران اعتاد أن يمر على محل والده من وقتٍ لآخر، كان "هاري" يقول: "الشيء الوحيد الذي أفتقده في السكر هو عدم شعوري بالوقت"، قد يمر يومٌ كامل دون وعي بمجرد أن يدخل إلى أي بار ويسلم نفسه لزجاجة.
جرب هذا الشعور بنفسه من قبل، ليس من خلال البيرة بل من خلال عمله، وبعض اللوحات بالذات أكثر من غيرها، عادةً يأتيه على دفعات سريعة الزوال؛ يتبدد سلامه النفسي في اللحظة التي يبتعد فيها عن قماش اللوحة، فيما عدا ذلك الصيف المطير الذي قرر فيه أن يتقبل الهزيمة ويوقف بحثه عن موضوع للرسم ويترك فرشاته، عندها اتجه لأعمال البيت؛ صنع أشياء مثل مقاعد وكراسي للحديقة،

أصلح إطارات النوافذ والألواح الخشبية، دهن الجدران من الخارج، أصلح وغيَّر كل ما يحتاج إلى إصلاح أو تغيير، شعر بالراحة من العمل والإنجاز، كان يعرف الشكل النهائي لما يقوم به قبل حتى أن يبدأه، ويعرف أن النتيجة ستكون مرضية، سلَّم نفسه تمامًا لكل مهمة يقوم بها. مضت الأيام دون أن يشعر بها، توقف الزمن، كانت أحلى شهور حياته الزوجية، أو أكثرها هدوءًا على كل حال.
قال لنفسه أكثر من مرة في ذلك الصيف: "كان يجب أن أصبح نجارًا، كان يجب أن أصبح حِرفيًّا وليس فنانًا".
في بداية هذا الصيف، كان يقرأ فقط أعمالًا للفرنسي "ميشيل دي مونتين"، من النسخة القديمة التي كانت ملكًا لوالده، لكنه تخلى عن هذا الآن.. لا يهم كم يفتقد "مونتين" كصديقٍ عزيز، لا يهم كم يهدأ حين يقرأ مقالاته! كثيرًا ما كان يستقر على فكرةٍ للوحته بعدما يمضي ساعة في قراءة أعماله، كم يرغب في قراءة مقالاته الآن ليتذكر ماذا يقول هذا الرجل النبيل عن الزمن، لكنه يخشى أن يتذكر والده أيضًا. في البداية كان يظن أن هذا تأثير المقالات التي كتبها "مونتين" حزنًا لوفاة والده، لكنه سرعان ما أدرك أن الكتاب نفسه باسم والده المنقوش على الورقة الأولى بحروف صغيرة وبحبرٍ تغير لونه مع الزمن هو السبب، كل ما عليه فعله هو الإمساك بالكتاب بين يديك، ثم يسود العالم في نظره ويبدأ بالندم على حياة والده، ما عاشه منها وما لم يعشه. أفكار الشفقة والألم تعصف بعقله لباقي اليوم، "أبي المسكين، أبي العجوز المسكين، مسكين يا أبي!". كان عجوزًا مسكينًا يقرأ "مونتين" خلف "الكاونتر" وكأنه تلميذ أذكى من معلمه.
توفي والده منذ سبعة وثلاثين عامًا تقريبًا، وقد نسيه تمامًا.. إلى أن حل هذا الصيف، بسبب عودته لقراءة "مونتين". والآن في كل مرة يغمض فيها عينيه يرى والده، لا يعرف لماذا يخيفه هذا من وفاته هو، لكنه يتخيله دائمًا في محله في "نياك"، ليس في المنزل أو في الخارج، ستة أيام في الأسبوع يجلس خلف "الكاونتر"، ليالي طويلة يعمل على عشرات الأوراق، يراه واقفًا هناك خلف أكوام من لفافات الأقمشة والأدراج المفتوحة المكدسة وكأنها قوالب من خشب الماهوجني تغطي الجدار، أو يراه وهو يسير في المحل بين طاولات طويلة ملمعة عليها سلال صغيرة وصناديق قفازات لطالما أخافته وهو صغير، أخبره أحد عمال التوصيل ذات مرة أنها مصنوعة من جلود أيادٍ مقطوعة.
كان والده بسيطًا في كل ما فيه؛ مشيته، ورأسه، وأذناه الصغيرتان المنحنيتان. ذات مرة وهو في السادسة رأى والده يغلق باب المحل ويعلق لافتة "عذرًا، لقد أغلقنا"، على الرغم من أن الساعة كانت الرابعة والنصف عصرًا. بعدها شاهده وهو يعود إلى داخل المحل خافت الإضاءة، لا يدخل إلا شعاع من الشمس عبر نافذة علوية، اندهش لرؤية والده وهو يخترق شعاع الضوء برأسه، فيتناثر الغبار الذهبي تحت النور.. عندها اندهش من أن والده يمكنه أن يسبب هذا الإزعاج البسيط. هذا ما خطر بباله عندما كان في السادسة من العمر فقط.
طرقت السيدة "واطسون" باب المحل، ثم طرقت على النافذة بغضب بعملةٍ معدنية. فأغمض عينيه وهو يمر بـ"الأيادي المقطوعة" في طريقه إلى مكتب والده ليقول له:
- أبي، سيدة "واطسون" تطرق الباب لتدخل، ألا تسمعها؟
أشار له والده بالصمت قبل أن يعود لمجموعة مقالاته التي يخبئها بين طيات سجل تجاري كبير، بينما واصلت سيدة "واطسون" الطرق بعنفٍ في الخارج حتى كادت تحطم الباب.
إنه أكبر بثمان سنوات من عمر والده عندما مات، لقد فاق عمر والده. توفي صغيرًا، كان عليه أن يعيش أطول ويعمل أقل ويستمتع بحياته أكثر بينما يستلقي تحت الشمس ويقرأ "مونتين" في ضوء

النهار.
والآن ضاع كتاب لـ"فيرلان"، أراد أن يقرأ النسخة الأصلية من (la lune blanche) مجددًا، فذهب يبحث في القبو، بحث في كل الصناديق، لكنه لم يجد الكتاب. إنه واثقٌ بأنه أخفاه في الصندوق الأخضر في اليوم الذي عاد فيه من "إيستهام"، عندما دخلت عليه زوجته فجأة، لقد دفعه بين مقالات "إليوت" وأعداد قديمة من مجلة "لايف". كان من الحماقة إخفاؤه عنها؛ فهذا تصرف يثير الريبة، لكنه لم يرد أن يسمح لها بالتطفل على لحظات حنينه للماضي، ولم يرد أن يسمح لها بقراءة اسم والده عليه لكيلا تنطقه بطريقةٍ ساخرة أو أن تسخر من الكلمات التي كانت يومًا عزيزة على قلبه. أفرغ الصناديق وبحث في الكتب واحدًا واحدًا، لكنه لم يجد "فيرلان"، وبالتأكيد لم ولن يسأل زوجته إن كانت قد رأته أو أخذته. حتى لو عرف أنها فعلت.. سيدعها تستمتع بألعاب الغيرة، سيظهر الكتاب عندما تجد شيئًا آخر يسليها.
بحث في كل الكتب الفرنسية في البيت. وجد "مذكرات أندريه جيد" في مكتبة في الحي الرابع، في قسم الكتب المستعملة على الرغم من أنه بدا جديدًا لم يُمس، يحب الذهاب إلى هذه المكتبة لكي يبحث بين الكتب ويشتريها، لكن فقط عندما لا تكون زوجته معه. أمينة المكتبة هناك موسوعة حية، لو لم تجد كتابًا في مكتبتها فستجده على رفٍ في ذاكرتها. إنها أيضًا عاشقة للأدب الفرنسي، يستمتع بالتحدث معها عن الكتب وفرنسا وكل شيء. لكنه يعرف أنه لو كانت زوجته معه، فلن يستطيع قول كلمة. قضت أمينة المكتبة عامين في باريس، في الوقت نفسه الذي كان فيه هناك، لكنهما لم يتقابلا قط. أحيانًا يتحدثان الفرنسية بمزاجٍ مثلما يفعل من هم غير الفرنسيين، بدت له دائمًا امرأة بسيطة سهلة الكلام ومتفتحة العقل، لكن ذات مرة زمجرت عندما وضع كتابًا على "الكاونتر" وسألها إن كانت تحب كتب "جيد".
قالت:
- لا، ولن أحبها أبدًا، لو جاء بنفسه إلى مكتبتي سأطرده.
شعر بالصدمة والتسلية في الوقت نفسه بسبب انفعالها وحدة كلامها. قالت إنه حثالة فرنسي، ومثلي، وعنيف، وثائر، وعار على الحاصلين على جائزة "نوبل".
قلب صفحة أخرى وابتسم لنفسه، من كان يظن أنه سينسجم مع كتابات هذا الرجل؟
سمع زوجته تنهض من السرير، ثم صوت خطواتها وهي تسير في غرفة النوم ثم إلى الحمام. نادته، لكنه لم يرد. قال لنفسه أن عليه الانتظار حتى ينتهي من هذه الصفحة فقط مع آخر قطرة من القهوة.
سمع صوت الحنفية وهي تنفتح ليتسرب منها قطرات الماء قبل أن يندفع بقوة، ثم صوت يديها وهي تقاطع اندفاع الماء لكي تغسلهما، وأخيرًا صوت خطواتها مجددًا.
قال لنفسه: "حسنًا، هذه الفقرة فقط، دعيني أنتهي من هذه الفقرة فقط".
لكنها نادته مجددًا وهي تكلمه عن الأزهار وعن الجو ثم شكوى طويلة عن حشود الناس التي اجتاحت "بروفينستاون" وزحمت شوارعها.
قال لنفسه: "بضع ثوانٍ أخرى فقط، بضع ثوانٍ أخرى في أجواء مارسيليا مع هذا الرجل الذي لا يمانع الموت في سبيل قول الحق".
لكنها عادت للحديث عن الزهور:
- وبمجرد أن تجمعها، يمكنك أن...
- دقيقة واحدة وسأكون معكِ.

قال ذلك على أمل أن تنتظر وتشغل نفسها بأي شيء.
لكنها لم تنتظر، اقترب صوتها أكثر وهي تتكلم عن الأزهار.
لمح ظلها على الصفحة وهو يندمج مع ظل الممر.
سألها:
- أي أزهار؟
- الأزهار التي طلبتها لسيدة "كابلان" بالطبع، كنت معي عندما طلبتها.
- الحفل غدًا.
- نعم، لكن من الصعب الذهاب إلى "بروفينستاون" لشرائها في اليوم نفسه! هل تتصور ذلك؟
نظر إليها دون تعابير، فقالت:
- أنا أحاول إخبارك بشيء، وأتمنى ألا تنظر إلى الساعة وأنا أتحدث معك.
- لم ألحظ أنني نظرت إلى الساعة.
- هذا يشعرني وكأنني مع طبيبٍ نفسي وأحاسبه بالساعة.
سألها:
- هذا لن يستغرق ساعة، أليس كذلك؟
- يجب أن تذهب إلى محل الأزهار، ومن الأفضل أن يكون اليوم.. هذا كل ما أقول.
اقتربت من مجال رؤيته، ووضعت يديها في وسطها، قميص نومها مجعد من الأمام، وشعرها أشعث، بدت مثل طفلة ذكية غاضبة من غباء الكبار.
سألته:
- علام تضحك؟
- لم ألحظ أنني...
- هلا توقفت عن قول ذلك!
أنزل كتابه وسألها:
- أخبريني، ما الذي تريدين مني فعله إذًا؟
أمهلت نفسها وقتًا تلتقط فيه أنفاسها ثم قالت:
- حسنًا، أريدك أن تذهب إلى محل الأزهار وتستلم الأزهار التي طلبناها لسيدة "كابلان"، يمكنك أن تفعل ذلك ثم تستلم البريد.
استدارت لتعود إلى غرفة النوم.
استوقفها قائلًا:
- لم أكن أنوي الذهاب إلى مكتب البريد اليوم.
استدارت وقالت بتوتر:
- لكن ماذا لو...
- لقد أخبرتكِ ماذا قال بالفعل، قال ألا نتوقع أي أخبار قبل نهاية الصيف.
- لكننا في نهاية الصيف بالفعل.. ألا تظن هذا؟ يوم الإثنين القادم هو عيد العمال. أعني، إن لم يكن هذا آخر الصيف، إذًا متى يكون؟ إلا إذا كان علينا الانتظار حتى تسقط كل ورقة شجر في "كيب"!
عرف أنه لو رفض الذهاب الآن، فستدفعه للذهاب لاحقًا. ولو رفض الذهاب لاحقًا، ستذهب بنفسها.. ستذهب حتى لو اضطرت للزحف إلى هناك.

- سأستلم البريد ثم سأحضر الأزهار.
- شكرًا.
- هل تظنين أنها ستظل نضرة حتى الغد؟
- أنا متأكدة من أنها لن تذبل.
- وماذا عن الرطوبة؟
- الرطوبة؟
- ستخرجينها من التغليف ثم تضعيها في ماء ثم تغلفينها مجددًا غدًا.
- نعم، يا إلهي! لم أفكر في هذا. ماذا أفعل الآن؟ ماذا لو تركناها في القبو؟ لا، هذا لن ينفع. فالجو يصبح خانقًا في الظهيرة.. ستختنق وتموت. ولو فتحت النافذة قد تدخل قطة وتمزقها.
- يمكنني أن أمر على سيدة "كابلان" في طريق عودتي إلى البيت وأتركها لها.
- لكنني أردت أن أعطيها لها بنفسي.
أغلق الكتاب وأنزل قدميه على الأرض وقال:
- حسنًا، يمكننا أن نذهب نحن الاثنان.
- لا، لا أريد الذهاب إلى هناك اليوم، ليس بهذا المنظر.
- الأمر بسيط، ارتدي ملابسكِ.
- هذا ليس ما أعنيه وأنت تعلم.. أريد أن أذهب وأنا مستعدة ومتأنقة للحفل.. لا تشغل بالك، سأفكر في حل.
وقف وترك الكتاب على الرف وسار وهو يقول:
- افعلي ذلك وأبلغيني.
أبعد مسند الرسم من عند الجدار وأداره ليواجه الغرفة، لوحة "أورلينز" تستقر عليه بصبر. وقف يتفحصها قليلًا، لكنه لم يعرف إذا كان راضيًا عنها أم لا، لقد غادره كل شعورٍ عنها مع وصوله للمسات الأخيرة الخاصة بتأثير الضوء الساقط على عناصر اللوحة؛ مثل مِصَّد وغطاء محرك السيارة القادمة من الشارع الجانبي، وسطوع الضوء على فستان المرأة الأخضر، وإظهار ردفها بشكلٍ أفضل.
هتفت زوجته خارج الغرفة:
- عرفت.. عرفت ماذا نفعل بالضبط!
تمتم:
- أراهن على ذلك.
عاد إلى "أورلينز" مرتين بحثًا عن إلهامه المناسب، ربما يجرب مرة أخرى، لو لم يجد إلهامه هناك سيضطر إلى البحث عن فكرة قديمة في عقله.
- هل تستمع إليَّ؟
- بالتأكيد أستمع إليكِ.
سيجعل سماء اللوحة غائمة قليلًا استعدادًا للغروب، لم يخفت لمعانها بعد لكن الأشجار بدأت تظلم بالفعل، سيتغير شكل السماء من جزءٍ لآخر. فلتكن شاحبة هنا، ثم أقل شحوبًا من اللافتة حتى عامود الكهرباء، وفي تلك النقطة سيضيف...

- ما أقصده هو أن تمر بمحل الأزهار وتسألهم إن كان يمكنهم توصيلها غدًا صباحًا، لا أصدق أننا لم نفكر أبدًا في أن نطلب منهم توصيلها. لا، بعد تفكير أدركت أن توصيلها في الصباح ليست فكرةً جيدة، سيكونون مشغولين جدًّا في بيت السيدة "كابلان" للاستعداد للحفل. ربما لن يلاحظوا الأزهار أو مَن مرسلها، وبالطبع نحن نريدهم أن يلاحظوا من أرسلها! لنطلب من محل الأزهار إرسالها هذه الظهيرة من باب الاحتياط، وليكتبوا كارتًا وكأنه منا. لا، مهلًا. يمكنني أن أكتب كارتًا صغيرًا، ولم لا؟ وأنت يمكنك إعطاؤه لمحل الأزهار وهم يضعونها في الباقة، سأستخدم ورق ملاحظاتي البنفسجي الجميل. أعني تلك المجموعة التي اشتريتها من "وايومينج"، هذا ما سأفعله.. سأفعله حالًا.
صوتها سعيد وفرحان مثل طفلة صغيرة وهي تبحث عن قلم وعن ورق ملاحظاتها البنفسجي الجميل. إنه يعلم أنها متشوقة جدًّا للحفل وللقاء أشخاص جدد وللتحدث في مواضيع مختلفة في البيت والحديقة، كل ما يكرهه تستمتع هي به، لكن هناك شيءٌ آخر بخلاف الحفل، إنها تنتظر خطابًا من نيويورك. وهو يخشى من أن تذهب لنقل أخبار لم تصل بعد - وقد لا تصل أبدًا - مقابل أن تظهر نفسها بين الضيوف أمثالها، وكأن الإيمان بشيءٍ ما سيجعله يتحقق.. إنها دائمًا متفائلة، يحب هذه الصفة فيها لكنه أيضًا يشفق عليها بسببها؛ إنها قادرة على تعليق كل رغباتها على الأمل، تظل سعيدة طالما يملأ قلبها، لا يهم كم مرة تخلى عنها الأمل أو أحبطها، ستنهض مجددًا لتثأر منه عادةً، حتى يعود إليها الأمل مجددًا.
عندما توقف عند مكتب البريد، رأى حفيد السيدة "كابلان" جالسًا على سلم صغير على الجانب البعيد من المبنى ومعه كلبه، كان الولد يسند مرفقيه على ركبتيه ويضع وجهه بين يديه، كان مشغولًا بمشاهدة رجلين يعلقان مصابيح فوق مساحة فارغة عبر الشارع. خرج من السيارة وذهب إلى الولد وقال:
- يبدو أنكم لستم الوحيدين الذين ستقيمون حفلة في إجازة الأسبوع.
أغمض الولد عينيه قليلًا ليتقي أشعة الشمس وهو يرفع نظره إلى مصدر الصوت.
قال وهو يستعد للنهوض:
- مرحبًا يا سيدي.
أشار له بيده لكيلا ينهض، لكن الولد نهض بالفعل واستعد للكلام.
- نحن أيضًا نعلق مصابيح كثيرة في الخارج يا سيدي.
- أنا متأكد يا "ريتشي".
- كما أنها ملونة يا سيدي، مثل ألوان العلم.
هناك بقعة شوكولاتة حول فم "ريتشي"، وورقة تغليف فارغة ملقاة على السلم الصغير، شمها الكلب بضع ثوانٍ قبل أن يعود إلى سيده. وقف الثلاثة يشاهدون رجلًا بزي ميكانيكي يثبت منصة للرقص في الأرض.
- هل أضعته مجددًا؟
- عذرًا يا سيدي؟
- أقصد "مايكل"، هل أضعته مجددًا؟
نظر الولد بعيدًا ثم سحب رأس الكلب إلى حجره وربت عليه، لم يُجِب لوهلةٍ ثم قال:
- لا أعرف.. أظن ذلك، لكنني لم أعد أهتم بصراحة، أتمنى لو يعود إلى المنزل.
- ظننتكما متوافقين؟

- نحن كذلك عندما نكون مع أشخاص آخرين؛ مثلك ومثل زوجتك، لكن...
- لكن ماذا؟
- لا فائدة من حصولك على صديق إذا لم يكن يريدك كصديق، صحيح؟ أعني عندما يهرب منك كلما أدرت وجهك لنصف ثانية.
- أنت محق، هل أنت هنا بمفردك إذًا؟
أخذ "ريتشي" نفسًا ثم قال:
- كلهم مشغولون في البيت استعدادًا للحفل، لم تكن السيارة في المنزل لكن جدتي كانت موجودة، فظننت أن "كاثرين" أخذتها؛ فهي أحيانًا تأتي لاستلام البريد في طريقها إلى "إيستهام"، لكنها لم تصل بعد.. لقد دخلت وسألت. أحيانًا تصطحب "مايكل" معها لكي يرسل خطابات إلى عائلـ... أعني إلى آل "نوفاك" وكل أصدقائه الذين يزعم بوجودهم، وهكذا ظننت أن...
توقف "ريتشي" عن الكلام ليسحب نفسًا آخر. سأله الرجل:
- هل ظننت أن "مايكل" قد يكون معها؟
- نعم، ربما.
- فهمت، هل تحب أن أوصلك إلى المنزل؟
- لا، شكرًا يا سيدي، سأنتظر "كاثرين" هنا، على الأرجح ذهبت لتأخذ الحقنة.. إنها مريضة كما تعلم.
- نعم، سمعت بذلك.
- لا أعرف التفاصيل، لا أحد يخبرني شيئًا، يخبروني فقط أن أهتم بشؤوني وحسب، كل ما أعرفه هو أنها يجب أن تأخذ واحدة يوميًا.. أحيانًا تذهب إلى "إيستهام"، وأحيانًا يأتي إليها الطبيب "توم"، أما يوم الجمعة فتذهب دائمًا إلى "إيستهام".
سحب "ريتشي" نفسًا آخر وقال:
- قالت أمي إنني أعيقهم طوال الوقت في البيت.
- تبدو منقطع الأنفاس، هل تتعبك الرطوبة يا "ريتشي"؟
- لا يا سيدي.. إنه العشب، كانوا يقصون العشب من أجل الحفل. لكن لا بأس، ستمر النوبة، لقد استخدمت جهاز الاستنشاق هذا الصباح. قريبًا سأذهب لطبيبٍ مختص، لا يمكنني أن.. أن أبدأ الدراسة حتى أذهب. لكننا لم نستطع الحصول على موعدٍ قبل أسبوعين، وهكذا سأتأخر عن المدرسة، والآن أنا عالقٌ هنا لأن أمي تقول بأن هواء البحر يفيدني.
- ألا تحب المكان هنا؟
- بالتأكيد، لكنني كنت مستعدًا للذهاب إلى مدرستي الجديدة الأسبوع المقبل. لقد حزمت أمتعتي وكل أغراضي الجديدة و... إنها تظن أن هذه الفكرة تصيبني بالتوتر، أعني فكرة الذهاب، وهكذا.. تريدني أن أنتظر. لا أعرف، لقد حضرنا كل هذه البطاقات التي تحمل اسمي، "روزيتا" وأمي خيطاها على ملابسي وأغراضي، عِدا بالطبع الأشياء الجامدة التي لن تخترقها الإبرة، مثل حذائي وكتبي وحقيبتي بالطبع.. لقد كتبوا اسمي عليها بحبرٍ خاص حتى لا أقع في متاعب بسبب فقدان أشيائي، أنا دائمًا أقع في المتاعب بسبب فقدان أشيائي.
- نعم، فهمت. هل أحضر لك صودا أو أيس كريم؟

- لا، شكرًا لك، ليس مسموحًا لي بتناول أي شيء بين الوجبات، لقد اشتريت حقيبة جديدة لونها بني ترابي.. إنه اسم درجة اللون.
- اسم لطيف، واللون يصلح لحقائب السفر أيضًا.
- أشكرك يا سيدي. إنه كذلك حقًّا، سأذهب إلى أقدم مدرسة داخلية في "نيو إنجلاند". عا.. عا.. عائلتي كلها ذهبت إلى هناك أيضًا.
- هل تقصد والدك؟
- نعم، هو أيضًا.
وقف "ريتشي" وفرد ذراعيه باعتدالٍ على جانبيه ونظر إلى قدميه بينما يشم الكلب صندوق قمامة بجانب السور، قال الرجل:
- أظن أنه من الأفضل أن أذهب لأرى إن كنا قد تلقينا أي بريد، أخبرني إن غيرت رأيك بشأن عرضي لتوصيلك.
- لا يا سيدي، أعني أنني سأخبرك لكنني لن أحتاجها.. أشكرك، ما أقصده هو...
- لا بأس يا "ريتشي"، أنا أفهم.
جلس "ريتشي" على السلم الصغير مجددًا وترك الكلب صندوق القمامة وجاء لينضم إليه.
هناك سيارة وحيدة في شارع "كاسل رود" "بونتياك سيدان" إن لم يكن مخطئًا، رآها من مكانه الذي يوفر له رؤية واضحة من جزء مرتفع على الطريق حيث توقف منذ بضع دقائق بعدما استلم البريد.. بطاقة بريدية وخطابان، أحدهما أصابه بالغم، قرر أن يخرج من السيارة ويتمشى قليلًا. فكر في الذهاب إلى التلال والتجول بين أشجار الصنوبر ليرى إن تمكن من العثور على مقبرة مصابي الجدري القديمة التي وجدها صدفة منذ عامين، ثم يجلس على سلم حجري ويقرأ الخطاب، لكن بعد دقائق من المشي والتعرض للسع الحشرات، شعر بالتعب والحر وقرر العودة.
وقف عند المرعى المنحدر وخلع سترته ثم داس على العشب ليمهده قبل أن يجلس عليه وهو يضم ركبتيه بذراعيه. شاهد سيارة الـ"بونتياك" وهي تمر بسرعة على الجانب الآخر من الأشجار وتنعطف مع السور المحيط بها. هيكلها الفضي يشبه الإبرة، وظهورها واختفاؤها باستمرار بين الأشجار يشبه حركة الإبرة وهي تخيط القماش، عندما اختفت الـ"بونتياك" من مجال رؤيته خلع قبعته واستلقى على العشب وشبك يديه خلف رأسه.
سمع صوت تدريبات إطلاق النار القادمة من معسكر الجيش في "ويلفليت". وعندما يتوقف، يأتيه صوت مطرقة نجار من الشرق، على الأرجح المطرقة نفسها التي كانوا يثبتون بها منصة الرقص في البلدة. تساءل إن كان "ريتشي" ما زال ينتظر هناك، يراقب الطريق بوجهٍ بسيط التعابير ثم يتوتر عند رؤية سيارة تقترب.
تمنى لو أن تلك سيارة السيدة "كابلان" وبها أحدهم، "كاثرين" أو أي شخص يخلص ذلك المسكين من عذابه، أخذ قبعته وغطى وجهه وفكر في الرسالة التي في جيبه، وفي الخط المألوف لصديقه المنقوش على الظرف.
في الأسبوع الذي غادرا فيه نيويورك أخذ لوحات زوجته إلى المعرض، كانت أربع لوحات لكنه شعر وكأنها أربعون وهو ذاهبٌ إلى الشارع الخامس بها ويعبر باب المعرض، حتى بعدما أخذها صديقه وعلقها على الجدار ظل يشعر بوزنها بين يديه، كانت لوحات قديمة جدًّا حتى إن اثنين منها تعودان لسنوات، كان واثقًا تمامًا أن صاحبه رآها من قبل، لكنه قرر ألا يذكر هذا.

كل ما قاله له كان:
- أكره أن أثقل عليك بطلبي، لكن هل يمكن أن تعرضها في مكانٍ ما؟
- أتفهم ذلك، سأفعل ما بوسعي.
- بالطبع هي لا تتوقع منك أن تأخذها في معرضك أو أي معرضٍ يماثله في الأهمية، لكن ربما لو استخدمت علاقاتك فربما...
- نعم، أعلم.
- يكفي أن تضعها في أصغر معرض، المهم أن تشارك في شيءٍ ما.. هل تفهمني؟
- نعم، بالطبع.
- سنذهب إلى "كيب كود" خلال يومين.
- كل ما يمكنني فعله هو المحاولة.
- لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى أسفي لطلب ذلك منك.
- أرجوك لا تعتذر مجددًا، أتفهم الموضوع. سأرسل لك رسالة أبلغك فيها بالأخبار في آخر الصيف. استمتع بوقتك، حسنًا؟ استرخي واعتني بنفسك وصحتك وحاول إنجاز عملك.. اتفقنا؟ لكن لا ترهق نفسك لكيلا تمرض مجددًا.
ودعا بعضهما بود وتصافحا بمحبة، لم يتحدثا عن اللوحات نفسها، عندما استدار ليغادر شعر بها تنظر إليه بتوبيخ.
بعد ذلك غادر الحي الخامس بقلبٍ مهموم وخطى ثقيلة، فكر في كل المرات التي وضعته في هذه المواقف، وعرضت لوحاتها بالإجبار على زواره من مديري المعارض والصحفيين، حتى الأصدقاء والمعارف لم يسلموا منها، الجميع يلاحظون المذلة التي تتعرض لها عداها، أبسط كلمة مديح تبهرها، أصغر نجاح تلهبه بعبارات الاستحقاق، ثم ترغب في المزيد والمزيد حتى لم يعد يرضيها شيء إلا عرض لوحاتها في غرفةٍ خاصة في معرض الفن الوطني، وعندما لا تنجح مساعيها بالطبع، تلوم العالم بما فيه من رجال كارهين للنساء ونساء كارهات للنساء، ثم تسامح العالم وتلومه هو.
ظل مهمومًا وحزينًا طوال عودته إلى القرية. حتى أنه توقف في بار ليتناول بعض الكحول يهدئ به أعصابه، لكن لم يزد هذا إلا طعم المرارة في فمه.
عندما عاد إلى البيت دون اللوحات، تحمست كثيرًا وعانقته وطلبت منه معانقتها بقوة، سألته:
- ماذا قال؟ أخبرني بكل ما قاله، وأخبرني بكل ما قلت.
- قال إنه سيحاول فشكرته.
- هل أعجبته اللوحات؟
- تعرفين أنه ليس كثير الكلام.
- لكن هل بدا مسرورًا؟
- أنتِ تعرفينه، من الصعب فهم ما يفكر فيه أحيانًا.
- لكن ما كان ليأخذها لو لم تعجبه، صحيح؟ هيا، أنت تعرف أنني محقة.
- أنا واثق بأنكِ محقة.
لكنه لم يذكر لها بأنهما تجنبا النظر لبعضهما مباشرةً معظم المحادثة، وأنهما تكلما بسرعة وكأنهما أرادا التخلص من الكلمات بأسرع وقت، ما عدا وقت الوداع. لقد توقف لحظة لينظر إلى عيني

صديقه العزيز، رأى فيهما ما يكفيه من الشفقة لآخر العمر.
عندما استيقظ في الظهيرة أحس أن عموده الفقري قد التصق بالأرض؛ شعر بالدوار، فظل مستلقيًا لوهلةٍ بينما يذكر نفسه بصغره حين كان يستيقظ في أيام كهذه بعدما يغلبه النوم في المروج، كان يمهل نفسه دقيقتين لينهض.. إن لم يفعل.. سيتشنج عموده الفَقَري ويتصلب، وسيتحول شعره إلى الأخضر وينمو بسرعة، ستبتلعه الأرض تدريجيًّا، وسيغوص أعمق من التابوت المدفون فيه. سيظل هناك حتى تنمو له جذور، ثم سيبرز من الأرض على شكل شجرة، مثل تلك الشجرة التي يمضي وقتًا طويلًا في النظر إليها عبر نافذة الفصل، سيكون ضخمًا كثير الفروع مع سمات بشرية لا شك فيها، سيتخيل رؤية الارتياب في عيون والديه وهما يمران به وهو يلوح لهما بفروعه ويحاول أن يناديهما "أمي.. أبي.. إنه أنا، ابنكما".
رفع القبعة عن وجهه، فأغمض عينيه بسبب الضوء الشديد المفاجئ، وعندما بدأت عيناه تعتاد عليه، لمح صقرًا يحوم فوقه، راقبه بعض الوقت.. ذيله الأحمر يدور في دوائر متأنية وسلسة، ثم نهض جالسًا وأراح مرفقيه على ركبتيه، ثم التقط عودًا من العشب ونظفه بأصابعه ثم بدأ يلوكه. ظل على وضعه لوهلةٍ ثم فجأة أخرج الظرف من جيبه وفتحه بإصبعه وأخرج الرسالة ليقرأها.. عندما انتهى منها، أمسك الخطاب بين ركبتيه وجلس ساكنًا بعض الوقت، استطاع أن يشم رائحة البحر، هناك رائحة أنثوية خفيفة ممتزجة بها، كما سمع أصوات السيارات الكثيرة التي تزداد في الإجازات الأسبوعية.
كور الرسالة وألقى بها بين العشب الطويل، ثم فعل الأمر نفسه مع الظرف، كوره وألقى به حيث لن يراه أحد، عدا الصقر.
في طريق عودته من "بروفينستاون"، توقف عند محطة البنزين. رأى مجموعة من الأولاد، بعضهم يحمل علب مربى التوت مروا بسيارته وهم يركضون ويدفعون بعضهم، فكر في أن "ريتشي" و"مايكل" هادئان جدًّا بالمقارنة مع باقي الأولاد هنا بأفواههم المبقعة بمربى التوت، ورحلات الصيد الاستكشافية التي يقومون بها، وكرة الريشة التي يلعبونها بكل عنف. قالت له امرأة في مكتب البريد الأسبوع الماضي: "لديّ ولدان، وفي الصيف أكاد أنسى شكلهما بسبب لعبهما في الخارج طوال الوقت".
جاء البلدة الكثير من الزوار في إجازة الأسبوع هذه الظهيرة، مجموعة مراهقين، صف طويل من المتسوقين في السوبر ماركت، وجوه حمراء من الحر وأصحابها يحمِّلون سياراتهم بالمؤن قبل الاتجاه إلى الشاليهات. وصلته كل هذه الأصوات عبر نافذة السيارة وهو ينتظر في طابور محطة البنزين؛ أطفال باكون، أطفال صاخبون، أمهات صوتهن حاد يحتفظن بلكنتهن المهذبة أمام الناس الغرباء فقط، وهناك مراهقو المنطقة يجلسون خلف محطة البنزين يدخنون ويبصقون ويتظاهرون باللامبالاة.
خرج وانتظر امتلاء خزان سيارته ونقر على مسدس البنزين بضع مرات، ثم تذكر أنه كان يريد دخول الحمام، هناك واحد في مؤخرة السوبر ماركت، ذهب إليه ولمح "ريتشي" في طريقه، ما زال جالسًا على السور المنحدر خلف مكتب البريد، كما تركه تمامًا منذ ساعتين تقريبًا، أما الكلب فكان منطقيًّا أكثر وبحث عن ظل يستلقي تحته.
بينما ينتظر ليدفع ثمن البنزين، سمع رجلين من أهل البلدة يقفان عند "الكاونتر" ويتناقشان حول ركود الصيد هذا الأسبوع بحزنٍ وكأنهما يناقشان مأساة عائلية، وأمامه وقف رجل يتكلم مع امرأة

يخبرها بأن الجيش استدعى ابنه.
- استدعوه لمكان يدعى "كو.. ريا"، لم أسمع بها حتى الآن؟
ردت المرأة:
- يا إلهي!
- ظننتهم استكفوا من خدماته الآن، كان محظوظًا للنجاة من آخر معركة، قد لا يحالفه الحظ في المرة القادمة، زوجته حامل أيضًا وتنتظر مولودهما الأول في بداية ديسمبر.
كررت المرأة:
- يا إلهي!
ابتعد عن محطة البنزين وعاد إلى مكتب البريد ثم توقف بالقرب من "ريتشي"، لم يلحظه الولد على ما يبدو، كان يمسك بقطعة حلوى يلتهمها بنهم، وكل لحظة يخفض رأسه ليأخذ منها المزيد، هناك علبة صودا فارغة بجانبه وأوراق حلوى فارغة على الأرض تحت قدميه. فتح النافذة وانتظر لحظات، نظر عبر الشارع فوجد المصابيح معلقة ومنصة الرقص مثبتة، وهناك رجل يجر كراسي عليها، سارت خلفه امرأتان؛ إحداهما تحمل طبقًا كبيرًا من اللحم، أما الأخرى تهش الذباب بعيدًا عن اللحم بقطعة قماش. كانت المرأتان تضحكان وتهتفان.
- توقفي يا "مارثا"، أرجوك، توقفي عن إضحاكي وإلا سأوقع الطبق.
ضحك "ريتشي" بصوتٍ خافت على المشهد وكأنه يشاهد فيلمًا.
تذكر الرجل ذلك اليوم في "بروفينستاون" عندما بكى "ريتشي"، ما زال يشعر بالحزن وبعض المسؤولية تجاه هذا الأمر.
كان الولد يخبره بأسلوبه المميز عن رجلٍ ما لم يهتم به كثيرًا، كابتن خدم في الجيش مع والده، وفي الوقت نفسه كان يخبره عن عمته "كاثرين" والشجار الذي خاضته مع والدته، بدا منزعجًا من شيءٍ ما.. ربما الشجار أو الرجل، لكنه لم يبد حزينًا جدًّا إلى أن سأله فجأة:
- هل تشتاق إلى والدك يا "ريتشي"؟
عندها انهار الولد تمامًا.
عندما أعطاه منديله قال الولد:
- أرجوك، لا تخبر أحدًا أنني كنت أبكي. أرجوك، لا تخبر أحدًا.
لا يعرف لماذا سأل الولد سؤالًا كهذا، ليس من عادته التطفل على حياة الآخرين الشخصية، فما بالك بطفل. سأل نفسه مرارًا عن سبب توجيه هذا السؤال لـ"ريتشي"، فأجاب على نفسه أنه أراد أن يلقي عليه هذا السؤال لكي يسمع إجابة "ريتشي" ويرد عليه قائلًا: "وأنا أيضًا أفتقد أبي، بالأخص مؤخرًا، لا أستطيع إخراجه من بالي".
مال من النافذة ونادى:
- أظنك انتظرت طويلًا وهذا يكفي، أليس كذلك؟
وقف "ريتشي" مجددًا وقال:
- أنا واثق بأنها ستأتي قريبًا يا سيدي، على الأرجح ذهبت لتناول الغداء مع الطبيب "توم"، ستمر من هنا في طريق العودة إلى البيت على كل حال.
خرج من السيارة وفتح الباب الخلفي وأخذ باقة الأزهار ثم وضعها على مقعد الراكب، وقال:
- هيا يا بني، سأوصلك للبيت الآن.

قال "ريتشي":
- ماذا عن الكلب؟ ماذا عن فروه الذي سينشره على المقاعد؟ قالت أمي أن...
- لا تقلق بشأن الكلب، لن يكون مشكلة. هيا، ادخلا. نعم، أنت أيضًا يا "باستر".. هيا، ادخل.
ظل "ريتشي" صامتًا طوال الطريق إلى المنزل، لكن على الأقل أنفاسه هادئة ومنتظمة، أو ربما لا يسمعه جيدًا بسبب لهاث الكلب المتواصل. نوى أن يتركهما في نهاية الطريق الذي يقود إلى بيتهما ويعطي "ريتشي" الأزهار لكي يسلمها إلى جدته، لكن عندما وصلوا إلى هناك وجد السيدة "كابلان" ووالدة "ريتشي" تخرجان مشتريات البقالة من السيارة الـ"بونتياك". استدارت والدة "ريتشي" عندما سمعت صوت الإطارات على الممر المؤدي للبيت، وانتظرت لحظة لتتحقق من القادم، وقفت وهي تمد إحدى ساقيها العاريتين خطوة للأمام وهي تحمل صينية عليها خس وكأنها بائعة متجولة. قالت بمجرد أن توقفا:
- ها أنت ذا يا "ريتشي"! كنا نبحث عنك في كل مكان.. أين كنت؟ كيف تهرب وتتركنا في يومٍ مشحون كهذا! انظري يا أمي، لقد جاء "ريتشي" أخيرًا.
تركت صينية الخس في السيارة وسارت نحوهما.
استدارت السيدة "كابلان" أيضًا وتركت الصينية التي تحملها وذهبت إليهما وهي تنفض يديها، فخرج من السيارة لتحيتها. قالت:
- أتمنى ألا تكون قد جئت لتخبرنا بأنكما غيرتما رأيكما ولن تحضرا غدًا.
- لا.. لا، لقد قابلت "ريتشي" صدفة و...
خرج "ريتشي" من السيارة لكن الكلب ظل فيها، لاحظ "ريتشي" وهو يرمي ورقة الحلوى تحت السيارة ليخفيها ويقول بعدها:
- كنت أنتظر "كاثرين" عند مكتب البريد.
- كنت ماذا؟ لقد عادت "كاثرين" منذ ساعات ولم تذهب إلى مكتب البريد اليوم، أنا حقًّا لا أعرف أي أفكار مجنونة تدور في عقلك، ألا تلاحظ أننا بحاجةٍ إلى كل مساعدة ممكنة اليوم؟
- لكنكِ قلتِ لي إنني أعوق عملكِ.
- ماذا؟ يا لك من ولدٍ سخيف! وأين "مايكل"؟ أليس معك؟
- لا، لقد ظننته مع "كاثرين".
- حقًّا يا "ريتشي"؟
ثم استدارت والدة "ريتشي" إلى الرجل وابتسمت باعتذارٍ وهي تقول:
- أنا آسفة جدًّا لتعبك.
- لا بأس أبدًا، كنت سأمر عليكم لاحقًا بأي حال لكي أسلمكم شيئًا، لكن سأفعل ذلك الآن بما أنني هنا.
انحنى داخل السيارة وأخرج باقة الأزهار.
قالت السيدة "كابلان":
- يا لها من أزهار جميلة!
- كان بائع الأزهار مشغولًا جدًّا فلم يستطع تسليمها اليوم أو غدًا، لذلك أحضرتها نفسي.
- يسعدني جدًّا أنك فعلت.. هيا تعال، يجب أن تشرب شيئًا.
- أظنكم مشغولين جدًّا اليوم.
قالت السيدة "كابلان":

- سوف تساعدنا، لا تقلق. ساعدني في تحريك بعض الأشياء، كان معنا رجل يساعدنا لكنه اختفى فجأة، الرب وحده يعلم أين ذهب بالضبط، وأنا لا أعرف شيئًا عنه بخلاف أن اسمه "روبن".
قالت والدة "ريتشي":
- نعم، كان معنا رجلٌ "يشبه العصافير" يساعدنا لكنه اختفى فجأة، الرب وحده يعلم أين ذهب بالضبط، وأنا لا أعرف شيئًا عنه بخلاف أن اسمه "روبن"!
ضحكت على نكتتها البسيطة ثم توقفت وابتلعت ريقها باعتذار.
رد عليها:
- يسعدني تقديم المساعدة.
سار مع سيدة "كابلان" حاملًا الأزهار، حدثته عن الحرب في كوريا والجنون الذي خيَّم على العالم مجددًا، بدت على اطلاعٍ واسع بالأمور السياسية، فاستمع إلى كلامها، في الوقت نفسه كان يسمع "ريتشي" ووالدته من خلفه.
قال "ريتشي":
- لكنني تناولت الدواء هذا الصباح.
- من الأفضل أن تذهب وتأخذه مجددًا الآن، وأيضًا استلقِ لبعض الوقت؛ لا نريدك أن تمرض، وهل تعلم أين وجدت سترتك؟ لا؟ أراهن أنك لا تعرف.. وجدتها على الشاطئ، ملقاة مثل خرقة بالية لا يهتم بها أحد.
- آسفٌ يا أمي! لا بد أنني تركتها هناك عندما ذهبت للسباحة.
- هذا صحيح، فهي لم تذهب إلى هناك بنفسها بالتأكيد، أليس كذلك؟ وما هذا الذي على وجهك؟ أخبرني.
- لا شيء.
- كاذب، لقد تحدثنا عن هذا يا "ريتشي"، تعرف أننا فعلنا.. بدأ وزنك يزداد، وبالتأكيد لا تريد أن يلقبك زملاؤك بالفتى السمين.
- لماذا تواصلين قول هذه الكلمة يا أمي؟ تعرفين كم أكرهها!
- من الأفضل أن تخفض صوتك وتنتبه لتصرفاتك، سيأتي أصدقاء والدك، ولا أريد...
- تقصدين كابتن "هارتمان"! حسنًا، سأدخل غرفتي وسأظل فيها يا أمي، ما رأيكِ؟ عندها يمكنكِ أنت وكابتن "هارتمان" أن تذهبا معًا إلى هاواي أو أي مكان جميل.
بعدها ركض "ريتشي" وتخطاهما، بينما سارت أمه خلفهما بوجهٍ أحمر من الغضب.
توقفت السيدة "كابلان" وابتسمت ابتسامة خفيفة وهي تقول:
- مسكين "ريتشي"! يبدو أنه لا يفهم الوضع.
اقتربوا من المنزل فاستقبلتهم الخادمة على البلكون الخارجي ومعها جردل كبير.
- لا تقولي إنه فعلها مجددًا يا "روزيتا".
وضعت "روزيتا" يدها على أنفها وهي ترد:
- نعم يا سيدتي، لقد فعلها.
أمسكت سيدة "كابلان" كمه بيدها وقالت:
- احذر، ستجد الأرض مبللة تحت شجر العرعر. وأخشى أنه ليس بسبب المطر وحسب، لقد حول "باستر" هذه المنطقة إلى حمامه الخاصة. أظننا سنضطر إلى وضع سياج حولها، وإلا ستخرب

أحذية الضيوف. ربما سأطلب من رجلنا "روبن" عمل ذلك.. هذا إن وجدناه أصلًا.
عبرت السيدة "كابلان" البلكون الخارجي وقالت للخادمة:
- "روزيتا"، عندما تنتهين هنا خذي هذه الأزهار الجميلة وضعيها في مزهرية من فضلكِ.
ثم قالت له:
- قابلني في البلكون الخلفي.
وذهبت.
وقف حاملًا الأزهار ومنتظرًا أن تنتهي "روزيتا" من مسح المياه بالصابون من حول قاعدة الشجرة، وضعت الجردل على الأرض وذهبت إليه لتأخذ الأزهار وتحملها كما تحمل طفلًا، ثم تذكر الرسالة فجأة فقال:
- مهلًا يا "روزيتا"، أعطتني زوجتي...
بحث في جيوبه عن الرسالة، لكنه لم يجد إلا بقايا ظرفين استلمهما من مكتب البريد.
- لا أستطيع إيجادها.
- لا بأس، سيدة "كابلان" تعرف من أحضر الأزهار بالفعل.
- لكن زوجتي كانت مصرة بشدة على ترك رسالة قصيرة.
- ربما تركتها في السيارة.
- سأذهب لأرى.
ما زال الكلب جالسًا في المقعد الخلفي، فوقف أمام الباب المفتوح وقال:
- هيا تعال، حان وقت عودتك إلى المنزل يا فتى.
هز الكلب لسانه ولم يتحرك من مكانه.
- هيا، انزل.
بحث في السيارة على صوت لهاث الكلب، بحث تحت المقاعد مرتين ثم في الأبواب وفي الصندوق وبعد ذلك في "التابلوه".
- لم يبق إلا البحث تحتك يا "باستر".
نظر الكلب بعيدًا عنه، عاد إلى الباب الخلفي ومد يده ليجذب الكلب من طوقه، لكن الكلب بدا ملتصقًا بالمقعد. دار إلى الجانب الآخر ليحاول مرة أخرى، لكن دوت فجأة صوت صفارة طويلة، فانتبه الكلب وقفز في ثانية واندفع باتجاه الصفارة.
أخذ الظرف من على المقعد وفرده ونفض شعر الكلب عنه.
لم يجد أحدًا عندما عاد إلى البلكون، وقف يتساءل ما العمل.. قرر العودة إلى بيته وتراجع خطوتين، ثم غيَّر رأيه وقرر البقاء، فتقدم خطوتين للأمام، عبَر البلكون ودخل البيت.
وجد الصالة مليئة بأزهار أكثر من تلك الموجود بمحل الأزهار في "بروفينستاون"، هناك سلال زهور وأصص سيراميك فيها شجيرات إكليل غار، أشفق على هدية زوجته التي أخذتها "روزيتا" إلى المطبخ لتحاول التصرف فيها، سمع أنغام بيانو متقطعة آتية من مكانٍ ما، فذهب يبحث عن مصدرها.
الغرفة واسعة على شكل حرف (L)، وعليك أن تخطو ثلاث خطوات كبيرة لتنتقل من قسم لآخر فيها.
سار بين صناديق وطاولات مطوية وكراسي حديقة مستندة إلى الجدران، سار ثلاث خطوات واسعة

لينتقل إلى الجانب المطل على الخليج، ويتكون من جدار زجاجي شفاف في منتصفه أبواب زجاجية تنفتح على شرفة خارجية.
لمح جانبًا رجلًا ينحني على بيانو ويعزف، توجد صناديق من البيرة والنبيذ مكدسة لتشكل جدارًا في وسط الغرفة، وهناك طاولة خشبية تقف عليها امرأة لتعلق زينة على الجدار.. إنها "كاثرين".
كانت حافية القدمين وطويلة، أطول حتى مما رسمها، أراد أن يعرف كم طولها بالضبط، لكنه بالطبع لن يجرؤ على سؤالها، سينتظر الفرصة المناسبة ليقف بجانبها ويخمن طولها.
قال لها:
- سمعت أنكم بحاجةٍ إلى مساعدة، أعني أن والدتكِ قالت...
قالت "كاثرين" دون أن تدير رأسها لتنظر إليه:
- هل أجبرتك على مساعدنا؟
- أبدًا، تسعدني مساعدتكم جدًّا.
- كاذب!
التفتت إليه بنظرةٍ خاطفة وابتسامة سريعة.
ثبتت جزءً آخر من الزينة وسألته شيئًا لم يسمعه، فقال:
- عذرًا؟
- أقول "مايكل"، هل رأيت "مايكل"؟
- "مايكل"؟ لا، لم أره.. لكن "ريتشي" هنا، لقد صعد إلى غرفته مع والدته.
- نعم، أعرف. لقد تسلل للأسفل منذ لحظات وطلب مني أن أصفر لكلبه.
- كان هذا أنتِ؟ يا لها من صفارة قوية!
- أشكرك، إنه منزعجٌ لأنه يظن أن كابتن "هارتمان" يحاول سرقة والدته.
- فهمت.
أنزلت يديها ووضعتها في وسطها وهزت شعرها قليلًا ثم قالت:
- أتعلم ما الذي يمكنك فعله؟ يمكنك أن تنقل هذه الصناديق إلى "روزيتا" في المطبخ.
ثم وجهت كلامها إلى الرجل الذي يضبط اوتار البيانو دون أن تبعد نظرها عنه:
- يا "فران"، هل قابلت كابتن "هارتمان" من قبل؟ "والت هارتمان"؟
- عازف الكلارينيت؟ بالطبع يا حبيبتي.
ضحكت وقالت:
- لا يقصد أن يكون وقحًا.. إنه فقط ينادي الجميع بـ"حبيبتي"، على الأرجح سيناديك أنت أيضًا بـ"حبيبي" إن تحدثت معه.
- من الأفضل ألا أتكلم معه إذًا.
شعر بابتسامةٍ بلهاء على وجهه، فأشار إلى الصناديق بتساؤل لكي يخرج من الموقف.
قالت له:
- خذ أول صندوقين، وهي ستعطيك واحدًا تعود به إلى هنا، هذا كل ما نفعله هنا، نرسل الصناديق من وإلى المطبخ.
ذهب إلى صف الصناديق وانحنى ليحمل أول واحد وهو يجهز نفسه لحملٍ ثقيل، لكنه شعر بمزيجٍ من الراحة والإحباط حين وجده خفيفًا جدًّا.

عندما عاد من المطبخ، وجد "فرانك" يعزف لحنًا على البيانو و"كاثرين" ما زالت على الطاولة، لكن هذه المرة كانت ترقص، قدماها تتحركان بخفة من جانبٍ لآخر، وشعرها البني منسدل على أحد كتفيها.
لوهلةٍ تخيل نفسه يعبر الغرفة ويحيطها بذراعيه ويحملها من على الطاولة، تخيلها وهي تنزلق على جسده حتى تلمس قدماها الأرض، ثم تخيل نفسه يراقصها وهو ملتصقٌ بها بشدة لدرجة أنهما لا يستطيعان الحركة بسبب عدم انفصالهما، بل يؤديان الحركات نفسها.
قال لنفسه: "ليتني كنت بيكاسو أو أحد هؤلاء الرسامين الأوروبيين، ليتني كنت رجلًا مختلفًا في عالمٍ مختلف".
حمل الصندوق الذي أعطته إياه "روزيتا" وتكلم:
- (clean glasses and napkins).
فردت عليه:
- (and candles for when the sun goes down).
ردت "كاثرين" عليهما:
- (for when the sun goes down...).
فضحك عازف البيانو.
وضع الصندوق على الأرض، ثم عاد وحمل صندوقًا آخر إلى المطبخ، لمح انعكاس ظلها على الجدار الزجاجي وهي تتمايل، عندها قرر أن درجة لون شعرها هو البني الترابي.
عاد إلى البيت مع حلول الغروب، ووجدها تقوم بالغسيل، قالت له:
- لقد غبت طويلًا!
- هل "مايكل" هنا؟
- غادر منذ عشر دقائق، ذهب نحو الشاطئ، لماذا تسأل؟
- هل مكث طويلًا؟
- نعم، وسعدت بصحبته. لقد جاء بعد خروجك بقليل، كيف سارت الأمور مع بائع الزهور؟
- لقد سلمتها بالفعل.
- لكنني ظننت...
- لم يستطيعوا تسليمها بأنفسهم؛ كانوا مشغولين جدًّا اليوم وسيكونون أكثر انشغالًا غدًا.
دخل البيت وتبعته بعد دقائق وهي تحمل الغسيل، ثم رمت الكومة على "الشيزلونج" وسألته:
- هل تلقينا بريدًا مهمًّا؟
- ماذا؟ لا، لا شيء. فقط بطاقة بريدية من المكتبة وقائمة جرد خاصة بمعرض فبراير القادم.
- لا شيء آخر؟
- لا، آسف.
- لا عليك، ربما سيأتي الظرف المنشود بعد عيد العمال، فكما تقول أنت.. نيويورك بأكملها تتوقف عن العمل في هذا الوقت من السنة.
جذبت ملاءة من الكومة ونفضتها، فأمسك طرف الملاءة الآخر، فرداها معًا ثم طوياها مرتين. قال:
- إنهم مشغولون جدًّا في بيت "كابلان"، أحضروا عازف بيانو اسمه "فرانك". إنه ينادي كل الناس بـ"حبيبتي" و"حبيبي"، طلبت السيدة "كابلان" المساعدة مني.. لهذا تأخرت، لقد أحبت الزهور

أيضًا.
- جيد، أرجو ألا تكون قد حملت شيئًا، تعلم أنه لا يفترض بك...
- بضع كؤوس ومناديل فقط، ودققت بعض المسامير في الجدران، لم يكن شيئًا متعبًا أبدًا.
أخذت الملاءة المطوية ووضعتها على الطاولة، ثم عاد وأخذت ملاءة أخرى وطوياها معًا.
قال:
- قابلت "ريتشي" بالصدفة اليوم. في الحقيقة.. قابلته مرتين، لا أظن أن "مايكل" يقول الحقيقة على الإطلاق.
- وماذا يقول "مايكل"؟
- أنه لا يريد المجيء هنا.
- ألا تصدقه؟
- لا، أظن أن "مايكل" يهرب منه ويأتي دون علمه.
- فهمت.
قال وهو يمسك طرف ملاءة ويفردها معها:
- "ريتشي"...
- ماذا به؟
اقترب منها وناولها طرف الملاءة، كررت سؤالها مجددًا:
- ماذا به؟
قلب شفتيه وهز رأسه، طوت الملاءة وانتظرت رده.
- لا أعرف، لكنني أظنه أكثر شخص يشعر بالوحدة رأيته في حياتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جالب البهجة

1

وقف "مايكل" في البلكون الخلفي ينظف أنفه بإصبعه. إنه صباح يوم الحفل الكبير، وهو أول من استيقظ، راقب شروق الشمس وهو يبدد الظلام، وشم رائحة البحر القوية، والآن بعدما أشرقت الشمس على الخليج بالكامل، انتظر ظهور طيور البحر.

هناك نسيمٍ خفيف من الغرب، عرف مصدرها لأنه منذ أسبوعين تعلم من سيدة "إيتش" ما أسمته درسًا بسيطًا في الاتجاهات؛ النوارس تواجه الرياح، أما الأبقار تدير لها ظهورها، كما ستشعر بها على وجهك.. هكذا بدأ الدرس. وكلما التقيا بعد ذلك، تسأله: "من أين تأتي الرياح يا مايكل؟".

تعلَّم أن الشمال نحو "بروفينستاون"، والجنوب نحو "ويلفليت"، والشرق نحو الجانب الأطلنطي حيث تشرق الشمس من المحيط كل صباح، والغرب هو جانب الخليج حيث تنام الشمس وتغطي نفسها.

النسيم اليوم بارد وخفيف في الوقت نفسه، قالت السيدة "كابلان" عندما خرجوا جميعًا ليلة الأمس أن الجو بدأ يتغير، كما أحضرت لـ"كاثرين" سترة إضافية.

تنهدت والدة "ريتشي" وقالت:

- يمكن الشعور بالبرودة في الليل والصباح الباكر، بغض النظر عن دفء النهار.

قال "فرانك" عازف البيانو:

- بدأت بوادر الشتاء.

عندها تبادلتا "كاثرين" وأمها نظرة نارية ثم استدارتا بعيدًا عن بعضهما وكأنهما خائفتان من شيءٍ ما، لم يرَ وجه "كاثرين"، لكنه لمح وجه السيدة "كابلان" وظن أنها على وشك البكاء. لكن عندها وقف "فرانك" ولمس ظهر كرسي السيدة "كابلان" وهو يمر وربت على كتفها ثم دخل. تم إخلاء المكان لأجل الحفل، وبالكاد تبقى شيء في غرفة المعيشة، هناك منضدتان طويلتان تقومان بوظيفة البار، وعلى الجانب الآخر بيانو ضخم قصير الظهر أحضره "فرانك" من "بوسطن" بشاحنة. هناك أكوام مكدسة من الكراسي والطاولات المطوية، في انتظار إخراجهم إلى الحديقة في الصباح الباكر، سمع خطوات "فرانك" في غرفة المعيشة، لديه عرجٌ خفيف في إحدى قدميه، همس له "ريتشي" قائلًا إن "فرانك" فقد نصف قدمه في "صقلية"، ثم تردد عزف البيانو من البيت إلى الحديقة.

في البداية كانت مجرد نغمات متفرقة لا يمكن معرفة الأغنية التي تنتمي لها، ثم رفعت السيدة "كابلان" إصبعها كما تفعل أحيانًا حين تنتظر شيئًا على وشك الحدوث، بدأت تومئ برأسها مع الموسيقى وسألته:

- ما الأغنية التي يعزفها يا "مايكل"؟

انتظر بضع نغمات أخرى حتى يميز الأغنية ثم قال:

- (Swing on a Star).

- أحسنت!

واصل "فرانك" العزف في غرف المعيشة وغيَّر بين الألحان، شربت والدة "ريتشي" رشفة من الكوكتيل وأغلقت عينيها وهي تقول:
- وكأنه يعزف على اثنين من البيانو.
أخذت "أنيتا" زيتونة ولعقتها مثل المصاصة وقالت:
- أليس هذا رائعًا؟
بعد قليل عاد يعزف (Swing on a Star)، وقالت السيدة "كابلان":
- هل تتذكر يا "ريتشي" عندما كنت تقف على طاولة المطبخ وتغنيها لنا؟ كنت تقوم بكل الحركات بوجهٍ جاد جدًّا.
رد "ريتشي":
- لم أفعل هذا يا جدتي!
حركت والدة "ريتشي" يديها وهي تدندن لتقلده، عندها ضحكت السيدة "كابلان" ووالدة "ريتشي" و"كاثرين" و"أنيتا"، وحتى "ريتشي" نفسه.
ضحك الجميع عداه، لأنه لم يعرف ما المضحك في طفلٍ صغير يقف على طاولة مطبخ ويغني، كما أنها قصة عائلية حدثت منذ وقتٍ طويل عندما كان والد "ريتشي" وجده على قيد الحياة ولا علاقة له بها، وبعد بضع ثوانٍ وصل كابتن "هارتمان" ولم يعد "ريتشي" يضحك كثيرًا.
أبعد إصبعه عن أنفه ونظر إلى المخاط الذي التصق به مثل حلزون صغير أخرجه من صدفته، التفت حوله بحثًا عن مكان يخفيه فيه، ثم ابتعد عن السلم الخشبي ومسح إصبعه في جانب طفَّاية سجائر "كاثرين". أخذ عقب سيجارة ملطخ بطلاء شفاهها ومسح به المخاط ثم ضغطه في الرماد بين باقي الأعقاب، بعد ذلك وضع طرف العقب على فمه.. شعر بخفةٍ في صدره وسخونة في ساقيه وضعف في معصميه، هذا الطلاء كان على شفتيها والسيجارة كانت في فمها، والمخاط كان في أنفه هو.. الآن يدخن السيجارة في فمه هو، أعلق شفتيه حولها وسحب نفسًا، لكن رائحة الرماد القديم مقززة، فرمى العقب في الطفاية مجددًا ومسح لسانه بظهر يده عدة مرات.
قرر أن يفكر في "كاثرين"، عادةً ينتظر حتى يصل إلى مخبأه حيث لا يقلق من أن يسمعه أحد إن تحمس وتحدث معها في خياله بصوتٍ عالٍ، لكنه لن يذهب إلى هناك اليوم، ليس بعدما وعد السيدة "كابلان" بالبقاء وتقديم المساعدة لمن يحتاجها، بدءًا بسيد "إيتش" الذي جاء لمساعدتهم في إخراج الكراسي والطاولات.
جلس على مقعدها ورفع ساقيه ليضعهما حيث تضعها، وأسند رأسه حيث تسندها، بعدها أخذ وشاحها ووضعه على وجهه ثم ضغطه على شفتيه.
في الليلة التي صرخ فيها في "كاثرين" في الصالة، ضغط على وجهه لكي يمنع نفسه من البكاء، جذب خديه بقوة حتى كاد يمزقهما؛ مثل اللحم المشوي. عندما استجمع شجاعته ليعود إلى غرفته أخيرًا، دفن نفسه في سريره وبكى بحرقة. في اليوم التالي، كان قلقًا جدًّا من مقابلتها لدرجة أنه انتظر حتى نزل "ريتشي" إلى الطابق السفلي ولم يتبقَ صوت في الطابق العلوي، خطط للتسلل إلى مخبئه، وعندما يشعر بتحسن يذهب إلى السيدة "إيتش"، لم ينوِ أبدًا تناول الفطور معهم، فنظرتهم إليه وهو يدخل الغرفة و"كاثرين" في المنتصف تشعره أنه أسوأ لص في العالم وأن الجميع لاحظ الأشياء المفقودة؛ سكين الجيب الخاص بـ"ريتشي"، برطمان الخوخ الخاص بـ"روزيتا"، مقص سيدة "كابلان" الفضي، وتخيُّل صوت والدة "ريتشي" وهي تقول: "أنت من أخذ مجلتي إذًا!".

تسلل في الممر ومر بغرفتها، استطاع أن يرى داخل الغرفة عبر فتحة الباب الموارب، توقف ليلقي نظرة أخرى لأنه لم يصدق عينيه؛ كانت الغرفة مرتبة ما عدا أثر نومها على الملاءة، لا توجد ملابس ملقاة على الأرض، ولا يوجد حذاء يتدلى على الأثاث، لا صور، لا طفاية سجائر منقلبة على السجادة، لا دماء.. لا شيء أبدًا. وكأن كل ما رآه مجرد حلم، عندما عبر الممر واستعد لنزول السلم رأى "كاثرين" أمامه، انتفض وكأنه تعرض لصدمةٍ كهربائية، كان على وشك الهروب والاختباء في الدولاب أو القفز من البلكون إن اضطر، لكن فات الأوان لأنها رأته بالفعل.

قالت:

- مرحبًا، يسعدني أنني لست المتأخرة الوحيدة في الصباح.

ثم انتظرته ليسيرا معًا.

أمسكت ذراعه وهما يدخلان من الباب وجلست بجانبه مباشرةً على الطاولة، وضعت فطيرة محلاة في طبقه وبجانبها بعض العسل، عندما استجمع شجاعته ونظر إليها، غمزت له خلسة. في البداية ظن أنها نادمة على ليلة أمس وتحاول أن تكون لطيفة معه، ثم خطر له أنه لا علاقة لليلة أمس بأي شيء لأن "كاثرين" بدت وكأنها لا تذكر شيئًا منها.

حك ساقه بطرف شالها المزين بضفائر كثيفة وكأنها أصابع بشرية تدغدغ جلده العاري. شعر بها مجددًا، تلك السخونة بين ساقيه. إنه يعرف ماهية هذا الشعور، ولا يريده، لا يرغب في أن تراوده مشاعر منحرفة نحو "كاثرين" مجددًا، لا يريد تلك الخيالات في عقله، ولا يريد أن يبكي بسبب هذا الشعور الفظيع في صدره، شعوره بأنه سيموت من ألمٍ لا يستطيع حتى تسميته.

أبعد الشال عنه، وجلس معتدلًا ونظر نحو الخليج.

لكنه لم يستطع رؤية السماء؛ هناك ضباب كثيف يحجب رؤيته. مال أكثر وهو قلق من ألا يستطيع رؤية طيور البحر، وهكذا لن يمكنه إخبار سيدة "إيتش" بأنه رآها، وهو يريد حقًّا أن يخبرها بذلك لتعرف أنه استيقظ مبكرًا مخصوص لهذا السبب.

لقد أخبرته الكثير عن طيور البحر عندما خرجا للتمشية ذات يوم، أخبرته أنها لئيمة وعنيدة ومزعجة؛ تأكل حبوب المحاصيل من الحقول، وبيوض الطيور الأصغر، وحتى الفئران، قالت أيضًا: "إنها تعشق فئران الحقول السمينة، مثلما نعشق نحن شريحة لحم شهية.. إنها سوداء ونحيلة وطويلة السيقان وعيونها تتحرك بجنون، ليست جميلة على الإطلاق، عندما تجتمع بأعداد كبيرة يمكن لصوتها المزعج أن يثقب أذنيك، ليس بها ما يجعل البشر يحبونها، بل إنهم يطلقون عليها اسم الطاعون أو المتاعب".

ثم رفعت ذقنها وشبكت يديها وكأنها على وشك أن تتلو ترنيمة، وقالت:

- لكن يا "مايكل" ما أجملها حيت تطير في السماء بعد الفجر مباشرةً وتلمع الشمس على ظهورها، عندها تظهر ألوان أخرى زاهية مثل الياقوت والزمرد، إنهم يطيرون فوق الخليج في خطوط طويلة متراخية، وكأنك تنظر إلى خيوط نسيج سماوي.

في بداية تعرفه بسيدة "إيتش"، كان يرغب في الضحك بمجرد أن تتكلم بهذا الأسلوب الحالم، لكن بعد فترةٍ بدأ يحبه، وذات مرة على الغداء عندما قام "ريتشي" بتقليد شيءٍ قالته بأسلوبها، أراد أن يلكمه في وجهه السمين الغبي.

قالت والدة "ريتشي":

- نعم، إنها تتحدث بأسلوبٍ مسرحي أحيانًا.. أوافقك في ذلك، لكن لا يجب عليك انتقاد الكبار.

بعدها قالت "أنيتا":
- هيا يا "أوليفيا"، الولد محق.. إنها من أكثر الأشخاص الذين قابلتهم تصنعًا، إنها درامية جدًّا جدًّا.
جلس في مخبأه يقص صور أشخاص من مجلات، قص أيضًا صور أثاث للغرف؛ إنه يضع كل الصور في أظرف أعطتها له السيدة "كابلان". هناك ظرف لكل نوع من أثاث الغرف ولكل شخصية، يحتفظ بكل الأظرف في حقيبة قماشية خضراء وجدها ذات ليلة في صندوق تحت السلم.
في عالمه الخيالي الذي يصنعه بالورق، "روزيتا" هي صديقته، والسيدة "كابلان" هي جدته، والسيدة "إيتش" هي والدته. على الرغم من أنه يجب أن يكون العكس، فسيدة "إيتش" أكبر من سيدة "كابلان" على الأرجح، لكنها أيضًا تصلح لكي تكون صديقته، لأنه يتحدث معها أكثر مما يتحدث مع أي شخصٍ آخر.
أخرج صور الأثاث من الأظرف، ورتبها لتكون غرفًا، ثم أخرج صور كل الأشخاص وأخذ يحركهم في منزلٍ خيالي. ذات مرة قص صورة لسيدة تحمل طفلًا، إنها خالته مع طفلها السري، طرقت الباب وفتحت لها صورة "روزيتا" وقالت:
- عذرًا يا سيدتي، ليس لدينا أحد بهذا الاسم. وبالمناسبة، طفلكِ "قبيه" جدًّا جدًّا.
ذلك اليوم عندما سخروا من سيدة "إيتش"، ترك شوكته ووقف ثم سار مبتعدًا.
قالت والدة "ريتشي":
- ماذا نقول حين نقوم من على الطعام؟
- لا أعرف.
- لا تعرف؟
- لا أعرف يا سيدتي.
- نقول: "اسمحوا لي بالانصراف"، هذا ما نقوله حين نغادر مائدة الطعام قبل انتهاء الجميع.
شعر بوجهه يحمر وبحلقه يحرقه لدرجة أنه لم يستطع أن يقول: "اسمحوا لي بالانصراف" حتى لو أراد، ما كان ليمكنه التحدث دون أن يختنق، لذلك تابع السير وحسب.
قالت والدة "ريتشي":
- حقًّا؟
بدت مصدومة جدًّا وكأنه أسوأ تصرف رأته في حياتها، ولد ينصرف من على مائدة الطعام دون استئذان!
أما "كاثرين" فقالت:
- دعي الولد وشأنه يا "أوليفيا"، من المفترض أنه في إجازة.
في عالم صوره الخيالي، "كاثرين" هي زوجته؛ وليس فقط لأنها جميلة، يمكنه أن يقلب صفحات كل المجلات، ومهما وجد من جميلات يبتسمن له مثل "إيفا جاردنر" و"إليزابيث تايلور"، ستظل "كاثرين" هي الأجمل في نظره، لكن المهم هو أنها تدافع عنه كما لم يفعل أي شخصٍ في العالم، لهذا ستظل هي أكثر من يحب.
أول مرة شعر بهذا نحوها كان في مخبأه وتظاهر بأنه يقبلها، شعر بقشعريرة شديدة تسري في جسده كله، وبدفءٍ يتحرك أسفل بطنه، أغمض عينيه وبدأ يفرك نفسه، شعر بنشوةٍ كبيرة وهو يتظاهر بتقبيلها وتزداد نشوته والسخونة أسفل جسده.. فجأة سمع أصوات ألمانية في عقله؛ أصوات تضحك وتتكلم، فاختفت "كاثرين" من خياله ورأى نفسه فجأة في بيت في منتصف الليل، وهناك امرأة تهمس

له: "مايكا".. "مايكا"، ثم سحبته من سريره الناعم الدافئ ودفعته أسفله، كان طفلًا صغيرًا، لمح اليدين التي دفعته تحت السرير وغطته ببطانية، لكنه لم يرَ وجهها. سمع أصوات؛ رجل وامرأة.. صوت الرجل صاخب وعنيف، أما المرأة صوتها ضعيف، شعر بالمرتبة تضغط على شبكة السرير السلك، وسمع الرجل يسألها بالألمانية: "أين ذلك الرجل؟"، من هذا الرجل بالضبط؟ طعم الغبار في فمه، وشبكة السرير التي تضغط عليه، وصوت المرأة. إنه يعرفه ولا يعرفه في الوقت نفسه، كانت تقول: "هشش.. هشش.. هشش يا مايكا.. هشش".
استيقظت زوجته هذا الصباح باكرًا على غير العادة، سمعها وهي تسير خارج البيت قبل أن يفتح عينيه حتى، ثم سمعها وهي تفتح صنبور البانيو، بعد هذا لم يسمع شيئًا.
ناداها من الحمام وهو يربط حذاءه:
- هل أنتِ بخير؟ هل أنتِ بخير؟
- ولم لا أكون؟
- كنتِ هادئة جدًّا.
- هل تريد التحدث عن شيءٍ ما؟
- لا.. لا، اذهبي واستمتعي بالاستحمام، عليّ كتابة بعض الرسائل.
اعتادت زوجته أن تتولى هذه الأمور، لكن كل هذا تغير بعدما طردت آل "كابلان" من الشاطئ، انتهى الخلاف بينه وبينها، وناقشا شروط الصلح، أخبرها أنه ينزعج حين تتخذ قرارات بالنيابة عنه؛ مثل طرد الناس من الشاطئ، والرد على رسائله دون استشارته، كما اكتفى من اضطراره لكتابة رسائل توضيحية بعد رسائلها.
قال:
- هذا يجعلني أبدو متخلفًا ويجعلكِ تبدين مجنونة بسبب اختلاف أسلوب الكلام في الرسائل.
فردت عليه:
- قد أكون مجنونة لكنك كسول، فلتكتب رسائلك بنفسك من الآن فصاعدًا.
والآن اضطر للالتصاق بمكتبه ليكتب رسائله.
أخذ قهوته إلى الطاولة ونظر إلى كومة الخطابات التي استقبلها في الأسبوعين الماضيين ولم يرد عليها بعد، كلمة "ملل" ظلت تومض في عقله مثل لافتة مضيئة.
اختار بعض الخطابات من الكومة؛ رسالتان سيرد عليهما بالشكر، وثلاث دعوات سيرد بالرفض، ورسالة نعي سيرد عليها بتعزية، ورسالة من أخته.
لا يمكن لأخته الانتظار.. ستحتاج مصروفها، ولا يمكن أن يرسل إليها شيك المال بجفاء دون رسالة، لم يعد يعرف ماذا يقول لها الآن.. على عكس وهما صغيران، كانا يتواصلان بسهولة، كانا ينهيان جمل بعضهما، وفي الليل كانا يرسمان صورًا مثل القصص الهزلية، ثم يدفعها كلٌ منهما للآخر من تحت باب الغرفة، وبمجرد أن يتسلل عائدًا لغرفته يسمعها تضحك، عندما كان يذهب للتخييم كان يكتب لها خطابات طويلة مرحة، لم يواجه أي مشكلة في ذلك، بل كان يسعد كثيرًا.. أما الآن فيشعر كأنه في عاصفة ثلجية يحفر الكلمات على حجر، قرر أن تنتظر أخته الآن ويرد على الخطاب الذي وصل بالأمس من صديقه العزيز في نيويورك. أخذ ظرفًا وكتب عليه عنوان المعرض، ثم بدأ يكتب رسالة.
"صديقي العزيز،

لا داعي للاعتذار، أعلم تمامًا أنك بذلت جهدك، لهذا أنا ممتن جدًّا لك...".
خشي أن تخرج من الحمام وتأتي خلفه بصمت وتنظر إلى ما يكتب، فأسرع في الكتاب، كتب سطورًا ودية موجزة ووعده بأن يمر لأخذ اللوحات عندما يعود إلى نيويورك، ثم مزح قائلًا بأنه سيبلغ زوجته الأخبار وقد تقتله قبل أن يقابله مجددًا. أخيرًا طوى الرسالة على عجل ووضعها في الظرف، ثم وضعه في جيبه الداخلي.
كتب رسالة لموظفة المعرض التي ساعدته في لوحاته الأخيرة، كتب كلمة "عزيزتي" لكنه نسي اسمها الذي قرأه للتو في توقيعها، تذكر فجأة أنها آنسة وأن اسمها يبدأ بحرف الألف.
بالتأكيد تعبت الآنسة "أ" العزيزة في إعداد هذه القائمة، قسمتها إلى عواميد للعناوين والتواريخ وأسعار البيع والوجهة النهائية، أخذ القائمة ونظر إلى عناوين اللوحات، عندها تسابقت صورٌ كثيرة في ذهنه؛ صورة امرأة بملابس داخلية على طرف السرير، ثم صورة مياه بيضاء، ثم جانب مبنى ينعكس الضوء من عليه.
في البداية، بدت القائمة طويلة لدرجةٍ مُرضية، لكن عندما وضعها على الطاولة ووضع طرف قلمه عليها ببطء، لم تعد باهرة بالقدر نفسه، قال لنفسه: "هل هذه حياتي بأكملها؟ أو معظمها تحريًا للدقة، حتى لو عشت عشر سنوات أخرى، لن تكبر القائمة كثيرًا بالمعدل الذي أنتجه، ربما لن تزيد على الإطلاق.. ربما لوحة "أورلينز" ستكون لوحة اعتزالي وشكرًا".
قالت زوجته من بعيد:
- لقد استيقظت مبكرًا!
- صحيح.
- لم أستطع النوم جيدًا لذلك فكرت في أخذ دُش طويل ثم فطور سريع ثم أستلقي في السرير ساعة وبعدها أنام، وهكذا أكون متيقظة في الظهيرة.. ما رأيك؟
- فكرة جيدة.
هذا ما قاله على الرغم من أنهما متأكدان بأنه يستحيل عليها النوم بعد فعل كل هذا، استيقظت الآن وستفكر في الكثير من الأمور حتى موعد الحفل.
- كان هذا تلميحًا بالمناسبة.
- ماذا؟ فهمت، هل قصدتِ أن أحضر لكِ الفطور؟
- نعم..
ثم سمع طرطشة الماء وهي تخطو تحتها بسعادة.
قلب بين الخطابات ووجد اسم موظفة المعرض مكتوب على طرف ورقة تحت فاتورة ضرائب.. آنسة "أرنوت"، آنسة "أ. أرنوت"، لم يستطع أن يتذكر وجهها، لكنه تخيَّل يديها الرقيقتين وهي تخط السطور وتكتب البيانات وتنظمها في عواميد. إنه لم يقابلها من قبل، فالموظفون في هذا المجال يتبدلون سريعًا، لا أحد يريد أن يجعل من هذه الوظيفة مهنة عمره. تذكر موظفة زرقاء العينين من "كنتاكي"، جلست بجانبه ذات مرة في افتتاح أحد المعارض، كانت تفوح من فمها رائحة نبيذ رخيص وتناديه بـ"سيدي"، قبل تقاعدها ببضعة أشهر قالت له: "لقد حلمت طوال عمري بالعمل في معرضٍ في نيويورك يا سيدي، تركت خطيبي وتخليت عن كل شيء.. وعلام حصلت؟ دوالي في القدمين، وأجر بخس، ومدير لا يعرف معنى الامتنان.. أما اللوحات التي أصبحت تأتي إلينا الآن، فلن تصدق غرابتها، بعضها لا أعرف كيف أعلقه!".

كتب: "عزيزتي الآنسة أرنوت، أكتب إليكِ لأشكركِ على جهودكِ معي...".
سمع صوت جريان وطرطشة الماء في الحمام، انتهى من رسالة آنسة "أرنوت"، ثم كتب الرد نفسه على الثلاث دعوات، "للأسف لن نكون في نيويورك"، شعر بلمحةٍ من السعادة وهو يقول هذا، قرر أن يحافظ على مزاجه السعيد وأن يؤجل خطاب العزاء ليوم آخر.
عاد لخطاب أخته، أمسك دفتر الشيكات ولمس أعقاب الشيَكات المقطوعة وتساءل عن أخبار أخته، الزيارة الوحيدة التي جاءت فيها إلى "تورورو" جعلت علاقتهما مشدودة، حتى عندما كانا وحدهما في السيارة وهو يوصلها إلى المحطة، لم يعرف أحدهما ماذا يقول غير الوداع. كان الشجار بين السيدتين ولا علاقة له به، لقد رفض أن ينحاز لأيهما، ومع ذلك احتقرته الاثنتان.
لا يعرف حتى كيف يبدأ الخطاب؛ عزيزتي؟ غاليتي؟ أختي؟
سحب شيكًا من الدفتر ووقعه، أمسكه بيديه للحظات ثم أخذ ورقة صفراء من أوراق الرسم الموضوع عند طرف الطاولة، بدأ يرسم رسمًا له ولزوجته في حلبة ملاكمة وهما يرفعان أيديهما بقفازات القتال، كتب تحت الصورة: "يبدو أننا نعاني شجارًا صيفيًّا آخر في كيب".
طوى الرسم ووضعه مع الشيك في ظرف، ثم نظر إلى كومة الخطابات التي تنتظر ردًّا، دفعها جانبًا وأخذ الرسائل الجاهزة للإرسال ووضعها في جيبه الداخلي مع الرسالة التي سيرسلها لصديقه، بعد ذلك نهض وذهب إلى الحمام.
نظر عبر شق الباب ورأى رأس زوجته مسترخية على حافة البانيو مثل بطة على سطح الماء، قال لها:
- سأحلق ذقني ثم سأحضر لكِ الفطور وبعدها سأخرج.
رفعت رأسها وقالت:
- إلى مكتب البريد؟
- نعم، نعم. وبعدها سأذهب إلى...
- أين؟ أين؟ إلى أين ستذهب؟
- أخبرت السيدة "كابلان" أنني سأمر عليها لأساعدها.
- حقًّا؟ حقًّا؟ وماذا عني؟
- هل تحتاجين إلى مساعدة أيضًا؟
- لا، لكن...
- سأحلق ذقني في المطبخ، الإضاءة أفضل هناك.
دخل الحمام ليأخذ أدوات الحلاقة من على الرف، وقال لها:
- ما زال أمامنا ساعات على الحفل، لن أتأخر.
- حسنًا، لكن لا تنساني! لا أريد أن أتأخر، لا أريد أن أفوت أي...
- فقط لا تغرقي في البانيو.
ثم غادر.
هتفت خلفه:
- وبالمناسبة، أنا من سيقود اليوم.
توقف، فأضافت:
- في الذهاب والعودة.

خلع سترته ووضعها على ظهر الكرسي، ثم وضع إبريق القهوة على النار وعاد إلى الحمام وقال:
- هل قلتِ شيئًا؟ لم أسمعكِ...
- نعم، قلت بالتأكيد.. قلت إنني أريد القيادة في الذهاب والعودة.
- لو هذا ما تريدينه...
تحركت المياه مع حركتها وهي تقول:
- ما معنى هذا؟ "لو هذا ما تريدين"، لماذا تقولها بهذه النبرة؟
- أنا فقط أعرف أنكِ لا تحبين القيادة في الظلام.
- هل تظن أننا سنبقى حتى المساء؟ هل تظن أنك قد ترغب في ذلك أصلًا؟
- يبدو أنها ستكون حفلة كبيرة، أحضروا عازف بيانو بارع، وأفرغوا غرفة المعيشة من أجل الرقص.
- حقًّا؟ لا بأس، المسافة قصيرة بالسيارة، سأكون بخير.
أومأ وقال:
- بالطبع.
ثم عاد إلى المطبخ.
علق المرآة على النافذة، ووضع الصابون ومعجون الحلاقة على ذقنه. فكر في أنها على الأرجح تريد أن يراها الناس وهي تقود السيارة بنفسها؛ مثل نساء عائلة "كابلان" والكثير غيرهن في المنطقة، تخيلها وهي تتحرَّق شوقًا لتركن السيارة خلف صف طويل من السيارات، وعامل الجراج الذي وظفته السيدة "كابلان" يرشدها بالأدب لكي تركن السيارة، سيكون مرتديًا قفازات بيضاء على الأرجح، ستلتصق السيارات ببعضها لأن كل بوصة من الشارع أصبحت غالية الآن، ثم تخيل صوت اصطدامها بالسيارة التي أمامها والتي بجانبها.
سحب الموس فوق صابون الحلاقة على خده، ونظر إلى عينيه الشاحبتين بحزن، كان يظن أنهما أغلقا موضوع قيادتها للسيارة، ظن أن الحادثة التي وقعت في بداية الصيف وضعت حدًّا لذلك، لقد قادت في وسط الطريق بينما تخرج شاحنة قطر سيارات من شارع جانبي، اضطر أن يجذب المقود من بين يديها ويديره إلى جانب الطريق ويترك السيارة تصطدم بعامود. الاصطدام بعامود أرحم من الاصطدام بشاحنة، رفضت أن تترك المقود وأصرت أنها على حق. حاول أن ينزع يديها من حول المقود. وعندما لم يفعل، حاول أن يبعدها عن مقعد السائق. وبدفعةٍ واحدة أصبحت خارج السيارة. شاهد رواد المطعم القريب الأحداث من الواجهة الزجاجية، بعد ذلك أقسم لها أنهما لن يتشاجرا على القيادة مجددًا، وأنه سيتركها تقود إذا أرادت، يومًا ما ستتسبب في قتل أحدهما، وهو لا يمانع من منهما سيكون المختار.
جفف وجهه ونظف أدوات الحلاقة ورتبها ثم أعاد المرآة لمكانها، جهز إبريق القهوة وبدأ يحضر الفطور.
سمعها تقول:
- أريد أن أقود.
استدار ورآها وهي تلف نفسها بمنشفة حمام كريمية اللون، تشبه حبة جمبري ملفوفة في عجينة.
قال لها:
- نعم، فهمت!

شعر بالتوتر يتصاعد بينهما.
قالت له بحدة:
- لا تظن أنك ستمنعني.
- لا أنوي ذلك.
واصلت الكلام:
- لأنني أريد هذا، ونحن اتفقنا أنه متى أردت...
- وأنا وافقت، هل تريدين الفطور هنا أم على السرير؟
- في أي مكان، المهم ألا تنسى من سيقود.
نظر "مايكل" إلى الضباب، لقد بدأ ينقشع من أسفل إلى أعلى مثل ستارة مسرح، لمح من تحته البحر المتلألئ مثل زينة الكريسماس، تحول الضباب إلى بخار ثم بدأ البخار ينجلي تدريجيًّا حتى ظهرت السماء والبحر، مال للأمام أكثر ليحاول رؤية طيور البحر.
وفجأة صدرت ضوضاء من المنزل وشتتت انتباهه، صوت ارتطام ثم صوت صرير طويل وقصير، وأخيرًا صوت صفير.
اعتدل وأخرج إحدى قدميه من الكرسي وهو يميل بعيدًا عن كرسي "كاثرين".
تعرف على صوت الصفير.. إنه للسيدة "كابلان"، دائمًا تصفر عندما تحضر فطور "كاثرين"، سمعها تصفر في أوقات أخرى أيضًا؛ عندما تكون وحدها في المكتبة أو في الحديقة تعتني بالنباتات.. إنها تصفر ببراعة "هاري" وهو يصفر في طريق عودته من العمل إلى المنزل، أو ببراعة أي رجل يسمعه يصفر في الشارع.
ذهب إلى الباب الزجاجي الكبير ووضع أذنه عليه ليتابع صوت الصفارة النازل من السلالم، انتظر ليتابع إلى أين ستذهب بعد ذلك.. إلى المطبخ أم ربما هنا؟ لقد انقطعت الصفارة قبل أن تصل إلى الصالة. وهكذا لم يعد يعرف وجهة السيدة "كابلان"، أسرع إلى كرسي "كاثرين" وألقى عليه الشال، وبدأ يعدل مسند الرأس، ترددت أنغام البيانو وتعالت تدريجيًّا، عاد إلى الباب الزجاجي واختلس النظر إلى الغرفة، رأى السيدة "كابلان" واقفة عند البيانو، كانت ترتدي روب حمام بنفسجي طويل وشعرها مليء بالبكرات، عادت النغمات مجددًا، سبعة نغمات بالضبط. فجأة استدارت ونظرت إليه وكأنما عرفت أنه واقفٌ خلفها، عبرت الغرفة وهي تبتسم له وتخرج مفاتيح من جيبها.
عبثت بالمفاتيح قليلًا ونظرت إليه وكأنما تقول "مفاتيح كثيرة، لماذا نحتاج كل هذه المفاتيح؟".
اقترب انعكاساهما من بعضهما، عبر انعكاسه من خلال انعكاسها. بدا الأمر وكأنهما يقفان تحت الماء وينظران لبعضهما، توقف الزمن لبضع ثوانٍ ثم بدأت الغرفة التي تقف فيها تمتلئ بالناس، مئات من الناس الشفافين يقفون في حشدٍ كبير غير محدد الملامح؛ مثل الأشباح.. لا بد أنهم أشباح.
خطر له فجأة أن الناس لا تموت بسبب الحروب فقط، إنهم ببساطة.. يموتون؛ مثلما مات "جاك" المسكين، يومًا ما ستموت السيدة "كابلان" وستصبح شبحًا، ويومًا ما سيصبح هو أيضًا شبحًا، لكن سيدة "كابلان" ستنضم إلى حشد الأشباح قبل أن يحين دوره بكثير، شعر بقبضةٍ باردة تعتصر صدره عندما فكر في هذا، تقلص فمه وأصبح على وشك البكاء. نظرت إليه بعبوس؛ بدا القلق في عينيها، لكن فجأة نظرت إلى شيءٍ يعلوه بكثير، نظر إلى انعكاسهما على الزجاج فلمح انعكاسًا آخر طويلًا وداكنًا ويطير في السماء، استدار بسرعة لكن الطائر اختفى بالفعل، هذا لو كان طائرًا فعلًا.

انفتح الباب، ولم يجد غير السيدة "كابلان" في غرفة المعيشة.. فقط السيدة "كابلان"، والبيانو يقف بمحاذاة الجدار وجزء من غطائه مفتوح، والطاولات الطويلة مغطاة بقماشٍ أبيض وعليها صفوف كثيرة من الزجاجات اللامعة.

- "مايكل"! ظننت أنني الوحيدة المستيقظة في هذا الوقت المبكر، أرجو ألا أكون قد أخفتك.

- لا، عرفت أنها أنتِ، سمعتكِ تصفرين.

ضحكت السيدة "كابلان" وقالت:

- والآن ضبطني بالروب وبكرات الشعر، لن تسعد أمي بهذا؛ كانت تعارض تصفيري، قالت إنني لن أحصل على زوجٍ هكذا، لكنها كانت مخطئة والعكس هو ما حدث، أقسم زوجي أنه أحبني بسبب براعتي في الصفير، وبالنسبة لبكرات الشعر.. أنا واثقة أنك لن تخبر أحدًا عنها. بالمناسبة، كيف دخلت إلى هنا؟

- من باب المطبخ.

- لا بد أنني نسيت إغلاقه، لقد بدأت أغلق الأبواب في الليل مؤخرًا، وما زلت أنسى كم بابًا في هذا البيت، هل استيقظت من مدةٍ طويلة؟

- منذ قليل.

- هل أنت متحمس بشأن الحفل؟

- لا أعرف. ماذا عنكِ؟

- متوترة قليلًا؟

- لماذا؟

- أخشى أنني ربما بالغت في التحضير، من أسباب افتقادي لزوجي الراحل هو أنه كان يمنعني من المبالغة.. من يدري؟ ربما لا يأتي أحد ونبقى وحدنا لنأكل المقبلات الصغيرة بيدينا "بأسلوبٍ لا يفتح الشهية أبدًا"، كما تقول "أوليفيا"، وسنظل على هذا الحال لما بعد عيد الشكر بكثير.

- هل سيأتي السيد والسيدة "إيتش"؟

- ولم لا؟ بالطبع سيأتيان، وهما يكفيان تمامًا بالنسبة لنا يا "مايكل"، ما رأيك أن نذهب إلى المطبخ ونتناول فطورًا سريعًا قبل أن يستيقظ كل من بالبيت؟ نحن لا نحصل على فرصة لتبادل الحديث أبدًا، صحيح؟

- نعم يا سيدة "كابلان".

- سأحضر القهوة بينما تعد أنت البيض، يجب أن نتناول فطورًا قويًّا، فلن نحصل على لحظةٍ من الراحة بمجرد أن يبدأ الضيوف في الحضور.

وقفت السيدة "كابلان" في المطبخ تفتح الدواليب وتغلقها وتعبس عندما ترى أي شيء، وكأنها لم تدخل إلى هناك من قبل.

قالت له من خلف باب الثلاجة:

- لاحظت أنك أصبحت تجيد كتابة الخطابات الآن.

ارتاح لأنها لا تستطيع رؤية وجهه الذي احمر خجلًا.

أخرجت طبقًا به زبد وقالت:

- أنا معجبة بتطورك، كم خطابًا كتبت هذا الأسبوع؟

- لا أعرف، ربما ستة أو سبعة على ما أظن.

- هذا كثير، هل وصلتك أي أخبار من البيت؟
- اثنان، كتبتهما خالتي ووقع "هاري" باسمه، لكنني لم أستقبل أية رسائل مؤخرًا، أظنهما انتقلا إلى شقتهما الجديدة الآن ولم يزعجا نفسيهما بالكتابة مجددًا.
فتحت مخزن الطعام ورأى رأسها وهي تتحرك لتبحث بين محتوياته.
- لن ينتقلا دون إخبارك يا "مايكل"، العائلة التي تعتني بك طيبة.
استدارت وهي تبتسم ومعها علبة بيض كبيرة.
- هل تتذكرني عندما تقابلنا في دار الأيتام يا "مايكل"؟
- نوعًا ما، لا أعرف.
- هل تتذكر عندما وصلت إلى هناك أول مرة؟
- لست واثقًا.
- ماذا عن قبل هذا؟ هل تتذكر شيئًا؟
- لا، ليس حقًا.
- كل ما أعرفه هو أنك حين وصلت إلى دار الأيتام كنت ولدًا صغيرًا وخجولًا جدًّا، لذلك أنا سعيدة لأنه أصبح لديك أصدقاء الآن، من المهم أن نظل على تواصل مع أصدقائنا، معظم ضيوف اليوم كن زميلاتي في المدرسة، منذ وقتٍ طويل جدًّا.. لم نعد شابات الآن.
ضحكت وأضافت:
- إحداهن ستنجب حفيدتها قريبًا، هل تتخيل هذا؟ لكنها تكبرني ببضعة سنوات بالطبع.
ثم غمزت له بالطريقة نفسها التي تغمز بها "كاثرين".
- حاولت أن أشجع "ريتشي" على مراسلة أصدقائه مرتين؛ مرة مع ولد في "هونج كونج"، ومرة مع ولد في فرنسا.. كلاهما أمريكي. فقد والديه في الحرب، كتب لهما مرة أو مرتين، لكن الولدين لم يردا، أو أن "ريتشي" لم يرغب في المواصلة.. المهم أنه لم ينجح الأمر لسببٍ ما، ماذا عن أصدقائك؟ هل يردون؟
- لا يمكنهم، فأنا لم أعطهم العنوان.
- لم لا؟
- لأنهم قد يكونون مشغولين جدًّا ولا وقت لديهم للكتابة، أو قد لا يملكون مالًا لشراء الأظرف. على كل حال، أريد الانتظار حتى أعود إلى المدرسة وأعرف منهم الأخبار.
- فهمت.
أخرجت شوكة كبيرة من الدرج، ثم وقفت في منتصف الغرفة ونظرت حولها وقالت:
- أحتاج وعاء خلط البيض، أين تضعه "روزيتا"؟
- إنها تضعه هناك على هذه الأرفف بجانب الموقد، وانظري إلى الرف المجاور لها، هناك المقلاة النحاسية.
- نعم، هذا صحيح!
عادت إلى الطاولة ووضعت الوعاء وعلبة البيض أمامه ثم ناولته الشوكة الكبيرة وقالت:
- هيا، اكسر البيض!
ضحكا معًا ثم توقفت عن الضحك ورفعت إصبعها في الهواء وهي تميل برأسها نحو باب المطبخ، ذهبت إلى الباب وفتحته بقدمها فسمعت ما سمعته منذ لحظات.. رنين التليفون، قالت:

- سأعود حالاً.
ثم خرجت وانغلق الباب خلفها.
عد البيض الذي في العلبة، فوجد أربعًا وعشرين بيضة، لم يعرف كم بيضة عليه أن يكسر، فقرر أن يُحَضر كل بيضة على حدة، يكسرها ويخفقها ثم يأخذ غيرها، لكنه تمنى أن تأتي سيدة "كابلان" قبل أن يكسر كل البيض.
أنارت أشعة الشمس نصف المطبخ عندما دخلت من النافذة الكبيرة ولمعت على العوارض الخشبية والأرضية والطاولة، بينما انعكس ظل البحر وأمواجه على الجدران، شعر كأنه في سفينةٍ، فنظر إلى البحر وتأرجح ليزيح من هذا الشعور، اقتربت الساعة من السابعة إلا ربع.
بدا منظره مضحكًا وهو واقفٌ في المطبخ ويمسك بيضة وأمامه وعاء الخلط، ما كانت خالته لتسمح له بهذا أبدًا، قد تسمح له بتحضير الطاولة وإخراج القمامة وتجفيف الأطباق وتقديم الساندويتشات لـ"هاري" وأصدقائه حين تكون بالخارج، لكن هذا كل شيء.
البيضة ملمسها غريب في يده، فهي هشة وفي الوقت نفسه قوية، لم يعرف ماذا يفعل بها، فتخيل ماذا كانت ستفعل خالته لو أنها مكانه، نقر البيضة على جانب الوعاء، لكن القشرة لم تنكسر. نقرها مرة أخرى، لكن هذه المرة انكسرت في يده وأغرقت جانب الوعاء والطاولة. رمى القشرة في القمامة بينما سالت البيضة على الأرض. أخذ قطعة قماش وحاول تنظيف الطاولة، لكن سائل البيضة التصق بالقماشة.. فأخذ يبللها بالماء، عندما انتهى نظر إلى الساعة، فلاحظ أنه استغرق خمس دقائق، سمع حركة "روزيتا" في القبو، لكنها خرجت من الباب الآخر ولم تصعد إلى المطبخ، سقط ضوء الشمس على مقبض الثلاجة، ثم انعكس على صينية عليها كؤوس تنتظر أن يتم إخراجها بفارغ الصبر. بعدها صعد الشعاع على الجدار وتوقف عند يد المقلاة النحاسية التي نسيت السيدة "كابلان" أن تنزلها من على الرف، عندها قال لنفسه: "عندما أكبر سأعيش في هذا البيت وسأتظاهر أنني على سفينة".
أخرج سكينًا من درج أدوات المائدة وبدأ من جديد، هذه المرة تمكن من شق القشرة وفتحها بأصابعه، فسقطت في الوعاء، أخذ الشوكة وخفق بها البيضة، ثم أخذ بيضة أخرى وكرر الأمر.
أول مرة طلب ظرفًا من السيدة "كابلان" كان لأجل خطاب "هاري" وخالته، فأعطته ظرفًا واحدًا وورقتين فارغتين. قالت له:
- إذا انتهيت من رسائلك وأعطيتها لي، سأجعل شخصًا يوصلها إلى مكتب البريد.
- لا بأس يا سيدتي، قالت "كاثرين" أنه يمكنني الذهاب معها متى ذهبت إلى هناك، وهكذا يمكنني إرسال الخطابات بنفسي.
عندما قال هذا، أدرك لحظتها أنه كلما كتب خطابات أكثر، ذهب مع "كاثرين" مراتٍ أكثر إلى مكتب البريد.
عندها سيجلس بجانبها في السيارة الـ"بونتياك"، وسيتحدث معها طوال الطريق إلى مكتب البريد، وربما ستأخذه معها إلى "إيستهام" عندما تذهب إلى الطبيب "توم" لأخذ الحقنة، سيتمكن من أن يُشبع عينيه من النظر إليها. يداها على المقود، وساقها ظاهرة من فتحة الجيبة، ووجهها الجميل، وشعرها.. وكل ما فيها.
بعد ذلك كتب الكثير من الخطابات لدرجة أن سيدة "كابلان" أعطته رزمة كاملة من الورق ونصف صندوق من الأظرف، وقالت له:
- تفضل، هذا سيكفيك لفترة.

في البداية، استخدم أسماء حقيقية لأولاد في فصله، على الرغم من أنه لم يرسلها لهم حقًا، أولًا لأنه لا يعرف عناوينهم، وثانيًا لأنه لا يعرف ماذا يقول لهم.
بعد ذلك اخترع بضعة أسماء وعناوين، استخدم أي اسم يخطر على باله وهو يكتب، حاول أن يكتب بمعدل خمسة أو ستة خطابات في الأسبوع، ولم يلحظ أحد عدا "ريتشي".
قال له "ريتشي":
- كيف لم تذكر لي كل أصدقائك في نيويورك من قبل؟
- لأنه ليس من شأنك.
- لكنك لست مضطرًا أن تكتب لهم الآن، أعني في هذه اللحظة.
- بلى، عليَّ هذا.
- هل تعرف لماذا أنت هنا؟ دعني أخبرك في حال لم تكن تعرف، لأنه من المفترض أن تكون بصحبتي، لكنك تواصل الهرب أو الاختباء لكتابة رسائل.
- حقًّا؟
- نعم، كان يمكنني اصطحاب الولدين من عائلة "ويستين" في "هيانيس".. صحيح أنهما متنمران، لكنهما لا يواصلان الهرب مني على الأقل، ما أسماؤهم على أي حال؟
- اسم من؟ الولدان من "هيانيس"؟
- لا، أصدقاؤك في نيويورك.. ما أسماؤهم؟
- وما شأنك بهم؟
- لا أظنني أصدقك.. بصراحة، أظنك تقول الكثير من الأكاذيب، بعض الناس قد ينعتونك بالكاذب.
- وبعض الناس قد ينعتونك بولد سمين قبيح لا يستطيع تكوين صداقات بنفسه.
وقف الولد عند طاولة المطبخ يخفق البيض ويفكر في الخطابات التي كتبها، كسر بيضة وراء بيضة إلى أن أصبح لديه وعاء مليء باللون الأصفر الفاقع، انتظر عودة سيدة "كابلان"، انتظر حتى سمع سكان البيت وهم يستيقظون، و"روزيتا" وهي تتحدث مع شخصٍ ما في البلكون الأمامي، وصوت أبواب شاحنة وهي تنغلق بقوة بعدما توقفت في الممر أمام المنزل، كما سمع خطوات عمال التوصيل على الأرض وهم يحضرون التجهيزات الخاصة بالحفل.
ركن السيارة الـ"بويك" في الشارع، ودار حول شاحنة توصيل واتجه إلى المنزل، صدت أوراق شجر العرعر أشعة الشمس وعكستها في وجهه، بدأت الرؤية تتضح أمامه بعدما تجاوز أشجار الأرز، رأى "روزيتا" في البلكون الخارجي توقِّع باستلام الطرود التي تكدست حولها وكأنها نجمة سينمائية تعطي توقيعها لمعجبيها.
قالت وهي تدعوه للاقتراب منها ومن الطرود المحيطة بها:
- أهلًا يا سيدي، لقد وصلت باكرًا جدًّا! اذهب إلى غرفة المعيشة ريثما أوقظ الولدين.
حمل مطرقة وتعريشة خشبية مطوية، وسار خلف عامليّ توصيل، أحدهما يحمل صندوق نبيذ بذراعيه المشعرتين، والآخر يحمل حملًا أخف بكثير.. كيسًا من المخبوزات على كتفه، نظر خلفه ورأى عاملين آخرين يتقدمان ويحملان صناديق من المقبلات الصغيرة، استدار عمال التوصيل إلى اليسار نحو المطبخ، أما هو فاستدار يمينًا نحو غرفة المعيشة.
كانت خالية والباب الزجاجي مفتوح على آخره، سمع صوت ذبذباتٍ غريبة آتية من البلكون الخارجي، سار على الأرضية غير المفروشة وسمع صدى خطواته، خرج إلى البلكون ووقف قليلًا

ينظر إلى العشب والأوتاد الخشبية العديدة المغروزة فيه، ما زال يسمع صوت الذبذبات. سار في البلكون حتى وجد جهاز "جرامافون" به أسطوانة انتهت لكنها ما زالت تدور، لمح غلاف الأسطوانة على كرسي، أخذه وتفصحه لثوانٍ.. كان عليه صورة بالأزرق والوردي للفضاء الخارجي، وعليه صورة شخصٍ عجوز ومحني الظهر يشبه الساحر "ميرلين"، ويعاني ليقف مستقيمًا في مواجهة قوى الكواكب المحيطة به.

سمع صوت خطوات ثم وجد السيدة "كابلان" بجانبه وتسأله:

- هل تعرف أسطوانة (The Planets Suite) لـ"جوستاف هولست"؟

- أظنني سمعت هذه الموسيقى في الراديو منذ بضعة سنوات.. بقيادة المايسترو "ستوكوفسكي".

- نعم، سمعناها في الراديو أيضًا! إنها المفضلة لدى "كاثرين" ولي أيضًا، على الرغم من أن باقي السيدات يظننها كئيبة بعض الشيء، ماذا عنك؟ هل أعجبتك؟

- جدًّا.

ترك غلاف الأسطوانة على الطاولة، ابتسمت السيدة "كابلان" وقالت:

- لا يمكنني أن أصف كم نحن ممتنون لمساعدتك! أخبرني، ما رأيك في حديقتنا الصغيرة؟

- جميلة جدًّا.

التقطت طفاية مليئة بعقاب السجائر وعبست، ثم ابتسمت له وسألته:

- ماذا لديك هنا؟ مطرقة؟

رد وهو يريها التعريشة الخشبية المطوية:

- نعم، وأحضرت هذه أيضًا من أجل الشجرة، لمنع الكلب من...

- ... استخدامها كحمام؟

- يمكننا أن نضعها حول الشجرة.

- ألم ترَ ما فعلنا؟ لقد وضع "روبن" شيئًا بالفعل، بالإضافة إلى أننا أرسلنا "باستر" في إجازة قصيرة، هناك امرأة في "بروفينستون" ستعتني به ليومٍ أو اثنين.

- "روبن"؟ هل ظهر إذًا؟

- نعم، لكنه اختفى مجددًا. هل ترى تلك الأوتاد الخشبية على العشب؟ لقد وضعها لتثبيت الطاولات، ألاحظت أنه جعلها أطول في الأجزاء المنحدرة؟ إنه ماهر. أعترف بأنه يتملص من العمل، وأتمنى ألا تكون زوجته تعاني معه كما أعاني، لكنه ماهر جدًّا، لقد وضع شيئًا على المنطقة التي قضى فيها "باستر" حاجته. مثل لوح أو ما شابه. في حال داس أحدٌ عليها، لكن أشكرك على كل حال.

- لا بأس.

- أتمنى ألا تكون قد أتعبت نفسك.

- لا، أبدًا.

المطرقة والتعريشة كبيران وثقيلان، فنظر حوله بحثًا عن مكان يضعهما فيه، قرر أن يتركهما عند درجات البلكون ويبتعد.

قالت السيدة "كابلان":

- حسنًا، ما نحتاج فعله الآن هو...

خرجت "روزيتا" من البيت وقالت:

- سيدة "كابلان"، سيدة "كابلان"، لقد اختفى "مايكل".. إنه ليس في سريره.

وضعت السيدة "كابلان" يدها على فمها وقالت:
- "مايكل" المسكين!
- لا تقلقي يا سيدة "كابلان"، أنتِ تعرفين "مايكل" وتصرفاته.
- لا يا "روزيتا"، أعني أنه مسكين لأنني تركته في المطبخ منذ ساعة ليخفق البيض، كنا سنفطر معًا وبعدها رن التليفون ونسيته تمامًا وصعدت لأرتدي ملابسي.
تبع المرأتين إلى المطبخ حيث وجدوا "مايكل" يحضر الطاولة بسعادة، عازف البيانو يقف عند الموقد يأخذ البيض من مقلاة كبيرة ليوزعه في مجموعة أطباق، وهناك رجل يرتدي بنطالًا قطنيًّا باللون الزيتي الفاتح وسترة على أكتافها شرائط مثل ضباط الشرطة ويجلس على الطاولة، بادر بالنهوض حين رأى السيدة "كابلان"، لكنها أشارت له بالجلوس وتحدثت مع "مايكل":
- آسفة جدًّا يا "مايكل"، لقد انشغلت بالتجهيزات و...
قال "مايكل" وهو يبتسم:
- لا بأس، أنا أساعد "فرانك" وكابتن "هارتمان"، سنأكل بيضًا و"توست".
كانت سيدة "كابلان" على وشك تقديمه للضابط، لكن الباب انفتح ودخل "ريتشي" ووالدته، وقف الضابط مجددًا، ونظرت إليه والدة "ريتشي" ثم استدارت إلى عازف البيانو الواقف عند الموقف وقالت:
- "فرانك"، ماذا تفعل؟
- جئت لأحضر قهوة فوجدت هذا الفتى يخفق بيضًا يكفي لإطعام جيش، لقد كنت في الجيش سابقًا، وهذا الكابتن المحترم سيد...
- "والت".
- صحيح، كابتن "والت"، ما زال في الجيش بالفعل، لذلك تطوعنا لمساعدة هذا الفتى في إعداد الفطور ثم أكله بالطبع.
ضحكت وقالت:
- بالطبع، هل يمكنك إعداد طبقين إضافيين؟
قال الكابتن وهو يتراجع ليقدم لها كرسيه:
- هناك ما يكفي الجميع.
سأل "مايكل":
- هل تريد البعض يا سيد "إيتش"؟ لقد خفقت البيض وساعدت في طهيه أيضًا.
- لقد تناولت إفطاري بالفعل، لكن شكرًا لك يا "مايكل"، يبدو لذيذًا جدًّا!
قالت "أوليفيا":
- ما رأيكم في أن أحضر بعض التوست؟
قال "مايكل":
- حضَّرناه بالفعل. انظري، لقد أعددت الكثير منه.
- فعلًا يا "مايكل"!
ثم همت بالجلوس في الكرسي الذي يقدمه لها كابتن "هارتمان"، وقالت:
- اجلس بجانبي يا "ريتشي".
- لا أريد.

- ألا تريد بعض البيض؟
- لا، شكرًا.
- يجب أن تتناول الفطور يا "ريتشي".
- قلت لا أريد.
- لا نريد إهدار البيض، صحيح؟
- أعطه للكابتن "هارتمان" إذًا، أنا متأكد بأنه سيسعد بالحصول على أي بقايا.
ساد صمتٌ طويل ثم وقفت والدة "ريتشي" بوجهٍ يشتعل غضبًا وسارت نحوه بخطواتٍ سريعة، لكن سيدة "كابلان" تدخلت وأمسكت بكتف "ريتشي" وأدارته نحو الباب وقالت:
- أظننا علينا البدء بنقل هذه الطاولات والكراسي للخارج الآن، ويمكنك أن تساعدنا بما أنك لست جائعًا.
دفعت "ريتشي" خلال الباب وقالت:
- اتبعنا عندما تكون جاهزًا يا سيد "إيتش".
- نعم، حسنًا.
أومأ بتحية إلى الكابتن ثم "فرانك" الذي بدا وكأنه يكتم ضحكة، ثم تبع "ريتشي" وجدته إلى الخارج.
أخذ كرسيين مطويين إلى الحديقة وفردهما بينما أخذت السيدة "كابلان" حفيدها لتوبخه في غرفة السفرة، سمع كلمة "والدك" ثم "أنا جادة الآن يا ريتشي"، ثم "بدأت أفهم لماذا تريد أمك أن ترسلك للمدرسة لتكون مع أولاد في سنك بأقصى سرعة".
لم يسمع كلمة من "ريتشي".
عندما خرج "ريتشي" من البيت، كان وجهه منتفخًا وعيناه حمراوين، تظاهر بأنه لم يلحظ وفرد كرسيين آخرين ثم قال:
- حسنًا، ما دمت لست جائعًا، يمكننا البدء بفرد الطاولات.
- في الواقع، أنا جائعٌ جدًّا يا سيدي، فأنا لم أتناول العشاء بالأمس، والآن...
- لم لا؟
- أنا فقط لم أرد، كان عشاءً مكسيكيًّا، وأنا أحبه. أحيانًا تحضر "روزيتا" ساندويتشات الـ"تاكو" عندما نتناول عشاءً "غير رسمي".
- عشاء ماذا؟
- إنه الوصف الذي تستخدمه أمي عندما لا نتناول العشاء على المائدة، بل نأكله في الخارج كأننا نقيم نزهة بسيطة في البيت.
- فهمت.
- نجلس في البلكون الخارجي، وهكذا نُعد داخل وخارج المنزل في الوقت نفسه، المهم أن "روزيتا" أرادت ترك المطبخ نظيفًا من أجل حفل اليوم، كما أننا أفرغنا غرفة السفرة، تعد "روزيتا" أفضل طعام مكسيكي، وأنا كنت أتطلع له بشدة، ثم وصل هو واضطررنا لتحضير الطاولة مجددًا وتقديم الطعام في الداخل، وتسللت أمي للأعلى لكي تضع تلك الأشياء على وجهها..
- أشياء؟
- أعني مساحيق التجميل.
- فهمت.

- اضطرت جدتي لتحضير غرفةٍ له، وهو يتوقع أن...
قطع كلامه حين خرجت "روزيتا" فجأة قبل أن يقول ماذا توقع كابتن "هارتمان" من جدته.
قالت:
- عذرًا يا سيدي، هل تريد بعض القهوة؟
- بالتأكيد، شكرًا يا "روزيتا".
- هل تريد تناول شيءٍ معها؟
- لا، شكرًا لكِ، القهوة كفاية.
- هل أنت متأكد أنك لا تريد بعض الكورن فليكس؟
- كورن فليكس؟
- نعم، تلك الحبوب في العلب الصغيرة.
بدأ يفهم قصدها الخفي وقال:
- نعم يا "روزيتا"، لا بأس بعلبة من الكورن فليكس.
- وما رأيك ببعض التوست؟
- حسنًا، ولم لا؟
- وأيضًا زبدة الفول السوداني على التوست، هل تحب هذا؟
- لا أعرف هل أريد أم لا.
ونظر إلى "ريتشي" الذي لمعت عينيه بفرح.
عاد إلى المنزل ووجد زوجته تنتظره على الباب وترتدي روب الحمام، سألته:
- ما الأخبار؟
- إنهم مشغولون جدًّا.
- هل تلقينا أي بريد؟
- بريد؟ لا. أعني أنني لم أجد الوقت للذهاب إلى مكتب البريد.
- لكن لم لا؟
- فكرت في المرور بسيدة "كابلان" أولًا والانتهاء من مساعدتهم، لكنني تأخرت أكثر من المتوقع، تعرفين كيف تسير هذه الأمور، يمكنني الذهاب غدًا.
- لن يفتحوا غدًا، لن يفتحوا حتى الثلاثاء.. إننا في إجازة عيد العمال.
- آسف، نسيت.
- ماذا عن شيك أختك؟
- أنا متأكدة أنها لن تتضرر إذا تأخر يومًا، فهي ليست بهذا الفقر.
- يا لها من طريقة تتحدث بها عن أختك! يبدو أن "أوليفيا" سيطرت على عقلك بالكامل.
- "أوليفيا"؟
- نعم، "أوليفيا". بالتأكيد كانت تسير حولك وهي ترتدي شورت قصير وتنظر إليك برموشها.. الصناعية بالمناسبة.
- من الجيد معرفة هذا.
- تشجعك وتتملق كل ما تفعله وتخبرك كم أنت رائع!
- بالكاد رأيت "أوليفيا"، مجرد ثانيتين في المطبخ مع الكثير من الناس.

- أتمنى ألا تكون قد أرهقت نفسك لتبهرها، لأنك لو لويت عظامك أو أصبت بأزمةٍ قلبية...
ذهب إلى المطبخ وصب لنفسه كوبًا كبيرًا من الماء ووقف عند الباب وسألها:
- ألا يجب أن تستعدي للحفل الآن؟
نظرت بعيدًا وأمسكت شعرها ثم شبكت ذراعيها أمام صدرها بإحكام.
- هل توجد مشكلة؟
- لا.
- حقًّا؟ أخبريني.
- إن كنت مصرًّا أن تعرف، الحفل هو ما يزعجني، كل هؤلاء الناس سيتجمعون حولك بينما أجلس أنا كنكرة!
- هذا ليس صحيحًا!
- يجتمعون حولك كالنحل حول العسل، أما أنا فأجلس مثل الحشائش الضارة التي اقتلعها شخصٌ ما ورماها على العشب بإهمال، أجلس منسية مثل...
- لا أحب أن يجتمع الناس حولي أصلًا، وأنتِ تعرفين.
- سواء أردت أم لا، يحيطون بك. ربما لو شملتني في الحوار ولو مرة كل حين سيلاحظون وجودي، لو فقط ألقيت لي "فُتاتًا" من الحديث، لكنك لن تفعل أبدًا.. صحيح، لن تقول: "هل تعرفون زوجتي؟ إنها فنانة أيضًا".
- هيا، أنا دائمًا أقدمكِ للناس.
- لا أتوقع منك حتى أن تقول: "إنها فنانة موهوبة" أو "متوسطة"، أو حتى "فنانة عجوز عادية". أي نوع من التعريف ليعلم الناس أنني موجودة، وأنتظر أن يرسل صديقك المزعوم رسالة يبلغنا بالأخبار، هذا إن أتعب نفسه وعرض لوحاتي على أي شخص، لكنه لم يفعل لأنه مشغول جدًّا بمعرضه الكبير المهم وفنانيه الموهوبين.. وكلهم من الرجال بالطبع، لذلك لم يزعج نفسه بالترويج لشخصٍ مثلي.. مجرد امرأة.
- تعرفين أنه ليس كذلك.
- كلهم كذلك.. كلكم كذلك، كل ما كان عليه فعله هو أن يجد لي جدارًا واحدًا صغيرًا في أصغر معرض أعلق عليه لوحاتي.
- أنا متأكد من أنه بذل جهده.
- لماذا لم يكتب لنا إذًا؟ لو أنه فقط...
- ما علاقة ذلك بالحفل؟
- كان سيكون لديّ ما أتحدث عنه على الأقل، مثل أن عملي سيتم عرضه في معرض كذا في المكان كذا.. أي مكان، ليس لديّ ما أقوله أبدًا، لا يمكنني العمل، لا أستطيع أن...
- أنا لن أختلق لكِ أكاذيب.
- هل تظنني مثيرة للشفقة إلى هذا الحد؟ رائع، من الرائع أن أعرف أنه لديّ زوج يقدرني إلى هذا الحد.
وقف ينظر إليها عبر الغرفة وفكر في أنها قد تكون اللحظة المناسبة لإخبارها بينما هي في قمة الغضب، فليخبرها ويتخلص من هذا الحمل، لكن لو أخبرها الآن فلن يذهبا إلى الحفل، بل سيبقيان في البيت ويتشاجران لساعات.. إنه الحفل الأول الذي يرغب في الذهاب إليه، لقد استمتع بظهيرة أمس

وصباح اليوم؛ الحركة والصوت والناس من حوله دون أن يطالبه أحدٌ بشيء ما دام يشاركهم بما يستطيع، أحب تجمع الولدين حوله ليساعداه، وسيدة "كابلان" تحضر لهم صينية مقبلات، ومزاح "فرانك" والكابتن "هارتمان" وهم يقفون في الظل يشربون الليمون المثلج ويأكلون بسكويت "روزيتا".
كان يرفع نظره من آنٍ لآخر فيلمح "كاثرين" تمر خلف النافذة أو يسمع صوتها وهي تهتف لهم بمزاح عند الباب أو من البلكون، أحب ألا يكون مضطرًا للتحدث كثيرًا، لكن حين يتحدث يضحكون، عاد إليه شعورٌ من أيام الشباب.. إنه الشعور بأن يكون جزءًا من شيء، وفي الوقت نفسه ألا يكون كذلك.
قال:
- ربما يجب أن نفوتها إذًا، لا بأس معي.
استدارت لتنظر إليه وتقول:
- ستحب ذلك، صحيح؟ لا، لن أحقق رغبتك.. سنذهب، لا أريد إحباط "مايكل".
نظرت إليه وهو يعود إلى المطبخ ويفرغ كوبه ويغسله.
قال:
- يسعدني أن أفعل ما تريدين.
جلست في الحمام وبدأت تعدل شعرها.
قال:
- المكان مزدحم بالناس هناك.
- لا تقل إن الضيوف قد وصلوا بالفعل؟
- لا، لكن هناك بعض العمال والكثير من النُدَّل.
- ماذا يرتدون؟
- من؟ العمال أم النُدَّل؟
- آل "كابلان" بالطبع! هل يجب أن تمزح في وقتٍ كهذا؟
- لا أعرف، لم يخبروني بما سيرتدون، لم يكونوا قد استعدوا بعد وأنا معهم، وأنا أغادر سمعتهم يطلبون من "ريتشي" و"مايكل" الاستعداد، سمعت كلمة ربطة عنق "بابيون".
- أظن أن "ريتشي" سيحب أن يرتدي "بابيون" ويتأنق، أما "مايكل" بالطبع فسيكون...
- أنتِ تستخفين بـ"ريتشي".. إنه مثل رجلٍ كبير الآن، غضب في وجه كابتن من القوات الجوية اسمه "هارتمان"، فهمت أنه يريد التقدم للزواج من والدته.
- "ريتشي" فعل هذا؟
- كان باهرًا، أصاب الرجل في مقتل، سأرتدي بذلتي الآن، وسأخبركِ بالتفاصيل في أثناء سيرنا إلى هناك.
رأى يديها تسقطان بجانبها بينما يستدير إلى الدولاب.
أخرج قميصًا كحليًّا وسألها:
- ما رأيكِ في هذا مع بذلةٍ بيضاء؟
- عذرًا، هل قلت إننا سنسير إلى هناك؟

- آسف، عنيت أن أقول بأن المكان ضيق جدًا، والسيدة "كابلان" طلبت مني بتهذيب أن أترك السيارة لأفسح المجال للضيوف القادمين من خارج المدينة، فقلت إنكِ لن تمانعي بالتأكيد.
وقفت وقالت:
- هي من طلبت منك أم أنك من عرض عليها؟
خلع السترة التي يرتديها وعلقها في الدولاب ثم أخرج البذلة.
- مزيج من هذا وذاك. بصراحة، لم أجد مخرجًا من الموقف.
نظرت إليه شذرًا ثم دفعته لتفتح دولابها.
فتح لها الباب وعبرت من تحت ذراعه.
قال لها:
- تبدين جميلة.
- لا أعرف، بمجرد أن نسير إلى هناك سيلتصق بي شعري وملابسي بسبب الحر.
- لو أحببتِ، يمكننا أن نقود إلى هناك ونترك السيارة على أول الطريق. يمكنكِ أن تقودي بالطبع، إن أردتِ.
نظرت إليه لحظةً ثم قالت:
- لا، لا بأس، لكن شكرًا على اقتراحك.
قالت "روزيتا" لـ"مايكل":
- "مايكل"، أنت تندفع كالأرنب عندما يطلبون منك مشروبات أو مكان للجلوس، لكنك تسير كالسلحفاة عندما تأخذ لهم المشروبات أو تعيد الأكواب المتسخة إلى المطبخ.. الأرنب والسلحفاة.. بالإسبانية (La Tortuga y la Liebre). ونختصرها بـ(L AND T)، لكنك بالطبع لا تتحرك ببطء السلحفاة أو سرعة الأرنب.. إنه مجرد تشبيه.
قالت السيدة "كابلان":
- سأعطيك دولارين كاملين مقابل العمل لبضعة ساعات، ويمكنك أن تأكل ما تريد وتحتفظ بأي بقشيش، فقط اصبر حتى الساعة السابعة عندما يغادر الضيوف المهمون، ثم يمكنك الانضمام للحفلة على العشاء، هل عرضي عادل بالنسبة لك يا "مايكل"؟
ذهب سيد "إيتش" لإحضار سيدة "إيتش"، وجُهِزت الحديقة بشكلٍ جميل، حتى أنه شعر برغبةٍ في البقاء والنظر إليها طول اليوم، أما "ريتشي" فخرج من البيت وهو يزفر، ثم جذبه من قميصه وهو يقول:
- لقد وصلا، علينا الاختباء فورًا. هيا، تعال. إنهما هنا، أنا أحذرك.
- دعني، من هنا؟ عم تتحدث؟
- أنا أحذرك، من الأفضل أن تبتعد عنهما.
- من؟
- الأخوان "ويستن"، ليسا لطيفين أبدًا.
- "ليسا لطيفين"؟ هلا توقفت عن التحدث كالفتيات؟
- لا أتحدث كالفتيات.. أقول فقط أن... اخرس، لقد أتيا. لا، إنهما مع أمي.
رفع نظره فرأى ولدين بشعرٍ ممشط بعناية، يرتديان قميصين باللون الأزرق، وبنطالين باللون الكريمي، وأحذية بيضاء، قال لنفسه إنه لم يرَ ولدين يبدوان بهذا المظهر النموذجي من قبل.

وقفت والدة "ريتشي" خلف الولدين ووضعت يدًا على كتف كل ولد، قادتهما للأمام وهي تقول:
- حسنًا، انظرا من هنا.. إنه "مايكل"، لقد أتى من نيويورك. "مايكل"، هذان الولدان الأنيقان هما "بيتر" و"مارتن ويستن".. إنهما من "هيانيس". وبالطبع يعرفان "ريتشي".
تجاهل الولدان "ريتشي" ونظرا إليه هو، بينما واصلت والدة "ريتشي":
- أتعلمون؟ تذكرت شيئًا للتو، هناك سيدة ترغب في تجربة طعم السجق، هل يمكنكم مساعدتها؟ إنها في البيت الآن، اذهبوا إلى البلكون الخارجي ثم ادخلوا الصالة، اسمها...
قاطعها "ريتشي":
- أعرف أين المطبخ، وأعرف اسم "روزيتا" أيضًا.
- أعلم أنك تعرف يا "ريتشي".. أنا أمزح فقط.
قال "ريتشي":
- هل هذا ما تسمينه "مزاحًا؟
- حسنًا، لماذا لا تصطحب ضيوفك إلى البيت إذًا أيها المتذاكي، ادعوهم لتناول السجق بينما أرتدي ثيابي. وأنتما الاثنان، أريدكما أن تصعدا إلى الطابق العلوي لتستعدا بعد نصف ساعة.
- لماذا نضطر لتغيير ملابسنا؟
- لا يمكنكما حضور الحفل بهذه الملابس، يا إلهي! ألا تريد أن تبدو أنيقًا مثل "بيتر" و"مارتن"؟
دبدب "ريتشي" بقدميه وهو يصعد درجات البلكون الخارجي بينما يقول أحد الولدين:
- شكرًا يا سيدتي.
- نعم، شكرًا يا سيدتي.
ثم ذهب الأربعة إلى المطبخ.
قالت "روزيتا":
- انسوا الأمر، لن أحضر السجق الآن.. لقد أخبرت تلك السيدة أن السجق سيقدم لاحقًا، ولست أنا من سيعده على كل حال، والآن أخرجوا من هنا قبل أن أفقد أعصابي.
أخذ "مارتن" يلتقط الحصى من المنصة الخشبية التي صنعها "روبن" حول الشجرة التي قضى "باستر" حاجته حولها، وقال "بيتر" بتثاؤب مصطنع:
- ما العمل الآن؟
رد "ريتشي":
- وما أدراني!
- ما أدراك؟ ما أدر...؟ "مارتي"، أخبره لماذا يجب أن يعرف.
قال "مارتي":
- لأنه "المتذاكي".
ثم ضحك الأخوان بصخبٍ كالحمير.
قال "مارتي":
- أين كلبك الغبي؟
رد "ريتشي" ووجهه بدأ ينتفخ ويحمر:
- إنه ليس هنا، وهو ليس غبيًّا.
- حقًّا؟ أنا آسف.. هل تعلم الكلام؟

- لم أقل إنه يستطيع الكلام.
- لماذا تقول إنه ليس غبيًا إذًا؟
عاد الأخوان "ويستن" يضحكان مجددًا.
- أنا.. أنا سأدخل.
قال "مارتي":
- أمرتك والدتك أن تسلينا.
ثم قال "بيتر":
- هل صحيح أن والدتك كانت عارضة؟
أطلق "مارتي" صفيرًا طويلًا غير مهذب.
قال "ريتشي":
- من الأفضل أن تتوقف وإلا...
قال "مارتن":
- وإلا ماذا؟ ستشي بي مثل المرة الماضية؟ "أمي.. أمي، بيتر ومارتن تنمرا عليَّ".
قال "ريتشي":
- هيا يا "مايكل"؟ أخبرتك أنهما هكذا، أليس كذلك؟
بدأ يسير نحو المنزل ثم توقف عند البلكون، وقال:
- هل ستأتي أم لا يا "مايكل"؟
قال "بيتر":
- هل أنت الكلب الجديد يا "مايكل"؟
- لا.
- هل تسرع إليه بمجرد أن يصفِّر لك؟
قال "ريتشي":
- يجب أن نستعد للحفل.
قال "مارتي":
- ما رأيك أن ترينا الشاطئ يا "مايكل"؟ بينما يجري "ريتشي" إلى أمه.
قال "ريتشي":
- تستطيعان الذهاب إلى الشاطئ وحدكما، فهو لم يتحرك منذ آخر مرة جئتما إلى هنا. وفي حال نسيتما، اذهبا خلف المنزل، ستجدان تلًّا صغيرًا و...
قال "بيتر":
- نريد أن يصطحبنا "مايكل" الذي جاء من نيويورك.
- لا يمكنه اصطحابكما لأنه سيأتي معي، أليس كذلك يا "مايكل"؟
وقف على حافة الطريق ونظر إلى "ريتشي"، عرف بمجرد النظر إلى عينيه أنه يتوسل إليه سرًّا. وكاد يستسلم له، لولا أن نظر إليه "ريتشي" بحدةٍ وقال بغيظٍ مكتوم:
- من الأحسن لك أن تأتي معي الآن.. أنا جاد.
بدأ الأخوان بالسير بعيدًا، ثم توقفا عندما سمعا "ريتشي" يتحدث بهذه الطريقة، أما الولد فقال لهما بينما ينظر إلى "ريتشي":

- انتظرا، أنا قادمٌ معكما.
سار أمام الأخوين "ويستن"، دار حول الأشجار وصعد المنحدر، قادهما عبر العشب الطويل ولم يتوقف إلا عند السلم الخشبي المؤدي إلى الشاطئ، يمكنه سماع البحر الآن، شعر برائحته تخترق أنفه وتصعد إلى مخه ثم تندفع إلى رئتيه وتملأ جسده.. وفجأة رآه بأمواجه البيضاء المتلألئة، يمتد على مرمى البصر.
قال عندما وصل إليه الولدان:
- ها هو الشاطئ، انزلا هذه السلالم، يمكنكما استخدامها كعلامة إرشادية لتعرفا الطريق وتأتيا وقتما تحبان.
قال "بيتر":
- ألن تأتي معنا؟
- لديَّ ما أفعله.
- سمعت هذا يا "مارتي"؟ لديه ما يفعله.
قال "مارتي":
- حقًّا؟ مثل ماذا؟
- اهتم بشؤونك اللعينة وإلا ذبحتك.
حاول أن يسير بأبطأ ما يمكنه خلال العشب الطويل حتى يصل إلى قمة التل، وعندما تأكد من أنه بعيد عن أنظارهما، بدأ يجري بسرعة وكأنه لا يستطيع التوقف، كان سعيدًا وفخورًا بنفسه جدًّا. نزل التل حتى وصل إلى الحديقة، ودار بين الطاولات والكراسي والمقاعد، أخذ يركض على سلم البلكون طلوعًا ونزولًا، لوَّح لـ"فرانك" وكابتن "والت" الواقفين عند البيانو عبر الباب الكبير المفتوح جرى إلى الحديقة الأمامية وقفز على المنصة الخشبية الصغيرة التي وضعها "روبن" حول الشجرة، ثم رفع ذراعيه ونادى على "كاثرين"، لوح لها حين رأته من باب شرفتها الزجاجي فرد ذراعيه مثل أجنحة الطائرة وهو يقفز من المنصة الخشبية إلى العشب الطويل في مقدمة المنزل، أخذ يحرك ذراعيه لأعلى ولأسفل مثل أرجوحة التوازن، وطار إلى خلف المنزل موازنًا بين حركة ذراعه اليمنى واليسرى. رأى "فرانك" يقف ويسير إلى البلكون ليشاهده، طار بين الأشجار ودار عائدًا ليواجه المنزل، ثم طار نحوه مباشرةً، نبض قلبه بقوة حتى شعر بحركة كل نقطة دماء وهي تضغط على جلده من الداخل، أراد أن يحيط البيت بذراعيه، وأن يفرك وجهه في الشرفات والنوافذ والجدران وكل لوح خشب وقطعة زجاج فيه، أراد أن يدفن أنفه في عشب الحديقة ويأكله وكأنه حصان، لأنه في هذه اللحظة يحب البيت وكل من فيه؛ "ريتشي" وأمه وصاحبتها السخيفة "أنيتا"، يحب كل من سيصلون إلى الحفل وكل الأشخاص البعيدين مثل "هاري" والخالة، ويحب "فينس" لأنه سمع منه جملة "اهتم بشؤونك اللعينة".. ذات ليلة وهو سكران ويلعب الورق، وأيضًا جملة "سأذبحك" عندما كان يمزح بشأن ترك "شيرلي" في السيارة.
لكن أكثر من أي شيء، كان يحب نفسه لأنه تذكر هذا الكلام في اللحظة المناسبة وعرف كيف يردع هذين المغفلين من "هيانيس".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

كانت تمشية لطيفة، ما زالت آثار الصيف عالقة، الزهور البرية مزدهرة على جانب الطريق، ولم تعرف بعد أن أيامها أصبحت معدودة، الهواء معبأ برائحة الأشجار الحلوة، لكنه أيضًا ثقيل على التنفس، وهناك أيضًا الإدراك بأنه في نهاية السير، توجد حفلة في الانتظار.. هذا يشجع على المواصلة، وما ألطف من حفلة في الحديقة في أواخر الصيف!

توقفت ولمست ذراعه وقالت:

- أنصت معي، هل تسمع هذا؟

- ماذا؟

- إنها موسيقى.. أليس هذا لطيفًا؟

- موسيقى؟

- نعم، موسيقى.. بوق، يبدو مثل لحن... لا عليك.

لم يكونا الوحيدين اللذين ذهبا إلى الحفل سيرًا على الأقدام، سار زوجان شابان أمامهما بخجل، وفي المقدمة سار ثلاثة رجال جيش، وعندما نظرت خلفها رأت مجموعة عسكرية صغيرة وبعض الأشخاص المتفرقين قادمين من جنوب شارع "فيشر". الجميع متأنقون؛ يرتدون قبعات وقفازات ويهتمون بكل قطعة ملابس، وكأنهم ذاهبون إلى قداس الأحد، لكن على أصوات الأبواق بدلًا من الأجراس. فكرت في أن تشارك أفكارها مع زوجها، لكن نظرة واحدة إلى جانب وجهه المختبئ تحت ظل القبعة والشبيه بالوجوه المحفورة في جبل "راشمور"، جعلتها تحتفظ بأفكارها لنفسها.

عندما اقتربا من المنعطف، لمحت عيناها مجموعة من السيارات المركونة، ملتصقة ببعضها في صفٍ طويل يمتد بطول الطريق وصولًا إلى مدخل الشاطئ، وهناك المزيد منها محشورًا في الركن عند نهاية الممر الذي يقود إلى بيت سيدة "كابلان".

- أسمعها الآن، إنه صوت بوق لكنه نشاز قليلًا.

تأبطت ذراعه بينما يتركان الطريق ويدوران حول المنزل.

ما زالت تشعر بها، شرارة الفخر التي تصيبها عندما تحضر أي تجمع وهي تتأبط ذراعه، يعرف الناس من هما.. بالطبع يعرفون، لكن ما يسعدها أنه حتى في سنهما هذا، ما زالا يخطفان الأضواء معًا؛ هو وسيم وطويل بقبعة صيفية تشبه قبعات الصيادين، وقميص أزرق في لون عينيه نفسه، وهي صغيرة الحجم ولم يزدد وزنها مثل نساء كثيرات تعرفهن، أما ثيابها.. حسنًا، تأمل أن تكون جهودها في محلها و...

قاطع أفكارها بقوله:

- اللحن نشاز بالفعل.

- ماذا؟

- أقصد العزف، إنه بالتأكيد...

- حقًّا؟ هل عليك أن تبدأ الشكوى الآن؟

- من الذي يشتكي؟

وقفا على الممشى المنحدر على جانب البيت، أجواء الحفل منتشرة في كل مكان؛ حول البيت وعلى التل المطل على البحر.

بدت الأجواء أشبه بالمهرجانات المحلية، أعلام حمراء وبيضاء وزرقاء معلقة على شرفات المنزل السفلية والعلوية وحول الأشجار، المدعوون إما واقفون أو جالسون حول الطاولات أو على أغطية السيارات المفروشة على أطراف الحديقة، هناك بعض الرجال المسنين يرمون حدوات الأحصنة حول وتد خشبي مغروس في الأرض، بعض الرجال بأزياء رسمية يتمشون وأيديهم في جيوبهم، هناك أطفال وسجق وفشار، زجاجات صودا وبيرة ومجموعة من الكحوليات معبأة في حاويات كبيرة كأحواض السمك، وقف زوار المدينة على المنحدر العشبي وعلى التل بين الأعشاب الطويلة، ينظرون إلى الشاطئ. جلست أم شابة على العشب تُطعِم الأيس كريم لطفل بدين، وترددت في الجو أحاديث ودية، تقاطعها ضحكات متحفظة من آنٍ لآخر. أما على البلكون الخارجي، وقفت مجموعة من سكان المنطقة ذوي الخدود الحمراء يغنون للمطرب "سواني".

الأجواء لطيفة، على الرغم من أن طابعها الريفي ليس متوقعًا من السيدة "كابلان" وعائلتها.

تساءلت أين تتجه الآن، لو تركت الأمر في يد زوجها، لظلا واقفين في المكان نفسه حتى يحل الليل ويعودان للبيت، هذا هو نقدها الوحيد لحفلات الحديقة.. لا يوجد وقت للإحماء، لا يوجد وقت فاصل بين ترك معطفك على الباب والانضمام للحفل في المنزل، لا توجد فرصة للاعتياد على الجو تدريجيًّا. في حفلات البيت ستلاحظ المضيفة وصولك وتقدمك إلى شخصٍ مناسب، أما هنا.. بمجرد أن تصل لبوابة البيت، تجد الحفل أمامك! تجد نفسك وسط الاحتفال مباشرةً، واضحًا زيادة عن اللزوم، حتى بالنسبة لذلك الطفل البدين الذي ينظر نحوهما بالتأكيد، ولا يوجد ما تفعله الآن غير الوقوف مع زوجها العابس بينما يبدوان مثل مقتحمي الحفلات أو أسوأ، وكأنهما نكرة تمت دعوتهما على مضض.

لمحت على ضوء الشمس صينية تمر بجانبها، فسألت وهي بالكاد تلمح رأسًا صغيرًا خلفها:

- هل معك ماء؟ لقد أتينا سيرًا، لهذا أنا...

- ماء يا سيدتي؟ هل تريدين بعض الماء؟

رأت وجه حامل الصينية بوضوح.. إنها الفتاة الصغيرة التي تعمل في البقالة، إنها في الثانية عشرة على الأكثر.

- هل هذه أنتِ يا "ثيلما"؟

- نعم، يا سيدتي.

- حسنًا، هل يمكن أن تحضري لي بعض الـ...

- بالطبع يا سيدتي، حالًا.

أخذ زوجها كأسًا من الصينية، فسألته:

- ما هذا؟

أجابها وهو يأخذ رشفة:

- نوع من النبيذ على ما أظن.

وقفت خلفهما امرأة تتحدث عن ابنها وتقول:

- لقد رافق فتاة بدأت تعمل في "تشاودر هاوس" هذا الصيف، إنها من بوسطن، تعرفين هذا النوع من الفتيات.. صائدات أزواج، لهذا يأتين إلى هنا، لقد عادت إلى بيتها وتركته مكتئبًا منذ ذلك الوقت.

قالت امرأة أخرى:

- من المهم أن يقابل الشاب فتاة مناسبة، فغلطة واحدة تكلف الكثير ومتعتها قصيرة.. هذا ما أقوله دائمًا.
استدارت لتنظر إلى السيدتين، أكبرهما حجمًا ترتدي فستانًا ورديًّا فاقعًا وتحمل كوبًا من أحد المشروبات الكحولية، أما الأخرى فتختنق في بذلة خضراء لامعة، ومن الواضح أنها والدة الشاب المكتئب. هناك رجل يقف معهما وينظر إليها بتركيز، كانت على وشك أن تستدير عندما ابتسم لها واندفع نحوها وكأنه متعلق بحبل وهي من تمسك به.
قال:
- مرحبًا، تسرني رؤيتكِ مجددًا، أنتِ صديقة سيدة "سالتز"، إن لم أكن مخطئًا.. ذهبنا لصيد المحار معًا ذات مرة، في أثناء الحرب.
- صحيح!
- في شاطئ "بولستون"، على ما أظن؟
- أنت محق.
- بعد ذلك علمتكِ سيدة "سالتز" كيفية إعداد شوربة المحار.
- نعم، صحيح.
- كيف حال سيدة "سالتز"؟
- إنها بخير حال.
- سمعت أنها في دار للعجزة في "هيانيس".
- هذا صحيح، لقد قابلتها مؤخرًا و...
- سمعت أن حالتها سيئة جدًّا.
- لا، أبدًا.. إن صحتها...
قال وهو يشير إلى عقله:
- قصدت هنا.
نظرت إليها المرأة ذات البذلة الخضراء وقالت:
- من أين أنتما؟
- من نيويورك، لدينا منزل صيفي هنا.
- إيجار؟
- لا. في الواقع، لقد بنيناه.. هذا زوجي.
مدت يدها لتقدمه وهي تأمل أن يخيفهما ليبتعدا، نظرت إليه صاحبة البذلة الخضراء بحدة وطالبت بمعرفة المسافة بين هنا ونيويورك، ثم أبعدت نظرها وقالت بصوتٍ خافت ومرح:
- انظروا، ها هي سيدة "تشايلدز"، ابنتها متزوجة من سيناتور.
- أربعمائة.
- عذرًا؟
- أربعمائة ميل من نيويورك.
- يا مسكين! لا بد أنك متعب.
ثم أسرعت إلى حماة السيناتور وهي تجذب صديق السيدة "سالتز" خلفها، فقال الرجل بسرعة:

- سلمي على سيدة "سالتز" نيابة عني، تأكدي من ذلك، وأخبريها أنني أتمنى لها الشفاء السريع لتعود إلى بيتها.. وإن كنت لا أظن أن هذا سيحدث أبدًا.
عادت إلى نقطة البداية وقالت:
- أتساءل أين ذهبت الفتاة التي طلبت منها الماء.
من موقعها المرتفع، كان لها رؤية أفضل للحفل. رأت "ريتشي" ووالدته يقفان خلف طاولة تحت أشجار الخروب، اقترب رجل بزي رسمي منهما ومد يده إلى جيبه الخلفي ليخرج محفظته، ثم ظهر رجل بجانبه يمد يده إلى سترته، مد "ريتشي" صندوقًا أبيض كبيرًا، وأخذا منه ما يبدو كالظرف. بعد بضع ثوانٍ، مد "ريتشي" علبة بنية كبيرة، ألقيا فيها الظرف، نظرت "أوليفيا" إلى كتاب ثم كتبت شيئًا فيه. عندما ابتعد أحد الرجلين، لمحت لافتة مرسوم عليها صورة "العم سام"، يتدلى من طرف الطاولة، قالت:
- يبدو أن هذه اللمسة لجمع التبرعات.
- ماذا؟
- أعني الحفل، كان علينا أن نعرف!
سمعت امرأة خلفها تقول:
- هذا صحيح، لصالح صندوق السيدة "كابلان" للأيتام.
إنها صاحبة الفستان الوردي، لقد تركها صديق السيدة "سالتز" وزوجته البغيضة.
سألت زوجها همسًا:
- هل معك أي نقود؟
- دولاران.
- اثنان! هذا فقط!
- لقد غيرت بذلتي ونسيت أن...
- هذا لا يكفي، لا يكفي أبدًا.
- سأكتب شيكًا وأعطيه لهم غدًا.
- نعم، سأخبرها بذلك.
- لا، لا تقولي شيئًا، لا تكبري الموضوع.. سوف...
انضم رجلان آخران إلى الطاولة وتحدثا مع "ريتشي"، اقتربت "أنيتا" ودارت حول الطاولة واستلمت المكان من "أوليفيا" التي ابتعدت وهي تتلوى بجسدها بين الحشود.
- ستظن أننا بخلاء جدًّا!
تدخلت المرأة الواقفة بجانبها وقالت:
- لا، الأمر ليس هكذا على الإطلاق.. يتبرع من يرغب، معظم السكان المحليين لا يهتمون أصلًا، أو ينوون ثم ينسون. إنهم يفتحون طاولة التبرعات لساعتين فقط، ولستما مضطرين لاستخدام الأظرف، يمكنكما إلقاء خمسين سنتًا في دلوٍ أصفر كبير لو لا تملكان مبلغًا كبيرًا.
ابتسمت للمرأة باقتضاب ووقفت بجانب زوجها على الناحية البعيدة من المرأة، وهمست بخفوت:
- سنفعل ما قررناه.
نظرت إليه فلاحظت أن عينيه المختبئتين تحت قبعته مركزتان على الحشد وتتحركان، وكأنه يراقب شخصًا ما.

قال لها:
- يمكنني إحضار الشيك غدًا.
- تتحدث عن نفسك فقط، ربما أريد القدوم أنا أيضًا.
- تعالَي إذًا.
- أم هل تفضل القدوم وحدك؟ هكذا ستغازل "أوليفيا" دون أن أزعجك.
نظر إليها ببطءٍ وقال:
- إن كنا سنتشاجر، فأفضل العودة إلى المنزل الآن.
- لن نعود إلى المنزل بل سنبقى، سأحصل على بعض المرح ولو مرة في حياتي، أين ذهبت هذه الفتاة سأموت من العطش.
قال لها:
- سأحضر لكِ الماء.
- لا، لا أريد الوقوف هنا ووحدي، سآتي معك.
قالت المرأة وهي تطل عليها بوجهها مثل الغراب:
- ما زلت هنا، سأبقى معكِ.
قال:
- لن أغيب.
ثم ذهب.
راقبته وهو يشق طريقه بين الحشود، بدأت المرأة ذات الفستان الوردي تتحدث معها وتخبرها عن حفيدتها الصغيرة اللطيفة، تحركت المرأة وكأنها ستخرج شيئًا من حقيبتها، قالت لنفسها: "لو أنها ستخرج صورة تريني إياها، فسأخدش عينيها"، لكن اتضح أنها كانت تتناول رشفة أخرى من مشروبها فقط.
- يمكنكِ أن تتذوقيه إن أردتِ.
- لا أشرب الكحول.
ردت المرأة وهي تضحك:
- ولا أنا، إلا إذا كان مجانيًّا.
مضت لحظات من الصمت قبل أن تقول المرأة أنها تأمل في العودة إلى المنزل مبكرًا لكي تسمع المسلسل الإذاعي في الراديو.
- لا أفوته أبدًا، أحرص على متابعته دائمًا، أعتمد على أصدقاء عائلة "أتوود" في توصيلي إلى المنزل.
- من؟
- الأشخاص الذين تذهبين معهم لصيد المحار.
- ذهبت مرة منذ أعوام، هذا لا يجعلنا بالضرورة أصدقاء.
بدأت المرأة تحكي تفاصيل المسلسل من أول حلقة، عندها اتخذت قرارها.. لن تبقى هنا ثانية واحدة لتترك زوجها لـ"أوليفيا" لترمي نفسها عليه، بينما تثرثر تلك المرأة البغيضة ذات الفستان الوردي، لن تعلق مع مزعجة الحفل. هذا هو ما يعتمد عليه بالضبط، أن تقف لساعات مع المرأة الوردية بينما تجف من العطش، نسي أنها دُعيت إلى الحفل شخصيًّا. إنها تعرف هذا حتى لو لم يعرفه هو، السيدة

"كابلان" تحبها، وربما هي معجبة بها أيضًا.. ولم لا؟ كلاهما سيدتان مستقلتا التفكير، لا تحتاجه لكي تستمتع بالحفل، يمكنها أن تمرح بنفسها.. وستفعل، فليذهب إلى الجحيم مع أي شخص يقف في طريقها، توقفت الفرقة عن العزف، فأصبح صوت المرأة أعلى، قاطعتها قائلة:
- اعذريني، من فضلك.
قالت المرأة بصوتٍ رفيع كالأطفال فجأة:
- تفضلي.
تجولت ببطء على العشب، وتحركت بين المدعوين، والتقطت أطرافًا من أحاديثهم.
- يا لها من حفلة جميلة! إنها لطيفة بالفعل.
- كيف تعرف الـ...
- عليَّ إخبارك أن نظام الصرف في ذلك الشاطئ فظيع جدًّا...
- هل تظن أننا بحاجةٍ إلى حربٍ أخرى الآن؟ هل تظن ذلك حقًّا؟
- اعتدت الذهاب للإبحار مع المرحوم...
- لا.. لا، يجب أن تدهنيها بالزبد أولًا ثم...
كانت تخطط أن تقف بالقرب من أي مجموعة ثم تنضم للكلام حين تسنح الفرصة، لكن المجموعات كانت محدودة جدًّا والأحاديث مملة. فكرت في دخول المنزل، لعل الحظ يحالفها، وفجأة ظهر "مايكل" أمامها.
- تسعدني رؤيتك حقًّا!
قال "مايكل":
- أنا رأيتكِ أولًا.. أنا رأيتكِ أولًا!
- نعم، هذا صحيح. في المرة القادمة سأعد أنا الشاي.
- ما رأيكِ في ربطة عنقي؟
- تبدو أنيقًا جدًّا، وسعيدًا أيضًا. من الواضح أنك تستمتع بوقتك.
- كنت مشغولًا جدًّا.
- حقًّا؟
- كنت أساعد كابتن "هارتمان" و"فرانك" وسيد "إيتش" أيضًا، لقد فرشنا كل هذه الطاولات في الصباح.
- تبدو جميلة جدًّا يا "مايكل".
- وأنا علقت كل هذه الأعلام على الأشجار، وسيد "إيتش" أمسك لي السلم.
- هذا لطيف!
- وكنت أحضِّر مشروبات للمدعوين وأجد لهم أماكن للجلوس.
- هل يمكنك أن تجد لي مكانًا للجلوس أنا أيضًا؟
نظر "مايكل" حوله ثم أخذها من يدها وجذبها إلى طاولة حولها مقعدان طويلان.
هناك مساحة في المقعد الأقرب إليها، وقفت بخجل عند طرف المقعد بحرج، وكانت على وشك أن تطلب الإذن بالجلوس عندما قال "مايكل" باندفاع:
- اجلسي هنا.. هنا تمامًا، لن يمانع أحد.
ابتسم الجميع ورحبوا بها، وتحرك رجل ببذلة رمادية لكي يفسح لها مكانًا.

قال "مايكل":
- هل أحضر لكِ شيئًا يا سيدتي؟
ثم أضاف موضحًا:
- هذا عملي في الحفل.
- أرغب بشدة في كوبٍ من الماء.
- هل تريدين شيئًا آخر يا سيدة "إيتش"؟ طعام مثلًا؟
- حسنًا، ليكن شيئًا صغيرًا.. لم لا تفاجئني؟
- أعرف ما تحبين يا سيدتي "إيتش".
- تأكد ألا تنسَ الماء.
ثم قالت للرجل الجالس مقابلها:
- من المستحيل تقريبًا أن تجد كوب ماء في أي حفل، لا أريد سوى كوب ماء سادة. يمكنك أن تجد "كوكتيل" بكل سهولة، لكن ماء! مستحيل. من الأفضل أن يعيدوا حظر الكحول!
انتشرت ضحكات مرحة وبدأ الجميع يخبرها بأسمائهم.
"جوان" و"جون" من ولاية "كونيتيكت"، "كلارينس" و"ديك" من "فيرجينيا"، وهناك "دوريس" وواحد أو اثنان نسيت اسميهما.
يا لها من حفلة جميلة، وأشخاص لطفاء! هذا ما فكرت فيه وهي جالسة. "ربما أقضي معهم باقي الوقت، لا أمانع أبدًا".
ابتسمت "دوريس " لها وقالت:
- كنا نتحدث عن السباق غدًا، كنت أخبر ذلك السيد...
- اسمي "جون".
- كنت أخبر "جون" أن عليه متابعة سباق اليخوت.
قالت:
- نعم، إنها جميلة!
قال:
- لا تناسبني أنا، لا أحتمل الماء أو أي شيء يرتبط به.
- لكنك تضع دبوسًا عليه شعار مشاة البحرية؟
قال "جون":
- لهذا لا أطيق الماء.
ثم ضحك وضحك الجميع، ثم توقفوا ونظروا لبعضهم وكأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون الآن.
بدأت الفرقة في العزف مجددًا، بدأت تتعرف على اللحن قبل أن يتوقف فجأة وتظهر "أوليفيا" بفستان أحمر طويل، جاءت إلى البلكون وهي تصفق وطلبت من الجميع فعل المثل.
- صفقوا بحرارة لفرقة الأبواق والطبول.
قالت المرأة المجاورة لـ"دوريس" (هل كان اسمها "جوان" أم "جاين"؟):
- أليست جميلة؟ هل تعلمين أنها كانت عارضة في الماضي؟
- لا، لا أعلم.
واصلت "أوليفيا" كلامها للمدعوين:

- خلال لحظات سيعزف لنا الرقيب "فرانك بيريو" على البيانو، وكابتن "والت هارتمان" على الكلارينيت. منصة الرقص جاهزة في الداخل، شكرًا لـ"روبن" على ذلك.. هل هو هنا؟ لا؟ حسنًا، لقد قام بعملٍ رائع، من يرغب منكم بالرقص فليدخل الآن.
واصلت "جوان" أو مهما كان اسمها الحديث:
- نعم، إلى أن تزوجت "بيل كابلان"، كانت عارضة للملصقات في مركز تجاري كبير في بوسطن، وأظنها ظهرت في مجلة أيضًا.. من السهل تخمين ذلك، انظري إلى فستانها.. وقوامها!
قالت وهي تدير رأسها:
- نعم، من الواضح أن الأحمر هو لونها المفضل.
ثم أدارت رأسها إلى باقي أعضاء الطاولة على أمل الاشتراك في محادثة أخرى.
قال الرجل ذو البذلة البنية لامرأة تجلس بعيدًا عنه:
- لقد عشت هناك في شبابي.
قال الرجل الجالس مقابلها:
- وأنا أيضًا قضيت سنوات عزوبيتي هناك.
سألت:
- هل تتحدثون عن نيويورك؟
ردت امرأة تجلس على الطرف الطاولة البعيد:
- نعم، كنت أعيش هناك أنا أيضًا، قبل أن ينقذني هذا الرجل هنا ويأتي بي إلى الريف.. كنت وحيدة جدًّا هناك، لا أتمنى العودة أبدًا.
فتحت فمها لتنضم إلى المحادثة لكن "مايكل" وصل إليها حاملًا طبقًا فيه فطيرة تفاح وأيس كريم.
قالت:
- شكرًا لك يا "مايكل".
ثم أضافت وهو يضع إبريق ماء أمامها:
- أشكرك كثيرًا.
ثم ركض.
رفعت الإبريق أمام رفاقها وقبلته، فضحكوا بينما تأخذ الكوب وتصب فيه من الإبريق ثم تشرب جرعة كبيرة من الماء.
بعدها قالت:
- لكن إن كنا سنتحدث عن نيويورك، دعوني أعترف أنني أحببت حياة العزوبية هناك، لم أعرف ذلك وقتها، لكنني كنت سعيدة؛ كان فيها أصدقائي واهتماماتي و.. كل إبداعي، كنت معلمة هناك لبعض الوقت، لكن الأهم هو أنني درست الفن. لقد تجولت في المدينة بأسرها، ذات مرة استأجرت غرفة صغيرة بالقرب من فندق "بلازا"، وليست بعيدة عن "نادي نيويورك الرياضي"، تشاركتها مع صديقة.. لقد مرحنا كثيرًا! كنا ننظر من النافذة فنرى الرجال المتأنقين في جهة والرجال الجذابين في الجهة الأخرى.
ضحكت على الذكرى المرحة، لكن عندما نظرت حولها رأت وجوهًا خاوية، عدا الرجل الذي قضى فترة عزوبيته في نيويورك، ابتسم لها بتفهم، فأضافت:
- لكن بكل براءة بالطبع.

ثم أخذت ملعقة من الأيس كريم ونظرت إليه شاعرةَ بالحرج دون معرفة السبب.
تدخلت "جوان" أو "جاين" مجددًا وتحدثت إلى المرأة على الجانب البعيد من الرجل ذي البذلة الرمادية:
- كنا نتحدث للتو عن جمال "أوليفيا كابلان"، كنت أخبر هذه السيدة.. السيدة "إيتش".. هكذا ناداكِ الولد، صحيح؟
- هذا الاسم الذي يستخدمه طوال الوقت، لكن في الواقع...
- كنت أقول للسيدة "إيتش" إن "أوليفيا" كانت عارضة قبل زواجها. وكنا نتنهد بحسرة من قوامها وفستانها، يا إلهي!
ردت بغضبٍ مفاجئ:
- ربما تنهدتِ أنتِ، لكن أنا بالتأكيد لم أفعل.
ندمت فورًت على انفعالها.
قالت "جوان" وهي تنظر بتحفظٍ إلى كأسها:
- حقًّا؟ حسنًا.
ساد الصمت بعض الوقت ثم مالت امرأة برأسها للأمام وقالت:
- أليس زوجكِ هو الفنان المشهور؟
- نعم، كلانا فنان، لكنني لست مشهورة مثله، ولا أريد أن أكون.
قالت المرأة:
- لا بد أنكما تستمتعان بالعيش بالقرب من "بروفينستاون"، فهي مليئة بمعارض الفن.. إنها بلدة فنية صغيرة.
قالت باختصار قبل أن تدفن الملعقة في الأيس كريم مجددًا:
- معظمهم هواة غير محترفين، لا أعدّهم رسامين.
تصاعدت أنغام الكلارينيت من البيت، وبدأ الأزواج ينهضون من على الطاولات ويعبرون الحديقة وصولًا إلى المنزل متشابكي الأيدي.
قام أحد الرجال الجالسين على المقعد المقابل ومرَّ من خلف "دوريس" ليطلب من "جاين" أو "جوان" الرقص، فتركا مكانين شاغرين، مثل سنتين وقعتا من الفم.
قال لها الرجل ذو البذلة الرمادية:
- أظن أن نيويورك تناسب الفنانين أمثالكم أكثر؛ فهي مليئة بالمعارض وما إلى ذلك، لا بد أنها ممتعة جدًّا.
- الناس دائمًا يظنون هذا، لكن حياة الفن في نيويورك مصطنعة جدًّا.
- حقًّا؟
- نعم، لا نهتم بها حقًّا. على الرغم من حصولنا على دعوات كثيرة لاحتفالات عديدة، وكأن صاحب الدعوة يقول: "تعالوا شاهدوني أرقص! تعالوا شاهدوني أرقص!". أسميهم "فرقة الراقصين".
- هل يتم دعوتكما لعروض رقصٍ أيضًا؟
- ماذا؟ لا، لا. بالطبع لا! إنه مجرد تشبيه، قصدت معارض وافتتاحات و...
استدار الرجل وصمت لحظة قبل أن يطلب من "دوريس" الرقص، لم يبقَ على الطاولة سواها ورجل عجوز ومراهقتان تتهامسان.

قطعت فطيرة التفاح بالملعقة ورفعت قطعة إلى فمها، شعرت بغصةٍ في حلقها، وأن قطعة الفطيرة لا تستطيع المرور، فتركتها قليلًا على لسانها. عبر الباب المفتوح، لمحت فساتين صيفية تتحرك بانسيابية على أنغام البيانو والكلارينيت بأغنية (Begin the Beguine)، تذكرت يومًا شتويًّا في نيويورك عندما كان الثلج يتساقط وأذيعت الأغنية نفسها في الراديو، عندها ترك زوجها فرشته وجذبها للرقص في غرفة الرسم، كادت تقع على الأرض من المفاجأة، كانت خطواته رشيقة وذراعاه قويتين بالنسبة لرجل يدَّعي أنه لا يعرف الرقص.. كم تود أن ترقص الآن! كم ترغب في أن يعود ويأخذها من على هذه الطاولة الفظيعة! لمحت شيئًا فرفعت نظرها ورأت المرأة ذات الفستان الوردي تقف وحدها تحت الشجرة، تلاقت نظراتهما ثم ابتعدت فورًا.

ابتلعت قطعة الفطيرة وشربت بعض الماء ثم نهضت لتبحث عن زوجها.

ترك زوجته مع سيدة ضخمة ترتدي فستانًا ورديًّا واتجه إلى المنزل، توقف في منتصف الممر المؤدي للجراج ونظر إلى حركة المدعوين المستمرة في الحديقة، الطاولات والكراسي والمقاعد التي رتبها بنظام هذا الصباح، أصبح شكلها مختلفًا، لقد وضعها بدقة شديدة، ووضع في اعتباره شكل الظل الذي تُلقيه.. حتى أنه وقف لوهلةٍ يتأمل منظرها الجميل، لكن لم يعد كل هذا موجودًا، لقد بدأت الصورة تتحطم مع أول قدم تخطو في المكان، والآن انمحى كل أثرٍ لها.

تحركت أشعة الضوء ومرت على ضيوف السيدة "كابلان" من مجموعة لمجموعة، من البيت إلى الحديقة وإلى الممرين الصغيرين المؤديين إلى المنحدر المطل على البحر. فقط "ريتشي" هو من يقف ساكنًا، رأسه المستدير يعلو طاولة التبرع مثل عملة نقدية معلقة في الهواء، وهناك شخص آخر يقف ساكنًا على يساره، نظر إلى السماء ثم إلى سطح المنزل المائل وإلى البلكون الخارجي حيث وجدها متكئة على عامود وترتدي ملابس بيضاء بالكامل، "ريتشي" و"كاثرين" وهو، الأشخاص الوحيدون الذين يقفون بسكون في مثلثٍ وهمي متساوي الأضلاع، بينما تتحرك أشعة شمس العصاري بينهم بلا رحمة.

شعر بقلبه ينبض بسرعة، وفي الوقت نفسه جاءته فكرة، وجه "ريتشي" الأحمر مع طاولة التبرعات ذات الدلو الأصفر، و"كاثرين" بالأبيض وهي تتكئ على البلكون، أراد أن يحفظ المشهد في ذاكرته لكن بمنظور خارجي وليس من منظوره.. أراد أن يكون جزءًا من الصورة وفي الوقت نفسه خارجها، أن يكون غائبًا وحاضرًا.. وكأنه ينظر إلى غرفة من خلال مرآة؛ ولد صغير وامرأة شابة ورجل كبير السن، بدت الصورة مثل غلاف أسطوانة (Planets). فكر في "عطارد" ((Mercury و"الزهرة" (Venus) و"زحل" ((Saturn، إله الزمن لدى الرومان، أما الشمس فترسل آخر دفعة من أشعتها قبل الغروب.. تخيل أنه رأى كل هذا عبر مرآة.

سمع صوتًا يناديه.. ناداه مجددًا، ثم لمح عنق زجاجة يتجه نحوه.

- هل تريد بعض المرطبات يا سيدي؟

أدار نظره جهة البحر وتظاهر بأنه لم يلحظ.

لكن الصوت قال مجددًا:

- إنه من فرنسا يا سيدي.

استدار وقال بعبوس:

- فرنسا؟

- نعم يا سيدي، أعني النبيذ. إنه من فرنسا، معتق من فترة ما قبل الحرب، هناك بعض الزجاجات، وطلبت مني السيدة "كابلان" أن أعرض عليك...
شعر بالمرآة التي تخيلها تتصدع وتتحطم، فأومأ للفتى ومد كأسه.
بعد لحظات مر بين حشد المدعوين وهو يلقي التحية على بعض الأشخاص ويتظاهر بعدم ملاحظة أشخاص آخرين، كل هذا وهو يركز نظره على طيفها الأبيض، "كاثرين" كالصياد على الضفة وتجذبه نحوها كأنه سمكة، لا يوجد سمكة في العالم راغبة في التضحية بنفسها مثله، يتوق أن يعلق بالخطاف ويتذوق طعم دمائه.
تخطى كل العقبات؛ مجموعات المدعوين، الأطفال، الطاولات، صواني الكؤوس الفارغة. مع كل خطوة تتضح صورتها؛ فستانها الأبيض، شعرها الداكن، وقفتها الساكنة.. تخيل نفسه وهو يصعد سلم البلكون نحوها، ثم يرفع جزءًا من شعرها ويشعر بوزنه، وبعدها يهمس في أذنها: «أريد أن أرسمكِ. وبعد أن أرسمكِ، أريد أن أفعل لكِ أشياءً أعجز عن وصفها».
سمع صوت طائرة، فرفع رأسه للسماء ورآها تعاني للمرور عبر الغيوم، فجأة شعر بشيءٍ على ذراعه، نظر للأسفل فرأى يدًا تمسك به. نظر للأعلى فرأى وجه "أوليفيا". قالت:
- أين تظن نفسك ذاهبًا؟ هناك الكثير من الناس يتحرقون شوقًا لرؤيتك.
- كنت فقط...
ابتسمت بمكر وانتظرت سماع ما سيقول.
تنحنح وقال:
- كنت فقط سأحضر بعض المشروبات.
- لكن أين "مايكل"؟ من المفترض أنه يساعدنا.. هذا الفتى!
- لا بأس أبدًا.
رفعت يدها واستدعت نادلًا وقالك:
- قدم مشروبًا لهذا السيد.
كاد يوضح لها أنه كان يبحث عن كوب ماءٍ لزوجته، لكن النادل ملأ له بالفعل كأسًا واختفى، وقفت "أوليفيا" بجانبه وهي تبتسم، أخذ رشفةً طويلة ثم أخرى. جاء رجل وأمسك يد "أوليفيا" وقبلها، ثم قال له:
- هل تمانع لو أخذتها منك لبعض دقائق؟
قال:
- لا بأس أبدًا.
أخذها الرجل فورًا وهي تضحك.
هناك طاولة مشروبات بجانب البلكون، وقف وانتظر دوره. يقف خلف الطاولة رجل في الستينيات يرتدي زي النادل، ويوزع المشروبات والنكات على الناس، وقفت بعض الفتيات يثرثرن ويضحكن بينما ينزع أغطية زجاجات الصودا ويمزح معهن بخصوص من ستتزوج أولًا. إنه رجل عابث، النوع الذي يستفزه، لكن ليس اليوم؛ فهو الآن أحد هؤلاء الرجال، أصبح فجأة متصابيًا ومتباهيًا أمام فتاة من المحتمل أنها لا تنظر إليه حتى.
قال النادل:
- لديَّ نبيذ وكحوليات خفيفة، إن أردت مشروبًا أقوى، ستجد في المنزل. لا تقلق، لن أخبر أحدًا.

- في الواقع، أريد مشروبًا أخف.
- بالتأكيد، لديَّ عصير ليمون ومشروب شعير.
- ماذا عن بعض الماء؟
- ماء؟ من يأتي إلى حفل ليشرب الماء!
- زوجتي.
- هل أنت واثق من أنها لا تريد بعض عصير الليمون؟ ماذا عن كوبٍ لذيذ من الصودا؟
- ماء.
- لطيفة جدًّا! لا داعي لتخبرني. أعرف كيف يمكن للزوجات أن يكُن لطيفات، فأنا متزوج منذ ثمانية وثلاثين عامًا.
- مبارك!
- نعم، يمكن قول ذلك. عمومًا، إن أردت ماء فاذهب إلى المطبخ.
لمحها وهو يبتعد عن الطاولة، كانت لا تزال هناك عندما وضع يده على الدرابزين الخشب للشرفة، لكنها اختفت في اللحظة التي خلع فيها قبعته وصعد سلم البلكون، وكأن رؤيته أخافتها. قبعتها الصفراء ترقد على طرف "الشيزلونج"، وهناك سيجارة غير مشتعلة تستند على طرف الطفاية، أما على الطرف الآخر من البلكون، استمرت فرقة الأبواق. نظر إلى الأشجار البعيدة، فلمح الطائرة الصغيرة تحوم فوق الخليج، أنهى مشروبه ثم أخرج منديله ليجفف عرق جبهته.
اجتمع بعض رجال الجيش في غرفة المعيشة بجوار البار. في الطرف البعيد من الغرفة، اتكأ "فرانك" على البيانو يقرأ جريدة، سار إليه فأنزل "فرانك" الجريدة وصافحه، كان على وشك أن يترك كأسه الفارغة عندما مر فجأة نادل بجانبه وملأ كأسه مجددًا.
قال "فرانك" وهو يغطي إحدى أذنيه:
- أنا أنتظر هنا حتى ينتهي فتيان الأبواق من العزف، وبعدها ستبدأ فقرتنا أنا والكابتن.. تعالَ إن كنت مهتمًا بالرقص.
قال وهو يتجه نحو المطبخ:
- لا، لكن شكرًا على "التحذير".
في طريقه إلى المطبخ كاد يرتطم بصينية كبيرة محملة بأطباق أيس كريم، تراجع وانتظر حتى يمر الشخص الذي يحملها بسلام وينتهي الخطر، ثم ذهب إلى المطبخ بحذر؛ لم يستطع رؤية الحوض من كثرة الناس الموجودة، تحولت الطاولة الطويلة في المنتصف إلى منصة لتقديم الأيس كريم وأطباق كبيرة من فطائر التفاح، وقف في الخلف يشرب كأسه ويراقب ما يحدث، ثم انتبه إلى صينية مقبلات على حافة النافذة.. راقب ذبابتين تلتهمان ما فيها، وتساءل إن كانت كل واحدة تعلم بوجود الأخرى، وهل ستتلاقى دروبهما أم لا. فجأة شعر أنه شرب النبيذ بسرعة أكبر من اللازم، وخطر له أنه ربما عليه الشرب كباقي الرجال.. أو الأفضل، ألا يشرب مطلقًا.
عندما رفع نظره مجددًا لاحظ أن مقدمي الأيس كريم تركوا الطاولة، وأن "كاثرين" تقف عند الحوض تغسل الكؤوس، بدأ يسير نحوها لكن سيدة "كابلان" أمسكت به قبل أن يصل إلى الحوض.
- يسعدني جدًّا قدومك، أين زوجتك؟
- إنها في الخارج تتحدث مع شخصٍ ما، لقد أرسلتني لأحضر لها بعض الماء.
- نعم، فهمت. دعني أرى.. نعم، ها هو!

أخذت السيدة "كابلان" إبريق ماء من على أحد الرفوف، ومالت على الحوض بجانب ابنتها لتملأه بالماء وتعود إليه، نظرت "كاثرين" خلفها ورأته، فأشارت برأسها نحو الكؤوس على الرخامة وقالت:
- اعذرني، يداي مبتلتان.
التقط كأسًا ثم منشفة مطبخ وبدأ يجفف الكأس. قالت:
- لقد نفدت الكؤوس النظيفة، لا أتذكر أننا دعونا هذا العدد الضخم أبدًا.
أومأ وهو يواصل تجفيف الكأس.
قالت:
- حطمت اثنتين بالفعل والحفل ما زال في بدايته.
قال:
- اثنتان من ماذا؟ القلوب؟
شعر بالحرج والمفاجأة من محاولته البائسة في الغزل.
أطلقت ضحكة متوترة صغيرة ونظرت إليه ثم أبعدت نظرها،
أخذت كأسًا أخرى ووضعتها على الرخامة لتصفي ماءها. قال:
- يمكنني أن أساعدكِ في تجفيف الكؤوس إن أردتِ.
- أليس عليك إحضار الماء لزوجتك؟
- أوه نعم، هذا صحيح.. سأفعل.
ترك الكأس من يده وكان على وشك ترك المنشفة، عندما سحبت "كاثرين" يديها من الماء ونفضتهما، ثم استدارت وجففت يديها بطرف المنشفة التي يحملها. وقفا لحظات يواجهان بعضهما، خمن أن طولها 175 سم أو ربما 172 سم، ثم فكر في أنه لو رفع يده قليلًا، سيمكنه لمسها.
عادت السيدة "كابلان" إليهما في هذه اللحظة، تركت "كاثرين" المنشفة وعادت إلى الحوض بحركة سريعة شبه مذنبة.. أعطته شعورًا سخيفًا بالأمل. وكأن الأربعين عامًا الماضية لم تحدث أبدًا، وكأنه عاد بالزمن إلى سن العشرين قبل أن يكون له زوجة تنتظره في الخارج لكي يحضر لها بعض الماء.
ناولته السيدة "كابلان" صينية كبيرة في منتصفها إبريق الماء لزوجته، ثم أخذت الكأس من على الرخامة ووضعتها فوق الإبريق. نظر إلى "كاثرين"، ولاحظ الآن فقط أن فستانها ليس أبيض وإنما زيتوني، نظرت إليه فلمح في عينيها لمعانًا، وكأنها مستمتعة بشيءٍ ما.. لكنه ليس متأكدًا، لا يمكنه التأكد من أي شيء إذا تعلق الأمر بـ"كاثرين".
أخذ يوزع الأيس كريم ويتبادل أطراف الحديث مع رجال الجيش عندما أتى "مايكل" مندفعًا إليه وقال:
- هل يمكنني الحصول على واحد، من فضلك؟
- بالتأكيد يا "مايكل"، هل تريد واحدًا لـ"ريتشي" أيضًا؟ أظنني رأيته واقفًا خلف إحدى الطاولات.
- لم يعد هناك.. إنه غاضب.
- إنه ماذا؟ لماذا؟
- لم يردني أن أذهب إلى الشاطئ مع الولدين القادمين من "هيانيس"، لكنني ذهبت على أي حال فغضب، وعندما أرسلتني والدته لمساعدته عند طاولة التبرعات، قال لي أن أبتعد عنه ونعتني بـ"الهربان".

- فهمت.
- لكنني لم أهرب أبدًا، لقد أوصلتهما إلى الشاطئ وعدت على الفور. على كل حال، الأيس كريم ليس لي، إنه لسيدة "إيتش".
- في هذه الحالة، من الأفضل لي أن أعطيه لك فورًا، كنت على وشك أن أحضر لها الماء.
- يمكنني فعل ذلك أيضًا، إن أردت.
أخذ "مايكل" طبقًا من الأيس كريم وإبريق الماء من الصينية ثم استدار وابتعد.
سأله رجل بجانبه:
- هل هذا حفيدك؟
- لا، ولا حتى ابني.
- كنت سأقول إنه يشبهك قليلًا.
- ليس لديَّ أولاد أصلًا.
قال الرجل بصراحة جارحة إلى حدٍ ما:
- خسارة!
ثم مال على الصينية يتفقد أطباق الأيس كريم، وسأله:
- أليس لديك أيس كريم سادة؟ أعني، دون فطيرة تفاح تحته.
- لا للأسف، لكن يمكنني أن أحضر لك البعض بالتأكيد.
- لا يمكنني أن أطلب منك هذا، ربما سأطلب من حفيدك. نسيت، إنه ليس حفيدك.. صحيح.
- لا، ليس كذلك.
- ليس لديَّ أحفاد أيضًا، ولا حتى أبناء.
لاحظ أن الرجل يضع دبوسًا أزرق صغيرًا مزينًا في المنتصف باللونين الذهبي والأبيض. إنه الدبوس الذي يسلمونه لشخص عسكري فقد ابنه الذي يخدم في العسكرية، وقفا ينظران لبعضهما لحظات، ثم انقطع صوت الأبواق وجاء صوت "أوليفيا" من البلكون، صفق الناس بصوت يشبه الشلال، ثم عادت "أوليفيا" تتحدث.
فكر في "كاثرين" الموجودة في المطبخ، في لون فستانها وفي يديها عندما كانت تجففهما، وكأنهما كانتا في الماء الساخن فترة طويلة. لا يمكن أن تكون في البلكون، لكن ماذا عن الطيف الأبيض؟ هل كان وهمًا ضوئيًّا؟ سراب؟ ربما كان واقفًا أي شيء أو لا شيء على الإطلاق.
قال للرجل:
- لا أمانع أبدًا أن أحضر لك الأيس كريم من المطبخ، إن أحببت.
نظر الرجل إلى الأيس كريم وفكر قليلًا، ثم نظر إليه بعينين ذابلتين وقال:
- لا، لا داعي.
لمحته واقفًا تحت ظل شجرة مع سيدة "كابلان" وشخصين آخرين. سمعت موسيقى (Slow Boat to China) من أنغام كلارينيت، ورأت "كاثرين" على البلكون ترقص مع رجل عجوز جدًّا، وعبر باب المنزل لمحت زوجين يرقصان.
كان رأسه مائلًا نحو سيدة "كابلان" بينما يركز في كل كلمة تقولها، وهناك اثنان آخران يقفان معهما بالاهتمام نفسه، شعرت بالحرج وهي تقترب منهم، وكأنها تتطفل عليه في مجموعته الصغيرة، أملت

في أن يرفع نظره ويلمحها فيرحب بها، لكن السيدة "كابلان" هي من لاحظتها أولًا.. لم تتوقف عن الحديث، لكنها ربتت على ذراعها كنوع من الترحيب وأفسحت لها مكانًا للوقوف.
قالت السيدة "كابلان" للزوجين الواقفين:
- حسنًا، كنت حاملًا في "بيلي" عندما انتقلنا إلى المكسيك.
الرجل يرتدي نظارة داكنة، والسيدة نحيلة وبشرتها بنية ومجعدة مثل البلح.
عندما انتهت السيدة "كابلان" من جملتها وجهت إليها الكلام:
- كنا نتحدث عن أمهاتنا، وقلت إنني آسفة لأن والدتي لم ترَ أحفادها.
سألها الرجل ذو النظارة الداكنة:
- هل تُوفيت قبل ولادتهم؟
- لا، أبدًا. كنا نعيش في المكسيك بسبب عمل زوجي، وكل بضعة أشهر كنت أقول إنني سأعود إلى البيت في الصيف أو الكريسماس، لكن مرت سنتان و... عدت إلى البيت لحضور الجنازة، في ذلك الوقت كنت حاملًا في "كاثرين"، وبقيت.. رفضت مغادرة البيت الذي كبرت فيه، على الرغم من أنني لم أكن في قمة السعادة فيه. اضطر زوجي لتغيير وظيفته والعودة إلى بوسطن، لم تكن صلتي بأمي شديدة القرب، لكنني شعرت بالذنب لسنوات. عمومًا، جميعنا لدينا ما نندم عليه.
فتحت فمها لتقول شيئًا عن والدتها، أن علاقتهما كانت قوية، وأنهما كانتا كالأصدقاء، والوحدة التي شعرت بها بعد وفاتها، لكن زوجها قال أولًا:
- أمي لم ترَ حتى بيتي هنا في "تورورو"، لقد ندمت على هذا كثيرًا.
قالت لتوضح كلامه:
- والدته لم تكن بصحةٍ جيدة لكي...
لكنه قاطعها:
- بل كانت على ما يرام، لقد أجلت زيارتها فقط ثم فات الأوان.
قالت السيدة "كابلان":
- يا للأسف! أنا واثقة من أنها كانت ستحب البيت.
قال:
- نعم، كان سيعجبها.
قالت هي:
- لا يمكننا التأكد من هذا، فوالدته كانت صعبة الإرضا...
قاطعها مجددًا:
- بل كان أسلوبها مشجعًا جدًّا.
- الأمر نسبي، أنا لا أوافقك الر...
- أعلم أنني كنت سأسعد بأن أريه لها.
ابتسمت السيدة "كابلان" بحزن ثم نظرت إلى البلكون وقالت:
- هل تمانعون لو انضممنا إلى "كاثرين" في البلكون قليلًا؟ لا يمكنها البقاء في الشمس، لذلك هي مضطرة للبقاء في الداخل، وقد يكون هذا خانقًا بالنسبة لها، أنا متأكدة بأنها ستستمتع بالصحبة.
كانت "كاثرين" جالسة وترفع قدميها على "الشيزلونج"، وكعباها موجهان نحوهم بالضبط. الرجل العجوز الذي كان يراقصها أصبح يرقص مع أخرى الآن، سارت مع السيدة "كابلان" بينما سارت

خلفهما السيدة بنية البشرة وهي تمسك يد صاحب النظارة البنية، عندما نظرت خلفها رأت "مايكل" يتحدث مع زوجها.
قالت السيدة "كابلان":
- هذه صديقتي "ليليان"، وهذا أخوها الأصغر "جورج". لقد فقد بصره في أثناء الحرب، و"ليلي" هي من تعتني به الآن.. لا يتحدث كثيرًا لكنه يبدو راضيًا.
انتظرت أن تلحق "ليلي" بهما في السير، ثم أمسكت بذراعها وقالت:
- ستقول لكِ "ليلي" أنها بستانية، لكنها في الواقع خبيرة أشجار وعالمة نباتات ومكتشفة عظيمة للغابات والمستنقعات والأدغال و...
قالت "ليلي":
- أما صديقتي هذه، فهي أفضل من يبالغ في قدراتي.
قالت "كاثرين":
- يمكنها أن تزرع أي شيء.
قالت "ليلي" وهي تبتسم:
- عدا المال.
ثم ضحكت المرأتان على ما يبدو أنها دعابة قديمة بينهما.
انتظرت حتى توقفت المرأتان عن الضحك ثم قالت:
- هلا تعذراني، عليَّ الذهاب إلى الحمام.
قالت السيدة "كابلان":
- بالطبع، تفضلي.. يمكنكِ استخدام حمامي الخاص، إنه في الطابق العلوي آخر الممر، ادخلي غرفة نومي مباشرةً، هكذا لن تضطري للانتظار في الصف.
جرح مشاعرها بالطريقة التي قاطعها بها! وكأنه صفعها على وجهها. شعرت بطعم المرارة وهي تتبع إرشادات السيدة "كابلان" وتصعد السلم، كيف يلمِّح إلى أنها مخطئة، في السابعة والستين من عمره وما زال خاضعًا لأمه.. إنها ليست حتى على قيد الحياة! كيف يفعل هذا أمام غرباء، إنه يخشى أن يقول صباح الخير لشخص لا يعرفه خوفًا من أن يكثر في الكلام، ربما لم تلحظ السيدة "كابلان"، لكن الرجل الكفيف وأخته بالتأكيد لاحظا؛ فالرجل رفع ذقنه، والمرأة أخفضت نظرها.
وصلت الطابق العلوي ووقفت تنظر إلى الممر الطويل المترب؛ هناك ثلاثة أبواب على اليسار، وواحد في المقدمة، وجدت بابًا مواربًا فاختلست النظر ظنًّا منها أنه باب الحمام، لكنها رأت "ريتشي" ممددًا على بطنه على الأرض وممسكًا بظرف بني من أظرف الجيش الأمريكي، وعلى جانبه طابع طائرة مقاتلة، يوجد المزيد منه على الأرض. إنها رسائل قديمة من والده على الأرجح، لأول مرة تتعاطف مع الولد الذي اختبأ في أبعد غرفة ليقرأ خطابات والده القديمة في هذا اليوم بالذات.
قررت أن تتركه وحده وتعود لتتذكر إرشادات السيدة "كابلان" لكي تجد الحمام، عليها أن تدخل غرفتها.
جلست على المرحاض واتكأت بمرفقيها على ركبتيها بينما تنظر حولها إلى حمام السيدة "كابلان"؛ النافذة سداسية مثل خلية النحل، حوض الاستحمام عليه بقع صدأ، الإسفنجة ما زالت مبتلة. شعرت بحاجة ملحة لقضاء حاجتها، ومع ذلك لا ينزل شيء.. حاولت أن تسترخي، دون أن تجهد نفسها

بالمحاولة أو التفكير، استمعت إلى الأصوات في الخارج، ارتفعت أصوات الناس وأصبح الضحك أكثر أريحية وصخبًا، هناك أيضًا صوت الكلارينيت بموسيقى (Why Don’t You Do Right?).
كل ما فعلته هو فقط تأجيل الزيارة، بمجرد أن جهزا البيت أراد أن يقود إلى "نياك" ليحضر شقيقته ووالدته فورًا، كل ما طلبته منه هو أن يستمتعا بصيفهما الأول في البيت الجديد دون أن تضطر إلى الطبخ وتملق عائلته، ودون أن تحشرا أنفيهما في كل ما تحب.
قالت:
- ألم تصممه بغرفة نوم واحدة لكي نرتاح من جيش الزوار؟
- شخصان فقط لا يُعَدَّانِ جيشًا.. إنهما أمي وأختي.
- نعم، لكن ألا تظن أن والدتك لن تحتمل السفر بسبب سنها؟
- يمكننا أن نتوقف عدة مرات خلال الرحلة.
- لن أذهب كل هذا الطريق إلى "نياك"!
- يمكنهما أن تأتيا بالقطار إذًا ثم نأخذهما بالسيارة من بوسطن.
- لن أذهب إلى بوسطن أيضًا!
- يمكنني الذهاب وحدي.
- عليك أن تعمل الآن، لست بحاجةٍ إلى كل هذا الإزعاج.
- تعنين أنكِ من لا يريد الإزعاج.
- كل ما أقوله هو أن الوقت غير مناسب الآن، ويمكنني أن أكتب لهما جوابًا لطيفًا لأخبرهما بالأمر.
- إنها كبيرة في السن.
- ما زال عمرها طويلًا.
- يمكنهما أن تناما على سريرنا ونحن ننام في العلية.
- لا.. لا، لن ينفع.
- يمكنهما البقاء في "ويلفليت"، سأجد لهما فندقًا.
- لا.. لا، سيكون باهظًا في هذا الوقت من العام.
- لن تضطري إلى الطبخ حتى.
- قلت لا.. لا يعني لا!
أخيرًا، بدأت تقطر. انتهى عناؤها بمجهودٍ بسيط، على الأرجح ستحتاج إلى الصعود مجددًا بمجرد أن تنزل، انتظرت أن تنتهي ثم نظفت نفسها واغتسلت في حوض السيدة "كابلان".
وبعدها ماذا فعلت والدته؟ ماذا كانت لعبتها الكبرى؟ ماتت! نعم، ماتت قبل أن ترى بيته العزيز.
قالت لانعكاسها في المرآة:
- "بيته الغالي" الذي اشتراه بأموال عمي!
نظرت لنفسها للحظات ثم وضعت يديها المبتلتين على وجهها وهمست:
- لقد قلت لا.. قلت لا، لا، لا.
كان واقفًا في الحديقة يتحدث مع "مايكل" عن مصائد السلطعون، عندما جاءت السيدة "كابلان" وقدمت الولدين، تمتم "مايكل" دون أن ينظر إلى الولدين:
- لقد قابلتهما بالفعل قبل الحفل.
كان واثقًا من أنها تتحدث عن الأخوين الفظيعين من "هيانيس". قال:

- كنا نتحدث عن السلطعونات.
قالت السيدة "كابلان":
- فهمت، هل تفكران في صنع مصيدة سلطعون صغيرة؟
قال "مايكل":
- لا، لكن أردت أن أعرف كيف تعمل المصيدة.
- لم أستطع إخباره بالتفاصيل، غير أن السلطعون يدخل فيها ولا يستطيع الخروج.
قالت سيدة "كابلان":
- هكذا تكون في العادة، على ما أظن.
نظر إليها "مايكل" بتساؤل فقالت:
- أعني أننا أحيانًا نتورط في شيءٍ ما ولا نعجز عن الخروج لاحقًا. يا إلهي، هل ألقي مواعظ حتى في الحفل!
قال أحد الولدين:
- لديَّ سلطعون كحيوان أليف.
قالت السيدة "كابلان":
- حقًّا؟
- أسميه "أورسا ماجور".
- يا له من اسم عجيب! وعلى كل حال، السلطعون ليس حيوانًا أليفًا شائعًا أيضًا.
- أسميته علىً اسم الكوكبة النجمية، أعني مجموعة النجوم.
قالت سيدة "كابلان":
- أنت مهتم بالنجوم إذًا؟ "ريتشي" كان يراقب النجوم بشغف عندما كان أصغر سنًّا. استمتع والده بذلك، وعلمه كل الـ...
قال الولد:
- لقد طلبت تليسكوب في الكريسماس، لكن لم أحصل على واحد.. أردت رؤية كوكبة "أورسا ماجور".
- نعم، لكنني أردته أن يكون كالجنود.. فهذا ما هو عليه، نوعًا ما.
قال الولد الآخر:
- أنقذه أخي، تأذى مخلبه بشدة، لكننا عالجناه. والآن نعلمه القتال.
قالت سيدة "كابلان":
- انظرا، ها قد أتت والدتكما، أظنها تبحث عنكما.
جاءت امرأة شقراء بوجهٍ جميل لكن متعجل، وقالت:
- هيا يا أولاد، حان وقت الذهاب.
تجاهلها الولدان تمامًا.
تعلق أحد الولدين بذراعه ونظر إليه وهو يقول:
- سوف يقاتل حتى الموت، لهذا هو المقاتل "ماجور".
- لا أفهم في القتال، لكن بالنسبة لشكل الكوكبة فخطوطها الخارجية تشبه السلطعون فعلًا.
بدأت والدة الولدين بجذب أحد أبنائها وهي تقول:

- أرجو ألا يكونا قد أزعجاك.
- أبدًا، على الإطلاق. كانا يخبراني عن السلطعون الخاص بهما.
قال الولد:
- إنه لي وليس له.. إنه فقط يساعدني في تدريبه.
- لا، ليس "ماجور" مجددًا، أقسم أنني يومًا ما سوف ألقي به في حلة من الماء المغلي.
قال صاحب السلطعون:
- إن فعلتِ ذلك سألقي بكِ خلفه.
توقع أن تصفع الأم ابنها، لكن بدا أنها لم تمانع أو لم تلحظ وقاحته.
قال الولد الآخر:
- سنخوض قتالًا مع ولد آخر في حيِّنا لديه سلطعون ألماني، أما "ماجور" فهو أمريكي بالتأكيد.
- كيف عرفت أنه ألماني؟
- يبدو كذلك، إنه رمادي مثل الزي الألماني، ولديه وجه شرير.
قال وهو يكبح ضحكته:
- فهمت.
- سيتقاتلان حتى الموت.
- أخوك قال هذا أيضًا.
سألته السيدة "كابلان":
- لكن ألن تفتقد عزيزك "ماجور" إن مات؟
أمسكت أمه بذراعه فنفض يدها وقال:
- سأحضر غيره.. إنه جندي، هذا واجبه، أليس كذلك؟ إنهم يقاتلون ثم يموتون؛ مثل العم "بيت"، لقد سُميت تيمنًا به.. كان بطلًا.
قالت والدته:
- ها هو والدك، من الأفضل أن تتحرك وإلا سيقتلك، انظر إلى هناك.. إنه ينتظر، تعرف أنه لا يحب الانتظار.
فجأة تحرك الولدان فورًا. قالت:
- آسفة لأنه علينا المغادرة بسرعة يا سيدة "كابلان"، لكننا ذاهبون إلى عائلة "كينيث" بمناسبة عيد العمال.. مهلًا، ألم أقل هيا بنا يا أولاد! هيا وإلا أقسم أن... لقد قضينا وقتًا رائعًا. أتمنى أن تكوني قد جمعتِ تبرعات كثيرة.. "مارتي"! قلت لك هيا!
- لم أعد المال بعد، لكننا سنعلن للجميع كم جمعنا.
- هيا اشكرا سيدة "كابلان" على الحفل الجميل.
- شكرًا يا سيدتي.
- نعم، شكرًا جزيلًا يا سيدتي.
قالت سيدة "كابلان":
- سأرافقكِ، أريد إلقاء التحية على زوجكِ.. كيف حاله؟
- ما زال يعاني من الأرق، صحته على ما يرام لكن نفسيته.. تعلمين.
حتى بعدما ابتعدوا ظل يسمع صوت الأم وهي توبخ الولدين بينما تكمل حديثها مع سيدة "كابلان".

- خسارة أننا سنفوت خطابكِ، لكن إن لم ننطلق الآن سـ... "بيتر"! إن ضربت أخاك هكذا مجددًا، سوف...
نظر إلى "مايكل" وضحكا معًا.
- هذان هما الولدان اللذان يكرههما "ريتشي".
- خمنت هذا.
- لا ألومه.
- لكن أشعر بالفضول نحو السلطعون.
- تقول السيدة "إيتش" إنه ليس شرطًا أن يحب الجميع بعضهم.
- هذا صحيح.
قال "مايكل" قبل أن ينفجر بالضحك:
- وإلا كان كل شخص سيسير فاتحًا فمه بابتسامةٍ بلهاء في وجه الآخر. هذا مضحك جدًّا! لا أعرف لماذا فكرت في هذه الصورة.
- أحيانًا تكون زوجتي مرحة أيضًا.
صمت "مايكل" قليلًا ثم قال:
- أنا.. أحاول أن أحب "ريتشي".. أحاول حقًّا، لكن...
نظر إلى "مايكل" وكاد يذكره بأنه فقد أباه، ثم تذكر أن هذا الولد فقد كل شيء، عائلته ووطنه وربما هويته أيضًا.
- أظن أن "ريتشي" ولدٌ طيب، وسوف تحبه مع الوقت.. هذا يحدث أحيانًا.
- لكن والدته لا تحبني، أنا متأكد من هذا.
- لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.
- بلى، وأعرف السبب أيضًا.. لأنني ألماني، والألمان قتلوا زوجها.. هذا حقها. لا أعرف، ربما.
- من الأفضل ألا تفكر في هذه الأمور يا "مايكل".
- لا أعرف، هذه الأفكار تأتي إلى عقلي وحدها، ولا أظن أن بيدي حيلة.. صحيح؟
- نعم، أنت محق.
وقفا بصمت بضع ثوانٍ يشاهدان حشود المدعوين، ثم وضع يده على كتف "مايكل" وقال وهو يقوده إلى الداخل:
- هيا بنا، لنبحث عن شيءٍ بارد نشربه.
رأته وهي تهبط السلم عائدة من الحمام، كان يلمس شفتيه وذقنه، عادته عندما يتحدث مع شخصٍ يصيبه بالتوتر، مالت برأسها في غرفة المعيشة لترى مع من يتحدث؛ "أوليفيا"، وهناك "أنيتا"، و"كاثرين" أيضًا مع زوجين آخرين.
اقتربت من المجموعة و"أوليفيا" تقول:
- هيا، أخبرنا.. لا داعي للحرج، ها هي زوجتك سوف تحسم النقاش.
- أي نقاش؟
قالت "أنيتا":
- لا يريد إخبارنا ما هي لوحته المفضلة.
- لا يريد؟

قالت "أوليفيا" وهي تدبدب بقدمها كالأطفال:
- يقول إنه لا يعرف، كيف لا يعرف؟
- نعم، بالفعل.
استدارت "أوليفيا" إلى الزوجين وقالت:
- هذه سيدة "إيتش"، بالتأكيد هي تعرف.
قالت للرجل:
- اسمي ليس سيدة "إيتش".
- حقًّا؟
قالت "أوليفيا":
- إنه هكذا في هذا المنزل، الولدان يقولان هذا، وهما...
توقفت "أوليفيا" عندما لاحظت أن "مايكل" انضم للمجموعة، وقالت:
- هل تريد شيئًا يا "مايكل"؟
- أتيت فقط لأسأل السيدة "إيتش" إن كانت تود الاستماع لخطبة سيدة "كابلان" معي.
- ما زال هناك ربع ساعة، لم ينتهِ الناس من تناول الحلوى بعد.. والآن اذهب؛ ستحتاجك "روزيتا" في المطبخ.
- أخبرتني أن آخذ استراحة.
قالت "أوليفيا" بضحكةٍ مصطنعة:
- "مايكل".. افعل كما أقول.
قالت "كاثرين":
- لا بأس يا "أوليفيا"، ألا يجب أن نكون في الخارج مع أمي بأي حال؟ ستريدنا معها قبل أن تبدأ.
- نعم، بالفعل.. دعيني فقط أحضر مشروبًا آخر أولًا.
قالت "أنيتا":
- أنا سأحضره لكِ يا عزيزتي، سأحضره لكِ في الخارج.
أفرغت "أوليفيا" بقايا كأسها وناولته لـ"أنيتا" ثم سألتهم و"كاثرين" تجذبها من ذراعها:
- هل يعرف أحد أين "ريتشي"؟ "مايكل"، هل يمكن أن تبحث عنه؟
ثم أضافت وهي تبتعد:
- بعدما تنتهي استراحتك بالطبع.
نظرت إلى زوجها بحاجبٍ مرفوع ثم نظرت إلى "مايكل" وقالت:
- أظنني أعرف أين هو، لن أتأخر.
عادت إلى الدور العلوي وسارت في الممر، وجدت باب غرفة "ريتشي" مغلقًا، لكنها سمعته يغني في الداخل.
طرقت الباب ونادته ثم سمعت بعض الجلبة. فسألته:
- هل أنت بخيرٍ يا "ريتشي"؟
انفتح الباب قليلًا وأطل "ريتشي" برأسه وقال:
- مرحبًا سيدة "إيتش"، كيف علمتِ أنني هنا؟
- هذه غرفتك، صحيح؟

- لا، ليست كذلك.. أعني، أنا و"مايكل" ننام في الطابق السفلي، لكنني آتي إلى هنا أحيانًا عندما...
- عندما تريد أن تكون وحدك؟ أفهم ذلك.. كلنا نحتاج إلى الاختلاء بأنفسنا أحيانًا.
نظرت خلفه فوجدت على الأرض مجلة هزلية وزجاجة صودا. اختفت جوابات الجيش، لكنها لمحت أطراف أوراق دولارات من تحت المجلة. لا بد أن أصدقاء والده أعطوه هذا المال، وكأن المال يمكن أن يكون بديلًا عما فقده.
- لم لست في الحفل يا "ريتشي"؟
- كنت أرتاح قليلًا وحسب.
- حسنًا، أظن أن والدتك تبحث عنك، ستلقي جدتك خطبتها وأنا متأكدة أنها تريدك أن تكون معها.
- سأنزل حالًا.
- "مايكل" هناك أيضًا.
- نعم، بالتأكيد. مع أصدقائه الجدد.
- أصدقاء جدد؟ إنه وحده تمامًا.
- أعني الأخوين "ويستن". آسف، لكنني لا أحبهما كثيرًا.
- حقًا؟
- بصراحة، إنهما ليسا سوى متنمرين.
- وهذا ليس جيدًا، صحيح؟
- لكن "مايكل" ليس منزعجًا.. إنه لا يمانع مصادقتهما، لقد ذهب إلى الشاطئ معهما وتركني وحدي.
- أنا متأكدة أنه كان يتصرف معهما بتهذيب لا أكثر، إنه ليس معهما الآن.. لم لا تنزل معي؟ سيغادر المدعوون قريبًا، ولا تريد أن تفوت خطبة جدتك.
- أين أمي؟
- مع "كاثرين".
- وكابتن "هارتمان"؟
- من؟
- لا يهم.
- تعال يا "ريتشي"، لننزل.. ما رأيك؟
فكر "ريتشي" قليلًا وهو يعض على شفته، ثم أومأ وأغلق الباب خلفه وتبعها.
عندما خرجا كان البلكون مليء بالناس، وسيدة "كابلان" على وشك البدء، دفعت "ريتشي" أمامها وهي تمر بين الناس وتقول:
- عذرًا، عذرًا. نريد المرور.
أبدى رجل وامرأة انزعاجهما من الصخب الذي تسببه، كان الجميع يضحك، ثم صمتوا عندما همت السيدة "كابلان" بالحديث عن ابنها. أخيرًا وجدت مكانًا خاليًا وسط الزحام فجذبت "ريتشي" ليقفا فيه، والآن أصبحا في طرف البلكون بجانب السلم.
- "بيل كابلان"، ابني.. زوج "أوليفيا"، والد "ريتشي"، شقيق "كاثرين".. ضحى بحياته لأجل بلاده، على مدى الأعوام القليلة الماضية، أقمنا حدادًا عليه في ذكرى وفاته، لكن بعد ست سنوات من وفاته، قررنا الاحتفال بحياته بدلًا من ذلك.

أحببنا "بيل"، وهو أحبنا، وعلينا أن نتذكر أن الحب لا يفنى.. حبنا لمن فقدناهم، وحبهم لنا عندما كانوا معنا، سيبقى معنا دائمًا.
لكل من فقد عزيزًا، سواء بسبب الحرب أو الحوادث أو المرض أو الشيخوخة، لنرفع كؤوسنا نخب أصدقائنا الغائبين.
رفعت السيدة كأسها، فرفع الناس أذرعهم، حتى من لا يمسك منهم كأسًا، رفع كأسًا وهمية نخب الأصدقاء الغائبين، لمحت أمامها وجه زوجها بين الحشود ينظر إلى السيدة "كابلان"، ولمحت بجانبه رأس "مايكل" وهو يتحرك في كل اتجاه وكأنه يبحث عن شخصٍ ما، كانت على وشك أن تلوح له عندما سمعت السيدة "كابلان" تقول شيئًا عن فتى مميز جدًّا تريد استدعاءه على المنصة، عندها شعرت بـ"ريتشي" يتخشب ثم يستعد للحركة.
نادت سيدة "كابلان" اسمه.. نادته أمام الجميع وهو واقف يستمع إلى خطبتها.
في البداية لم يدرك أنه اسمه، كان متأكدًا من أنها تعني شخصًا آخر. وكان مشغولًا بمتابعة الكؤوس المرفوعة وتمتمات الناس بالنخب "الأصدقاء الغائبين.. الأصدقاء الغائبين". تساءل إن كان بين الناس شخصٌ مثله لم يفقد صديقًا عزيزًا يشرب نخبه.. أو على الأحرى، هو لا يتذكر إن كان لديه في السابق أم لا. كان مشغولًا بالنظر إلى الوجوه التي تنظر ناحية السيدة "كابلان" وهي تلقي خطبتها في البلكون، وجوه لامعة بابتساماتٍ رقيقة، إلى أن ذكرت ابنها "بيل"، عندها اختفت الابتسامات ونزلت الدموع، حتى من الجنود والرجال الآخرين، كان يراقب "أوليفيا" و"كاثرين" وهما واقفتان خلف سيدة "كابلان" على المنصة. تساءل لماذا "ريتشي" ليس معهن، كما كان يبحث عن سيدة "إيتش" ويخشى أن تفوت الخطبة، لهذا استغرق عدة ثوانٍ حتى أدرك أنها تقصده هو.
نظر إلى سيد "إيتش" الواقف بجانبه، وكأنه يسأله: "هل هي تقصدني أنا؟"، لكن سيد "إيتش" كان ينظر إلى جانب البيت، فنظر مثله، وجد سيدة "إيتش" و"ريتشي" يقفان جنبًا إلى جنب، "ريتشي" بفمٍ مفتوح ووجهٍ متفاجئ.
دفعته "روزيتا" برفق وهي تقول:
- إنها تقصدك أنت.. هيا اذهب، إنها تريدك معها.
- هل تقصدينني أنا؟ أعني، هل تقصدني أنا؟
- بالتأكيد تقصدك أنت، ومن غيرك؟ أسرع، أسرع.
عندما نظر هناك رأى يد "كاثرين" تشير إليه وسمع صوت سيدة "كابلان" تقول:
- هل هو هنا؟ نعم يا "مايكل"، تعال هنا.. تعال، لا تخجل.. تعال، دع ضيوفنا الطيبين يرونك. هيا، كلنا هنا أصدقاء.
بالكاد شعر بساقيه تتحركان بين حشد المدعوين، ولم يصدق نفسه حين أفسح له الناس الطريق.
أحاطت سيدة "كابلان" كتفه بذراعها.
- هذا الولد...
ثم سحبت نفسًا عميقًا وأكملت:
- هذا الولد هو مثال باهر على أعمال جمعيتنا الخيرية.. هذا الولد، "مايكل نوفاك"، شرفنا بوجوده معنا خلال الأسابيع الماضية، أنا واثقة بأنه لا يتذكر هذا، لكن عندما كان طفلًا صغيرًا في نهاية الحرب في أوروبا، أنقذته جمعية الصليب الأحمر الأمريكية، كان مريضًا ويعاني من سوء التغذية ويخاف من أي شيء، ظل هكذا لمدة طويلة جدًّا اضطر إلى أن يسافر عبر نصف أوروبا؛ لكي يتلقى

العلاج، ولم يبد أنه سينجو.. ظل يعاني لأكثر من عامين، ثم بفضل توجيهات سيد "ترومان"، تم إحضاره إلى الولايات المتحدة وضمه إلى عائلة طيبة تعمل بكد. آل "نوفاك"، للأسف لم يتمكنوا من التواجد معنا اليوم، عندما كتب سيد "ترومان" توجيهاته عن اللاجئين، ختم كلامه بجملة: "هذه فرصة لأمريكا لكي تضرب مثلًا للعالم في التعاون لإنهاء هذه المأساة الإنسانية، لكن هذا العمل المذهل يستحق أن نتم مواصلته، هذا الولد دليل حي.. إنه الآن مواطن أمريكي وله مستقبل أمريكي. لذلك، بالنيابة عن "مايكل" وغيره من الأولاد والبنات الذين يتعافون من آثار حربٍ بشعة، نحن نشكركم لأنكم تساعدونا على مساعدتهم، شيء أخير قبل أن أدعكم تعودون إلى الحفل.
استدارت سيدة "كابلان" ومدت ذراعيها لتأخذ علبة من "فرانك"، ثم تستدير مجددًا وتقول:
- هذه لك يا "مايكل".
ثم أعطته العلبة.
- إنها طائرة ورقية، هكذا ستطير عاليًا دائمًا يا "مايكل"، لكنها من النوع الذي يتطلب أن تركبه بنفسك.. وهذا مهم، لأن هدف جمعيتنا هو ضمان أن يكبر الأيتام لكي يكونوا مواطنين أمريكيين مستقلين بذاتهم.. لكي يستطيعوا بناء حياتهم ورفع أنفسهم حتى يكونوا أعضاءً مهمين في بلادنا.
بدأت سيدة "كابلان" تصفق له، ثم تبعها كل الضيوف. نظر إلى الحشد، وأول من رآه لأنه أطول من الجميع، هو سيد "إيتش".
لكن سيد "إيتش" لم يكن يبتسم، بل صفق مرتين أو ثلاثة ثم توقف، نظر إلى سيدة "إيتش" التي لم تكن تصفق أيضًا، ولاحظ أن "ريتشي" لم يعد بجانبها.
قرر مغادرة الحفل قليلًا وأن يذهب إلى مكان هادئ ليدخن سيجارة. هذا ليس من عادته، لكن حين يدخن يفضل أن يكون وحيدًا، فكر في الذهاب إلى طريق "ميل رود" ويتأمل الحيوانات التي تعيش حول البحيرة وهي تستعد لحلول الليل، فكر أن يدخن هناك ثم يعود إلى البيت ليتناول العشاء.
عندما دار إلى مقدمة البيت، لمح بعض الناس يغادرون الحفل، مجموعة من رجال القوات الجوية الذين عرفهم من زيهم كانوا يناقشون بصخبٍ حفلًا راقصًا في "بروفينستاون"، كانوا يسيرون بين عدة عائلات والكثير من الأطفال. رأى على الطريق امرأة ضخمة بفستانٍ وردي بدت مألوفة له، كانت تتكئ على مقدمة سيارة وتنظر بقلق في اتجاهه، تخلى عن فكرة الذهاب لبحيرة "ميل" واتجه يسارًا، أخرج سيجارة من العلبة وهو يسير على منحدر متعرج، عندما وصل إلى أعلى التل وجد "فرانك" واقفًا يدخن ويتأمل الخليج.
سأله "فرانك" وهو يخرج ولاعته ويشعلها له:
- هل المكان هنا بهذا الهدوء دائمًا؟
رد وهو يميل نحو الولاعة:
- لديه لحظاته الجميلة، يبدو أنك استطعت الهرب من البيانو قليلًا.
- لأن صديقة لسيدة "كابلان" أرادت أن يعزف ابنها مقطوعة "برامز". لم أحتمل الاستماع إلى عزف ذلك الغبي.. إنه يعرف كيفية العزف نظريًّا ويتبع التعليمات بالحرف، لكنه يعزف ببرود وبلا مشاعر.
وأشار إلى قلبه بيده ثم أضاف بعبوس:
- كلام عميق، صحيح؟
سحب نفسًا من سيجارته وأومأ له موافقًا.

- السيدة "كابلان" سيدة رائعة، يجدر بهم أن يصنعوا لها ميدالية خاصة؛ لقد ساعدت الكثير من الأطفال، بالطبع قل نشاطها هذه الفترة، لكنني أعتقد أنها يجب عليها الوجود مع ابنتها قليلًا؛ فالأيام القادمة صعبة.
قال وهو ينظر بعيدًا:
- لم أعرف أن الوضع بهذه الخطورة.
- أملهن ضعيف، يا لسوء الحظ! أولًا تفقد ابنها، والآن ابنتها! واحد يصاب برصاصة، والأخرى تصاب بسرطان، خسارة أن يحدث هذا لسيدة "كابلان"، يبدو أنك تحتاج إلى شعلة أخرى، سيجارتك انطفأت على ما يبدو.
نظر للأسفل فلاحظ أن سيجارته انطفأت فعلًا، رفعها إلى شفتيه مجددًا وأشعل الآخر الولاعة له مجددًا.
قال "فرانك":
- قد أفعل أي شيء لآتي إلى هنا في المساء وأرى المنظر، هل تعيش هنا؟
- عند الشاطئ هناك.
استدار "فرانك" لينظر ثم توقف وقال:
- أتساءل من هذه السيدة، تبدو متعجلة وكأن هناك من يطاردها.
استدار فرأى زوجته آتية، ساقاها تتحركان بسرعة وذراعاها مفتوحتان. قال:
- إنها زوجتي، وهي تبدو هكذا دائمًا.
جاءت إليهما وأومأت بتحية ثم نظرت إلى المشهد وقالت:
- يا له من غروب يشبه الصفعة على المؤخرة.
ضحك "فرانك"، وسألته:
- أنت عازف البيانو، صحيح؟ أحب عزفك.
- نعم، شكرًا يا سيدتي، كنت أقول لزوجك أنكما محظوظان.
- لماذا؟
- لأن لديكما منظرًا طبيعيًّا كهذا، مجرد أن تخرجا من البيت تجدان كل هذا بانتظاركما.
- نعم، محظوظان بالمنظر، لكن لا أعرف بخصوص أي شيء آخر.
ابتسم "فرانك" مجددًا وعدَّ كلامها دعابة، ثم قال:
- كانت خطبة لطيفة، أليس كذلك؟
- بصراحة.. لا، أبدًا.
- لا؟
- لقد خاب أملي.. صُدمت، لقد عرضوا "مايكل" على الملأ، لم لا يصنعوا إعلانًا ويعرضوه في السينما والتليفزيون أيضًا!
- أنا متأكد من أنهم لم يقصدوا...
- سواء قصدوا أم لا، الواقع يبقى كما هو، وأيضًا لم يذكروا "ريتشي" بكلمة.
- "ريتشي"؟
- نعم، بالطبع! لقد فقد والده، قد لا تكون معاناته مأساوية كالباقين، لكن مع ذلك...

لاحظ كيف يركز "فرانك" على فم زوجته وكأنه لا يصدق ما يخرج منه وينتظر بفضول ما ستقوله تاليًا، لكنها استدارت إلى الغروب وصمتت بعض الوقت.
تنحنح "فرانك" وقال:
- يجب أن أقول...
قاطعته وهي تبتسم:
- أيمكن ألا يحب أحد كل هذا الجمال؟ وكأن الشمس تتضخم وتنفجر حتى تنزف أشعتها على العالم، بضع دقائق من النظر إلى هذا المشهد كفيلة بأن تنسيك يومك مهما كان سيئًا.
أمسك "فرانك" بفكه ثم أومأ لها.
وهم ينزلون المنحدر الضيق، كانت زوجته في المنتصف، وكان هو يشعر بالتنميل في قدميه فسار في الخلف، فتوقفت زوجته واستدارت له وقالت:
- أظنك تريد الرحيل الآن؟
- لا.
- نحن هنا منذ بضع ساعات بالفعل.
- يبدو أنكِ من تريدين الرحيل.
- بالتأكيد لا! تعرف كم أحب الحفلات.
- جيد، لأن سيدة "كابلان" طلبت منا البقاء لتناول العشاء.
- وأنت وافقت؟ هل تستمتع بوقتك إذًا؟
- إنها حفلة لطيفة.
- أتمنى فقط ألا أعلق وسط مجموعة من الحمقى، كل من قابلت حتى الآن عبارة عن رجال بدينين وزوجات متحمسات.. هل يوجد هنا من يقرأ كتابًا أو يشاهد لوحات أو حتى يعرف شيئًا عن.. أي شيء؟!
وصلوا أسفل التل واستداروا نحو المنزل، وضع "فرانك" يده خلف أذنه وقال:
- هل تسمعان؟ إنها حفلة دون موسيقى، عليَّ التصرف بشأن هذا.
وضع "فرانك" يده على ذراع زوجته وربت عليها بود وهو يقول:
- أتمنى أن أراكِ لاحقًا.
وقفا لوهلةٍ وشاهداه يبتعد، ثم قالت:
- ها نحن الآن بمفردنا في الغروب، ربما كان المشهد سيصبح رومانسيًا لولا...
- لولا ماذا؟
- لولا أنك لا تحتمل الانتظار حتى تتخلص مني.
- هذا ليس صحيحًا! كنت سأحدثكِ عن خطاب سيدة "كابلان".
- لا تقلق، لقد اكتفيت من الانتقاد اليوم، أعرف أنه يومٌ صعب عليهن، وأنا أتعاطف معهن.
- كنت سأقول إنني أوافق على كلامكِ لـ"فرانك"، لم أحب الطريقة التي عرضوا بها "مايكل"، وأفهم وجهة نظركِ عن "ريتشي" أيضًا.
- حقًا؟
- نعم.
نظرت بعيدًا للحظة ثم عادت إليه وقالت:

- من اللطيف معرفة ذلك، خسارة أنك كنت محرجًا من قول ذلك أمام "فرانك".
ثم تركته وعادت إلى البيت.
على طاولة العشاء، أرشدوها للجلوس بجانب سيدة مسنة صاحت في وجهها بصوتٍ عالٍ لتقول إن اسمها سيدة "دوترا"، أرشدت "أوليفيا" ثلاث مسنات أخريات نحوها، فجأة ظهرت سيدة "كابلان" تضحك وتتحدث مع ثلاث شابات يرتدين فساتين واسعة منقوشة بزهور حمراء وصفراء ووردية. خلال ثوانٍ كن يجلسن بفساتينهن المزهرة في الجهة المقابلة لها، بدت وجوههن مطلية للتو بمساحيق التجميل استعدادًا للجزء التالي من الحفل.
قالت ذات الورود الصفراء:
- لن أذهب إلى "بروفينستاون" في الأيام القادمة.. إنها مزدحمة جدًّا! ما بين سياح وزوار من المدينة، من المتوقع أن يصل الآلاف.. أفضل قضاء عيد العمال في أعمال المنزل وشكرًا.
قال رجل على الطاولة:
- لا، فأنتِ أجمل من أن تقضي وقتكِ في أعمال المنزل!
ردت المرأة الشابة:
- سيد "هاتون"، هل تعرف زوجتك أنك توزع المجاملات على الآخرين؟
- إنها لا تمانع ما دمت أحتفظ بأفضل المجاملات لها.
ضحكت النساء الثلاثة، وقال رجلٌ آخر:
- هل أنتِ "بيث جرين"؟
ردت ذات الورود الحمراء بابتسامة:
- أصبحت "بيث ماكسويل" الآن، تزوجت منذ ثلاثة سنوات يا سيد "باكس".
- ثلاث سنوات! لديكِ أطفال؟
هزت "بيث" رأسها نفيًا.
- كان عليكِ الزواج بابني، لقد أنجب طفلين توءم، ولن أندهش لو أنجب الثالث قريبًا.
اختفت الابتسامة من على وجه المرأة ونظرت للأسفل وهي تعدل فستانها الأحمر بحرج، شعرت بالأسف على الفتاة، فقررت التدخل:
- لا يظن الجميع أن الإنجاب هو الوسيلة الوحيدة لزواج سعيد، هذه رؤية قديمة في رأيي.
قال سيد "باكس":
- ربما أنتِ محقة، لكنه سيكون مضيعة للوقت في رأيي.
ثم أرجع رأسه للخلف.
كادت تهاجمه بالكلام مجددًا لولا أن ابتسمت لها "بيث" بامتنان وقالت:
- أنا أعيش هنا، لكن صديقاتي من "كونكورد".. نحن صديقات حميمات، وأزواجنا يذهبون للبار معًا، فهم أصدقاء حميمون أيضًا.
- هذا مريح جدًّا!
حل صمتٌ غريب قطعته سيدة "دوترا" عندما أعلنت أنها ستبلغ الثمانين غدًا، تعالت أصوات الدهشة والتهاني. تألقت المرأة بفخر، وفي نهاية اللحظة قالت إن حفيدها قُتل في الحرب مع ابن السيدة "كابلان". قالت:

- في اليوم نفسه لكن في بلدٍ آخر، تَوفي "بيل كابلان" في إيطاليا على ما أظن، بينما تَوفي حفيدي "سام ليتون" في ألمانيا.. كان ابن ابنتي.
دارت همسات خافتة من التعازي، ثم دوت أصوات الأطباق وصب الماء من إبريق كبير وفتح زجاجات.
بعد قليل سألتها سيدة "دوترا":
- هل لديكِ غسالة؟
- لا، ليس لديَّ.
- اشترت حفيدتي واحدة.. إنها أخت "سام"، لقد تزوجت من عائلة "مارتنسون" في "تشاتام".
قالت إحدى الزوجات ذوات الفساتين المزهرة:
- لا يمكنني الاستغناء عن غسالتي.
أومأت الأخريان بالموافقة.
قالت سيدة "دوترا":
- أنا أشجع التكنولوجيا الحديثة، كان الوضع مختلفًا في أيامنا.. أليس كذلك؟
قالتها وهي تنظر لها مباشرةً، وكأنها هي أيضًا في الثمانين، وأن الأعمال المنزلية كانت كل حياتها.
قالت:
- لا أحب أعمال المنزل، خاصةً الطبخ والغسيل، أحاول تجنبهما.. هذا أسوأ ما قد يقوم به فنان.
قالت السيدة "دوترا" وهي تصفق:
- أنتِ فنانة؟ يا للروعة!
بدت باقي النساء منزعجات، فواصلت:
- المطبخ هو أسوأ مكان تكون به المرأة.. سواء كانت فنانة أم لا. أظن هذا ينطبق على أي امرأة تمتلك أقل قدر من الكبرياء؛ إن قضيتِ بعض الوقت في المطبخ، فستُحبسين هناك للأبد. أرى ذلك طوال الوقت، نساء يصبحن عبيدات لأزواجهن لا يملكن الوقت لهن.. إن دخلتِ المطبخ، ستبقين هناك، ستظلين عبدة مطبخ لباقي حياتك.
نظرت إلى النساء الثلاثة؛ واحدة وجهها أحمر، والثانية تنظر للأسفل، والثالثة تعض شفتيها وهي تنظر بعيدًا بغيظ. أشفقت عليهن، وشعرت بالحرج لأنها قللت من شأنهن بالتقليل من قيمة حياتهن، وكأن حياتهن ليست شاقة بما يكفي، لكنهن الآن سيدات شابات بفساتين مزهرة مكوية بأجساد ممتلئة جاهزة للحمل، وكأنني أعلى مكانةً منهن، لكنني لست كذلك، فأنا لا أملك ما يملكن.. لست قوية مثلهن.
بعد قليل رأت زوجها مع سيدة "كابلان" وزوجين في منتصف العمر، غيَّرت السيدة "كابلان" أماكن بطاقات الجلوس وقامت سيدة "دوترا" وحل محلها زوجان على جانبها، بينما "مايكل" على الجانب الآخر، أما زوجها فجلس مقابلها بين الثلاث زوجات العابسات.
لكنَّ الزوجين بجانبها كانا في غاية اللطف، قال الزوج:
- كنا نعيش في قرية "جرينويتش" منذ مدة طويلة، لمدة عامين.
قالت الزوجة:
- عامان وثلاثة أشهر، حمامات مشتركة ونوافذ مخلعة، ومع ذلك أفتقد المكان كثيرًا. كم عشتِ أنتِ هناك؟
ردت:

- عشت هناك قبل أن أتزوج حتى، في شقة صغيرة في الدور الأخير، لكن هل كان هناك داعٍ لأن تذكري الحمام المشترك!
- لكنك أحببته بالتأكيد!
- نعم، أكيد.
لمحت عند طرف الطاولة فستان "أوليفيا" الأحمر ويدها التي توزع قطع الدجاج، ثم لمحت "أنيتا" تقترب من الطرف الآخر وهي تحمل وعاءً كبيرًا من سلطة البطاطس، "مايكل" بجانبها يحرك ركبتيه بعدم صبر. فقدمته للزوجين. قالت المرأة:
- اسمي "جلوريا"، وهذا زوجي "آرثر"، جئنا لقضاء إجازة الأسبوع في "بروفينستاون".
قال "مايكل" بصوتٍ عالٍ لفت انتباه الجميع:
- سيدة "إيتش" كان لديها قط اسمه "آرثر".
قال الرجل الذي يُدعى "آرثر" وهو يضحك:
- حقًّا؟
- نعم، أخذته معها في إجازة إلى "بروفينستاون"، ونزلا في فندق "جنجربريد"، قالت إنها أفضل إجازة في حياتها.
ضحكت إحدى الزوجات على الطاولة.
- كنت أمزح وقتها يا "مايكل".
أصر "مايكل":
- لا، ليس كذلك.
- بلى يا "مايكل".. قليلًا. لا، "جلوستر" كانت أفضل إجازاتي.
ثم استدارت إلى زوجها وقالت:
- لنعد إلى هناك مجددًا، ما رأيك؟
- لماذا؟
استدارت الزوجات الثلاثة بفساتينهن المزهرة إليه، وكذلك "أوليفيا" و"أنيتا" الفظيعة توقفتا عن تقديم الطعام ونظرتا إليه أيضًا. الجميع نظر إليه.. حتى هي، نظرت إليه برجاء.. "أرجوك، لا تخذلني، ليس أمام كل هؤلاء النساء.. ليس هنا".
قالت دون أن تشعر:
- لأننا كنا سعداء للغاية هناك، أعني سيكون لطيفًا الذهاب مجددًا.
- أنا سعيد هنا أيضًا في "تورورو"، كنت سعيدًا في "جلوستر" أيضًا.
نظر للزوجين وأوضح:
- لقد أمضينا شهر العسل هناك، قضينا وقتًا ممتعًا.
ثم نظر إليها.. إليها هي.
"خذن هذا أيتها المشعوذات الثلاثة، وخذي هذا يا "أنيتا"، وليغتاظ كل من يستمع.. وخاصةً أنتِ يا "أوليفيا"، خذي هذه اللكمة في وجهكِ مباشرةً!".
نظرت إلى إحدى الزوجات الثلاثة عبر الطاولة وقالت:
- ما اسمكِ يا عزيزتي؟
- أنا؟ "باربرا" يا سيدتي.

- هل يمكن أن تمرري لي طبق الفطائر المحشوة يا "باربرا"؟
اقترب الليل حين رآها جالسة في المطبخ محاطة بالنساء، ومن بينهن سيدة "كابلان"، كانت "كاثرين" واقفة، وبجانبها امرأتان أصغر سنًّا. كن يدرن ظهورهن إلى الغرفة، لذلك لم يلحظن أنه يقف خلفهن مباشرةً.
لم يستطع سماع ما تقوله زوجته، هناك أصوات أطباق وبعض الإسبانية من "روزيتا" وهي تثرثر مع الموظفين الذين استؤجروا لليوم. كلما وجد نفسه في غرفة صاخبة، شعر أن الأصوات تتداخل مع بعضهما حتى تتحول إلى نوع من التشويش.
بدت المجموعة الواقفة مهتمة بكلام زوجته، فجميعهن يملن نحوها باهتمام. فكر في المغادرة والعودة لاحقًا، ثم لاحظ مرفق "كاثرين" يتحرك ويلكز الفتاة الواقفة بجانبها، فاهتز كتف الفتاة وكذلك كتف "كاثرين".
لوهلةٍ ظن – أو تمنى – أن زوجته تقول شيئًا مسليًا، لكن ولا واحدة من السيدات الواقفات حولها تضحك، لهذا أدرك أن "كاثرين" وصديقتها تضحكان عليها، والآن الفتاة الثالثة انضمت لهما بتعليق خافت وهي تغطي فمها بيدها.
إنها دائمًا تخلق أعداءً في أي مجموعة، وعادةً من النساء.. دائمًا ما استفزت الآخرين وأخطأت فيهم وأهانتهم وعدَّت كلامهم إهانة حتى لو لم يكن كذلك، لكنه لم يتوقع أبدًا أنها قد يتم اعتبارها مثالًا للسخرية، حتى الآن.
شعر بخيبة أمل لا يمكنه التخلص منها، من "كاثرين" ومن زوجته وربما من نفسه.
استدارت "كاثرين" بعيدًا عن المجموعة، وكأنها تخفي ضحكها. بينما تستدير رأته، فاختفت الابتسامة من وجهها فورًا، بدت محرجة وهي تبتعد عن المجموعة وتتجه نحوه.
قال:
- كنت أبحث عن زوجتي، أظنها هنا؟
أومأت "كاثرين" بتوتر مثل فتاة صغيرة قبض عمها عليها متلبسة بخطأ ولا تريد أن تسقط من نظره.
ابتعدت "كاثرين" مع صديقتيها وخرجن من المطبخ، اقترب من المجموعة وأصبح بإمكانه سماع كل شيء.
- يمكنني القول إن هناك مقاطعة للفنانات، لقد أبعدوني عن الطريق، لكنني شرسة ولن أقبل بالهزيمة.
قالت امرأة:
- لكن الأمر يغضبكِ بالتأكيد، كل هذا العمل بلا مقابل.. عندما كنت أغني في "ميلان"...
- في الواقع سأقيم معرضًا العام القادم، وربما قبل ذلك.
- أين؟ أخبرينا ويمكننا أن نأتي!
- لا أحب أن أقول شيئًا قبل الأوان، ليس قبل توقيع العقد الذي أنتظره في أي يوم هذه الفترة.. أنا حذرة قليلًا حين يتعلق الأمر بمعارضي، لكنني سأخبركن بالتأكيد.
تنحنح فنظرت إليه النساء، أما زوجته فنظرت بعيدًا بوجهٍ محرج.
قال للسيدة "كابلان":
- أردت استئذانك في اصطحاب "مايكل" و"ريتشي" إلى الشاطئ لنراقب النجوم قليلًا.
قالت السيدة "كابلان":
- يا لها من فكرةٍ رائعة!

- كل ما عليَّ فعله هو أن أجدهما إذا.
ارتفع صوت "كاثرين" من خلفه:
- سأجدهما.
شكرها دون أن يستدير نحوها وقال إنه سينتظر الولدين في الخارج.
عبر الحديقة وسار بين الطاولات الفارغة ومر ببعض الكراسي المقلوبة.. إنه الشخص الوحيد الذي يتحرك في الخارج الآن، هناك سيجارة مشتعلة على طاولة بعيدة، وهناك صوت زجاجات فارغة يتم تعبئتها في حاوية، سار إلى تل يقود إلى الشاطئ، وتقدم بضع خطوات على طريقه المتآكل.
عندما نظر خلفه، بدا المنزل وكأنه يغوص في الأرض، الأدوار العلوية مظلمة، والمظلة الذي يغطي المدخل الأمامي. أتى شعاع من الضوء الأصفر من جانب الغرفة التي تستضيف الحفل، أما باقي الغرفة فينظر شذرًا إلى ظلام الليل عبر أبواب البلكون الخارجي، بدا المنزل وكأنه بلا زجاج في النوافذ، نوع النوافذ نفسه الذي يرسمه في لوحاته.
رأى كابتن "هارتمان" يمزج "الكوكتيل"، أما "أوليفيا" فمالت خارج حلبة الرقص لتأخذ رشفة من كأس موضوعة على طاولة بينما ينتظرها شريكها في الرقصة، يبدو أنه رجلٌ مهذب وصبور لكي ينتظرها حتى تعود إلى ذراعيه. تذكره.. إنه رجل يدعى "جرانت" قضى الحرب في لندن، لقد استمتع بالحديث معه باكرًا عن رحلته إلى لندن في شبابه، كان الوقت نهارًا وكانا واقفين في الجهة الشمالية للمنزل، التي أصبحت مظلمة الآن. بدا الموقف وكأنه ذكرى بعيدة، شعر بالتعب فجأة، أراد الاستلقاء تحت إحدى الطاولات والنوم كالموتى.
بدأت الجماعة التي كانت جالسة في المطبخ تنساب إلى الغرفة الكبيرة. سيدة "كابلان" و"روزيتا" في الخلف تحملان صواني القهوة، ظلت أصوات الحفل واضحة حتى عن بعد، ضحك وثرثرة وبيانو. صعد بضع خطوات على التل، فبدأ صوت البحر بأمواجه المتلاطمة يطغى على صوت الحفل، تكسر العشب الجاف تحت أقدامه، وهناك رائحة عفونة في الجو، بدأ يندم على فكرة اصطحاب الولدين لمشاهدة النجوم.. فالحفل على وشك الانتهاء. البحر يعرف، حشرات الليل تعرف، وكذلك العشب والفروع.
توقف ونظر أسفل التل، اختفت السيجارة المشتعلة مع صاحبها، لمح ثلاثة ظلال تقترب منه مثل الوحوش من الجهة الشمالية للمنزل.
نزل التل مجددًا ليقابلهم.
قالت "كاثرين":
- حسنًا، ها هما.
ركض الولدان إليه، أما هي فترددت لحظةً قبل أن تسأل:
- هل تمانع لو.. أتيت معكم؟ لو لن أسبب مشكلة؟
لو لن تسبب مشكلة؟ لقد خطط لتوجيه كامل انتباهه للأطفال، لكي يتذكر بقدر المستطاع ما درسه عن سماء الليل في المدرسة، سواء مكان النجوم أو الأساطير المتعلقة بها.
سيكون حوله السماء الزرقاء، والخليج الشاسع، والشاطئ الواسع، والعشب المتراقص مع الرياح. لن تحتل مساحة كبيرة بين كل هذا، لكنها ستحتل تفكيره بالكامل. قال:
- لا مانع أبدًا.
وتراجع خطوة للوراء ليفسح لها المجال لتنضم إليهم.

أخرج "ريتشي" مصباحًا وناوله له، ثم اصطفوا وساروا خلفه بينما يتبع الضوء.
عندما وصلوا إلى الشاطئ، أدار الولدين إلى جهة الشمال وبدأ يشير بيده إلى مجموعة نجوم "أورسا ماجور"، لاحظها "ريتشي" فورًا وبدا أنه يعرف عنها الكثير، فقال له:
- حسنًا، لم لا تخبر "مايكل" عن أصل تسميتها؟
- إنه لا يريد أن يعرف.
قال "مايكل":
- بل أريد.
قال "ريتشي":
- حسنًا، يتعلق الأمر بالعبيد.
- أي عبيد؟
- قبل أن يربحوا الحرب الأهلية، كان العبيد يشربون من كوب بيد طويلة يدلونه في برميل الماء ويرفعونه و...
بينما "ريتشي" يتحدث، كان يشعر بوجودها الصامت، خلفه بقدمين أو ثلاثة، عرف أنها تنتظره أن يستدير إليها ويقول شيئًا، أو ربما يبتعد قليلًا عن الأولاد ويتحدث معها قليلًا.
سأل "مايكل":
- لكن أين السلطعون؟
قال "ريتشي":
- أي سلطعون؟
- السلطعون المسمى "ماجور"؟
قال موضحًا قصد "مايكل" لـ"ريتشي":
- إنه يقصد الأخوين من "هيانيس" يسميان السلطعون الخاص بهما "ماجور" على اسم الكوكبة.
بدى "ريتشي" في قمة الدهشة من هذا الغباء، حرك ذراعيه وتنهد وقال:
- يعلم الجميع أن نجوم "أورسا ماجور" مشهورة باسم "الدب الأكبر"، وليس "سلطعون"، أعرف أنهما غبيان لكن ليس إلى هذه الدرجة!
اندفع "ريتشي" يحكي قصة "أورسا ماجور"، ولأول مرة منذ أن عرفه، سمعه يتحدث عن والده وعن معرفته بالنجوم.
- ها هو الأنف، هل ترون؟ وها هو الذيل. وإن اتبعتم ذلك الخط ستصلون إلى الكفوف.. إنه شكل دب، هذا واضح.
قال "مايكل":
- نعم، نعم.
فكر أن الآن هو الوقت المناسب ليستدير ويقول شيئًا لها، لكنه وجد نفسه منتعشًا بحماس الولدين وهواء البحر ووقوفها خلفه تنتظر بصمت. قرر أن يحكي أيضًا قصة عن "أورسا ماجور".. قصة عن "زيوس" والحب والغيرة، أخبرها والده عنها في الماضي وهو صغير، لهذا لا يتذكر تفاصيلها.
- كان هناك امرأة وابنها، وكان هناك "زيوس" الذي أحبها.
سأله "مايكل":
- وأين الأب؟

- لا أعرف.
- ربما قتِل في الحرب مثلًا؟
- ممكن، كانت تندلع الكثير من الحروب وقتها. على كل حال، لم يسمح وضع "زيوس" بالزواج لأنه كان متزوجًا بالفعل، وزوجته كانت شديدة الغيرة.. لهذا كادت تقتل الأم وابنها، اضطر "زيوس" لإنقاذها، فحولهما إلى دبين.
سأله "مايكل":
- كيف وصلا إلى السماء؟
- جذبهما من ذيليهما، فهو قوي جدًّا.. كل الآلهة كذلك! أمسك بهما وطوَّحهما في الهواء، فهبطا بجانب بعضهما في السماء.
قال "مايكل":
- افعلها مجددًا!
- ماذا؟
- طوح ذراعيك.. افعلها مجددًا.
أثنى ركبتيه وأدار ذراعيه وهو يقول:
- أدارهما معًا ثم ألقى بهما إلى السماء، لهذا ذيلاهما طويلان.
زمجر الولدان مثل الدببة وضحكت "كاثرين" خلفه.
- "ريتشي"، لمَ لا تتأمل أكثر ربما تجد لنا نجومًا على شكل دبٍ صغير؟ ثم تراجع بضع خطواتٍ إليها.
وقفا بصمتٍ فترة، يشاهدان أو يتظاهران بمشاهدة الولدين وهما يجريان ويستكشفان السماء.
رأى وجهها بوضوح عندما نظر إليها، بسبب أضواء اليخوت وأنوار مدينة "بروفينستاون" عن بعد، والمصابيح المستديرة الكبيرة للسيارات المركونة على الشاطئ.
قالت:
- أحب المكان هنا ليلًا.
- هل هذا ما تفعلينه؟ تأتين إلى هنا في الليل؟
- معظم الليالي، فأنا لا آتي في النهار لأن...
- أفهم.
- من العجيب أنني أصبحت أحب الشاطئ ليلًا، ليس كالسابق حين كنت أستطيع القدوم نهارًا لأقرأ كتابًا أو أشاهد الناس.
- ماذا تفعلين إذًا؟
- أجلس هنا فقط وأشاهد المنظر، أحيانًا أسبح وأحيانًا أشرب.
ثم ضحكت وأضافت:
- وأحيانًا أشرب كثيرًا.
- لكن ليس اليوم؟
- لا، ليس اليوم، اليوم لأمي.. لم أرد إفساده. أحيانًا أفعل ذلك، فعندما أشرب أفسد الأمور.. ماذا عنك؟ هل تأتي إلى الشاطئ كثيرًا في الليل؟

- كنت أسبح ليلًا، لكن لم أفعل منذ فترة، أحيانًا أتمشى وأنظر للنجوم. أكتوبر هو أكثر شهر مناسب لهذا لأن سماءه جافة.
- هل رسمتها من قبل؟ أعني النجوم؟
- لست مجنونًا إلى هذا الحد.
ابتسمت فبادلها الابتسام، ثم قالت:
- سأعود إلى المنزل الآن، وعلى الأرجح سأذهب إلى السرير مباشرةً.
- سأوصلكِ إلى سلم الشاطئ.
رفع يده إليها مرة أو مرتين ليسندها في الأجزاء المنحدرة أو الرملية الزلقة، لكن كل مرة كانت تسند نفسها.
لم تتحدث مجددًا حتى وصلا إلى السلم، وقالت:
- أردت فقط أن أعتذر لأنني سخرت من زوجتك.
- هل تعتذرين لأنكِ سخرتِ منها أم لأنني رأيتكِ؟
- مزيج من الاثنين، على ما أظن.
- أظنكِ فعلتِ ذلك في مرات أخرى أكثر من التي رأيتكِ فيها.
- أرجوك لا تقل هذا، أنا نادمة بالفعل.
- لننس الأمر.
- أشعر بالحرج من سخريتي منها لأنها هدف سهل، لا تحب أن أقول هذا، صحيح؟
- لا، لا أحب هذا على ما أظن.
وضعت يدًا على الدرابزين وانتظرت بضع ثوان، ثم قالت:
- اسمع، أعرف أن كلامي يبدو جنونًا، لكن.. أردت أن أخبرك بأنني آتي إلى هنا معظم الليالي، وأنني لا أمانع تبادل الأحاديث معك من وقتٍ لآخر.
كتم دهشته وقال:
- نعم.. نعم، سيكون هذا لطيفًا.
- الموضوع أنني لم أعد أستطيع التحدث مع عائلتي، ليس وكأنني أريد التحدث في أمرٍ خطير، لكن يبدو أننا نبذل جهدنا لتجنب التحدث في أمور معينة لدرجة أننا لا نتحدث مطلقًا.. ربما أكون مخطئة، لكنني أشعر أنه يمكنني التحدث معك براحة، هل أنا مخطئة؟
- لا أعرف بصراحة.
- أعذرني لم أكن دومًا بهذه الصراحة، لكن لا أرَ مبررًا لإضاعة الوقت.. الأمر بسيط، ما دمت تأتي إلى هنا بعض الليالي، سيكون لطيفًا التحدث معك، هذا كل ما أقول.
أخذت خطوة ثم استدارت إليه وقالت:
- حسنًا، إلى اللقاء. أتمنى أن أراك مجددًا، سواء هنا أو في المنزل أو في الطريق أو في أي مكان.
- نعم، أتمنى هذا أيضًا.
رأى يده ترتفع في الظلام وتمتد نحو ذراعها، ليفعل ماذا؟ لا يعرف. لكن عندها ارتفع صوت "مايكل":
- سيد "إيتش".. سيد "إيتش"، أستطيع أن أراه! لقد وجدت الدب الصغير!
نظر خلفه فرأى ظل "مايكل" وهو يقفز. قال:

- تصبحين على خير يا "كاثرين".
ثم راقبها للحظاتٍ وهي تصعد السلم حتى تخطت بقعة الضوء، تساءل ماذا كان سيفعل حين يمسك ذراعها، يسحبها بين ذراعيه ويقبلها؟
قال لنفسه: "كانت أمي محقة، أنا أشاهد الكثير من الأفلام".
استدار وعاد إلى الأولاد وهو يقول:
- أين يا "مايكل"؟ أين رأيته؟ لا تفقده.. لا تبعد نظرك عنه، أريد رؤيته أيضًا!
عبر الأبواب المفتوحة، رأت كرةً مضيئة تنزل التل مثل شهابٍ من السماء، ثم ذيلًا أبيض يمتد من خلفها ويلمس الأشجار على طرف الحديقة ويطوف بين بعض الطاولات الخلفية التي لم تفرغ بعد، هناك طيف مظلم يتحرك خلف الضوء، فزعت لوهلةٍ قبل أن ينطفئ الضوء وترى زوجها يتجه فجأة نحو المنزل وبجانبه ولدان، كان الثلاثة يضحكون ويتكلمون، "مايكل" ينقل مصباح النور من يد ليد.
"وأنا التي أخبر الناس دائمًا أنه لا يحب الأطفال.. أنا دائمًا أقول هذا".
بدأت "أوليفيا" فقرتها في الحفل، إنها تغني (You Do Something to Me) وتقلد "مارلين ديتريش" بينما الرجال من حولها مفتونون، حتى زوج مطربة الأوبرا بالكاد تمالك نفسه، ورجال الجيش الذي أتوا للتو من بار في "بروفينستاون" كبحوا صفارات المغازلة احترامًا للسيدة "كابلان" فقط، أما كابتن "هارتمان" الجالس بالقرب منها فكان الوحيد الذي لم يبدُ منبهرًا.. ظل وجهه ساكنًا، لكنه لوى فمه باعتراض.
عندما دخل زوجها لم يكن معه الولدان، جلس على أقرب كرسي في نهاية صفٍ من الكراسي الشاغرة، راقبته بينما تقترب "أوليفيا" من نهاية أغنيتها، لكن على الرغم من أنه كان ينظر في اتجاه "أوليفيا" بشكل عام، لم يكن ينظر إليها مباشرةً. كانت على وجهه نظرة حزنٍ وحنين.
مالت لترى إلى ماذا أو إلى من ينظر ليتأثر هكذا، فرأت "كاثرين" تقف عند الباب، لا بد أنها تقف هناك منذ أن قالت لهم ليلة سعيدة منذ قليل، ربما لتسمع أغنية "أوليفيا". انطلق تصفيق حاد من حولها، لكنها شعرت أنه كان يدوي في رأسها، كانت "كاثرين" واقفة وتثني ذراعها وتنظر إلى الضوء، تساءلت ماذا لو أنها كل هذا الوقت لم تكن تخشى رغبته في امرأة بل شفقته على امرأة.
نظرت مجددًا إلى "أوليفيا" وهي تبتسم وتنحني بتحية بينما ينسدل شعرها الجميل حولها وتتحرك ساقاها الطويلتان تحت فستانها الأحمر الناعم. رأت زوجها يصفق ويبستم كالمغفل. "نعم، بالطبع.. لأجل أوليفيا". عندما نظرت إلى الباب لم تجد "كاثرين"، والآن زوجها يسير نحوها كالأحمق.
مال على كرسيها ونظر إليها، فتساءلت إن كان سكرانًا قليلًا.
سألها:
- مستعدة للمغادرة؟
أومأت له ثم وقفت وبدأت تبتعد.
سألها همسًا:
- إلى أين تذهبين؟
رأت عينيه رطبتين إلى حدٍ ما.. إنه سكران قليلًا، سألته:
- هل كنت تشرب؟
- ربما قليلًا فقط، هل لديكِ مانع؟
- أبدًا، كنت فقط ذاهبة لإيداع الولدين.

تجولت في المنزل بحثا عنهما، مرت بمجموعات من الضيوف لم يلحظوها؛ أربع شباب يجلسون على السلم، والزوجات الثلاثة ذوات الفساتين المزهرة محشورات في مقعد بجوار النافذة بالقرب من حمام الضيوف، كن يضحكن ويثرثرن مع سيدتين أخريين، فتحت باب المطبخ فوجدت مجموعة أخرى صغيرة، يجلسون على طاولة المطبخ ويعدون كومة من الدولارات، فعادت إلى الصالة.
شعرت بالهواء ثقيلًا وهي تخرج من الباب إلى الليل الخالي من الرياح، هناك رائحة خشب حلوة آتية من شجر العرعر، وممتزجة برائحة أخرى كريهة، تساءلت إن كان أحد رجال الجيش مل من الانتظار في طابور الحمام فتصرف بجوار الأشجار. خرج رجل وامرأة من البيت مبتعدين عن الحفل، وكان الرجل يمسك بمرفق زوجته ليقودها. قالت الزوجة:
- لنتصل بسائق التاكسي ذاك؟ مكتوب في الجريدة "اتصلوا في أي وقت"، لكن زوجته تشتعل غضبًا حين أتصل.
- إنه منتصف الليل تقريبًا.
- هو من كتب "اتصلوا في أي وقت"، هكذا ستفوتنا الألعاب النارية في "بروفينستاون".
- يمكننا رؤيتها أفضل من على الشاطئ هنا.
- لا أريد رؤيتها بشكلٍ أفضل بل أريد رؤيتها مباشرةً من قلب الحدث في "بروفينستاون".
تقدم الزوجان إلى الطريق المظلم الذي يقود إلى مساحة الركن والطريق العام، فكرت في أنها ستطلب من "مايكل" أن ينير لهما هذا الطريق الضيق بالمصباح عندما يغادران، فجأة سمعت غناءً جميلًا آتيًا من المنزل، وانبهرت بنقاء الصوت.. الرجل وزوجته سمعاه أيضًا، توقفا ثم استدارا، ترك الرجل مرفق المرأة وأحاط خصرها بذراعه.
لم تحب مطربة الأوبرا في أول لقاءٍ بينهما في بيت السيدة الإنجليزية في "أورلينز"، ولم تنسجم معها طوال الأمسية، ولا حتى في الحديث الذي دار في المطبخ عندما وافقتها عدة مرات في كلامها، لم تحب أسلوبها الواثق المباشر وطريقة حديثها معها، لو عرفتها أمها لقالت إن وجهها هو سبب حظها التعس؛ فملامحها تبدو ساخرة دائمًا، وكأنها تتلذذ بألم الآخرين. لقد لمحت لمعانًا في عينيها وهي تخبرها بمرض "كاثرين كابلان"، والآن ها هي تغني (O mio babbino caro) بصوت يجعلك تكاد تؤمن بوجود إله.
شعرت بأنها على وشك البكاء، يا له من شعور أن تمتلك موهبة عظيمة كهذه تغنيك عن آراء الآخرين! أن تفتح فمك فيخرج هذا الصوت فتعلم أنك في نعمة من السماء، ولا يمكنك أن تنكر ذلك!
بعد الوصلة الغنائية، ودعت الزوجين ثم عادت إلى المنزل، صعدت سلم البلكون ورأت "مايكل"، كان رأسه الأشقر محنيًّا تحت ضوء أصفر يأتي من نافذة أمامية صغيرة، كان يجلس وحده على أرضية البلكون وحوله قطع الطائرة الورقية وورقة الإرشادات مفروشة تحت الضوء، أرادت أن تسأله شيئًا بخصوص "كاثرين"، لكنها سمعت أصواتًا آتية من النافذة الصغيرة.. إنهن الزوجات الثلاثة، جاءت سحابة دخانٍ مع أصواتهن من النافذة التي بدت وكأنها فم كبير.
- حسنًا، أجيبي على هذا إذًا يا "بيث"، ألا تتوقف أبدًا عن الكلام؟ لا أمانع أن تتحدث لكن أعترض على موضوع الحديث.
- هي موضوع الحديث! أنا أشفق عليها يا "ماري آن". لا.. لا، لا تسخرن منها، أنا أشفق عليها حقًّا.
- أما أنا فأشفق عليه! تخيلي أن يحتملها كل يوم.

- أظنها تحاول أن تصنع قيمة لنفسها، تحاول أن تكون مهمة، كما أنها عجوز.. إنها مثل جدتي، يحق لها أن تخرف أحيانًا.
- لا، يعرف الجميع أن جدتكِ سيدة راقية. أما هي، من تظن نفسها لتحكم على الناس وتنتقد حياتهم! طريقة كلامها فظيعة ومصطنعة. وظلت تحشر كلمات فرنسية كلما سنحت لها الفرصة، كدت أقول لها: "عذرًا، هل نحن في باريس الآن؟".
- هل تعرفان ماذا سمعت عنها؟ سمعت أنها تصاب بنوبات غيرة، سيدة "سالتز" في مصحة "بيتش بوينت" أخبرت أمي.
- تغار على من؟ زوجها؟ هذا مقزز! كيف تغار على رجل في سنه. هناك شيء آخر أجده مقززًا.. إنها الطريقة التي تتحدث بها عن لوحاته، وكأنها أطفالها مثلًا.. هل سمعتيها وهي تقول: "إنه ينجبها وأنا أعمدها". تعمدها!
- يا له من قولٍ غريب!
- اصمتا! ها هي سيدة "كابلان"، لا أريدها أن تظننا.. مرحبًا سيدة "كابلان". نعم، نحن قادمات.
ثم ذهبت أصواتهن مع دخان السجائر.
لوهلةٍ حاولت إقناع نفسها أنها مصادفة وأنهن يتحدثن عن سيدة أخرى تعرفها سيدة "سالتز" أيضًا، لكن عندما نظرت أمامها ورأت "مايكل" عن بعد بضع خطوات حاملًا أجزاء الطائرة وعلى وجهه ملامح الفزع.. استدارت ونزلت سلم البلكون مجددًا ودارت حول المنزل.
وقفت في الحديقة بين الطاولات والكراسي الخالية ونظرت إلى المنزل من الخلف، شعرت بنسيم الخريف البارد، الباب الزجاجي الكبير مغلق الآن، القمر يشبه وجه طفل خجول يُظهر نصفه فقط بينما يختبئ النصف الآخر خلف الباب.
رأت زوجها واقفًا وظهره إلى البيانو بينما يجلس "فرانك" على الكرسي شابكًا ذراعيه ويستمع بانتباه، ذهب "مايكل" إلى غرفة المعيشة وجلس على الأرض، ومطربة الأوبرا وزوجها يجلسان على الأريكة خلفه، رأت اثنين من الزوجات الثلاثة تجلسان على كراسي مستقيمة الظهر، أظنه يردد لهم (La Lune Blanche)، دعهن يسمعن الفرنسية لكي يدركن أنها لغة الفنانين وأنها عمليًّا اللغة الثانية في بيوتهم.
لكن اتضح أنه كان يردد أغنية (The Wanderer) بالإنجليزية، وهذا أدهشها لأنه دائمًا يغنيها بالألمانية، "أوليفيا" و"أنيتا" جالستان على طرفي أريكة، "أوليفيا" منصتة بانتباه بينما تدخن سيجارة بأسلوب درامي مسرحي، الغرفة كلها تصغي إليه باهتمام.
اقترب من نهاية الأغنية بينما تقترب من خلفه وتجلس وتخلع حذاءها.
"كل الطيور صامتة في الغابة
وقريبًا سترتاح أنت أيضًا".
وضعت "أوليفيا" سيجارتها في ركن فمها وأغلقت عينًا واحدة وظلت تصفق بجنون، أما "أنيتا" فوضعت يدها على صدرها وتنهدت، يمكنه أن يقف هناك ويغني أغاني أطفال ومع ذلك سيعدّونها كنزًا ذهبيًّا.
استدارت لها سيدة "كابلان" وهي تبتسم وقالت:
- قررنا أننا لن ندعه يغادر البيت قبل أن يقوم بفقرة صغيرة.
قال:

- هذا كل ما لديَّ، ويمكننا اعتبارها طريقة لطيفة لقول مع السلامة.
ثم نظر إلى زوجته التي قالت:
- كان عليك أن تغنيها بالألمانية.
ردت "أوليفيا":
- لو فعل هذا لما فهمها أحد، ما عدا "مايكل".. ربما.
نظرت إليها سيدة "كابلان" و"أنيتا" فورًا، فقالت بضحكة خفيف:
- ما الخطأ في كلامي؟
اقترب الفنان من الباب وقال:
- أظن أن معظم الأشياء تبدو أفضل في لغتها الأصلية، والآن عليَّ حقًّا أن أرتدي قبعتي وأغادر.
قالت سيدة "كابلان":
- في رأيي أنه لا تهم اللغة المستخدمة ما دامت تنقل الأحاسيس.
قالت:
- أتمنى لو كان غنى (la Lune Blanche).. إنه يغنيها في الحفلات عادةً وهو بارعٌ فيها، دائمًا يغنيها بالفرنسية.
سألته سيدة "كابلان":
- ألا يمكنك أن تغنيها الآن؟
قال:
- أظن أنه يكفي ما قدمته لهذه الليلة.
ثم أضاف وهو ينظر حوله:
- والآن أين قبعتي؟
قالت لنفسها "لو طلبوا مني لغنيتها فورًا، سأقف هنا وأرى هؤلاء المشعوذات اللغة الفرنسية".
بدأت تردد الكلمات في عقلها:
La Lune blanche, Luit dans les bois. De chaque...? Branche... Part une voix.»
."Sous... sous... la? Sous la ramee
نعم، هذه هي.
نهضت "أوليفيا" ووجدت قبعته تحت كرسي وأحضرتها له، ثم جلست على مسند الأريكة، بدا شعرها تحت الضوء لامعًا وداكنًا.. إنه جميل جدًّا! تشبه مدام "شيروي"، عشيقته الفرنسية القديمة.. اللعنة!
قال "مايكل":
- ما معناها يا سيد "إيتش"؟ (La lune) أو أيًّا كان؟
- قد تعني الكثير من الأشياء لمختلف الناس يا "مايكل".. إنها تشير إلى القمر وما يثيره من صور في عقولنا.
قررت التدخل في الكلام.
- أحب أغنية (La Lune Blanche) بالذات كما تعرف، فعندما بدأت قصة حبنا...
قاطعها:
- لقد تأخر الوقت.

قالت "أنيتا":
- دعها تحكي، أريد سماع القصة!
- كنا في كلية الفنون، وبالطبع تقابلنا وتعارفنا، لكن ذات ليلة في "جلوستر" ذهبنا للرسم معًا، سمعته يدندن (la lune blanche). تفاجأ حين أكملتها له، أذكر النظرة على وجهه! لم يصدق نفسه.. أليس كذلك؟
- نعم. هذا صحيح.
ضحكت "أنيتا" وقالت:
- لكنكِ كنتِ تقصدين، يا لكِ من ماكرة!
- لا أفهم، كنت أقصد ماذا؟
- كنتِ تعرفين أنه يقرأ الشعر الفرنسي، رأيتِ كتاب الشعر في جيبه وقصدتِ أن تقرئيه وتستغلي ذلك في اللحظة المناسبة.. يا لكِ من عجوز ماكرة! لم أكن أبدًا بارعة في مكر النساء، لذلك لم أحصل على زوج!
ضحكت "أنيتا" و"أوليفيا"، نظرت إلى زوجها الذي ارتدى قبعته دون أن يشعر بالخناجر التي تطعن زوجته، قالت ببرود:
- جدتي كانت فرنسية، لذلك أحب هذه اللغة.. لطالما أحببتها.
ثم أمسكت حقيبتها وارتدت حذاءها.
قالت "أنيتا":
- هيا، كنت أمزح فقط.
حملت حقيبتها من تحت الكرسي حيث وضعتها سابقًا وقالت:
- شكرًا يا سيدة "كابلان".
- سأرافقكما إلى الخارج.
- لا حاجة أبدًا.
- لكنني أريد. "مايكل"، أحضر المصباح من فضلك.
قادتهما سيدة "كابلان" و"مايكل" على الطريق، حملت سيدة "كابلان" المصباح بينما ظل "مايكل" يثرثر:
- قال "ريتشي" إنه يريد أن يساعدني في تركيب الطائرة، لكن عليه أن يفعل شيئًا مهمًّا جدًّا أولًا، بعدها صعد ولم ينزل، وعندما صعدت لأبحث عنه وجدته نائمًا بالفعل.
قالت سيدة "كابلان":
- إنه متعبٌ، أنا متأكدة من أنه سيساعدك غدًا، جميعنا متعبون قليلًا.. صحيح؟
- ليس أنا!
عندما وصلوا لنهاية الطريق، سأل "مايكل":
- هل يمكنني القدوم غدًا؟
لم يبدُ أنها تستطيع الإجابة، لم تجد حتى الكلمات المناسبة.
قالت سيدة "كابلان":
- لم لا تنتظر لبعد غد يا "مايكل"؟ أظننا نحتاج جميعًا للراحة غدًا.

- ليس أنا!
قالت سيدة "كابلان":
- كفى الآن يا "مايكل"، كن مطيعًا وقل ليلة سعيدة.
وقف "مايكل" وسيدة "كابلان" يراقبانهما حتى وصلا بأمان للطريق المؤدي إلى بيتهما، سمعا أصواتهما وهما يودعانهما، فاستدار ولوحا إليهما في الظلام مسترشدين بنور المصباح ثم سارا إلى البيت، كان العالم من حولهما ساكنًا وصامتًا.. حتى البحر لا صوت له.
لم يتكلما طوال الطريق تقريبًا، نظرت إلى القمر الذي بدا مثل قطعة رخام معلقة في السماء، وتساءلت لماذا لم يغنِ لهم (La Lune Blanche). كان يمكنه أن يقول "حسنًا، بما أنها ليلة مقمرة..." ثم يغنيها كما يفعل دومًا. بدا الأمر وكأنه كان خائفًا من غنائها، وكأنه خشي أن يكشف صوته شيئًا ما.
قال:
- أتمنى ألا تكوني متعبة جدًّا، لقد كانت حفلة طويلة.
- أنا متعبة بالفعل! لا أعرف متى كانت آخر مرة سهرت في حفلة هكذا، لكنني متفاجئة منك.
- وأنا متفاجئ من نفسي أيضًا.
- بدا "ريتشي" و"مايكل" على وفاق، رأيتكم وأنتم عائدون من الشاطئ.
- نعم، كانا يتشاجران قبلها، لكن عندما ذهبنا إلى الشاطئ...
- ماذا؟
- تغيرت الأمور.
استدارا في المنعطف المؤدي لبيتهما. قالت:
- هل تعلم أن "كاثرين كابلان" ليست فقط مريضة بشدة، بل أيضًا ليس من المتوقع أن تعيش بعد الشتاء القادم؟ هذا ما أخبرتني به مطربة الأوبرا.
- نعم، سمعت هذا أيضًا.
توقفت ونظرت إليه وقالت:
- هل تشفق عليها؟
- نعم، أظنني أفعل.. ماذا عنكِ؟
- بالطبع، وأنا أيضًا.. إنها مسكينة!
سارا ثم أمسك مرفقها عندما اشتدت ظلمة الطريق حولهما.
عندما وصلا إلى البيت وقفا عند النافذة الشمالية وشاهدا نهاية الألعاب النارية وهي تنفجر في السماء مثل شرارات كهربائية على شكل أزهار فوق مدينة "بروفينستاون". قالت له:
- هيا، قلها، لقد أهنت نفسي مجددًا.
- حقًّا؟ لم أدرك ذلك.
- ولا أنا، حتى سمعت.. هؤلاء النساء، قلن...
- ماذا؟ ماذا قلن؟
- أنني أتحدث عن لوحاتنا – أعني لوحاتك – وكأنها أطفالنا، وأنني... غيورة وأنانية و...
شعرت أنها على وشك البكاء، فقالت:
- لا يهم، لم تكن الحفلة ممتعة بالنسبة لي.
- لا تشغلي بالكِ بكلام الناس.

أمسك ذراعها وجذبها للخارج ليقفا في البلكون الخلفي ويشاهدا العرض.
- لقد حاولت!
- أنا واثق.
- حاولت أن أكون ودودة، لكن مهما قلت.. وتلك المرأة "أنيتا".. هل سمعت ما قالته لي؟ وكأنه لا يحق لي تحدث الفرنسية.
- لم أكن منتبهًا.
انطلقت مجموعة جديدة من الألعاب على شكل نجوم مضيئة، للأسف صوت انطلاق النارية يشبه صوت الانفجارات، تساءلت إن كان الناس الذين شهدوا غارات جوية يتذكرون الرعب الذي عاشوه عندما يسمعون صوت الألعاب النارية.
شبكت ذراعها في ذراعه وقالت:
- هل تظنني امرأة فظيعة؟
- لماذا تزوجتكِ في رأيكِ؟
- ذات مرة أخبرتني أنه بسبب كوني يتيمة ولأنني أتحدث الفرنسية، ولأن شعري مموج.
- نعم، هذا صحيح. هيا، حان وقت النوم.
- لن أقترب من هؤلاء النساء مجددًا.
- لستِ مضطرة لذلك.
- فلتختلط معهن إن أردت، أما أنا فلا تحسبني معكم.
- فليكن ما تريدين.
- لن أغار عليك منهن حتى، فلا قيمة لهن عندي.
قال وهو يربت على كتفها:
- بالطبع.
استلقيا في السرير وتحدثا عن الموتى؛ تذكر خمس رجال موتى، بينما تذكرت هي ثماني نساء. استلقت وظهرها له بينما يحيط بها من الخلف، وكعباها ملتصقان بأصابع قدميه. بديا مثل القشريات، هو القوقعة بينما هي الكائن الداخلي. تذكرا الآباء والأمهات والأقارب وزوجة صديق، أخذت تذكر كل من تُوفي منذ أن تزوجا، تمتم بنعاسٍ معها وهي تسرد قائمتها.. ذكرت خمسين اسمًا، فقال لها إن هذا مستحيل، فردت:
- أنا أعد الحيوانات أيضًا.
فضحك، ثم صمت الاثنان.. استدار للجهة الأخرى.
وضعت يدها على ظهره الكبير العريض، ولاحظت ببعض الحزن أنه لم يعد مستقيمًا كما كان. صار منحنيًا وأكتافه متهدلة إلى حدٍ ما، تذكرت كم كان قويًّا! تذكرت حين كان يستطيع السير عشرة أميال بعد يوم عمل، وحين كان يذهب للإبحار من الشروق للغروب! كم استمتع بتلك الأيام الطويلة بينما كانت تكافح هي لكيلا تشعر بالوحدة!
كان يعود أسمر من الشمس وراضيًا عن نفسه وجذابًا تمامًا، كانت ترغب في أن ترتمي عليه، لكنها لم تفعل أبدًا، بل كانت تحييه بسخرية خفيفة وببرود. ذات مرة قررت أن تأخذ بنصيحة سيدة "سالتز" وتغير أسلوبها، خبزت فطيرة توت وأعدت دجاجة مشوية للعشاء وتركتها في الفرن. شاهدته آتيًا من الجراج، وظلام الغروب يحيط به إلا من شعاع واحد خفيف يقع عليه.. وقعت في حبه من جديد،

وشعرت بالرضا من حظها، فزوجها القوي الوسيم يصعد التل إليها، رائحة الدجاج المشوي والفطيرة تنتظره لتحييه.
أضاء وجهه من السعادة عندما وصل إلى الباب، مثل طفل صغير فرحان بالفطيرة التي أعدتها له والدته، عندها فكرت أن هذا هو ما يريده الرجل من الزوجة.. أن تكون له كالأم، مع فارق أنه يستطيع إقامة علاقة معها.
قبلها عندما دخل وفك شعرها ثم وضع سترته على الطاولة، داعب جسدها من فوق ملابسها وقال:
- يا لكِ من زوجة مميزة!
أدركت أنه كان عليها التزام الصمت والاستمتاع بلمسته وبالخطة التي أعدتها.. أين اختفى كل هذا؟ لم تستطع أن تمنع نفسها وتسكت، فقالت فجأة بانفعال:
- هذا مرة واحدة فقط، فلا تعتاد عليه.
لم تسكت عند هذا الحد.
- لا يمكنني تقسيم وقتي مثلك، لا يمكنني الالتصاق بالمطبخ طوال الوقت، لا يمكنني التوفيق بين الطبخ والعمل.
عندما استدارت لاحظت أن الابتسامة اختفت من عينيه، لم تستطع أن توقف نفسها. قال:
- أنا أساعد.. ألا تظنين هذا؟
- كل الرجال يقولون هذا بمجرد أن يقوموا بأعمالٍ بسيطة مثل التسوق أو قطع حطب للمدفأة، لا يمكنني فعل ذلك، لا يمكنني تقسيم وقتي مثلك. تذهب للإبحار طوال اليوم وتعود لتأكل مأدبة أعدها غيرك لك ثم تعمل لبضع ساعات.
- لم أكن سأعمل اليوم، لكنني سأفعل الآن.. ولا أريد أي عشاء.
عادت بذاكرتها للحاضر وكتبت بإصبعها شيئًا على ظهره، فقال ناعسًا:
- ما الأمر؟
- لا شيء.
سمعته يُشَخِّر قليلًا فعادت تكتب: "نحن لبعضنا لحمًا وعظمًا".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نساء الأنقاض

1

ما زال يرى النساء، يقفن في صفٍ مظلم على تل، والتل مصنوع من أنقاض، والسماء رمادية شاحبة.

على الجانب يقف مبنى طويل واجهته محطمة، وعلى الجانب الآخر يقف مبنى دون سطح، وكأن أحدهم قطعه بسهولة مثلما يقطع بيضة مسلوقة، أما هو فيقف أسفل التل وينظر إلى النساء في الأعلى، كن يحملن طوب الأنقاض بأيديهن ويبحثن في كل مكان بينما يتناثر الغبار حولهن مثل استعراضات الخدع السحرية. هناك صوت طيور أيضًا، لكنه مزعج ووحشي كالصراخ، وجدت إحدى النساء عصا خشبية، ووجدت أخرى قضيبًا معدنيًّا، ووجدت ثالثة في آخر الصف ساعة، نفضت عنها الغبار وهزتها ثم قربتها من أذنها، سمع المرأة تضحك وتقول: "إنها تعمل! "تيك.. توك.. تيك.. توك!". ضحك أسفل التل أيضًا دون أن يعرف السبب.

والدته هناك، إنه متأكد.. حتى لو لم يعرف أي واحدة منهن، فمن هذه المسافة كلهن متشابهات، يقفن في صفٍ متعرج على تلٍ من الأنقاض. عندما بدأن يتسلقن، استطاع تمييزها، لكن عندما اقتربن من السماء الرمادية الشاحبة، لم يعد يستطيع التمييز بينهن؛ يلبسن الملابس نفسها، معاطف رجالية؟ ولا يمكن التفريق من خلال شعورهن لأنهن يرتدين أوشحة قذرة مربوطة من الأمام. توسلها في سره أن تلوح له لكي يعرفها، حتى مع يقينه بأنه ولا واحدة منهن ستستدير إليه؛ فالظلام سيحل، وهناك الكثير من العمل لإنجازه.

أي واحدة منهن أمرته بأنه يظل مكانه وينتظر بطاعة؟ (Sei ein guter Junge).. "كن ولدًا مطيعًا". أي واحدة منهن أعطته قبلة صغيرة وجعلته يعدها بألا يتحرك من مكانه؟ لكن تغير الوضع منذ أن وعدها، أصبح خطرًا، جاء الخطر مع طائر أبيض ضخم طار منخفضًا منذ لحظات ثم هبط على كومة من الطوب القريب، نظر الطائر إليه بعينيه الباردتين، رأى حلق الطائر وهو يتحرك، يتمدد ويضيق بجلده الناعم، ورأى منقاره الأصفر الطويل والدم الذي على طرفه.

عرف أن الطائر ينتظر حلول الظلام حتى يهاجم، سيصل إليه قبل أن تنزل والدته التل وتصل إليه، لا يمكنه البقاء مكانه وانتظار أن ينقض عليه بمخالبه ويشق صدره وينقر قلبه، لقد رأى الطيور البيضاء الكبيرة تلتهم جثة حصان، لذلك يعرف ماذا سيحدث.

أراد أن يصرخ (mutti, mutti!).. "أمي، أمي!"، لكن إن فعل، ربما يقرر الطائر أن يهاجمه، لهذا قرر ألا ينادي، لكنه لن يهرب أيضًا. سيحاول أن يركل الطائر، أخذ خطوة جانبية ولم يتحرك الطائر، فأخذ خطوة أخرى وأخرى.. هذه المرة حرك الطائر رأسه حركة بسيطة، لكنه لم يحاول اللحاق به على الأقل.

لا يعرف ما إذا كانت هذه الفجوة موجودة قبل أن يتحرك، أم أنها ظهرت فجأة.. إنها ليست كالفجوات الأخرى.. تلك الممرات الضيقة المحاطة بأسوار من أشولة الرمل، لكنها تتسع لمرور الناس، الفجوة التي اختارها صغيرة جدًّا لدرجة إنه عليك أن تحشر نفسك جانبيًّا، تمرر مرفقك ثم ركبتك وكتفك، وتظل تدفع بقوة حتى تمر.

بعدها يأتي الشعور بالأمان عندما يمر أخيرًا! قال لنفسه: "سأظل هنا حتى تأتي أمي وتأخذني، أيًّا كانت منهن، سأظل محشورًا بين أشولة الرمل برائحتها الرطبة الغريبة ونسيجها الخشن على وجهي، حيث لن تنال مني أيها الطائر".
كان يعرف قبل أن يفتح عينيه أنه لم يعد طفلًا في الثالثة في برلين. لقد أصبح ولدًا كبيرًا الآن، ولدًا أمريكيًّا.. هكذا قالت سيدة "كابلان" بالأمس. قالتها أمام كل هؤلاء الناس، لهذا هو متأكد مما سمع. عندما قالتها، شعر بالخوف للحظة، فكل الوجوه نظرت إليه، ثم كاد ينفجر فرحًا، لقد أصبح ولدًا أمريكيًّا كبيرًا، ولد أمريكي في جنوب "تورورو" في "كيب كود" في مقاطعة "بارنستابل" في ولاية "ماساتشوستس" في قارة God bless America "بارك الله أمريكا". ها هو الآن يستيقظ في سريره المعتاد. وإن كان يشعر ببعض البرد، لكنه في أمان، أمان، أمان. لماذا يؤلمه قلبه وكأن هناك من يقرصه بشدة؟
سمع صوت طائر بحري يصرخ خارج النافذة، وأظافر تخدش الإطار، ونقر متواصل على الزجاج، وخبطات ثابتة بطيئة "كلاك، كلاك" مثل ضربات هراوة على طاولة، والأسوأ على الإطلاق صوت المرأة الغاضبة الذي سمعه.
فتح عينيه بينما يهطل المطر في الخارج وتحتك فروع الأشجار بالنافذة، أخذ الشيش يتخبط في بعضه بسبب الرياح، نهض متكئًا على مرفقيه واستمع. كان صوت المرأة مكتومًا وهي تصرخ كالمجنونة، لكنه لم يكن قريبًا.. إنه في غرفة بالأسفل.
رأى سرير "ريتشي" مرتبًا، وبيجامته مطوية بنظام على الوسادة، ينير الغرفة ضوء رمادي مثل الضوء الذي يسبق الفجر مباشرةً، لكن الفجر انقضى بالفعل. يعرف ذلك لأنه كان مستيقظًا وقتها، لقد انتهى وقت الإفطار على الأرجح، بل ربما الغداء أيضًا. نظر إلى نفسه فوجد أنه يرتدي ملابسه كاملة وينام فوق الغطاء، فتذكر أنه لم يبدل ملابسه، والسرير ما زال مرتبًا لأنه لم يرفع الغطاء لينام تحته.
كان متحمسًا لدرجة أنه لم يشعر بالنعاس، جلس على الأرض يجمع أجزاء طائرته بينما نام "ريتشي" وهو يشخر، سمع أصوات الحفل بينما ظل يفكر في كل الأشياء التي يمكنه فعلها منذ أن أصبح "ولدًا أمريكيًّا كبيرًا" إلى أن يصبح "رجلًا أمريكيًّا كبيرًا"، كان المدعوون يغنون ويصيحون، ثم بدأت الأصوات تخفت، تبقت أصوات خفيفة جدًّا ثم اختفت تمامًا، فبدا له أنه الوحيد المستيقظ في أمريكا.
عندما أنهى الطائرة وضعها على السرير ونظر إليها، شعر أنها أفضل شيءٍ رآه، جلس على طرف السرير وعانق الطائرة برفق بين ذراعيه وانتظر بشوق وقت الإفطار لكي يُريها لسيدة "كابلان"، شعر بسعادةٍ غامرة بمجرد التفكير فيما ستقوله وفي الفخر الذي ستشعر به، لوهلةٍ شعر أنه يستطيع الطيران أعلى من أي طائرة.. وهذا هو آخر ما يتذكره قبل أن يغلبه النوم.
سمع بابًا ينغلق في الطابق السفلي، ثم عاد الصراخ، لكن هذه المرة بصوت أعلى وأوضح. فميَّز صوت والدة "ريتشي" و"ريتشي".
- لكن يا أمي أقسم أن...
- أنا أحذرك يا "ريتشي"! أريد الحقيقة وأريدها الآن! هل تفهم؟
شعر بالأسف على "ريتشي"، أيًّا كانت المشكلة التي وقع فيها، لكن في الوقت نفسه شعر بالراحة لأنه ليس من يتلقى التوبيخ في الأسفل.
نهض من السرير وسار إلى النافذة وفتح الشيش ونظر إلى المشهد الممطر، رأى رجلين بمعاطف مطر صفراء يحملان طاولة على العشب الرطب، رجلان آخران يرتديان قبعات سوداء كقبعات

الشرطة يكدسان كراسي الحديقة ويجمعانها أمام البيت. يعرف أن "فرانك" سيعيد البيانو إلى بوسطن اليوم، وأن باقي الأثاث المستأجر يتم تحميله الآن على الأرجح. يود أن ينزل ويشاهد كل هذا، يود أن يودع "فرانك" أيضًا، ويود أن يأكل شيئًا حقًّا، لكنه لا يريد المرور بـ"ريتشي" ووالدته ليجد نفسه محتجزًا خلف صراخها محاولًا الإفلات منه.

عاد إلى الغرفة ورأى طائرته، ألوانها زرقاء وحمراء وذيلها ملفوف حولها وترقد على جانبها على الأرض، أمسكها ورفعها، أعجب بدقة صناعتها، حتى المسافات المتساوية بين قطع الزينة في ذيلها، وفجأة سمع صوت والدة "ريتشي"، لكن هذه المرة كانت تصعد السلم وتندفع عبر الممر ومعها صراخ "ريتشي".

- أرجوكِ يا أمي، لا.. أرجوكِ، لا تفعلي يا أمي.. أمي، أرجوكِ!

- سأعرف حقيقة الأمر يا "ريتشي كابلان"، سأعرف ما يحدث مهما كان.. فلتأمل فقط أن ينتهي أمرك بسلام.

انفتح الباب بعنف وأصبحت داخل الغرفة وهي تسحب "ريتشي" من كم سترته، جذبته نحوها ثم دفعته للخلف، ترنح "ريتشي" قليلًا وكاد يقع.

حاول ألا ينظر إلى "ريتشي" أو والدته التي ما زالت ترتدي روب الحمام وشعرها منكوش وشفتاها شاحبتان، وهناك نظرة مجنونة في عينيها، نظر إلى طائرته ولمس زينة الذيل وكل أطرافها، وتساءل ما الذي فعله "ريتشي" بحق الجحيم.

أمسكت والدة "ريتشي" بيجامته المطوية وهزتها ثم رمتها على الأرض، بعدها بدأت تبعثر السرير المرتب وتفتش في كيس الوسادة. بحثت تحت السرير وخلف ظهر السرير، ثم فتحت خزانته المجاورة للسرير وأخرجت مجلاته الهزلية، ثم أخرجت صندوقه وفتحته وقلبت محتوياته، سقط منها على السرير كروت عليها صور لاعبي بيسبول وأغلفة حلوى وقطع حلوى، التقطت قالب حلوى ورمته عليه. اصطدم القالب بكتف "ريتشي" وارتد عنه، سارت نحوه وصفعته على وجهه. بعدها استدارت وجلست على طرف السرير وأمسكت رأسها بيديها.

بعد فترةٍ أزاحت إحدى يديها ووضعتها في جيب روبها وأخرجت علبة حبوب، أصابعها ترتجف لدرجة أن العلبة لم تثبت في يدها، مدت يدها بالعلبة إلى "ريتشي" دون أن تنظر إليه، فأخذها منها وفتحها لها ثم أعادها إليها، أفرغت حبتين في يدها ثم ابتلعتهما بصعوبة قبل أن تنهض مجددًا وتقول:

- سأفتش سريرك الآن يا "مايكل".

أومأ لها بالإيجاب وابتعد عن السرير.

جذبت الغطاء عن السرير ونفضته، ثم سحبت الملاءات ونفضتها. بعدها نزلت على ركبتيها ونظرت تحت السرير، نهضت وفتشت الوسائد ثم نظرت إلى الرف فوق سريره، وفتشت بين الكتب التي اقترضها من السيدة "كابلان" واحدًا واحدًا. فسقط خطابًا، خطاب تركه هناك منذ أسبوعين ونسي أمره، كان يكتبه لأحد أصدقائه الخياليين.. فتحت الظرف فبدأ يقلق. ماذا لو قرأته؟ ماذا لو أنه أحد الخطابات التي تحتوي كلامًا سيئًا عنها وعن "ريتشي"؟ أو الأسوأ، ماذا لو أنه أحد الخطابات المليئة بكلام حب عن "كاثرين"؟ لم يصدق أذنيه حين سمع "ريتشي" يقول:

- لا يصح قراءة خطابات الآخرين الخاصة.. ألا تظنين هذا؟

فتحت فمها واتسعت عيناها وكأنها لا تصدق ما سمعت، ثم ذهبت إلى "ريتشي" ووجهت إصبعها إليه، ففزع قليلًا.

- كيف تجرؤ على توبيخي؟ كيف تجرؤ؟ إياك أن تنطق بكلمة أخرى. هل تفهم؟ ولا كلمة!
رمت الخطاب ونظرت في الظرف الفارغ ثم رمت الاثنين على السرير دون قراءة.
بدأت تفتش في الدواليب، ذهبت أولًا إلى دولاب "ريتشي" وأخرجت كل ملابسه؛ بناطيل، و"شورتات"، و"تيشيرتات"، وسترات، وقمصان، وأحذية عادية ورياضية، وبيجامات كثيرة جدًّا، وجوارب مكورة وملابس داخلية بيضاء مطوية، والآن أصبح هناك كومة كبيرة من ملابس "ريتشي" على الأرض، خطت فوقها وذهبت إلى دولابه.
احمر وجهه وارتجفت ساقاه في الثواني التي استغرقتها للوصول إلى أغراضه؛ لديه اثنان "شورت"، واثنان "تيشيرت"، وسترة واحدة، وصندل، وبيجامة إضافية واحدة جيبها مقطوع، وزوجان متماثلان من الجوارب وثلاثة جوارب مختلفة، واثنان من الملابس الداخلية الرمادية. فتحت كيسًا فيه ملابسه المتسخة وأخرجت سترة متسخة وقطعتين من الملابس الداخلية المبقعة، وجوربين غير متماثلين قذرين. عندما انتهت سارت فوق كومته الصغيرة نحو الباب وقالت:
- ابقيا هنا، إياكما ومغادرة الغرفة قبل عودتي إليكما.. هل تفهمان؟ ونظفا هذه الفوضى.
ثم توقفت عند الباب ونظرت إلى "ريتشي" وقالت:
- غيرت رأيي، أنت تعال معي.. وأنت يا "مايكل" لا تحلم حتى بمغادرة هذه الغرفة.
سمع نفسه يقول:
- هل يمكنني الذهاب إلى الحمام؟
استدارت وعادت إلى الغرفة ووقفت أمامه وهي تلوي عنقها مثل جذع شجرة وتزم شفتيها بقوة ثم تقول:
- بالطبع يمكنك الذهاب إلى الحمام يا "مايكل"، وسأحرص على إرسال شيءٍ لتأكله، فليس لدينا معسكرات اعتقال في أمريكا، أليس كذلك؟
ابتعدت عنه وجذبت "ريتشي" خلفها ثم أغلقت الباب بعنف.
عندما عاد من الحمام أعاد ملابسه إلى الدولاب، ورتب سريره مجددًا، أعاد ملابس "ريتشي" إلى الدولاب الآخر ورتب سريره أيضًا، وضع أشياء "ريتشي" في الصندوق، ووضع الصندوق في الخزانة، حتى أغلفة الحلوى الفارغة أعادها مكانها، ثم جلس على الأرض وبدأ يمزق الخطاب. لم يزعج نفسه بقراءته، بل أخذ يمزقه قطعًا صغيرة جدًّا حتى تحولت الجمل والكلمات إلى مجرد حروف مبعثرة، ثم مزق الظرف حتى لم يبق إلا كومة من القصاصات على الأرض، عندما انتهى من هذا أخذ طائرته ولف منشفة حولها ثم وضعها في الفراغ الضيق بين الدولاب والجدار. جلس على طرف السرير وكلما شعر برغبةٍ في البكاء، قرص ذراعه بقوة.
شعر أنه مر وقتٌ طويل قبل أن تدخل "روزيتا" ومعها كوب من الحليب وساندويتش جبن سويسري وتفاحة وبعض البسكويت في صينية، جلست بجانبه على السرير وأخبرته أن يأكل، أخذ قضمة صغيرة من الساندويتش، لكنه لم يستطع أن يمضغ الخبز، فأخذ يلوكه في فمه وقال:
- "روزيتا"، هل تظنين أن "كاثرين" قد تأتي لرؤيتي؟
- "كاثرين" لن تستطيع مساعدتك الآن يا "مايكل".
- لم لا؟ ماذا تعنين؟
- لماذا فعلت هذا يا "مايكل"؟

- أنا؟ ماذا فعلت؟ أقسم أنني لم أفعل ما تظنون أنني فعلت، أنا لا أعرف حتى ما الذي كانت تبحث عنه.. أعني، ظننت أن "ريتشي" هو الذي وقع في مشكلة، هذا ما ظننت.
- ياه يا "مايكل".. كيف "تثرق" من الناس الذين أكرموك؟
- عم تتحدثين يا "روزيتا"؟ ما معنى "تثرق"؟
- ياه يا "مايكل"!
- أرجوكِ توقفي عن قول "ياه يا مايكل"، فقط أخبريني ماذا فعلت؟ ماذا يا "روزيتا"؟
نهضت "روزيتا" وسارت إلى الباب وقالت:
- أنت "تثرق".. "تثرق" مثل اللص.
ظل يسير ذهابًا وإيابًا ويجلس على السرير ثم ينهض ويجلس على الكرسي ويأخذ رشفة من الحليب، وبين الحين والآخر يبكي، يضرب رأسه في الحائط ثم يذهب إلى النافذة ويأكل بسكويتة ويبكي مجددًا، قرص ذراعيه ثم قرص رجليه، عاد إلى النافذة ونظر للخارج.. توقف المطر والشمس تحاول الخروج من السحاب، تساءل إن كان يمكنه الخروج أيضًا، يمكنه فعل ذلك بسهولة.. يخرج من النافذة ويتجاوز سور البلكون ثم ينزل على العامود الخشبي حتى يصل إلى البلكون الخارجي ويقفز على العشب ويدور حول سور الأشجار ويتسلل بين الأجمة ويصعد التل وصولًا إلى حقل العشب الطويل ثم إلى الشاطئ وبعدها يذهب إلى مخبأه. يمكنه أن يرمي كل الأشياء التي خبأها فيه في البحر؛ سكين الكشافة الخاص بـ"ريتشي"، وميداليات الجيش الأمريكي والصور المقصوصة من المجلات، والعلبة الصفيح بكل فتات البسكويت بداخلها، والساعة القديمة، والأقلام، والكرة المطاطية الصغيرة.. بعدها يعود إلى المخبأ ويمحي كل آثاره، أو يذهب إلى بيت سيدة "إيتش" قبل أن يلاحظ أحد غيابه، لكن حرجه من نفسه يمنعه من مواجهة سيدة "إيتش"، فتح النافذة وخرج، سمع أصوات الرجال بالأسفل، سمع صراخ "فرانك":
- لا.. لا.. لا، يا إلهي! لا.. يجب أن تحركه من الجانب الخلفي، يجب أن يكون جانب المفاتيح موجه للأسفل على لوح النقل. عليه، قلت عليه.. فهمتم؟ أكيد؟ حسنًا. تذكروا ما أخبرتكم به الآن. عدّوه حصان سباق، إصابة واحدة وينتهي أمره، حركوه بهدوء وروية. هيا، أحسنتم. هناك الكثير من الخطوات على الأرض الخشبية، والكثير من الأصوات بالأسفل، لن يهرب أبدًا دون أن يلاحظوه، عليه أن ينتظر حلول الظلام.
ظل يراقب زوال الغيوم الرمادية وظهور الشمس تدريجيًّا، وكلما سمع صوت، نظر للأسفل ورأى برك المياه الصغيرة تزحف بين العشب. سمع خطوات أقدام، لكنها أخف وليست بطيئة ويبدو أنها لأكثر من شخص. جاءت الخطوات من البلكون الخلفي، ولم يصحبها أصوات، بل مجرد خطوات، ثم توقفت، بعدها رأى "كاثرين" تتحرك بصمت بين العشب وهي ترتدي معطف مطر بحزام مشدود، وبجانبها سيدة "كابلان" تحمل مظلة، وها هي والدة "ريتشي" تضع على كتفيها معطف مطر، ومعها "أنيتا" بلا أي معطف، أدرك أن "أنيتا" هي الوحيدة التي لم يسرق منها، لقد عرف أنها الوحيدة التي ستلاحظ فورًا فقدان أي شيء مهما كان صغيرًا.. ها هو "ريتشي" بين السيدات، والدته تجره وتدفعه معها، ساروا بين الشجيرات واختفوا لحظات ثم ظهروا مجددًا وهم يصعدون التل واحدًا تلو الآخر إلى العشب الطويل ثم السلم المؤدي إلى الشاطئ. هذا يعني أن "ريتشي" يعرف بأمر المخبأ، هذا ما يظن.. كيف عرف؟ فكر قليلًا ثم قال لنفسه إنه يعرف بالطبع، كيف لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

في الصباح التالي لعيد العمال، استيقظا متأخرًا وظلا مستلقيين في السرير يستمعان إلى المطر، قالت:
- أتمنى أن تمطر طوال اليوم، أتمنى ألا يتوقف المطر أبدًا، أتمنى أن تمطر بكثافة حتى يتكون سور من المطر.
- سور من المطر؟
- نعم، هذا ما أتمناه حقًّا! سور من المطر بيننا وبين بقية العالم حتى نختبئ خلفه ولو ليومٍ واحد، لسنا مضطرين للخروج اليوم، صحيح؟
- ليس إن كان لدينا ما يكفي من الطعام.
- أظن هذا.. أعني أنه يمكننا تدبر أمرنا بالموجود، لدينا الكثير من الطعام المعلب، وهناك خبز وحليب وخوخ.
- حسنًا، ليس علينا الخروج.
فركت أصابع قدميها في الملاءة ورفعت يديها فوق رأسها وحركتها بمرح.
ابتسم بصدقٍ وقال:
- ماذا تودين للإفطار؟
- شاي وخبز "توست" بالزبد.
- كما تريدين.
- هل ستحضره لي في السرير؟
- هذا صحيح.
ضحكت مجددًا بصوتٍ عالٍ.
بمجرد أن نهض من السرير شعرت بالحزن، عبست مثل فتاة صغيرة وكأنها تمزح وقالت:
- لكن هذا يعني أنه عليك النهوض وتركي، وعندها لن تعود على الأرجح.
لم يجبها، ولاحظت ملامح الألم على وجهه. سألته:
- ما الأمر؟ هل تشعر بالألم؟
- قليلًا.
- ظننت حالتك تحسنت، ما الذي أعاد الألم؟
- عدم الاحتراس.
- هل...؟
- شربت بعض النبيذ وأكلت قطعة فطيرة أخرى، وتلك الخلطة المكسيكية في العشاء كانت حارة، بعدها شربت المزيد من النبيذ.. وأظن أنني وقفت أكثر من اللازم.
- أين الألم بالضبط؟
- في مكانٍ ما هنا.
- حسنًا، تخيل أن جسدك هو خريطة "مانهاتن" وصدرك هو حديقة "سنترال بارك"، أين سيكون الألم؟
- خريطة؟ حسنًا، سيكون الألم في الجنوب الشرقي. لا، ربما في موقع الحي الصيني.

- الحي الصيني؟ هذا سيئ.. هل تريدني أن أدلكها لك؟
- من الأفضل أن أتحرك قليلًا وآكل شيئًا.. وربما أشرب كوبًا من الماء البارد.
- لكن هل ستعود؟
- هناك بعض الرسومات الأولية التي أريد إلقاء نظرة عليها.
ثم استدار وأمسك يدها، فشعرت بـ...
"لا يهم بما أشعر، فهذا الجانب من حياتنا انتهى الآن، أقصى ما يمكن أن أتمناه الآن هو لحظات من الصحبة وبعض اللحظات الرومانسية، مثل أن ينظر لي وأنا أتحدث إليه، وأن يستلقي بجانبي في الصباح ونستمع لصوت المطر.
ابتسمت إليه وقالت:
- أنت حبيبي، أنت حبيبي.
ربت على يدها ثم أدار ظهره وبدأ يرتدي بنطاله.
أحضر لها مع التوست والشاي، وعددًا من جريدة "نيويورك تايمز" صدر من ثلاثة أيام، نظرت إلى الغلاف ولم تنجذب للأخبار، لا تريد أن تقرأ عن التجنيد للجيش والثورة الشيوعية والوفيات في كوريا والقنبلة الهيدروجينية أيضًا! فتصفحت الموضوعات الصغيرة المهمشة، لكن هذا جعلها تشتاق أكثر لنيويورك، وجوه وأسماء أشخاص لم تقابلهم من قبل، ومع ذلك بدوا مألوفين جدًّا لديها. أزياء وموضة تفوتها، حياة المدينة اليومية ما زالت مستمرة بدونها بينما هي عالقة هنا بعيدًا عن العمران بأميال. بلا أي شخص تتحدث معه أو تستمع إليه.
أزاحت الصينية ثم مالت على جانبه من السرير واستدارت على بطنها وأنزلت يديها على الأرض. اندفع الدم إلى رأسها وهي تبحث بيديها دون أن ترى حتى لمست كتابًا، أخذته وعادت إلى مكانها واعتدلت في جلستها. أخذت الصينية مجددًا وصبت كوبًا آخر من الشاي، ثم أخذت وسادته ووضعتها خلف ظهرها وفتحت قصائد "روبرت فروست"، وتفاجأت حين وقعت عيناها أولًا على جملة (Something there is that doesn't love a wall).
في طريقها للمطبخ لاحقًا، رأته محنيًا على طاولة العمل ويبحث بين الرسومات الأولية، لم يلحظها وهي تمر من خلفه، وعندما وضعت الصينية على طاولة العمل، لم يبد أنه سمع الصوت الصغير الذي أصدرته.. إنه مندمجٌ تمامًا، أرادت إخباره أنها كانت تقرأ (North of Boston) وصادفت جملة (Mending Wall) وربطتها بأمنيتها الخاصة بسور المطر الذي تريده أن يبقيها داخل المنزل، وأرادت أن تذكره بالقصائد الأخرى.. أن تقول مثلًا: "هل تذكر الشتاء الذي تزوجنا فيه وقرأنا قصيدة (The Oven Bird) في القطار في أثناء ذهابنا لزيارة والدتك؟".
لكنها لاحظت أنه مندمج تمامًا في التفكير ولن ينتبه لها، إنه ينظر إلى سجل لوحاته، لماذا ينظر في السجل الآن؟
وقفت عند عتبة باب المطبخ تراقبه.. فتح صفحة من السجل ورفعها أمامه، ثم سحب رسمة وفردها على الطاولة ثم وضعها على حامل الرسم. رأتها الآن وعرفت أنها رسمة أولية للوحة رسمها منذ بضعة سنين، ربما في صيف 1943؟ تضم اللوحة فتاة ممتلئة الصدر تستند إلى درابزين البلكون الخارجي، وهناك شاب بجانبها لكنه بلا قيمة له. الوقت ليل لكن بالنظر لملابسها الخفيفة، يبدو أنها لا تلاحظ ذلك، ساقاها قويتان ومستقيمتان وكانت تقف بميل وبطنها مشدودة تحت البكيني.

عاد إلى السجل وتصفحه مجددًا، توقف وأخرج رسمة أخرى ووضعها على الحامل، لقد رسمها منذ ثلاث سنوات، كانت في نيويورك.. ما الذي تفعله هنا؟ هل أحضرها معه من نيويورك؟ فيها فتاة أخرى ملفوفة القوام وترتدي فستانًا خفيفًا يحيط بساقيها الممتلئتين، واتضح أنها صهباء تحت هذه القبعة، وهي أيضًا مثل الرسمة التالية التي سحبها، وقد كانت في نيويورك أيضًا.. فيم يفكر؟ لماذا أحضر كل هذه الرسومات القديمة من نيويورك؟ تقدمت بضع خطوات بخفة ثم توقفت حين لاحظت أن الورق يبدو جديدًا، والرسم كذلك.. هل يمكن أنه لم يحضر أي رسومات من نيويورك؟ وكأنها لن تلاحظ! هذه الرسومات جديدة.

هذا ما كان يفعله هنا في الأيام الماضية، يصنع نسخًا جديدة من لوحاته القديمة.. لكن لماذا؟ لماذا قد يرغب في إعادة إحياء لوحاته في حين أنه يشعر بالسعادة حين يتخلص منها بمجرد الانتهاء من رسمها؟

كل النساء طويلات وقويات السيقان، متشابهات كالأخوات، أو هي المرأة نفسها، لكنها ترتدي أزياءً مختلفة وتلون شعرها وكأنها ممثلة في عدة أدوار.. وقد يكن كلهن سيدة "شيروي"، ومن غيرها، كلهن تجسيد لعشيقته الفرنسية القديمة.

بدأت صور النساء تتوالى في ذاكرتها، امرأة جالسة خلف "كاونتر" مطعم تخلع ثيابها ثم تصعد على مسرح لتصبح راقصة كوميدية، ثم اصطبغ شعرها بالأسود ومالت على سرير في غرفة غريبة. وفي الغرفة الغريبة نفسها، أصبحت ترتدي قميصًا قصيرًا وتجلس على الأرض وتكشف النصف السفلي من جسدها بجرأة.. فجأة أصبحت ترتدي فستانًا أحمر طويلًا وتقف بجانب بيانو وترفع يديها بأناقة وهي تغني (You Do Something to Me).

شعرت بنفسها تنفعل وبقلبها يضطرب ويقفز من صدرها إلى حلقها وصولًا إلى وجهها، أحست بجسدها على وشك الانفجار، لكنها في آخر لحظة استدارت وعادت إلى غرفة النوم. أغلقت الباب وأسندت ظهرها إليه، تذكرت المحادثة التي سمعتها ليلة أمس، تلك الكلمات القاسية التي قالوها عنها.. "كيف يتحملها؟ ألا تتوقف عن الكلام أبدًا؟ سمعت أنها تصاب بنوبات غيرة". تذكرت تعليقات أخرى ظلت تتجاهلها لسنين، من الأصدقاء والأعداء على حدٍ سواء، تعليقات عن شخصيتها المتملكة ورغبتها في السيطرة على حياة زوجها المسكين.

وضعت يديها على صدرها وسحبت أنفاسًا عميقة. لا، لن تثبت صحة كلام هؤلاء النساء.. إنهن كريهات، لن تدع الغضب يتحكم بها والغيرة تسيطر عليها، هذه المرة ستتحكم بنفسها، لن تبدأ شجارًا معه.. كانت تعلم دائمًا أن سيدة "شيروي" هي حبه الأول، ويقولون إن الحب الأول للرجل يترك أثرًا عميقًا في قلبه، كما أن هذه ليست المرة الأولى التي تلاحظ الشبه بينها وبين النساء في لوحاته، لا فائدة من البدء بشجارٍ آخر الآن. ستكون حماقة؛ فلن ينتهي إلا ببكائها وألمها كالمعتاد وبصوت الباب وهو يغلقه خلفه وبمشهد السيارة وهي تبتعد، وبعدها يغرق البيت في الصمت.

شعرت بألم حاد في يديها وبانقباضٍ في صدرها، فتحت قبضتيها وأرخت أصابعها، فهدأ الألم في يديها، ثم تنفَّست بعمق ونهضت.

ذهبت إلى أدراجها ومدت يدها تحت الملابس وأخرجت كتابًا، جففت دموعها في المرآة ثم ارتدت حذاءً وذهبت إلى غرفة الرسم. سألته:

- هل تحسنت؟

- هممم.

- هل زال الألم؟
نظر إليها وقال:
- نعم، كثيرًا.
انتظرت لحظةً ثم قالت:
- نسيت إخبارك أنني وجدت هذا في القبو، كان على الأرض، حالته رثة للأسف!
استدار ليرى.
قالت:
- إنها قصائد الشاعر "فرلان".. إن محادثة (La Lune Blanche) بالأمس ذكرتني به.
رفعت الكتاب إليه حتى تأكدت أنه رآه بوضوح، ثم وضعته على الطاولة، بعدها استدارت إلى النافذة وقالت:
- انظر، لقد توقف المطر.
انتظر حتى اليوم التالي لعيد العمال قبل أن يخرج مجددًا، بخلاف المرة التي جلس فيها على المقعد في البلكون الخارجي والتمشية الخفيفة في هاتين الليلتين، كان سعيدًا بالبقاء في البيت، كانت تمطر ثم توقفت وبدأت أشعة الشمس تتسلل عبر نافذة غرفة الرسم، سمع صوت زوجته وهي تكنس البيت والبلكون وسلم القبو، لليوم الثاني على التوالي يعم الهدوء البيت بينما هو يرسم وهي تستمع إلى موضوعات على الراديو وتقول رأيًا معارضًا بين الحين والآخر، لهذا لم يرغب في الخروج والابتعاد عن هذا السلام المفاجئ.
عندما تمشى في الليلة الأولى لم يبتعد عن البيت، سار في بعض الممرات القريبة وبعض الطرق الريفية، ذهب إلى مرج على تل، ونظر إلى الأراضي العشبية وأشجار الصنوبر، هناك بيت غير مكتمل يقع بين تلين، وسمع منظم الرقص يدعو الناس للحلبة في حفلة ريفية في البلدة في تلك الأمسية الدافئة. عندما حل الظلام عاد إلى البيت متفاديًا الطرق الأسفلتية أو أي طريق تمر به السيارات، تنفس هواء المحيط محاولًا تفادي رائحة البركة الكريهة، حرص طوال الوقت على إبقاء ظهره ناحية بيت "كابلان"، وعلى إبعاد تفكيره عن "كاثرين".
بعد عودته تناولا العشاء وجلسا قليلًا، لم تكن هناك فقرة النكد المعتادة بعد كل حفل، مما فاجأه كثيرًا، بدلًا من ذلك ناولته نسخة من كتاب (North of Boston) ليقرأه لها، بعدها اقترحت أن يتحدثا بالفرنسية لساعة حتى ينعشاها في عقليهما.
- الفرنسية؟ الآن؟
ردت بالفرنسية:
- "من فضلك".
في الليلة التالية ابتعد قليلًا، سار بينما طار غراب فوقه في سماء الريف، لو طار الغراب بسرعة سيره نفسها فسيكون غرابًا بطيئًا جدًّا. لوهلةٍ لم يعرف إلى أين يتجه، وأسعده أنه بعد كل هذه السنوات ما زال يمكن أن يتوه هنا، عاد إلى شاطئ "رايدر" بشكلٍ ما، وشاهد أشعة الغروب الذهبية وصفًا من اليخوت العائدة في طريقها إلى المرسى. أنعشه المنظر، لم يعد إلى المنزل مباشرةً، بل توقف قليلًا في طريق "كوانسيت" ليرتاح على سور صخري قديم.
رأى بيتًا آخر تحت الإنشاء، كغيره من البيوت الكثيرة التي بُنيت في آخر الحرب وحاول صانعوها أن يجعلوها تشبه مساكن المنطقة التقليدية، لكنه أكبر حجمًا ولديه نوافذ أكثر، وعلى الأرجح مزود

بشرفة خارجية أو اثنتين، وبالطبع يواجه الجانب الخطأ. كان البيت مبنيًّا بطوب أبيض، لكنه لم يكن كامل الإنشاء، والشيش مثبت في مكانه، فكر أن البيت يبدو محاصرًا في قفص، وليس فقط بسبب السقالات المحيطة به. بدا خاطئًا بالكامل، مثل سفينة في ميناء جاف. بدأ بيتٌ مشابه يبني نفسه في خياله؛ الطوب نفسه والشيش نفسه، لكن بارتفاعٍ أعلى ونافذة زجاجية ضخمة تطل على الخليج وتبرز من واجهة المنزل مثل مقدمة سفينة، بنى خيالُه المنزل وهدمه ما بين جلوسه ليستريح ونهوضه ليواصل السير، في طريقه إلى البيت مر بفتاة اعتادت التمشية ليلًا هنا، لم يرها منذ أسبوعين وبدأ يقلق عليها قليلًا، لذلك سعد برؤيتها. رفع قبعته في تحية ليقول لها ليلة سعيدة بينما يمران ببعضهما، لكنها نظرت أمامها مباشرةً وكأنها لم تره.

عاد إلى المنزل مع حلول الظلام، وكانت تنتظره بعشاء من الطعام المعلب فقط، وكما فعل في الليلة الأولى، عندما عاد إلى البيت ظل فيه ولم يفكر في "كاثرين" على الإطلاق، ليس حتى عندما خرج لبضع دقائق في الظلام والبحر يهدر بحزن.

كل هذا الطعام المعلب بدأ يؤثر على معدته، شعر بشيءٍ ينهش أمعاءه ويزحف داخله، وكأن دودة حديدية تلتهم أمعاءه الغليظة، ذهب إلى المطبخ وفتح دولاب الخزين فوجد المزيد من العلب لسوء حظه، قرر أن يوقف هذا الحصار.

وجدها جالسة على السلم الخارجي القصير تحت أشعة شمس الظهيرة وتبحث في صندوق أخرجته من القبو.

سألته وهي ترفع أمامه حقيبة قماشية:

- هل تذكر هذه؟ لقد جهزتها للطوارئ في أثناء الحرب في حال تعرضنا لغارة، لقد أغظتني كثيرًا وقتها! انظر ماذا وجدت بداخلها.. علبة لبن بودرة، صابون، معجون أسنان، دفتر شيكات، وكأن الألمان لن يقبلوا بأخذ أموال نقدية!

ضحكت وانتظرها أن تنتهي من تفقد عدة النجاة الخاصة بها، ثم أخبرها أنه لم يعد لديهم بيكربونات الصودا، أو خبز، أو لبن، أو زبد، أو أي شيء غير معلب. ثم قال:

- ما رأيكِ في جولة بالسيارة؟ سنشتري ما نحتاج من بقالة في طريق عودتنا.

هزت رأسها نفيًا، فقال:

- ما رأيكِ في الذهاب إلى "أورلينز" أو "هيانيس"؟ هل تذكرين تلك المرأة البرتغالية التي تبيع الخضراوات المزروعة في حديقتها؟ لقد أحببتِ البطاطس منها.

هزت رأسها نفيًا مجددًا. قال:

- عليّ أن أشتري بعض زيت بذور الخشخاش من "بروفينستاون" على كل حال، يمكننا أن نتناول العشاء في الخارج إن أحببتِ.

قال المزيد من الاقتراحات وصورة البيت ذي الشيش الأسود تظهر في عقله مجددًا، اتخذ شكل منازل نيويورك بسلالم حجرية رمادية على أحد جانبيه، أما النافذة الكبيرة التي تطل على الخليج فقد تغبرت قليلًا. قال:

- يمكننا أن نلحق بعرض الظهيرة في السينما إن أسرعنا، ونتناول العشاء لاحقًا ونشتري البقالة ما بين هذا وذاك.

- لا، لا أرغب في مشاهدة فيلمٍ اليوم. لا، لا.

شعر أنه رأى تلك النافذة في مكانٍ ما، بل كانت عالقة في ذهنه منذ بعض الوقت بانتظار أي منزل تلصق نفسها به، في اليوم الذي اصطحب الولدين فيه إلى "بروفينستاون"، ألم يكن يبحث عنها؟
- يمكننا المرور بآل "كابلان" إن أردتِ، ونحضر الولدين معنا.
- لا أريد، ليس حقًّا.. لا أريد.
- ما رأيكِ لو اصطحبتهما أنا واشتريت البقالة وأحضرتهما لرؤيتك؟
- لا.. لا.. لا، أنا مشغولة جدًّا ولن أحتمل أي رفقة اليوم.
- مشغولة؟ كيف؟
- أريد الانتهاء من ترتيب القبو، وسوف أنتهي من هذه السجادة اللعينة لكي أتفرغ قليلًا، ربما سأعود للرسم مجددًا، ربما لم تلحظ أنني تقريبًا لم ألمس الفرشاة هذا الصيف، ولا تنسَ أنك مدين لي بساعة من وقتك. إياك أن تسحب كلامك. لقد وعدتني، هل تذكر؟ لقد وعدت أن تكون عارضًا لي.
- نعم وسأفعل.. سأفعل الليلة، لكن هذه الظهيرة فكرت في أننا...
- من قد يريد القيادة اليوم؟ إنه اليوم التالي لعيد العمال سيكون الزحام شديدًا، لن يفعلها إلا مجنون.
- حسنًا، لكن لا يمكنكِ الاختباء للأبد.
- ربما لا، لكنني سأحاول.
- هيا، لم يكن الوضع بهذا السوء.
- لا أريد أن...
فزعت من صراخها المفاجئ أكثر مما أفزعته، فابتلعت ريقها لتهدأ ثم بدأت من جديد:
- لا أريد أن أرى أيًّا من هؤلاء النساء، لا أريد رؤية ولا واحدة منهن.
- ولا حتى...
- لا، ولا حتى هي.
- سأذهب لشراء البيكربونات وبعض البقالة.
نزل السلالم في طريقه إلى الجراج، ثم سمعها تناديه، فاستدار ونظر إليها، صاحت:
- البريد.. البريد، لا تنسَ أن تحضره.
أومأ لها ولوح ثم استدار ليواصل طريقه وهو يحمد الله أنها لا ترى وجهه.
كيف نسي أمره؟ البريد الموعود من نيويورك؟ لقد تصرف وكأن هذا الموضوع لن يظهر وجهه القبيح أبدًا، فكر فيما فعله بالخطاب، كوره ورماه ليتعفن في مكانٍ ما عند تل يطل على طريق "تاون رود"، وتساءل إن كان المطر قد فتته، ثم تساءل ماذا عليه أن يفعل الآن، فاليوم بالذات لا يصلح أبدًا لإخبارها بالحقيقة، حتى لو كان قد أقسم لنفسه بأنه سيصارحها بعد الحفل، ظلت صامتة من وقتها.. صامتة جدًّا، وهذه إشارة سيئة.
خرج بالسيارة من الجراج، عندما نظر أمامه وجدها ما زالت واقفة على السلم، أطلق بوق السيارة فلوحت له، شعر بطعنةٍ مؤلمة في صدره.
قابل زحامًا شديدًا في الطريق السريع، وكلما انكشف جزء من الطريق، رأى صفًّا طويلًا من السيارات تتجه إلى الطرق السريعة الجنوبية، تهادت أمامه سيارات تحمل بعض الأمتعة على طريق "كاسلرود"، وتركت خلفها سحبًا من الغبار، لكن قبل أن يصل إلى وسط البلدة علق في ذروة الزحام، فالتصق بصفٍ طويل وبطيء من السيارات، يتحرك بضع بوصات في كل مرة، أما الجانب الآخر من الطريق القادم من الجنوب إلى البلدة كان فارغًا، إلا من شاحنتي جر، وسيارة أو اثنتين تعود

لسكان المنطقة. رأى أماكن للركن خارج مكتب البريد، لكن محطة البنزين كانت مزدحمة جدًّا. بالكاد لمح زملاء الدراسة القدامى مجتمعين في مكانهم المعتاد.
بعض الناس يقفون في المحطة بانتظار حافلة بوسطن القادمة من "هيانيس"، خلاف ذلك باقي الناس موجودون جميعًا في السيارات ويحاولون الخروج من البلدة. انتظر حتى تحرك الصف بضع بوصات أخرى ثم خرج من الصف واتجه إلى محل البقالة. كان على وشك أن يركن حين رأى سيارة آل "كابلان" الـ"سيدان" مركونة أمامه ببضع سيارات، بحث بنظره عن "كاثرين"، لكنه لم يرَها إلا بعدما خرج من السيارة. كانت تقف على مسافة بضعة أقدام من باقي المجموعة عند محطة الحافلات، فكر في العودة إلى السيارة والقيادة بعيدًا أو دخول مكتب البريد دون أن تراه، لكنها رأته على أي حال ولوحت له بحماس وهي تسير إليه، لوح لها بالمقابل وانتظر لحظة قبل أن يسير نحوها ليقابلها.
شعرها مربوط للخلف، ووجهها خالٍ من مستحضرات التجميل، كانت ترتدي حذاءً بلا كعب وبنطالًا وقميصًا بجيوب مثل قمصان السفاري.
فكر في أنها تبدو كطفلة، لكن بعد بضع ثوانٍ غير رأيه، بدت مثل امرأة مريضة في طريقها لمنتصف العمر.
وضعت يدها على ذراعه قبل أن تبدأ بالكلام، وتركتها هناك قليلًا بينما تنظر حولها بانفعال. أظافرها برتقالية، وأصابعها شديدة النحول. قالت:
- "مايكل" في ورطةٍ كبيرة.
تحدثت بصوتٍ منخفض على الرغم من أنه لا أحد حولها ليسمعها.
- جئت لمقابلة آل "نوفاك"، سيتم إرساله إلى المنزل، "أوليفيا" مصرة. الأمر فظيع، لا أعرف ماذا أقول!
مالت للأمام قليلًا وبدأت تفرك جانبها بيدها، بينما ظلت يدها الأخرى على ذراعه.
- إنه يسرق، أعني.. يسرق حقًّا!
رفعت يدها عن ذراعه وأخرجت علبة سجائر من جيب قميصها ثم وضعت واحدة بين شفتيها لكنها لم تشعلها، أخذت يدها تهتز وكأن السيجارة تزن طنًّا، ربتت بيديها على جيوبها ثم حركت حاجبها لتعلن حاجتها لولاعة.
هز كتفيه باعتذار لأنه ليس لديه.
سألته وهي تتجه إلى سيارته بالفعل:
- هل لديك ولاعة في السيارة؟ لا أجد ولاعتي.
جلسا في السيارة بينما تشعل سيجارتها وبدأت تدخنها، رفعت إحدى ركبتيها واستدارت له وظلت تلمس ذراعه وكتفه طوال الوقت وهي تتكلم. هل تحاول تعذيبه؟
لكنها كانت ببساطة تخبره عن "مايكل".
- كنت أعرف أنه يأخذ أشياءً بسيطة وسخيفة؛ مثل بعض المخبوزات أو الفطائر، وذات مرة أخذ صورةً لي من ألبومي، ظننت هذا لطيفًا.. قلت لنفسي ما الضرر الذي يمكن أن يسببه ولدٌ مسكين مثله عانى ما عاناه، لست بحاجة أن تكون طبيبًا نفسيًّا لكي تخمن.
سحبت بضعة أنفاس من السيجارة وشاهدت الدخان يتصاعد على نافذة مقعد الراكب حيث تجلس زوجته في المعتاد.

- لديه مخبأ سري عند الشاطئ في الجهة المؤدية لبيتك، رأيته يخرج منه بضع مرات، ذهبنا إلى هناك بالأمس ووجدنا غنيمته.. لن تصدق، يا إلهي! "أوليفيا" تشتعل غضبًا.
توقفت عن الكلام واستدارت وهي تقول:
- اللعنة! لقد وصلت الحافلة بالفعل.
أطفأت السيجارة في الطفاية واستدارت لتخرج، ثم قالت:
- عليَّ إخبارك قبل أن أذهب، لقد سرق مالًا أيضًا، مبلغًا كبيرًا نوعًا ما.
هزت رأسها ببطء وأدارت عينيها وهي تقول:
- أموال التبرع للأيتام.. ربما خمسون دولارًا، يرفض إعادتها أيضًا. فتشنا في كل مكان، حتى مخبأه، قلبته "أوليفيا" رأسًا على عقب.
- لا أفهم.. هل تقولين إن...؟
- السجل، عندما يتبرع الناس يسجلون أسماءهم وبياناتهم في الكتاب لكي نخبرهم لاحقًا كم جمعنا، لم نجد ظرفين، واتصلت أمي بالمتبرعين لتتأكد، يا إلهي.. عليَّ الذهاب! يجب أن أقابل آل "نوفاك"، هذه أكبر أولوية الآن.
فتحت الباب وقالت:
- ربما ترغب أنت أو زوجتك في رؤيته قبل أن يعود إلى نيويورك. أظنهم سيبقون الليلة ويغادرون في الصباح الباكر. أعني، لا أظنهم سيعودون الليلة بسبب حالة الزوجة، لكن مع غضب "أوليفيا"، لن أتفاجأ لو فعلوا.
خرجت وخرج وراءها، سارا جنبًا إلى جنب بضع خطوات قبل أن تتجه هي يسارًا للحافلة ويتجه هو يمينًا إلى محل البقالة.
وقف في طابور الدفع. رفعت المرأة التي تغلف المشتريات وجهها المتعب إليه وسألته:
- زوجتك ليست معك اليوم؟
شعر بحاجةٍ لأن يشرح لها من هي "كاثرين" وماذا كانت تفعل في سيارته، على الرغم من أنها لم تلحظ على الأرجح.
قالت بابتسامة خفيفة:
- سأسعد عندما يعود الزوار إلى بلدتنا مجددًا.
- أنا واثق بأنه يسعدكِ أن ترتاحي منهم قليلًا أيضًا.
- يمكنك قول ذلك، كل عام تزداد مطالبهم.
جهزت الفاتورة وأخرج محفظته وهي تقول له:
- هل تعلم ماذا سألني أحدهم بالأمس؟ بالأمس بالذات دونًا عن باقي الأيام؟
ناولها المال وانتظر بقية حديثها.
- سألتني إن كانت فطيرة التفاح منزلية الصنع أم لا.. معقول! هل تتخيل؟
- فهمت.
- وكأن هناك مشكلة في الكيك الجاهز!
وضعت الباقي في يده وأغلقت أصابعه عليه.
عندما خرج من محل البقالة، تظاهر بأنه يضبط الأكياس البنية التي يحملها وهو يراقب "كاثرين" وآل "نوفاك" وهم يعبرون الشارع إلى سيارتها، الرجل قصير وداكن البشرة، ولديه تقوس بسيط في

ساقيه، أما زوجته فكانت حامل في الشهور الأخيرة، ظهرها متقوس وقدماها معوجتان للداخل، سارت "كاثرين" خلفهما لكنها أبطأ وأثقل وأكثر انحناءً من عادتها، كانت تسير وكأنها مصابة.
وضع البقالة في صندوق السيارة، وركب في مقعد السائق، قبل أن يقود تذكر السيجارة التي في الطفاية فأخذها، ثم رأى علبة سجائرها على "التابلوه"، أمسكها فوجدها كاملة تقريبًا، خرج من السيارة وسار إلى صندوق القمامة ثم رمى السيجارة والعلبة، آخر ما يريده الآن هو أن يجد عذرًا ليذهب خلف "كاثرين".
عندما عاد إلى البيت، خرجت زوجته من غرفة النوم لتقابله، قدماها عاريتان ووجهها متخشب، وكأنها ارتطمت بشيءٍ ما أو آذت نفسها. بدت منزعجة، بل غاضبة، ولوهلةٍ ظنها سمعت بما حدث مع "مايكل". سألها:
- هل عرفتِ الأخبار؟
- أي أخبار؟
- بشأن "مايكل"؟
- ماذا عنه؟
كرر جملة "كاثرين":
- إنه في مشكلةٍ كبيرة.
- أي مشكلة؟
- لقد قابلت "كاثرين كابلان"، كانت تنتظر والديه بالتبني في محطة الحافلات، اكتشفوا أنه يسرق.. هل أنتِ بخير؟ تبدين...
- يسرق؟ ما معنى هذا؟ يسرق؟
- يسرق مالًا وأشياء أخرى، لقد سرق الكثير، لديه مخبأ سري بالقرب من شاطئنا.
- هل كنت تعرف بشأن هذا؟
- رأيته مرة هناك لكن لم أظن الأمر خطرًا.
- كم المال؟
- خمسون دولارًا تقريبًا.
- خمسون دولارًا! لكن لماذا يفعل "مايكل" شيئًا غبيًّا كهذا؟ ومن أين أخذ المال؟
- تبرعات الأيتام، هناك سجل يضم أسماء من تبرعوا والمبلغ الذي تبرعوا به، في نهاية الحفل لم يتطابق المبلغ في الصندوق مع المبلغ المكتوب في السجل، قالت "كاثرين" أن "أوليفيا" تشتعل غضبًا وتريد إرساله إلى البيت.
- لم يأخذه.
- أود أن أصدق هذا أيضًا!
- لا، أعني أنه لم يأخذه.. أنا متأكدة، يجب أن تبحث "أوليفيا" الغاضبة عن المبلغ في مكانٍ آخر.
جلست وصمتت لبضع ثوان، ثم نهضت مجددًا وقالت:
- "ريتشي" أخذه.
- "ريتشي"؟
- نعم، "ريتشي"، لا بد أنه أخذه.
- مهلًا...

- لا تعارضني.. لقد رأيته! رأيته بعيني.
- من الأفضل أن تكوني متأكدة من هذا.
- أظرف التبرعات، هل كانت من النوع الذي استخدمه الجيش في الحرب؟
- لا أعرف.
- أنا أعرف، لقد رأيت "ريتشي" يختبئ مع اثنين منها في إحدى غرف الطابق العلوي، ظننته يقرأ خطابات قديمة من والده، لكن بالتفكير في الأمر.. كان هناك دولارات على الأرض.
- متى كان ذلك؟
- قبل خطاب سيدة "كابلان" مباشرةً، ذهبت للبحث عنه، كنت أعرف أن به خطبًا ما.. كنت أعرف.
- من الأفضل أن تذهبي وتخبريهم.
- لكنني لا أريد الذهاب!
ذهب إلى المطبخ وبدأ يضع البقالة.
- عليكِ ذلك، من أجل "مايكل".
- فلتذهب أنت وتخبرهم أنني مريضة.
- يجب أن تخبريهم أنتِ.
- سأكتب رسالة لسيدة "كابلان".
وقف عند باب المطبخ ونظر إليها وقال:
- يجب أن تخبريهم أنتِ.. تعلمين ذلك.
- لا أريد رؤية هؤلاء النساء، لا أريد رؤيتهن.. أما أنت!
- أنا؟
صرخت:
- لن أحتمل الجلوس بجانبك طوال الطريق، هذا ما كان ينقصني اليوم. هذا ما كان ينقصني حقًّا!
ثم اندفعت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها بعنف.
سمع صوتها وهي تستعد، وصوت باب الدولاب، وحركة الملابس المعلقة على الشماعات. قال:
- سآكل شيئًا قبل أن نذهب، هل تريدين شيئًا؟ سأحضر لي طبقًا من الشوفان ليخفف ألمي قليلًا، لكن يمكنني تحضير طعامًا آخر لكِ.
لم يتلق ردًا للحظات، ثم انفتح باب غرفة النوم وسمع صوت قدميها الحافيتين، ها هي واقفة عند باب المطبخ، نصف عارية، وتنظر إليه شذرًا. وجهها الصغير بدا غاضبًا وشريرًا. بدت كالمجانين، حتى أنه كاد يضحك. قالت بغضب:
- لا أريد شيئًا منك، لا شيء.
ثم اندفعت مبتعدة.
حضَّر لنفسه الشوفان وتناوله وذهب إلى غرفة الرسم حيث جلس على كرسيه الخوص وانتظر.
في طريقهما إلى الجراج، انفعلت عليه مجددًا حين حاول أن يمسك مرفقها وهما ينزلان السلم.
صاحت:
- ابتعد عني! إن قربت يدك مني، فأقسم أن أقطعها.
- لا أعرف لماذا تصرخين عليَّ، كل ما طلبته هو أن تساعدي الولد المسكين.
- هل تظن أن هذا هوٍ ما يغضبني؟ هل ظننت هذا حقًّا؟

- ما الذي يزعجكِ إذا؟
تركته وسارت بعيدًا عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

على سلالم البلكون الخارجي، توقفت المرأة وانتظرها الرجل وهو يمسك ذراعها، قرصت ذراعه لتخبره أن هذا هو آخر مكان تريد الوجود فيه، فضغط على ذراعها برفق ليخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام، ثم جذبها بحزم ليواصلا السير.
الفتاة التي قادتهما إلى هنا كانت تسير أمامهما، شاهدت زوجها يترك ذراعها ويذهب إلى الفتاة ويتركها خلفه، لا تذكر اسم البنت.. ربما "كارولين" أو ما شابه. كانت تقول شيئًا عن البحر والجو والزحام، و"هاري" يجيبها بوجهٍ مبتسم. نعم، الجو هنا أقل حرًّا من نيويورك. ونعم، الزحام شديد على الجانب الآخر من الطريق السريع في "هيانيس". ونعم، رائحة البحر واضحة وتشعرك بالتحسن. وكأن هذه زيارة عادية و"مايكل" ليس غارقًا حتى أذنيه في المتاعب.
وصلوا إلى بابٍ كبير مفتوح، دخلت الفتاة وتراجع "هاري" ليمسك ذراعها مجددًا ويقودها للأمام.
رأت عبر الباب الموارب مجموعة من الناس يجلسون في الغرفة، ومن بينهم رجل يرتدي زيًّا عسكريًّا، يا إلهي، هل سيعتقلونه؟
خرجت سيدة "كابلان" لتقابلهما عانقتها رغمًا عنها ثم استدارت إلى "هاري" بابتسامة مشرقة، ثم قالت بصوت سعيد وحزين في الوقت نفسه:
- "هاري"!
قالت اسمه فقط، وأخذت يده وصافحتها بقوة كادت تخلعها، ثم أخذت حقيبة الأمتعة البسيطة من يده ووضعتها على السلم، بالضبط على الدرجة الثالثة.
الفتاة التي أحضرتهما أخذت الحقيبة وبدأت تصعد بها السلم، فقالت لها:
- اتركيها، أرجوكِ. لست واثقة أننا سنبيت الليلة.
نظر إليها "هاري"، فشعرت بحاجةٍ للتوضيح:
- أفضل النوم في سريري بالقرب من المستشفى الخاص بي، تفهمين وضعي.
ردت سيدة "كابلان":
- بالطبع، أفهم.
من المفترض أن يقف الموضوع هنا، لكنها لم تستطع منع نفسها من المواصلة:
- لا أريد أن أبدو فظة، لقد أحضرنا الحقيبة من باب الاحتياط كما قلتِ، لكن الرحلة لم تكن متعبة. كما أنني نمت في القطار طوال الطريق من نيويورك إلى بوسطن، ثم غفوت قليلًا في الحافلة.
- فهمت.
- لم يبق سوى أسبوعين على الولادة، هذه فترة قصيرة.
- بالتأكيد.
- بعض النساء يلدن مبكرًا.
- نعم، صحيح.

نظرت الفتاة إلى سيدة "كابلان" وكأنها تطلب الإذن، فأومأت لها. تركت الفتاة الحقيبة على أول درجة في السلم.
- بأي حال، بعد إذنكِ.. أريد بسرعة أن...
ما أرادت قوله هو أنها تريد العودة إلى البيت بسرعة وتفرغ الحقيبة للمرة الثانية خلال أربعٍ وعشرين ساعة، لتعيد إليها كل الأمتعة الجديدة التي جهزتها منذ أسابيع لتأخذها معها المستشفى عندما تحين الولادة. كل شيء كان جاهزًا؛ قمصان نوم قطنية، والمعطف الذي اشترته لها زميلاتها في العمل مع حقيبة أدوات الزينة و"شبشب"، بيت جميل باللون الأزرق الفاتح، ولوازم الأطفال، وحفاضات... وكل شيء، حتى ثوب الأطفال القطني الصغير الذي يغمرها بالسعادة كلما رأته، كل هذه الأشياء العزيزة عليها مكدسة الآن على طاولة المطبخ بلا حقيبة لتحميها، شعرت بالسوء حين رأتها ملقاة هناك وهي تخرج من الباب، بدا فألًا سيئًا أو نذير شؤم، على الرغم من أنه لا خيار أمامها.. فمن قد يمتلك أكثر من حقيبة سفر واحدة؟! ما عدا أشخاص كهؤلاء بالطبع.
وقفت الفتاة بجانب سيدة "كابلان".. إنهاً ابنتها، بالطبع. لم تفكر في ذلك إلا الآن، هذا واضح في ملامحهما عندما تراهما جنبًا إلى جنب، أم وابنتها، قريبًا سيقول الناس الشيء نفسه عنها وعن طفلتها، أم وابنة، أو ربما أم وابنها، لكن الابنة ستكون أسهل هذه المرة؛ على الأقل عندما تنظر إلى وجهها لن تتذكر ابنها المسكين "جاك".
وجهت سؤالها للأم والابنة:
- أين "مايكل"؟ أريد رؤيته الآن.
قالت سيدة "كابلان":
- إنه في غرفته، لكن أظننا بحاجةٍ للتحدث معًا أولًا، ألا توافقان؟
رد "هاري":
- نعم، بالطبع يا سيدة "كابلان".
وقفت كالحمقاء في الصالة وهي تنظر إلى الطابق العلوي وكأنها سترى وجه "مايكل" يطل عليها، سارت سيدة "كابلان" إلى الغرفة الأخرى وتبعتها ابنتها، ترى كيف يكون شعور الأم حين تتبعها ابنتها إلى غرفة؟ ابنة كبيرة كانت تحملها أمها في الماضي، والآن أصبحت شابة كبيرة تسير مثلها وتتكلم مثلها.. ما هو هذا الشعور؟ استقامت في وقفتها لكنها لم تستطع إجبار نفسها على الحركة والذهاب إلى هناك والجلوس ومناقشة أمر "مايكل" أمام غرباء، بما فيهم أعضاء من الجيش، أشار "هاري" برأسه إليها وكأنما يقول "هيا".
ثم تراجع بضع خطوات وقال:
- عزيزتي؟
وضع يده على ظهرها ليقودها إلى الباب.
نهض الأشخاص الذين في الغرفة عندما دخلاها، وكأنهما ضيوف شرف بدلًا من "ضيوف عار".
أجلستها سيدة "كابلان" على كرسي وقالت إنه أكثر كرسي مريح في المنزل.
- إنه مقعدي المريح المفضل.
لكنها بدت مثل كلمة "مريع" وليس "مريح".
ثم أطلت سيدة "كابلان" برأسها من الباب ونادت باسم "روزيتا".

في ثوانٍ دخلت فتاة مكسيكية، طلبت منها سيدة "كابلان" أن تحضر بعض الشاي، لأنه على حد قولها "لا شيء منعش أكثر من الشاي بعد رحلة طويلة".
أومأت لها بالإيجاب على الرغم من أنها أرادت أن تقول "وكيف لي أن أعلم بحق الجحيم؟! هذه هي أطول رحلة قمت بها في حياتي".
نادت سيدة "كابلان" الفتاة المكسيكية مجددًا وقالت:
- "روزيتا"، يمكنكِ أن تحضِري السندويتشات الآن.
الطريقة المتوترة التي حركت بها رأسها والملامح القلقة على وجهها تجعلك تظن أن السندويتشات كانت تقف منتظرة على الباب منذ الصباح وستندفع للداخل الآن لتقتل الجميع!
قالت سيدة "كابلان" لـ"هاري":
- لكن أظنك تفضل البيرة يا "هاري"؟
وكأن "هاري" عامل بسيط لا يفهم مجاملات الضيافة كالشاي.
شعرت بـ"هاري" ينظر إليها، لم تنظر إليه مباشرةً لكنها حذرته بنظرة جانبية سريعة. "إياك أن تجرؤ يا هاري نوفاك، إياك والتفكير حتى".
- لا، شكرًا يا سيدة "كابلان"، لا بأس بالشاي.
قالها على الرغم من أنه لا يشربه أبدًا، فاضطرت لعض شفتيها حتى لا تضحك.
اختفى الرجل العسكري من الغرفة، إلا إذا كان يختبئ خلف إحدى الأرائك، لاحظت أن هذه الغرفة لها عدة مداخل؛ هناك الباب الذي دخلوا منه، وهناك سلالم تقود إلى غرفة أخرى محاطة بالنوافذ وبباب زجاجي كبير ترى من خلاله بلكونًا خارجيًّا وأشجار خضراء وعشب أصفر و... هل هذا.. بحر؟ إنه خلف التل هناك، يتلألأ.
إذًا، هذا هو البيت الذي يقيم به "مايكل"، وذلك هو التل الذي كان يركض ويلعب فيه كل صباح، وعلى الجانب الآخر يوجد الشاطئ والبحر الذي أخبرهما عنه في خطابه.
قال "البحر في كل مكان، حتى لو لم تره فإنك تسمعه".
تجمعت الدموع في عينيها لمجرد التفكير في "مايكل" وهو يقفز ويلعب في البحر بسعادة وحرية، كيف يكون هذا الشعور؟ أن تذهب إلى هناك وتتحرر من جواربها وتسير على الرمال حتى تصل إلى البحر، وتشعر بالماء يحيط بساقيها ويبلل ثيابها الداخلية وثياب الحمل، ثم يلمس بطنها المنتفخ الجامد كالصخرة، نظرت إليها سيدة "كابلان" وكأنها تفهم ما يدور برأسها، قالت لها:
- هل تودين الخروج لاستنشاق بعض الهواء النقي يا سيدة "نوفاك"؟ طريق التل منحدر جدًّا بالنسبة لكِ، لكن يمكنني اصطحابكِ من طريقٍ آخر.
قالتها وكأنها تملك المكان.
يقدر "هاري" السيدة "كابلان" كثيرًا، يقول دائمًا: "لا يمكن لأحد إنكار أنها سيدة صالحة"، ثم يضيف: "وراقية أيضًا"، لكنها قد تصبح مغرورة أحيانًا، تجلس هناك ويداها في حجرها وتتحدث عن "مايكل"، بينما تتحرك كل النساء وكأنهن راهبات في دير.
بالطبع هن لسن راهبات، لكنهن يتحركن مثلهن بصمت ووقار، بينما سيدة "كابلان" - الراهبة العليا - تراجع قائمة خطايا الولد المسكين. كل النساء طويلات، وكلهن جميلات، حتى سيدة "كابلان"، ما عدا المرأة التي قدموها بصفتها صديقة للعائلة، على الرغم من أنها قدمت نفسها جيدًا، بدت وكأنها تدربت على كيفية التدخين بشراهة مثل قطار فحم. قالت سيدة "كابلان":

- الحقيقة المحزنة هي أنه لم يندمج مع مجتمعنا أبدًا، ليس بالطريقة التي تمنيناها.
قال "هاري":
- يؤسفنا سماع هذا يا سيدة "كابلان"! أعني أنه لم يكن لدينا أي فكرة، صحيح يا عزيزتي؟
أشاحت بنظرها ثم أومأت قليلًا من باب الأدب. واصل "هاري":
- لم يكتب لنا كثيرًا، ربما خطابان فقط.. صحيح يا عزيزتي؟
- اممم... تقريبًا.
في أحد خطاباته قال إنه تعلم السباحة، وسعدت كثيرًا لمعرفة ذلك، ثم في الخطاب التالي قال إنه أنقذ الكلب من الغرق، وأنه اضطر للسباحة ميلين حتى يصل للكلب ويجذبه ويعود به، عندها لم تعد واثقة من موضوع السباحة، كان هذا ثالث وآخر خطابٍ كتبه، ولم تره لـ"هاري"، لكنها سألته:
- الكلاب يمكنها السباحة، صحيح؟
- بالطبع، إنها في طبيعتها.
أرادت أن تعرف إذا كان "مايكل" قد تعلم السباحة فعلًا في إجازة الصيف هنا، وإذا كان أنقذ الكلب بالفعل.. من يعرف، كل شيء ممكن. ربما كان كلبًا عصبيًّا أو سقط من القارب مثلًا، لكن لن تسأل لأن كل هذه أكاذيب على الأرجح، وآخر ما تريده الآن هو أن تمنح هؤلاء الناس الفرصة لمهاجمة "مايكل".
جاء صوت رنين من الصالة، مثل الصوت الذي تسمعه في المستشفيات، فوضعت يدها على بطنها وفركتها بضع مرات وقالت لنفسها: "أعرف أنني قلت إنني أتمنى لو كنت فتاة لكنني لا أمانع حقًّا، أرجوك لا تشعر بالإهانة".
انفتح الباب وسندته سيدة "كابلان" لتسمح بدخول عربة التقديم التي تقودها الفتاة المكسيكية، بدأت سيدة "كابلان" تملأ أكواب الشاي وتناولها لابنتها لتقدمها للضيوف، اقتربت الفتاة منها ونظرت إليها مباشرةً، تبادلا النظر للحظات بلا كلام، شعرت ببرودةٍ شديدة تسري في دمائها. تذكرت أن "هاري" أخبرها أن ابنتها مريضة جدًّا، والآن رأت ذلك في عينيها الخاليتين من لمعان الحياة.
لاحظت أن الفنجان وطبقه يهتزان في يدها، أرادت أن تدفع الفتاة وعينيها الميتتين بعيدًا عن طفلها، سألتها الفتاة شيئًا ثم ابتسمت لها ابتسامة خفيفة فأشرق وجهها مجددًا.
قالت دون أن تعرف إذا كانت تجيب السؤال الصحيح أم لا:
- ملعقة سكر واحدة أو مكعب واحد، أيًّا كان ما تستخدمونه هنا.
بدأ كل شيء يثير أعصابها؛ النساء الصامتات في الغرفة، دخان سجائرهن الخانق، مرارة الشاي حين يلمس معدتها، رائحة العطور النفاذة، حتى صوت الأكواب والأطباق يزعجها، لكن أكثر ما يغضبها ويجعلها ترغب في الصراخ هو أن سيدة "كابلان" ليست غاضبة على "مايكل" حتى، لا تشتمه أو تحثها على ضربه، لا تتحدث بقسوة أو احتقار.. بل الكثير من الكلام المتفهم المعسول، وهذا هو المطلوب من كل واحد هنا، أن يتركوا "مايكل" وشأنه دون اتهامات.
قال "هاري":
- لا يمكنني التعبير عن أسفنا يا سيدة "كابلان".
قالت سيدة "كابلان":
- لا أرجوك، لا داعي للاعتذار أبدًا.
بدا "هاري" ممتنًا جدًّا لدرجة أنها أرادت صفعه.

قالت سيدة "كابلان":
- "مايكل" يحتاج للمساعدة.
قال "هاري":
- فهمت. نعم، بالتأكيد، لكن ما نوع المساعدة التي تعنيها؟
قالت هي:
- أريد التحدث معه الآن يا سيدة "كابلان".
- هذه هي المشكلة يا سيدة "نوفاك".. إنه يرفض النزول، يرفضه مطلقًا.
- يمكنني الصعود إليه إذًا.
عندها قالت الابنة:
- أمي، دعيني أتحدث معه.
هذا أغضبها أكثر، من أعطى سيدة "كابلان" الحق في تقرير من يتحدث مع "مايكل"؟
قالت سيدة "كابلان":
- نعم، اذهبي وتحدثي معه يا عزيزتي، أخبريه أن سيد وسيدة "نوفاك" هنا.
ثم أضافت:
- "كاثرين" تربطها صداقة خاصة بـ"مايكل"، لو أنه سيتحدث مع شخصٍ ما، فستكون "كاثرين".
ذهبت الفتاة بالفعل.
سمعت زفرة حادة وعميقة في الطرف الآخر من الغرفة، ثم قال صوت:
- لا أعلم بشأنكم لكنني بحاجةٍ إلى مشروب.
إنه صوت امرأة حمراء الشعر اسمها أيضًا سيدة "كابلان"، إنها زوجة الابن، سيدة "كابلان" الصغرى، نهضت وذهبت إلى دولاب المشروبات وأخذت تبحث بين الزجاجات بيدٍ خبيرة، ثم أخرجت زجاجة صودا وملأت كأسين كبيرين وناولت إحداهما لصديقتها.
قالت صديقتها:
- شكرًا يا "أوليفيا"، الأمر كله مزعج جدًّا! لا أفهم، لا أفهم حقًّا.
أرادت أن تقول: "ومن أنتِ أصلًا وما علاقتكِ بالموضوع؟".
ثم خطر لها أن "مايكل" ربما سرق منها أيضًا، فأغلقت فمها وأشاحت بنظرها.
هناك طاولة سفرة جميلة من خشب الورد تبعد عنها بضع خطوات وملتصقة بالجدار، وفي منتصفها كومة من الأشياء المختلفة، فوضى غريبة في غرفة منظمة جدًّا. مرت عليها بنظرها، رأت سكين جيب، وعلبة صفيح مربعة، وأغلفة حلوى قديمة، وعلب بسكويت، وعلبة لبان، هناك القليل من أقلام الرصاص، وعصا طويلة في آخرها كرة خشبية، وصورة لامرأتين شقراوين ورجل يضحكون أمام بيت، ويظهر في الصورة ولاعة سيارة وعلبة سجائر فضية.
لم تفهم سبب اجتماع هذه الأشياء على الطاولة، لكن عندما رأت قصاصات الورق فهمت أنها الأشياء التي سرقها "مايكل"، فهذه القصاصات مثل التي كان يلعب بها في شقتهم القديمة، مجرد صور من مجلات وتصاميم وأشخاص وأماكن، كان يحملها معه في حقيبته دائمًا. ما الضرر في هذا؟ وما الضرر في الأشياء التافهة الأخرى؟ ما المشكلة في اللعب بها وبعلبة الصفيح؟ هذا ما تريد سؤاله لسيدة "كابلان". لكنها تعلم أن المشكلة ليست في قصاصات الورق ولا في الأشياء التي على الطاولة

بما فيها مبرد الأظافر والمسطرة وورق اللعب، بل في الأربعة والخمسين دولارًا.. أربعة وخمسون دولارًا من تبرعات الأيتام، هذا تقريبًا أجر "هاري" في الأسبوع دون حساب أجر العمل الإضافي.
نظرت إلى الغرفة، كانت سيدة "كابلان" الصغيرة أو "أوليفيا" أو أيًّا كان اسمها تميل للأمام وتستند بمرفقيها على ساقها التي وضعتها على الأخرى وظلت تهزها بأناقة، كانت ترتدي جيبة جميلة بالأزرق والأبيض. خفيفة ورقيقة، حتى أنها عندما تتحرك على ركبتها تبدو مثل شراع مركب.
- نحن لا نحكم على "مايكل"، أرجو أن تتفهمي هذا، لكن...
لم تعد تستطيع رؤية الجيبة الزرقاء والبيضاء لأن سيدة "كابلان" الكبيرة وقفت أمامها وهي تعطيها طبقًا.
- فكرنا أنكما بالتأكيد تغديتما في عربة الطعام بالقطار، لذلك لم نقدم الغداء، آمل أننا على حق؟
- نعم، شكرًا لكِ.
لقد تناولا جبلًا من الساندويتشات، فمن لديه المال الكافي ليهدره على عربة طعام القطار، ما عدا سيدة "كابلان" وأمثالها ربما؟ مالت للأمام والتقطت أقرب ساندويتش ووضعته في طبقها الذي تسنده على ذراع كرسيها، حاولت إرجاع ظهرها للخلف مجددًا لكنها لم تشعر بالراحة، لا شيء مريح في كرسي سيدة "كابلان" "المريح". في الواقع، إنه يشعرها وكأنها محاصرة، قد تقفز في أي لحظة وتصرخ فيهم: "بحق السماء، ما قيمة أربعة وخمسين دولارًا بالنسبة لكم؟!".
شعرت بنفسها تنفعل، وكأن جلدها يسخن ويضيق عليها، حتى الطفل شعر بحالتها وبدأ يتحرك في بطنها ويضرب بقدميه ويديه ورأسه، وكأن الطفل غاضبٌ منها لعدم دفاعها صراحةً عن "مايكل"، فحاول ضربها من الداخل. وضعت يدها على بطنها وقالت لنفسها: "كل هذا بسبب الأربعة والخمسين دولارًا".
حاولت التحرك في الكرسي "المريح" لتجد وضعًا أفضل، لكن بلا فائدة، لا توجد أي وضعية مريحة في هذا الكرسي وهذه الغرفة وهذا البيت.
قالت سيدة "كابلان":
- هل أنت واثق بأنك لا تريد زجاجة بيرة يا "هاري"؟
شعرت برغبةٍ في أن تجيبها: "ألم يقل لا؟ ثم من أعطاكِ الحق في مناداته بـ"هاري"؟ إنه سيد "نوفاك"، لا أراكِ تستعملين اسمكِ الأول مع الناس!".
لو فقط يمكنها أن تخلع حذاءها وتضع قدميها على مسند القدمين الذي لا يستخدمه أحد، فكرت في الراحة التي ستشعر بها إذا فعلت ذلك. فجأة تحدثت سيدة "كابلان" الصغرى قائلة:
- المشكلة هي أنه لا يميز بين الصواب والخطأ على ما يبدو، إنه لا يفهم هذا أبدًا.
سمعت نفسها تقول:
- عذرًا، لكنني أخالفكِ الرأي.. إنه ولد عاقل جدًّا.
مالت السيدة "كابلان" الصغرى للأمام وتحركت جيبتها وهي تقول:
- سيدة "نوفاك"، أظن أنه من المهم أن نقول...
سكتت لتفكر فيما ستقول. جاء صوت طقطقة من يدها، لوهلة ظنت أنها ترتدي سوارًا، لكن عندما دققت النظر وجدت أن الصوت جاء من كأسها التي فرغت وبقي فيها الثلج الذي يتخبط في بعضه.
- ما أحاول قوله هو أننا لا نلومكِ في أي شيء.
- حقًّا؟!

- لا يا سيدة "نوفاك"، على الإطلاق.
- عذرًا، ولماذا قد تلومينا أصلًا؟ لم يكن تحت رعايتنا عندما أخذ الأربعة والخمسين دولارًا، صحيح؟ لم نترك المال بإهمال في أي مكان.
نظر إليها "هاري" بصدمة، بينما شعرت هي بغضبها يزداد وينتشر في جسدها، قالت:
- عذرًا يا سيدة "كابلان"، أحتاج لاستخدام الحمام.
حاولت النهوض من على الكرسي وجاء "هاري" لمساعدتها.
نهضت سيدة "كابلان" وقالت:
- دعيني أريكِ الطريق.
- لا، من فضلكِ.. أرجوكِ! أفضل الذهاب وحدي. ما صعوبة إيجاد الحمام بأي حال.
أومأت السيدة "كابلان" وقالت:
- بالطبع.
ثم أعطتها بعض الاتجاهات التي نسيتها بمجرد أن سمعتها.
سمعت صوت جرس باب بمجرد خروجها من الغرفة، فنظرت عبر الصالة خافتة الإضاءة. الباب مفتوح بالفعل، وتسربت أشعة الشمس عبره في أشكالٍ غريبة. بعد بضع لحظات، هدأت الأشعة وظهر على الباب شخصان يقفان بظهريهما للباب المفتوح، رجل طويل وامرأة قصيرة، سمعت صوتًا من خلفها، فاستدارت ورأت الفتاة "روزيتا"، أشارت إلى الممر خلفها وقالت:
- اذهبي من هذا الاتجاه وستجدين كرسيًا بجانب نافذة، الحمام أمامه مباشرةً.
كانت على وشك الذهاب حين وضعت "روزيتا" يدها على ذراعها وقالت بصوتٍ منخفض مكتوم:
- "مايكل" ولد طيب، لا أعرف.. ربما يكون أخذ المال، لكنه ولد طيب! هذا ما أردت إخبارك به.
استدارت "روزيتا" وذهبت إلى الباب المفتوح بالفعل.
بمجرد أن دخلت الحمام انهارت وبكت.
عندما عادت إلى غرفة المعيشة، وجدت الرجل الطويل يقف في آخر الغرفة ممسكًا قبعته بين يديه، أما المرأة القصيرة تقف في وسط الغرفة أمام سيدة "كابلان"، وهناك "روزيتا" تجوب الغرفة بعربة التقديم.
قالت المرأة القصيرة:
- أنتِ لا تفهمينني يا سيدة "كابلان"، قلت إنني لن أقول كلمة إلا بعدما أتكلم مع "ريتشي".
كانت المرأة القصيرة ترفع ذقنها بتصميم وتضم قبضتيها بجانبها، بينما تلمع عيناها بإصرار.
بمجرد أن رأتها أعجبها أسلوبها وقالت لنفسها إن هذا هو ما يحتاجونه هنا، شخص يتكلم بصراحة.
وقفت سيدة "كابلان" الصغرى فجأة وعدلت جيبتها الزرقاء والبيضاء وقالت:
- ونحن أخبرناكِ أن هذا غير ممكن الآن.
تجاهلتها المرأة القصيرة وواصلت النظر إلى السيدة "كابلان" الكبرى وقالت:
- عليَّ التحدث مع "ريتشي"، هذا كل ما سأقوله الآن.
قالت سيدة "كابلان":
- لقد ذهب ليأخذ كلبه من ابنة سيدة "دوترا" التي تعمل في محل للحيوانات الأليفة، كانت تعتني بـ"باستر" مؤخرًا.
- سأنتظره إذًا.

قالت السيدة "كابلان" الصغرى باضطرابٍ وقلق:
- أظنه أنه يحق لي معرفة سبب رغبتكِ في الحديث مع ابني.
تجاهلتها المرأة القصيرة مجددًا.
قالت لنفسها إن هذه المرأة تعجبها بينما يساعدها "هاري" على الجلوس في الكرسي.
قالت سيدة "كابلان":
- إنه في طريقه إلى "بروفينستاون"، لذلك قد يغيب بعض الوقت. سيركب الحافلة من المحطة في آخر الطريق، ثم ستصحبه ابنة سيدة "دوترا" إلى بيتها بعدما تغلق المحل.
- متى غادر؟
- منذ عشر دقائق.
نظرت المرأة القصيرة إلى ساعتها، وقال الرجل الطويل:
- سأقودكِ إلى محطة الحافلات.
- لا، شكرًا.. لا أمانع السير، ومن الأفضل أن أتحدث مع "ريتشي" وحدي.
- لن تلحقي به إذا سرتِ، ستفوتكِ الحافلة. اسمعي، دعيني أقودكِ. سأنتظركِ في السيارة بينما تتحدثين معه ثم سأعيدكما إلى هنا.
أومأت المرأة القصيرة وسارت إلى الباب، بدأ الرجل يتبعها، ثم توقف عندما وصل إلى كرسيها وقال:
- لا بد أنكما عائلة "مايكل"؟
استدارت المرأة القصيرة وقالت لزوجها:
- هيا إن كنت ستأتي، يمكننا التعارف لاحقًا.
بدأ الرجل يبتعد، لكن أوقفته سيدة "كابلان" عند الباب وقالت:
- هل هذا ضروري حقًّا؟
أومأ الرجل برأسه بضع مرات وقال:
- أعتقد هذا يا سيدة "كابلان"، نعم.
ساد صمت طويل بعد مغادرة الزوجين، ولم يزعجها الأمر، أرجعت رأسها للخلف ونظرت إلى البحر، خفَّت أشعة الشمس، فبدا كل شيء في الخارج أكثر نعومة؛ التل، والعشب، والأشجار، والبحر.. ثقلت جفونها وتراخت رأسها.
سمعت بالقرب من النافذة والدة "ريتشي" وصديقتها تتكلمان بصوتٍ مزعج مثل حيوانات الحظيرة.
- بالطبع، إنها تقريبًا مجنونة، هذا واضح للجميع!
- ماذا تعنين بـ"تقريبًا"؟
- من تظن نفسها؟
- لا تبالي بها يا عزيزتي.
- أفكر في الذهاب بنفسي إلى محطة الحافلات واصطحب "ريتشي"، إن أسرعت سأسبقهما، فالطريق الذي يأخذانه...
- لا تزعجي نفسكِ.
- إنه ابني، وأنتِ يا أمي.. لا أعرف لماذا تركتهما يتحدياكِ بهذه الجرأة.
قالت سيدة "كابلان":

- وماذا يمكنني أن أفعل؟ إنهما يقضيان وقتًا طويلًا مع "مايكل". و"ريتشي" يحبهما، وربما يتحدث معها و...
قالت "أنيتا":
- لن يلحقاه على الأرجح، سيغادر الحافلة قبل وصولهما، دعيني أحضر لكِ مشروبًا. سيدة "كابلان" محقة.. إنها على الأرجح ستسأل "ريتشي" بعض الأسئلة لتعرف ماذا حدث، لكنها مصرة جدًّا! هل رأيتِ كيف كان زوجها المسكين محرجًا؟
الصوت التالي الذي سمعته كان لـ"هاري":
- لم تنم طوال الليل من فرط القلق.
فتحت عينيها.
قالت السيدة "كابلان":
- هل أنتِ بخير يا سيدة "نوفاك"؟ تبدين شاحبة قليلًا.
- ماذا؟ لا.. لا، أنا بخير، أنا...
قالت سيدة "كابلان" لـ"هاري":
- إنها تبدو شاحبة قليلًا.
قال "هاري":
- إنها متعبة فقط.
نهضت سيدة "كابلان" وسارت إليها وقالت:
- تعالي معي، سأصحبكِ لتستلقي على ظهركِ.
- لا، شكرًا.. أنا بخير الآن.
لكنها في الوقت نفسه سمحت لسيدة "كابلان" بأن تساعدها على النهوض وتأخذها إلى الباب.
تقدم "هاري" إليها لكن سيدة "كابلان" قالت:
- لا بأس يا "هاري".. انتظر هنا، سأعتني أنا بها.
أجلستها سيدة "كابلان" على سرير كبير وخلعت حذاءها وقالت:
- لم لا تخلعين جواربكِ لترتاحي قليلًا؟
في البداية خافت وتمنت ألا تكون رائحة قدميها كريهة، ثم قالت لا يهم. خلعت سيدة "كابلان" جواربها عن قدميها المتعرقتين ووضعتهما على طرف السرير، ثم رفعت قدميها الثقيلتين على السرير، ثم سحبت عليها الغطاء الناعم البارد كالماء.
أغلقت سيدة "كابلان" الشيش وقالت:
- الحمام هناك؟ ارتاحي قليلًا وسأناديكِ بعد ساعة.
سمعت نفسها تقول:
- الغرفة هادئة جدًّا، الصمت شديد.
- ألا تسمعين البحر؟ استمعي جيدًا وستنامين دون أن تشعري.
عندما أغلقت سيدة "كابلان" الباب وابتعدت خطواتها، قالت لنفسها: "سأعطيها خمس دقائق لكي تنزل إلى الطابق السفلي وتبتعد عني ثم سأنهض وأبحث عن مايكل".
أنزل زوجته عند الناصية ثم واصل القيادة قليلًا ليدور بالسيارة. بعدها عاد وتوقف، رأى مقدمة السيارة الـ"بويك" متوجهة في طريق البيت، رأى في المرآة "ريتشي" جالسًا على العشب بجانب

محطة الحافلات، وزوجته تتجه إليه بسرعة. رفع "ريتشي" رأسه، بدا أن زوجته تقوم بكل الكلام بينما "ريتشي" يقف بصمت وذراعاه متخشبتان بجانبه ورأسه ساقط على صدره.
بعد بضع دقائق، جلست على العشب وجذبت ذراع "ريتشي" ليجلس بجانبها، نظر إلى الصورة المنعكسة في المرآة، بديا مثل طفلين عن بعد، كأخ وأخته.. فجأة تذكر أنه لم يرسل شيك المال لأخته.
مال على "التابلوه" وفتحه وأخذ يبحث فيه بين الورق، لكنه لم يجد الظرف، بينما يحاول أن يتذكر مكان الخطابات التي ينوي إرسالها، لمح ظلالًا في المرآة الجانبية، ورأى "ريتشي" وزوجته يعبران الطريق ويتجهان نحوه.
أجلست الولد في المقعد الخلفي وأغلقت الباب، وكأنها شرطي يعتقله. جلست في الأمام واستدارت للخلف لتكلمه:
- "ريتشي"، كل ما عليك فعله هو قول الحقيقة.
قال بخوف:
- لن يصدقوني، وأنا خائف!
سألته:
- هل قصدت إلقاء اللوم على "مايكل"؟ فقط أخبرني بهذا يا "ريتشي".
- لا، أعني في البداية نعم، لكن بعدها...
بدأ يقود السيارة، فناداه "ريتشي" من الخلف:
- أرجوك يا سيدي، لا تعدني إلى هناك وتجعلني أواجه الجميع.. أرجوك يا سيدي، سأخبرك كل شيء، لكن لا تجعلني أقف أمام الجميع، المال معي الآن وسأعيده.
مال "ريتشي" للأمام وناوله لفة الدولارات الصغيرة، لم تكن أكبر من سيجارة سميكة.
- كنت أحتفظ بها في جيبي في حال وجدت الفرصة لإعادتها، لكن... أرجوك.. أنا آسف، آسف جدًّا! أرجوك يا سيدي، لا تأخذني!
نظر إلى الولد في المرآة، الخوف واضح في عينيه وفي ارتجاف فمه، صدره يصعد ويهبط بسرعة، وأنفاسه لاهثة.
سأله:
- هل معك جهاز الاستنشاق؟
- لا يا سيدي، لكنني بخير.. أنا فقط أحس بشعورٍ فظيع، هذا كل شيء.
- لنفترض أنك أخبرتنا بكل شيء يا "ريتشي"، عندما نعود يمكننا أن نطلب من جدتك أن تتحدث معك على انفراد، ما رأيك؟
عض "ريتشي" على شفته السفلية.
- لم لا تخبرنا بسبب فعلتك يا بني؟
- أنا.. كنت غاضبًا منه وأردت إيقاعه في المتاعب، كنت أخطط لوضع الظرف في مخبأه الذي يظن أنني غبي ولا أعرف عنه، لكن بعدما عدنا من الشاطئ واستمتعنا بوقتنا معك ومع عمتي "كاثرين"، شعرت بالندم وأردت إعادة الظرفين، لقد حاولت يا سيدي، لكنهم كانوا يعدون المال بالفعل في المطبخ ويراجعون السجل، ولم أستطع الاقتراب منه. أعرف أمي، عرفت أنها ستغضب بجنون، فخفت من الاعتراف.. وأخبرتها بشأن مخبأ "مايكل" على الشاطئ و...
سأله:

- لكن ما سبب غضبك منه؟
- لأنه كان لئيمًا معي على ما أظن، ولم يرغب في أن يكون صديقي، بينما ذهب مع الأخوين "ويستن" و...
قالت:
- نعم، لكن أن تورط شخصًا بريئًا في مشكلة، هذا أمر مختلف تمامًا! هل تفهم مدى فظاعة ما ارتكبته؟
- نعم يا سيدتي، أفهم.
- هذا تصرفٌ وضيع يا "ريتشي"، وأعرف أنك لست ولدًا وضيعًا.
بدأت دموعه تنساب وهو يقول:
- كان من المفترض.. كان من المفترض.. كان...
- اهدأ يا بني.. اهدأ، خذ نفسًا عميقًا.. هكذا. أخبرني ما الذي تحاول قوله.
- كان من المفترض أن يكون يومًا خاصًّا بأبي، كان يومًا لتكريمه، لماذا يجب أن يكون "مايكل" محط الاهتمام دائمًا؟ لماذا هو من يحصل على الخطاب والطائرة؟ لم لست أنا؟ هذا ما فكرت فيه، هذه هي الحقيقة يا سيدي. إنه لا يعرف والده حتى، لكنني أعرف والدي، أتذكره.. هذا جعلني أتساءل.. لم لست أنا؟
وضع "ريتشي" يديه على وجهه وظل ينتحب.
أوقف السيارة وقال:
- انتظر هنا مع سيدة "إيتش" بينما أدخل المنزل وأحضر جدتك.
عندما استيقظت، نظرت للساعة الموجودة على "الكومودينو" وأدركت أنها نامت ساعة ونصف، قالت سيدة "كابلان" إنها ستوقظها بعد ساعة! الساعة الخامسة عصرًا، كيف سيعودان إلى نيويورك الليلة بهذه الطريقة؟
دفعت نفسها عدة مرات لتنهض من على السرير، وبالكاد وصلت إلى الحمام حيث شعرت بحاجةٍ شديدة لقضاء حاجتها، وفي أثناء ذلك سمعت طرقة على الباب، تذكرت أنها لم تقفله، جاءت طرقة أخرى، فقالت بصوتٍ يعلو على صوت الماء:
- دقيقة واحدة.
لكن الباب انفتح على أي حال، ففزعت لدرجة أنها كادت تلد الطفل. لكن اتضح أنه "هاري". قالت:
- إياك أن تدخل، تعرف أنه لا يمكنني فعلها بينما يراقبني أحد.
- تبدين بخير تمامًا في نظري.
عندما خرجت كان "هاري" يضع صينية على طرف السرير ويقول:
- مع تحيات سيدة "كابلان"، لتحافظي على مستوى ضغط الدم.
نظرت إلى الصينية، كوب قهوة وساندويتش.
قالت:
- المزيد من الساندويتشات! لم لا يفتحون جسدي بدل الخبز ويحشونه بالزبد!
ضحك "هاري" وقال:
- انتظري حتى أخبركِ ما لديَّ.
- هل ظهر "مايكل"؟

قال "هاري" وهو ينظر حوله خشية أن يسمعه أحد:
- إنه الطفل الآخر.
- أي طفل آخر؟ عم تتحدث؟
أخفض "هاري" صوته وقال:
- أقول لكِ إن الطفل الآخر هو من أخذ النقود.
- هل تعني...؟ لا، ليس الحفيد! كيف عرفت؟ ماذا حدث؟ أخبرني قبل أن أنفجر، ماذا حدث؟
- أنا أخبركِ بالفعل، الطفل الآخر هو من فعلها.
- أين "مايكل"؟ هل عرف؟
- إنه يحزم أمتعته، سنعود للبيت، هذا إن كنتِ مستعدة، هناك رجل يُدعى كابتن "هارتمان" سيوصلنا إلى المحطة في بوسطن، هكذا لن نقلق من أن يفوتنا القطار.. هل أنتِ سعيدة لأننا سنغادر؟
- فوق ما تتخيل.
- ستمضي ساعات قبل أن نصل إلى المنزل.
- لا يهم يا "هاري"، هيا بنا.
بعد بضع دقائق كانت جالسة على الكرسي "المريح" ولم تعد سيدة "كابلان" الصغرى في الغرفة، لكن صديقتها ظلت واقفة في الركن خافضة رأسها، أخذت سيدة "كابلان" تعتذر وتحاول توضيح سلوك حفيدها.
- كان غاضبًا من "مايكل" وأراد تلقينه درسًا فقط، لم يتعمد أن تصل الأمور إلى هذا الحد، لا يسعني إخباركما مدى أسفه وأسفنا يا "هاري" وسيدة "نوفاك". سألتها:
- أين هو الآن؟ ألا يجب أن يظهر وجهه لنا ويعتذر بنفسه عما فعل؟
- إنه منزعج جدًّا! أخذته "كاثرين" إلى السرير، لكنه اعتذر إلى "مايكل"، يسعدني القول إنهما سويا خلافاتهما.
قال "هاري":
- لا بأس يا سيدة "كابلان"، نحن نتفهم.
- ربما أنت تتفهم، أما أنا فلا، أريد أن أعرف متى كان ينوي الاعتراف بالحقيقة، قبل أم بعد إرسال "مايكل" إلى الإصلاحية؟
- لا يا سيدة "نوفاك"، ما كانت الأمور لتصل إلى هذا الحد أبدًا.
- من السهل عليكِ قول هذا يا سيدة "كابلان"، لكن العالم يسير بشكلٍ مختلف مع أمثالنا.
المرأة القصيرة التي أنقذت "مايكل" تقف بجانب طاولة خشب الورد وتنظر إلى الأشياء التي سرقها "مايكل" وتأمل ألا تجد شيئًا يخصها، ليس بعدما أنقذته. سألت:
- هل هذا كل ما أخذه "مايكل"؟
- نعم، أنا واثقة أنه لا يبدو كثيرًا الآن.
- لا.
ثم رفعت الصورة لسيدة "كابلان" وسألتها:
- لمن هذه الصورة؟
- إنها لابنتي "كاثرين" وأصدقائها، أمام بيت كانوا يستأجرونه في الصيف.
- لم أتعرف عليها في البداية.

- كان هذا قبل أن تمرض، كان لون شعرها مختلفًا.
قالت المرأة القصيرة:
- فهمت.
ثم أعادت الصورة مجددًا وذهبت لتقف بجانب سيدة "نوفاك" وقالت لها:
- سيدة "نوفاك"، أتفهم شعوركِ وأتعاطف معكِ.. صدقيني، لكن "ريتشي" لديه مشاكل تزعجه، وهو نادمٌ على فعلته.. أنا متأكدة. لقد حاول إعادة المال لكنه لم يستطع، ففزع! أظن أنه علينا ترك الأمور عند هذا الحد. على كل حال، لقد تأخر الوقت، وبالتأكيد تريدين التحرك الآن، ولا تنسي أن "مايكل" سرق بعض الأشياء بالفعل، مما يعني أنه ليس معفيًّا من اللوم.
نظرت إلى المرأة القصيرة المباشرة جدًّا في كلامها ونظراتها، حتى بدا أنه لم يبق ما يقال، فصمتت وأومأت برأسها وحسب.
استعد الرجل الطويل وزوجته القصيرة للمغادرة الآن، توقف الرجل عند كرسي سيدة "كابلان" وقال:
- يمكننا إحضار الكلب إن أحببتِ.
- "باستر"! لقد نسيت أمره تمامًا، ربما عليَّ الاتصال بمحل الحيوانات الأليفة وأطلب منهم الاعتناء به ليومٍ إضافي.
قال:
- ربما من الأفضل لـ"ريتشي" أن يكون بصحبته الآن، لا مانع لدينا في أخذه. لديَّ مشوار في "بروفينستاون" على كل حال، يمكننا اصطحابه في أثناء عودتنا إلى المنزل. ثم غادر الرجل والمرأة دون أي مشاكل.
رأت عبر النافذة الكابتن يسير بجانب المنزل، وبعد ثوانٍ يرفع رأسه وينادي شخصًا ما، رأت الرجل الطويل من جانبه، أي رأت كتفه ومرفقه وقبعته.
ركلها الطفل، فمالت للأمام، ثم جلست وأطلقت تنهيدة من أعماقها.
عندما انفتح الباب مجددًا، دخل "مايكل".
وقف أمامها حاملًا حقيبته البنية التي اشتراها له "هاري".. بدا متعبًا، لكنه أيضًا ممتلئًا ومسمرًّا من الشمس، أرادت إخباره أنه يبدو جميلًا، لكن بالطبع لا يمكن أن تقول ذلك لولد!
- تبدو مختلفًا تمامًا يا "مايكل"! أقسم أنني ما كنت لأتعرف عليك.
- أنتِ أيضًا تبدين مختلفة.
ضحكت وربتت على بطنها وقالت بمزاح:
- لقد أكلت الكثير من البسكويت حتى أصبت بانتفاخ.
ابتسم "مايكل".
- أما أنت.. لا أعرف.. تبدو مثل...
- أبدو مثل ماذا؟
أرادت أن تقول "مثل ابن سيد محترم"، لكنها رأت "هاري" يقف مبتسمًا بابتسامة تملأ وجهه، فابتسمت هي أيضًا وقالت:
- تبدو رائعًا يا "مايكل".
قالت سيدة "كابلان":

- يسعدني أن هذا رأيكِ! فعلى الرغم من كل شيء، أظن أن الإجازة أفادته، لكن يا "مايكل"، أين طائرتك؟
رد دون أن ينظر إليها:
- لا أحتاجها.
- بعد كل المجهود الذي بذلته في تركيبها؟
أجاب وهو يواصل النظر للأرض:
- لم أعد أريدها الآن.
أومأت سيدة "كابلان" وقالت بخفوت:
- فهمت.
رفع "مايكل" رأسه فجأة ونظر حوله وهو يسأل:
- أين سيدة "إيتش"؟
قالت سيدة "كابلان":
- لقد غادرا للتو يا "مايكل".
أسقط حقيبته واندفع خارج الغرفة فورًا.
ظلت صامتة في طريقها إلى "بروفينستاون"، وقد أرجع ذلك إلى تأثرها بوداع "مايكل"، حتى هو مستاء قليلًا.. كلاهما ليس معتادًا على إظهار كل هذه المشاعر في يوم واحد، لا يمكنه إخراج المشهد من ذاكرته. كانا قد تركا كابتن "هارتمان" وتوجها إلى السيارة، ثم سمعا من ينادي "سيدة "إيتش"، فجأة ظهر "مايكل" واندفع نحوها راكضًا على العشب تحت أشعة الغروب. بالكاد أوقف اندفاعه ثم ألقى بنفسه عليها.
كان الولد طويلًا جدًّا لدرجة أنه لم ير من زوجته إلا رأسها المحشور في عناقه العجيب، ويدها اليسرى تربت برفقٍ على ظهره. قالت:
- جميل، كنت أظنناً أصدقاء لكنك تحاول أن تخنقني الآن!
قال الولد قبل أن ينهار بالبكاء:
- لا أريد أن أتركِكِ.
ظهرت ملامح الصدمة على وجه زوجته، ثم نظرت حولها وكأنها تبحث عن كلام تقوله، بدأت عيناها تضطربان وشفتاها ترتجفان، لكنها استطاعت التماسك.
قالت:
- أخشى أنه عليك ذلك يا "مايكل"، فكر في كل ما ينتظرك هناك عندما تعود إلى حياة المدينة العصرية؛ بيت جديد، مدرسة جديدة، طفل جديد، أخ أو أخت.. شخصٌ ما سيأتي إلى هذا العالم ويجدك بانتظاره، لكن تذكر أن البيت سيكون بيتك أولًا، أنت من ستعلم الطفل كل شيء.. هذه مسؤولية كبيرة، لا يمكنك معاودة السرقة الآن، يجب أن تتوقف عن هذا.
أومأ الولد برأسه ومسح وجهه بكم سترته وسألها:
- أين تقع "نيو جيرسي" بأي حال؟
- على بعد محطة قطار من نيويورك، ليست بعيدة أبدًا.
- هل يمكنني أن آتي لرؤيتكِ؟
لم تجب على الفور، فظهرت نظرة خوف وارتباك على وجه الصبي. لذلك أجاب الرجل:

- بالطبع يمكنك المجيء لرؤيتنا يا "مايكل".
قالت:
- بشرط ألا تتسلل هاربًا دون إذن، هل تسمعني؟
- لكن كيف سأجدكِ؟
قالت دون تحديد:
- فقط ابحث عن ميدان "واشنطن سكوير" وستجدنا هناك.
صافح يد الولد، ولوهلةٍ بدا أنهما سيتعانقان، لكن الولد استدار فجأة وبدأ يجري عائدًا إلى البيت الذي وقف بكآبة تحت الغروب الخافت، ولا يوجد إلا نافذة واحدة مستطيلة يتسلل منها نور أصفر باهت في الطابق العلوي.
عندما وصلا إلى المنعطف المؤدي للطريق السريع إلى "بروفينستاون"، رأى الفتاة التي تمارس رياضة المشي دائمًا، كانت متجهة إلى "كاسلرود"، تساءل إن كان عليه أن يخبر زوجته أم لا.. عادةً تعلق على الأمر.
قال وهو يشير إليها:
- ها هي ذي الفتاة.
نظرت زوجته إلى الفتاة لثانية، ثم عادت تنظر للأسفل مجددًا.
لم تفتح فمها حتى وصلا إلى البلدة، وفقط لكي ترشده لمكان الركن. سألها:
- وما المشكلة في الركن هنا؟
- لا شيء، إذا كنت لا تمانع في أن يسحبك الونش، الغرامة عشرة دولارات لاستعادة السيارة، لكن إذا كنت لا تمانع، فلماذا أمانع أنا؟
تحرك بالسيارة وانتقل لمكان مواجه للمكتبة، ثم سألها:
- ما رأيك في هنا إذًا؟
هزت كتفيها بعدم اهتمام. قال:
- سأشتري الطلبات ثم يمكننا اصطحاب الكلب بعدها.
رفعت يدها وأشارت له بالذهاب.
عندما عاد بعد عشر دقائق لم يجدها.
وضع الأغراض في صندوق السيارة وذهب للبحث عنها.
بحث لمدة عشرين دقيقة قبل أن يراها عن بعد جالسة على صخرة بجانب رصيف الميناء في منطقة "ويست إند"، وجد الكلب جالسًا بجانبها. سار إليها بين المنازل المتزاحمة المعوجة واللافتات البالية للمحلات البسيطة؛ "لايف بيت"، "أوتو ريبيرز"، "كلامز إني واي يو لايك".
عندما اقترب منها، استدار الكلب وحرك لسانه، ثم عاد إليها. وضعت يدها على رأس الكلب، وتجاهل الاثنان وجوده وظلا ينظران إلى المياه الداكنة.
سمع صوت القلي من نوافذ البيوت المفتوحة، رائحة السمك مع الثوم والطماطم وصلت إلى معدته ووخزت أمعاءه، يجب أن يأكل شيئًا بسرعة.
شعر بسكون شديد من حوله، حتى أنه لم يحب أن يقطعه. صخب الميناء، وصوت الأمواج.. لا شيء يتحرك إلا القوارب الراسية أو فراء الكلب حين يرفع أنفه ليشم النسيم، يمكنه أن يسمع أصوات الرقص البعيدة القادمة من وسط البلدة، وأصوات الصيادين الخافتة وهم مجتمعون حول مصباح

ويتحدثون البرتغالية، وهناك رائحة أخرى أرجعته لذكريات الطفولة؛ رائحة نشارة الخشب والقار وزيت السمك المغلي والمدهون على الخشب.
استدار الكلب لينظر إليه عدة مرات، بدت نظرته متسائلة، وكأنه ينتظره أن يقول أو يفعل شيئًا، في النهاية سألها إن كانت ترغب في تناول بعض الطعام.
- لا، لا أريد.
- ماذا عن الكلب؟ ألا تظنين أنه قد يكون جائعًا؟
- أنا متأكدة أن ابنة سيدة "دوترا" أطعمته جيدًا.
صمت قليلًا ثم قال:
- أنا جائع جدًّا!
وعندما لم ترد قال:
- يمكننا أن نجد طاولة في أي مطعم إن أسرعنا، أنا واثق أن "باستر" لن يمانع الانتظار في السيارة.
-لا تهدر مالك عليَّ، اذهب أنت إن أردت.. لن أمنعك.
- لن أتركَكِ هنا وحدكِ، وأنا أحتاج إلى الطعام بالفعل وإلا سأقضي ليلة أخرى أعاني من الألم.
توقع منها هجومًا أو تعليقًا ساخرًا على الأقل، لكن كل ما فعلته هو أنها مالت للأمام وزفرت بطفولية، ثم وقفت وسحبت الكلب.
طلب شوربة ولفائف محشوة بلحم الكابوريا، بينما طلبت قهوة وفطيرة. قال:
- يمكنه أن يأتي كما يحلو له، أقصد "مايكل"، لو كان هذا ما يزعجكِ.
- أعلم من تقصد، وهذا ليس ما يزعجني.
- هل تنوين إخباري بما يدور في بالكِ؟
- هل تعني ما يدور في بالي بشكل عام أم الآن بالتحديد؟
- الآن.
- كنت فقط أفكر.
- في ماذا؟
- في صديقك القديم "ماك"، كنت أتساءل كيف حاله دون زوجة.
- أنا واثق أنه يتدبر أموره.
- أنت لم تذهب إلى جنازتها.
- لا، لقد قررنا ألا...
- بل أنت من قرر.
- كانت في كاليفورنيا، لقد مر وقتٌ طويل.
- من المفترض أنه من أعز أصدقائك، لكن هل يمكن للفنانين الرجال الحصول على أصدقاء؟ أم أنهم أشد غرورًا من ذلك؟
نظر حوله بحثًا عن النادل، ثم أشار له طالبًا الحساب.
قال وهو يخرج محفظته:
- كتبت له خطابًا.
لفت الفطيرة في منديل ووقفت وسارت للخارج، دفع الحساب وتبعها.

سارا في شارع "كوميرشال ستريت" بين أضواء اللافتات والموسيقى. دوى صوت أغنية من بار وصاحبها صوت بيانو، (That Lucky Old Sun...).
خرج بعض الناس إلى الشوارع للتمشية بعد العشاء، رجلا جيش سارا معًا، وواحد أو اثنان سارا منفردين. قال:
- الوضع صار أكثر هدوءًا في أواخر الموسم.
لم ترد. عندما عادا إلى السيارة، فتحت بابها ونظرت إليه من فوق سقف السيارة وقالت:
- كان خطابًا باردًا.
- أي خطاب؟
جلست في مقعد الراكب ورفعت ركبتيها ثم مدت الفطيرة إلى الكلب الجالس في المقعد الخلفي، شمها ولعقها لكنه لم يأكلها. كرر سؤاله:
- أي خطاب؟
- خطاب التعزية.
ثم لم تهتم بالشرح.
الهواء ثقيل وخانق، فتح النافذة لكنه ظل يشعر بصعوبة في التنفس. أحشاؤه تشتعل ورأسه بدأ يؤلمه، ولهاث الكلب في الخلف لا يساعده على الاسترخاء.
بعدما خرجا من "بروفينستاون" بمسافة قصيرة، رأى على جانب الطريق كشكًا لبيع "الجيلي" وقرر التوقف.
نظر إلى الخليج المظلم، بدا البحر خاليًا من الحياة، مغلفًا بالظلام وكأنه قطعة من الحرير الأسود، هواء الليل البارد يهب على رأسه ووجهه. وربما كان باردًا على هذا التل فقط. سألته المرأة التي تبيع الجيلي:
- هل أمضيت أمسية لطيفة؟
- لا بأس، ماذا عنكِ؟
- لا، لم تكن مثمرة جدًّا! ربما سأحزم بضاعتي غدًا أو بعد غد. بصراحة، لم يكن هذا الموسم مثمرًا أبدًا.
طلب برطمانًا ثانيًا، فأخرجت له واحدًا من الصندوق خلفها، ثم رفعت كفها تحت ضوء المصباح وأخذت تحسب السعر. شعر بسلام نفسي وهو يرى هذه المرأة تضع بعض القروش في يدها المتعبة المتسخة، تمنى لو يمكنه البقاء هنا قليلًا ومشاهدتها، لكنه قال وهو يغادر:
- لا بأس، احتفظي بالباقي.
عندما عاد إلى السيارة راقبه الكلب بانتباه من النافذة الجانبية الصغيرة، بينما زوجته تسند بمرفقها على النافذة وتغطي وجهها بيدها.
بدأت بمجرد أن ركب السيارة، في البداية تحدثت بغموض لتجذبه تدريجيًّا إلى الموضوع الذي تريده دون أن ينتبه.
- كم يبدو البيت كبيرًا للغاية، وكم يبدو السرير الكبير ضيقًا جدًّا!
رد وهو يخرج بالسيارة إلى الطريق:
- ألن توضحي كلامكِ؟
- أنا أتحدث عما ينتظرني حين أعود للبيت.

قاد لبضع دقائق ثم قال:
- ظننتكِ ستسعدين بخصوص "مايكل"، لا أقصد رحيله، بل...
- لأنني أنقذته؟
- ليس عليكِ صياغتها بهذا الشكل، الفتى كان بريئًا بكل الأحوال.
- ليس تمامًا، مهما نظرت للأمر، لقد سرق الكثير.. لا يهم. لقد انتهى أمره مع آل "كابلان" الآن، كن متأكدًا.
- لست واثقًا أن هذا عادل.
- إنهم أشخاص باردون.
- عم تتحدثين؟
- هذا هو السبب في تفاهمك معهم.
- فكري كما تشائين!
ظلت تنظر بعيدًا عنه بينما يقود في طريق "ديبوت"، صعدا التل.. وهو ينعطف الطريق بجانب البحيرة، صرخت فجأة:
- أنا مشمئزة منك!
شعر بالكلب ينتفض من المفاجأة في الخلف.
قاد في طريق "فيشر" وتجاوز المنعطف المؤدي لبيتهما وواصل لنهاية الطريق حتى توقف عند بيت آل "كابلان"، خرج وفتح الباب الخلفي، فاستدار له الكلب. قال:
- هيا يا ولد، لقد عدت لبيتك.
تظاهر الكلب بأنه لم يسمعه، مثل المرة الماضية.
- هيا، اخرج الآن.
اقترب منه فتراجع الكلب، دار للباب الآخر ومال داخل السيارة ليدفع الكلب، لكنه كان صلبًا كالخرسانة.
جلس بجانبه وظل يدفعه حتى بدأ يتحرك تدريجيًّا إلى أن أجبره على الخروج بدفعة قوية، خرج وعاد للكرسي الأمامي. قال:
- من الأفضل أن ننتظر في حال تبعنا، في المرة الأخيرة التي اصطحبته فيها اضطرت "كاثرين" أن تصفر له لكي يعود للبيت.
قالت:
- هل أنت واثق أنها كانت تصفر للكلب؟
راقب الكلب وهو يتجه إلى البيت، وينظر خلفه مرة أو مرتين، لكن قبل أن يصل توقف واستدار، لمع صدر الكلب الأبيض في الظلام.
أدارت وجهها للنافذة، وتساءل لو كانت تبكي.
سألها برفق:
- ما الأمر؟ هل هو بخصوص "مايكل"؟ أو "ريتشي"؟
هزت رأسها دون أن تنظر إليه. قال:
- إن لم يكن الولدين، إذًا ماذا؟ كنتِ بخير عندما غادرت صباحًا.
- نعم، كنت.. صحيح! لكن كان هذا قبل أن أكتشف طبيعة الرجل الذي تزوجته.

دار بالسيارة ليقود عندما فتحت حقيبتها وأخرجت شيئًا ما، مجموعة خطابات اختارت منها واحدًا.
سألها:
- ما هذا؟
- سؤال وجيه.
أضاء مصباح السيارة الداخلي وأدرك إنه الخطاب الذي كتبه ليرسله إلى نيويورك، تذكر الآن أين ترك البريد.. في جيب سترته الأخرى.
- كنت سأخبركِ.
- أعذرني إن كنت لا أصدقك.
- بالطبع كنت سأخبركِ، كنتِ ستكتشفين بأي حال بمجرد عودتنا إلى نيويورك.
جلسا بصمت ينظران للظلام، مرت بجانبها سيارة فيها زوجان شابان متجهان إلى الشاطئ، كانت المرأة تضع رأسها على كتف الرجل، جعله المشهد يشعر بالشفقة تجاه كل من يعرفه، وليس فقط على نفسه.
بدأ يقود، لمح الفتاة التي تمارس رياضة المشي دائمًا، كانت متجهة شرقًا إلى طريق "أولد كاونتي رود"، سارت بعيدًا عنهما حتى ابتلعها الظلام الصامت، كشفتها أنوار سيارته، خطواتها محسوبة ومنتظمة، لم تعد فتاة صغيرة بالطبع.. تزداد رشاقة كل عام، أصبحت مشيتها أنثوية قليلًا، ركبتاها مستديرتان وممتلئتان، هناك شيءٌ بها يجعله يحسدها.
- من السيئ كفاية أن تكذب عليَّ، لكن كيف تجرؤ على السخرية مني!
- لم أسخر منكِ!
- بالطبع فعلت، لقد حولت الأمر إلى مزحة.
- كنت فقط أحاول تخفيف الأمور، لقد بذل ما بوسعه، ولم أرغب في أن أجعله يشعر بالذنب. اسمعي، كنت سأخبركِ، لكنكِ انزعجتِ بعد الحفل ثم جاءت مشكلة "مايكل".
- لقد خنت زوجتك!
- آسفٌ لأنني خذلتكِ.
- أنا متأكدة بأنك لا تهتم بشعوري أو بخذلك لي، أما لو كانت "كاثرين"، لاختلف الأمر.
- "كاثرين"؟ الآن تشكين بـ"كاثرين"، ماذا حدث لـ"أوليفيا"؟
- على الأقل عرفت الآن ما الذي جذبك في "إيستهام".. ماذا؟ ألن تعلق بشيءٍ على هذا؟ إن شكلها مختلف الآن، أصبحت أنحف ولم تعد شقراء. رأيت الصورة في بيت آل "كابلان"، على الطاولة بين المسروقات.. إنها الفتاة التي رسمتها في لوحة العام الماضي، لقد عرفها "مايكل" فورًا عندما أريته رسوماتك، لكنني لم أصدقه.. وربما لم أرغب في ذلك. بأي حال، رأيت نظرتك إليها في حفل سيدة "كابلان"، وعندما رأيت الصورة اليوم، أصبح كل شيءٍ منطقيًّا، لم تخبرني أنها ذهبت معك لتأمل النجوم.
- هي دعت نفسها، ما المشكلة؟
- أنت لم تخبرني!
- لم أفعل شيئًا أخجل منه.
- لا يهمني إن كانت شابة وجميلة، يعلم الله أن الفتاة المسكينة لم يبق لها الكثير في حياتها!
فتح فمه ليقول شيئًا، لكنها سبقته.

- لا أهتم بها، بل بحياتي المهدورة.. حياتي أنا؛ في الماضي كان بداخلي شرارة حماس وقدرات وإبداع، كل هذا كان في قلبي، في روحي.. دائمًا، لكن منذ دخولك حياتي...
- ألا يمكن الانتظار حتى نصل البيت؟
استدار وقاد في الطريق المؤدي لبيتهما، الأشجار تحيط به من كل جانب وكأنها تنطبق عليه. قالت:
- هذا ما يهمك، صحيح؟ أن تكون مسيطرًا.
- أرجوكِ!
- لا تسمح لي بالرسم، لا تسمح لي بالقيادة، أرى مراهقين بعمر السادسة عشر يقودون هنا.. لكن أنا ممنوع، لأنني تزوجت رجلًا يحب أن يقيدني.
- إن كنتِ تريدين معرفة السبب، فأنا لا أحبكِ أن تقودي لأن قيادتكِ خطرة على نفسكِ وعلى الناس.
- هذه كذبة، لكنها ليست أسوأ كذبة تقولها مؤخرًا.
- لم أكن أعرف من هي في العام الماضي، كانت مجرد شخص يقف أمام باب مررت به.
- لا أتحدث عن "كاثرين"، لا أهتم لهذا الأمر.
لوحت له بالظرف مجددًا وأضافت:
- بل هذا ما يغضبني! هذا ما كسر قلبي، أنت وأصدقاؤك الجشعون.
- لقد حاول في كل مكان ومع كل معارفه، لكن...
- لا أصدق هذا، القصة التقليدية نفسها، الفنان ينحي الفنانة جانبًا بكل غرور لأنه رجل وهي امرأة.
ثم صفعت جانب وجهه بالظرف الذي كاد يصيب عينه. قفزت السيارة وتوقفت فجأة، لكنها ظلت تصفع وجهه بالظرف ثم تضرب ذراعه بقبضتها.
- لقد قتلت كل شيءٍ بداخلي، كل خلية فنية في جسدي...
قاطعها وهو يحمي وجهه بذراعه:
- هذا ليس صحيحًا!
- حطمت أحلامي شيئًا فشيئًا، ما كنت لتسمح لي بتحقيقها.
رد بخفوت وكأنه يقولها لنفسه:
- هذا ليس صحيحًا!
- بعد كل ما ضحيت به من أجلك، بعدما ساعدتك في حياتك المهنية وشجعتك لتتقدم بينما بقيت أنا مهمشة في الخلفية، ظننت أن دوري سيحين لاحقًا وأنك ستساعدني.. يا لغباء النساء! ظننت.. ظننت...
توقفت عن ضربه وبدأت تبكي، أنزل ذراعه ووضع يده على المقود وأدار المفتاح، بدأ المحرك يدور ببطء، نظر أمامه إلى الطريق الريفي المنحدر الذي يقود إلى الجراج الخاص بهما ثم السلم المؤدي لبيتهما فوق التل، أطفأ المحرك وخرج.
دار خلف السيارة ثم سار عائدًا في الطريق نفسه الذي أتيا منه للتو.
سمعها تناديه من النافذة:
- ماذا تفعل؟
ثم سمع الباب ينفتح وسمعها تخرج وتصرخ مجددًا:
- ماذا تفعل؟
توقف لكنه أبقى ظهره موجهًا لها.

- ماذا تفعل؟ عد إلى السيارة.
استدار وسار نحوها بضع خطوات وقال:
- لم أقتل شيئًا فيكِ، لأنه لم يكن هناك شيء أصلًا.
- عم تتحدث؟ عد إلى السيارة.
- لن أعود إلى السيارة، لن أعود إلى المنزل.. لقد اكتفيت.. طفح كيلي!
- الآن تتصرف بصبيانية.
- لقد اكتفيت.
- حقًّا؟
- سئمت، كل ما قلته عني بشأني قتلي لموهبكِ، لن أسمح لكِ بقوله مجددًا.
غطت أذنيها بيديها وأغمضت عينيها بقوة وقالت:
- أنا غاضبة ولن أسمع شيئًا الآن، لن أستمع إليك.
ثم فتحت عينيها وقالت:
- اركب السيارة.
- كان يمكنكِ أن تعملي شيئًا آخر.. ربما كاتبة.
- لكنني لا أريد أن أصبح كاتبة، لم تقول هذا؟ أنا فنانة، رسامة.
- كلا، لستِ كذلك!
- ماذا؟
عاد إليها وقال:
-ألم تفكري أبدًا في أن السبب في عدم حصولكِ على الفرصة هو عدم امتلاككِ للموهبة؟
- أنت فقط تحاول جرحي.. هذا ما تفعله، فهمت.. هيا، قل ما لديك.
- آسف لأنني استغرقت وقتًا طويلًا لأخبركِ بهذا.
ضحكت ضحكة ساخرة قصيرة وقالت:
- تريد أن تضربني وأنا ضعيفة.
استدار وسار بعيدًا عنها، سمعها تصرخ من خلفه:
- تضربني وأنا ضعيفة.. هذه فرصتك! جبان، جبان.. أنت جبان حقير!
واصل السير.
- لا تعد! هل تسمعني؟ لا تجرؤ على العودة.. أنا جادة. نعم، أنا جادة!
سار إلى نهاية الطريق الريفي ثم اتجه إلى الطريق الأسفلتي حيث لن يمكنه سماعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

في منتصف الليل، سارت حول المنزل تحدث نفسها فقط لكي تسمع صوتًا بشريًّا، قالت:
- إنه يحاول إخافتي الآن، لكن لا أهتم.. هو من سيصاب بالبرد، يمكن أن يصاب بالتهابٍ رئوي في هذا الوقت من السنة، الليالي تزداد برودة.. من سيرعاه حينها.. آل "كابلان"؟ لا أظن!
فكرت مع نفسها وهي ذاهبة للمطبخ لتغلي بعض الماء للشاي، "ربما أنا من سأصاب بالتهابٍ رئوي؟ كيف سيشعر عندها! يمكنني أن أخلع سترتي وأخرج بقميص نومي فقط، أذهب إلى الشاطئ وأدخل

الماء حتى عنقي ثم أخرج وأقف في نسيم البحر، وأدع الهواء البارد والملابس المبللة يخترقان جسدي حتى العظام و...".
بدأ الماء يغلي فشتت انتباهها.
- ما الهراء الطفولي الذي أقوله الآن، هو من يسير في الليل البارد وليس أنا، هكذا أنزل إلى مستواه. هذا ما أفعله.. لكن لا، أنا أفضل من هذا.
أعدت الشاي وأخرجت علبة بسكويت سادة من حقيبة، وبحثت عن شيءٍ تفرده عليه، لكن كل ما وجدته كان القليل من الزبد على جانب طبق. تذكرت الجيلي الذي في السيارة، ثم تذكرت السيارة نفسها والمفتاح الذي ظل فيها.. هل عاد؟ ماذا لو عاد وأخذها ورحل بالفعل؟ لماذا لم يخطر ببالها أن تأخذ المفتاح معها؟ يمكنه أن يكون في منتصف الطريق إلى نيويورك الآن، بعدها يمكنه الذهاب حيثما يريد، كل ما عليه فعله هو أن يعدهم برسم لوحة قريبًا وسيمطرونه بدولارات يغرق فيها. يمكنه الذهاب إلى أي مكان حتى لو خارج البلاد.. ربما فرنسا! يمكنه أن يذهب إلى فرنسا غدًا!
خرجت من المطبخ بسرعة وذهبت إلى غرفة الرسم، نظرت من النافذة لكنها لم ترَ شيئًا في الظلام، فتحت النافذة فقابلها صمتٌ تام.
جذبت الكرسي الخوص إليها وصعدت عليه بركبتيها وأحاطت عينيها بيديها كالمنظار ونظرت مجددًا، يمكنها أن ترى الآن تقريبًا. كان للكرسي عمودان في ظهره، وكانت منحنية بينهما مثل سلحفاة كبيرة تقف بين عمودي بوابة، ضحكت بسخرية وهي تقول:
- وكأنه سيذهب حقًّا إلى فرنسا!
ثم نزلت عن الكرسي وقالت:
- على الأكثر سيذهب إلى أخته، لنرى كم سيصمد مع تلك العجوز الشمطاء!
لوهلةٍ فكرت في نزول المنحدر وإحضار الجيلي من السيارة، لكنها متعبة الآن بعد تجوالها في الظلام وهي منفعلة، شعرت بحاجةٍ إلى تناول بعض الطعام قبل أن تفكر في عمل أي شيء، لا بأس بالبسكويت والزبد. إنها لا تحب الجيلي بأي حال، كان مجرد شيء آخر في قائمة التضحيات التي تحملتها في سبيل العيش في سلام، قالت:
- لا مزيد من التضحيات!
ثم رفعت قبضتها بإصرار وكررت:
- لا مزيد من التضحيات!
ثم بدأت تبكي مجددًا.
عادت إلى المطبخ ونظفت أنفها ثم أخذت الشاي والكثير من البسكويت المدهون بالزبد ووضعتهما على الطاولة، جلست ونظرت إلى الساعة المعلقة على الرف فوق حوض المطبخ.. إنها الثانية والنصف صباحًا، لن تنام الآن، لقد حاولت سابقًا، قالت لنفسها إن هذا ما يفعله الكبار بدلًا من التجوال في الخارج ليلًا، يخلعون ملابسهم ويرتدون ثياب النوم ويستلقون في السرير، بعدها يقرأون كتابًا، وعندما تثقل جفونهم يتركون الكتاب وينامون.
لكن لا توجد جملة في أي كتاب يمكن أن تقترب من النار المُسْتَعِرة في عقلها، كل كلمة قرأتها اشتعلت وتبخرت فورًا، شعرت أن بداخلها شياطين يتلوون وينشبون مخالبهم في معدتها. أنهكت نفسها لكي تعجز عن التفكير، لكنها وجدت نفسها تجلس معتدلة ومستيقظة وهي تصرخ وتئن بغيظ

مكتوم، صدمت رأسها في ظهر السرير وحاولت تمزيق الغطاء بيديها، حتى أنها عضت الوسادة قبل أن تبدأ في شد شعرها، لو رآها أحد لألبسها سترة المجانين وأخذها إلى المستشفى.
لماذا يغضب من لا شيء؟ في حين أن كل ما يفعله هو محاولة إيذائها، كان يلعب بقذارة.. هذا ما كان يفعله، يقوم بإحماء السكين قبل أن يغرزه فيها، قال إنها لا تملك أي موهبة! وكأن رجلًا مثله يمكنه قضاء كل هذه السنوات مع شخص ليس بفنان. في النهاية نفدت طاقتها.
ها هي الآن مستيقظة تمامًا وجالسة في المطبخ في منتصف الليل تأكل البسكويت جاف، شعرت وكأنها تحشي حلقها بالرمل.
وقفت وذهبت إلى الحوض وصبت لنفسها كوبًا كبيرًا من الماء ثم عادت إلى غرفة الرسم. فتحت الباب الداخلي وتركت الباب الزجاجي الخارجي مغلقًا، أسندت رأسها على الزجاج واستمعت إلى صوت البحر، أثار الصوت أعصابها، شعرت أنها تستمع إليه منذ وقتٍ طويل، نغمته ثابتة لا تتغير إلا إذا تدخلت الرياح لبعض الوقت، ثم ترجع النغمة التقليدية مجددًا، يشبه صوت البحر صوت شهيق وزفير مكتوم. قالت لنفسها: "سأصاب بالجنون لو قضيت هنا وحدي وقتًا أطول.. في هذا المكان الذي لا يحدث فيه شيء، لا شيء سوى صوت البحر، وصرخة طائر لعين تشبه صوت السوط، وكلام الناس الممل عن الجو والصيد وشؤون القرية".
كم تشتاق للعودة إلى نيويورك! حيث توجد أصوات أخرى في المساء غير أصوات الطيور والبحر.. أصوات بشر، إلى حيث تلتقي بجارة على السلم وتتبادل الحديث، أو تسير في شارع "كارمن" وتستمع إلى ثرثرة النساء بلغاتهن المختلفة، حتى الوقوف فيه تسلية، وهي تشاهد الرجال يلعبون الشطرنج في الحديقة، والفتيات وهن يجلسن على المقاعد في انتظار مغازلة من الشباب، كل شيء يدور ويتحرك ويسير ويتغير باستمرار، وليس فقط مع حركة المد، لكن أهم اختلاف هو تنوع الأصوات، بدلًا من صوت طائر مزعج لا يُظهر نفسه أبدًا وصوت أمواج رتيبة ثابتة على نغمة واحدة.
في المرة التالية التي ذهبت فيها إلى المطبخ وجدت الساعة تشير إلى الثالثة والربع، تساءلت ما هو شعور أن تجلس وتراقب مرور الزمن.. من قد يتخيل أن الدقيقة طويلة هكذا؟ نظرت إلى الرف على جانبي الساعة، وبدأت تتخيل لوحة من الأغراض الموضوعة عليه؛ الأطباق المستديرة، يد المقلاة، خطوط الضوء المنعكسة على إبريق القهوة. تحت الرف يوجد الحوض الكبير، واللمبات البيضاء التي تضيء فوقه، والأنابيب النحاسية، وبطن الحوض المستديرة التي شبهها ذات مرة بضرع بقرة من البورسلين.
عليها إضافة شيء إلى الرف.. ربما مزهرية ورد أو أصيص نبات. تحرك عقرب الساعة إلى الدقيقة التالية ونسيت أمر اللوحة، فكرت في تنظيف المكان كله؛ الرف وكل ما عليه والحوض والأرض من تحته، عندما تنتهي من كل هذا سيكون قد عاد.. لو لا، فيمكنها أن تقلق مجددًا.
سخنت الماء ووقفت على كرسي وأنزلت كل شيء عدا الساعة، لمَّعَت إبريق القهوة وغسلت وبدلت الأشياء الأخرى، ثم نظفت الحوض وكل ماسورة موصولة به، نظفت كل ما بجانبه من الغسالة حتى الشمعدان الصغير الأنيق بجانب الدولاب الصغير الذي ركبه منذ سنين، واصلت العمل وبدأت تهدأ على صوت أنفاسها وصوت قماشة التنظيف وهي تبللها وتعصرها، ورائحة المنظف. شارفت على الانتهاء، فعاودها القلق مجددًا من أنه لن يعود قبل انتهائها، لا تريده أن يعود ليجدها في المطبخ في حالة مزرية تنظف الأرض تحت الحوض بكل قوتها.

وقفت ونظرت للساعة، مضى أقل من عشرين دقيقة.. عشرون دقيقة! بعد كل هذا العمل، قالت:
- كل شيء ضدي.. كل شيء، حتى الوقت!
شعرت بدمها يغلي مجددًا وبمعدتها تضطرب وبغضبها يتصاعد وبيأسها يعود، وضعت يديها على عينيها وهزت رأسها وهي تقول:
- توقفي.. توقفي الآن! هل تسمعينني؟ اخرجي من المطبخ، افعلي شيئًا آخر.. أي شيء، فقط توقفي.
خرجت إلى "الشيزلونج" واستلقت على جانبها. بعد فترة، راودتها مشاهد في عقلها كانت مزيجًا من حلم يقظة وذكرى قديمة، محادثة وقعت منذ زمن طويل لكنها لا تذكر أين أو متى، كانت مستمعة وليست متحدثة، وهو كان موجودًا محاطًا بالمعجبين كالعادة، كلهم من الرجال، ولسببٍ ما حاولت أن تحسن التصرف وألا تقاطع الحديث وتدع الرجال يتحدثون، لا تذكر حتى لماذا فعلت ذلك، كان يرتدي بذلته الصوفية الأنيقة، لذلك لا بد أنهما كانا في نيويورك، كانوا يتحدثون عن القطارات، وعن رؤية المسافر للعالم الخارجي وهو على متن القطار، "كل شيء يبدو أفضل بكثير عندما تراه من على قطار متحرك، كل شيء يبدو نابضًا بالحياة في الثواني التي تمر فيها به".
تذكرت أنها قالت لنفسها: "بالطبع، إنه يحب أن ينظر إلى العالم من برجه العالي، يرى الناس أقزامًا والبيوت صغيرة، ويرى الحياة البسيطة التي يعيشونها".
كانت أول مرة تفكر به هكذا، ربما لهذا تذكرت الحدث في هذا الوقت بالذات.
واصل معجبوه مدحه، وتخيلته واقفًا على حافة العالم مثل منارة على لسان أرض في البحر، ينظر إلى الناس من علٍ. أما الناس فمثل طيور صغيرة طارت نحو المنارة عندما جذبها الضوء، فتحطمت وماتت وانسحقت وسقطت، لكنهم كانوا يتحدثون عن القطارات وليس المنارات، وهي كانت تحاول التصرف بلطف وعدم المقاطعة أو قول شيءٍ فظ أو غريب.. لذلك قالت ببساطة: "لقد اعتاد رؤية الأمور بمنظور عين الطائر بسبب طوله، وهو يحب ركوب القطار حقًّا".
بينما تقول ذلك، عاودها مشهد الطيور التي تحلق وترتطم بالمنارة وتسقط.
الآن وهي مستلقية على جانبها على "الشيزلونج"، راودتها هذه الصور مجددًا، ضوء المنارة يدور ببطء وثقة، بينما الطيور تواصل الاصطدام به دون تردد.
نهضت من "الشيزلونج"، قالت لنفسها إن كل لوحاته عن المنارات هي في الواقع تجسيد لنفسه.
دخلت غرفة النوم وأخرجت مذكرتها من قاع الدولاب، ثم جلست على طرف السرير وبدأت تتصفح السنين.
قرأت كلمات حب ومرارة هناك جمل آلمتها، وجمل ربتت عليها برفق، وجدت فقرات غريبة ومجنونة، وفقرات رقيقة كالزهور. أحيانًا تضحك على ذكرى تذكرتها، وأحيانًا تخجل من شيءٍ كتبته.
إنها مذكراتها التي تسميها "كتاب الحقائق"، لكن الحقيقة الوحيدة التي تراها فيها الآن هي حقيقتها المرة.. الحقيقة التي سمعتها كثيرًا من الآخرين على مدى سنوات، لكنها دائمًا رفضت تصديقها لكن ها هو كل ما قالوه عنها؛ عصبية، غيورة، أنانية. ومكتوب هنا بخط يدها كلام عن لوحاته وكأنها أطفال بالفعل.. "لقد أحببت هذه"، "كنت موجودة في ولادة هذه".
والأسلوب نفسه مجددًا عن لوحاتها لكن بتعبير أكثر كآبة، "أطفالي الموتى يتم تجاهلهم في الاستوديو"، "كان عليَّ أن أقتل هذه عند ولادتها".

ارتجفت يدها وهي تقلب الصفحات. سنة بعد سنة، مليئة بالألم والكراهية.. كيف تحملت كل هذا؟ كيف تحمَّل هو طبيعتها المتسلطة؟ إنها متسلطة إلى حد الجنون.
أغلقت الكتاب وأغمضت عينيها وقالت:
- نعم، أنا متسلطة.. وما المشكلة؟
أرادته كله لنفسها، أرادت كل نسخة من شخصيته كانت موجودة على مر سنين، حتى قبل أن تعرفه، أرادته وهو طفل صغير على حجر أمه يمد يده عبر النافذة ليلمس الضوء المتلألئ على نهر "هدسون"، وأرادته شابًّا يافعًا وبريئًا يتمشى في شوارع باريس، ودت أن تكون معه وهو يكتب رسائل ساذجة إلى والدته، وودت أن تكون معه وهو يدخل غرفة مدام "شيروي". أرادت أن تتبعه كظله وهو يجوب شوارع نيويورك بكآبة، وتعرف ما لا يعرفه هو نفسه، وترى ما يراه؛ الأرصفة، المباني، الغرف الظاهرة من النوافذ، الظلال والأنوار. أرادت أن تكون روحه.. هذا كل ما أرادته.
عرفت ذلك منذ أول مرة وقفت تصرخ عليه في الشارع في شجارهما الأول منذ سنين، وعرفته أيضًا بالأمس حين اندفع "مايكل" نحوها وعانقها، لقد صارعت رغبتها في أن تدفع الولد المسكين بعيدًا وألا تقول: "لا أريدك أن تزورني، لقد اكتفيت، أنا وزوجي نكفي بعضنا بالفعل، نحن لبعضنا لحمًا وعظمًا".
عندما رفعت نظرها لاحظت أن الليل بدأ ينسحب والنهار بدأ يحل، نهضت وارتدت معطفًا قديمًا وحذاء، ثم أخذت وسادة من على السرير وخرجت ونزلت السلم وسط ضباب الصباح الباكر، عندما وصلت إلى السيارة وضعت الوسادة على مقعد الراكب ثم انحنت وعدلت وضعية المقعد لتناسبها، ركبت وأمسكت بالمقود وقالت:
- لا تفكري في الأمر، فقط افعليه.. فقط!
ضغطت على دواسة البنزين فاهتزت السيارة قليلًا، شعرت باهتزاز السيارة وهي تقود على الطريق الريفي الوعر وكأنها تحاول دفعها من على الكرسي، أحكمت يديها على المقود، وثبتت قدمها على دواسة البنزين حتى صعدت بها شيئًا فشيئًا إلى الجراج رغم المطبات. قالت:
- الآن، أبعدي قدمكِ عن البنزين تدريجيًّا، بلطفٍ وهدوء.. جيد.
خرجت وفتحت الجراج وتنفست بعمق عدة مرات. قالت لنفسها:
- إنها سيارة وليست طائرة، ما أسوأ ما قد يحدث؟
بينما تقترب بالسيارة من الجراج المفتوح، شعرت بالإطارين الأماميين ينحرفان منها، فأغمضت عينيها وقررت القيادة دون أن تنظر، شعرت بحركة السيارة، انزلقت بها بضع ثوانٍ ثم توقفت ببطء.. أخيرًا اتكأت برأسها على المقود وضحكت.
عادت إلى البيت وقررت مواصلة حياتها وكأن شيئًا لم يكن.
دخلت الحمام وغسلت وجهها لتفيق، استعدت لارتداء ملابسها، ثم تذكرت الفستان الوردي الذي وجدته وهي تنظف القبو بالأمس. لقد اشترته من "أورلينز" في الصيف منذ بضع سنين ونسيته تمامًا، أخرجته من الدولاب ووضعته على السرير، ثم مشطت شعرها ووضعت عطرًا ومساحيق تجميل.
أشرقت الشمس وغمرت المنزل، كان النور قويًّا لدرجة أن عينيها المتعبتين لم تقويا على النظر إليه، وقفت عند باب غرفة الرسم وشاهدت الضوء وهو يهاجمها من كل نافذة وباب وواجهة زجاجية في طريقها. حاولت ألا تفكر في وضعها، "أنا مرتدية ملابسي وواقفة هنا شاهدة على شروق الشمس، وقريبًا سينتهي، ماذا أفعل بعدها؟".

لمحت كومة غير منظمة من المجلات والصحف، ستذهب إليها وتخرجها من تحت الطاولة وتبدأ بفرزها، سترمي معظمها وتحتفظ ببعضها وتقص أجزاءً من البعض الآخر.. إن لم يظهر إلى حين انتهائها، فمن الأفضل أن تفكر في مستقبلها.
كادت تفعل ما نوته لكنها شعرت بشيءٍ في الخارج.
ذهبت إلى النافذة وصعدت على الكرسي الخوص ونظرت للخارج بينما قلبها ينتفض، هدأ الضوء قليلًا على التلال الخلفية، مالت للأمام وهي تستند على حافة النافذة لتثبت نفسها، لكن لا يوجد أحد.. ليس على المنحدر وليس في الطريق الريفي، لا يوجد حتى ظل عند الجراج أو السلم.
قالت بصوتٍ عالٍ:
- من قد يظن هذا؟ لقد هجرني.. لقد رحل.
كانت على وشك النزول من على الكرسي، عندما تحرك ظل على يمينها، ها هو آتٍ من المرج الوعر جنوب المنزل، ويقترب مع كل خطوة.
عادت تنظر إلى الأمام وتظاهرت بأنها لم تره، نظرت إلى الشمس وكأنها لم تأتِ إلى النافذة لسببٍ معين، بل فقط لترى حال الجو، لمحت بطرف عينها أنه توقف وينظر لها وهي واقفة على الكرسي وتستند على النافذة.. لم تسعها الفرحة، تردد السطر الأخير من قصيدة (La Lune Blanche) في رأسها: (C'est l'heure exquise)، "إنه وقتٌ جميل". نعم، إنه وقتٌ أكثر من جميل، حتى لو كان نهارًا وليس ليلًا كما في القصيدة.
انتظرت ثانية أو اثنتين ثم ابتعدت عن النافذة وذهبت إلى المطبخ ووضعت إبريق القهوة على النار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح في "كيب كود"

احتفظ بهذا المشهد في عقله لأسبوعين؛ مشهد امرأة تستند على نافذة وتنظر للخارج بعد الشروق مباشرة، شعر أنه لم يخسر كل شيءٍ بعد.
استغرق بعض الوقت حتى وجد النافذة التي يبحث عنها، لكن اتضح أنها تنتمي لمنزل في "أورلينز"، كانت هناك طوال الوقت، في نهاية الشارع حيث ركن سيارته في اليوم الذي وجد "مايكل" علبة أقلامه على العشب.
شكل المنزل وطابعه يشبهان البيت غير المكتمل الذي رآه وهو يتمشى في أحد الأيام الهادئة – على غير المعتاد – بعد حفل سيدة "كابلان"، فكر في الضوء المنعكس على العشب وفي الأسلوب الأمثل لإظهار ذلك البريق في الرسم، تخيل شكل السماء في عقله عدة مرات، وكذلك السلالم الحجرية على جانب المنزل، حتى قرر أن أنسب ما يمكن رسمه هنا هو غابة مظلمة يتقدمها ساتر من الأشجار بريئة المظهر، لا تعرف ما يختبئ خلفها.
النافذة والشيش لم يتغير شكلهما منذ رآهما أول مرة، البيت يواجه الغرب بدلًا من الشرق، نمط الظلال يناسب الشروق وليس الغروب، شكل ألواح الشيش الخشبية أصبحت محفورة في ذهنه.
لكن أيًّا كان ما سيتغير في المشهد من الآن وحتى نقله إلى قماش الرسم، هناك شيء واحد سيظل ثابتًا، وهو أن اللوحة ستدور عن المرأة. المرأة وهي تستند على حافة النافذة بقلق وتميل للأمام، على وجهها علامات التصميم والاستعداد للأسوأ، وفي الوقت نفسه الأمل. سألته:
- متى ستنتهي اللوحة؟ ما العنوان الذي سأكتبه لها في السجل؟
- اكتبي ما تحبين.
- لكن أخشى أن أقول شيئًا يفسدها.. إنها لوحة لطيفة.
- اكتبي ما تشعرين أنه مناسب.
لن تكون أول مرة تكتب ملاحظات عن اللوحات لكي تشارك في عملية صناعة اللوحة، لا يهتم بالأمر لأنه عندها يكون قد انتهى منها.
لكن في المستقبل، كلما سأله أحد عن لوحته المفضلة، لا تأتي إلى باله إلا هذه اللوحة.
قابلا آل "كابلان" مرة أخيرة قبل عودتهما إلى نيويورك، رفعت "أوليفيا" يدها لتطلب النادل قبل أن يسألها ماذا تشرب، زوجته هادئة على غير العادة، على الرغم من أنه لاحظ اشتداد ظهرها واهتزاز ضفيرتها. سأل عن أحوال "ريتشي" وسيدة "كابلان" فقط لأنه لم يجرؤ على السؤال عن "كاثرين" أو "مايكل".
أجابته "أنيتا":
- لقد أوصلنا "ريتشي" إلى مدرسته الجديدة بالأمس، يا لها من مكان جميل!
- حقًّا؟ وكيف حاله؟
ردت "أوليفيا":
- ما زال غاضبًا من كل شيء، يشتعل غضبًا.
- سيتخطى الأمر، أتمنى فقط أن يستقر براحة في المدرسة.
قالت "أنيتا":

- بالطبع سيفعل، إنها مدرسة رائعة.
أخذت "أوليفيا" رشفة كبيرة من الكوكتيل ثم مالت للأمام واندفعت قائلة:
- كانت هناك مشكلة واضحة في الولد منذ البداية، كل الضيق الذي سببه لنا ولآل "نوفاك" ولكما بالطبع، لا يهمني ما يقوله أي شخص.. هناك مشكلة في هذا الولد، لكن هذا ليس مفاجئًا. الولد لم يُلدَغ أبدًا، حتى عندما كان الناموس كبيرًا ويكاد يتحدث إليك، كذلك قراد الخشب لم يعضه. لقد غادر سليمًا دون أي علامات، ولم يقل كلمة شكر حتى.
وقفت زوجته ورأسها يهتز قليلًا وقالت:
- سأذهب إلى الحمام، وأتمنى ألا أجدكما عندما أعود.
وقف ليسمح لها بالمرور، وبينما تمر ضغط برفق على ذراعها وقاوم رغبته الشديدة في تقبيلها، ظل واقفًا، نظرت "أوليفيا" إليه بمفاجأة في البداية ثم تمالكت نفسها ونهضت، أنهت "أنيتا" مشروبها بسرعة ووقفت. قالت "أوليفيا":
- علبة السجائر التي سرقها كانت هدية من زوجي الراحل في يوم زفافنا، لكن لا أحد يهتم بذلك.
عندما عادا إلى المنزل، رسم نموذجًا صغيرًا للوحة التي سجلاها في السجل، سألته بضعة أسئلة؛ مثل ما أول فكرة جاءت بباله عندما رأى النافذة ذلك الصباح؟ من أين جاءته فكرة النافذة ومقدمة السفينة؟ ثم سألته بضعة أسئلة تقنية تعرف إجابتها بالفعل. عندما انتهى من رسم النموذج المصغر ناولها السجل، فكتبت وصفًا للوحة بأسلوبها مع الاسم الذي اختارته.
وتلك كانت آخر محادثة عن اللوحة أو ذلك الصباح.
ما كانت لتذكر له تلك الليلة، ما كانت لتسأله أين أو كيف قضى كل تلك الساعات، سينتهي من رسمته ويجمعان أغراضهما ويعودان إلى نيويورك، سيمر باقي الخريف ويليه الشتاء والربيع، وحين يعودان إلى "كيب كود" في الصيف القادم سيكون هناك مصيفون آخرون يستأجرون بيت "كابلان".
يومًا ما سيجلسان في السينما بعد الظهر يشاهدان فيلمًا بريطانيًّا، فجأة ستلاحظ شيئًا به لم تشعر به من قبل، ستنظر إلى الشاشة وتنظر إليه ثم تنظر للشاشة مجددًا حيث يظهر طفل أشقر يجري في شوارع لندن، ساقاه سريعتان وكلامه مضحك.
عندها ستعلم أنه يفتقد الولدين، وبالأخص "مايكل"؛ فهو يشبهه كثيرًا لدرجة أن أحد مدعوين الحفل ظنه ابنه.
وفي أحد فصول الصيف بعد عدة سنوات، بينما ينتظران في طابور مكتب البريد في "تورورو"، ستأخذ نسخة من جريدة "بوسطن جلوب" تركها شخصٌ ما على رف، ستلمح بالمصادفة اسم جندي مفقود، ولوهلة ستظن أن الاسم هو "ر. كابلان"، لكنها لن تنظر مجددًا لتتأكد، بل ستترك الجريدة وتنتظر دورها لاستلام وإرسال بريدها، لن تقول شيئًا حين تعود إلى البيت، ولا حتى لنفسها.
بالنسبة لـ"مايكل"، فيومًا ما ستظن أنها رأته كمتشرد طويل ونحيل يرقد مخمورًا على العشب في حديقة "واشنطن بارك"، ومرة أخرى ستظن أنها رأته كرجل أعمال طويل ووسيم يخرج من سيارة أجرة في الحي الخامس،
لكنها لن تتأكد من هذه الاحتمالات..
الشيء الوحيد الذي ستعرفه عن يقين هو أنها ستنتظر عبر بلكون منزلها في "واشنطن سكوير" وتراه يصعد أربع وسبعين درجة من السلم المؤدي لشقتهم، وكل بضع درجات يقف ليرتاح قليلًا، ومع الوقت سيتوقف للراحة مرات أكثر، وسيستغرق صعوده وقتًا أطول، وقريبًا سيكون عدد الدرجات

مثل عدد السنين، وإن كانوا محظوظين – أو لا – سيتفوق عدد السنين على عدد الدرجات، وعندها لن يمكن صعود المزيد من الدرجات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

نذير الحرب

1

2

الزُهرة

1

2

عطارد

1

2

3

4

جالب البهجة

1

2

نساء الأنقاض

1

2

3

4

صباح في "كيب كود"